

قال تعالى : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ﴾ (هل أتاك) أى : ألم يأتك حديث ضيف إبراهيم (المكرمين) أى عند الله ودليله قوله تعالى عن الملائكة ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ وقال ابن عباس : يريد جبريل وميكائيل وإسرافيل . وقال مجاهد : مكرمين لخدمة إبراهيم إياهم بنفسه . قوله تعالى : ﴿ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام ﴾ أى : عليكم سلام . قال علماء اللغة : الرفع أقوى وأثبت من النصب فرده أفضل من التسليم ولهذا قال تعالى : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ فالخليل اختار الأفضل . وقوله : (قوم منكرون) وذلك أن الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل قدموا عليه في صورة شبان حسان عليهم مهابة عظيمة ولهذا قال : (قوم منكرون) وقوله : (فراغ إلى أهله) أى : انسل خفية في سرعة (فجاء بعجل سمين) أى : من خيار ماله ، وفي الآية الأخرى ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ أى : شوى على الرضف (فقربه إليهم) أى : أدناه منهم (قال ألا تأكلون) تلتطف في العبارة وعرض حسن . قال ابن كثير : ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل . ثم قال وهذه الآية نظمت آداب الضيافة فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة ولم يمتن عليهم أولاً فقال : نأتىكم بطعام بل جاء به بسرعة وخفاء ، وأتى بأفضل ما وجد من ماله وهو عجل فتى سمين مشوى فقربه إليهم ولم يضعه وقال اقتربوا بل وضعه بين أيديهم ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم بل قال : (ألا تأكلون ؟) على سبيل العرض والتلطف كما يقول القائل : اليوم إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فأفعل .

قوله تعالى : ﴿ فأوجس منهم خيفة ﴾ أى : فأعرضوا عن طعامه ولم يأكلوا فأضر في نفسه الخوف منهم وقد جاء في سورة هود : ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامراته قائمة فضحكت ﴾^(١) أى : استبشرت بهلاكهم لتمردهم وعتوهم على الله تعالى فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب . وهنا قال تعالى : ﴿ فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ، فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقال عجوز عقيم ﴾ والبشارة له هى بشارة لها لأن الولد منها فكل منهما بشر به ولا تعارض بين الآيتين وقوله : ﴿ فأقبلت امرأته في صرة ﴾ أى في صرخة عظيمة قال ابن عباس وهى قولها : ﴿ قالت يا ويلتا ألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشيء عجيب ﴾ وقوله : ﴿ فصكت وجهها ﴾ أى : ضربت بيدها على جبينها أى تعجباً كما تتعجب النساء من الأمر الغريب .

﴿ وقالت عجوز عقيم ﴾ أى : كيف ألد وأنا عجوز وقد كنت فى حال الصبا عقيماً لا أحبل ؟ ﴿ قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ﴾ أى : عليم بما تستحقون من الكرامة ، حكيم فى أقواله وأفعاله ، وفى الآية الأخرى : ﴿ قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ . (١)

قوله تعالى : ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ، قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ، لنرسل عليهم حجارة من طين ، مسومة عند ربك للمسرفين ، فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ .

قال الله تعالى مخبراً عن إبراهيم عليه — الصلاة والسلام : — ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ﴾ أى : ما شأنكم وفيم جئتم ؟ ﴿ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ يعنون قوم لوط ﴿ لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة ﴾ أى : معلمة ﴿ عند ربك للمسرفين ﴾ أى : مكتتبه عنده بأسمائهم كل حجر عليه اسم صاحبه وفى سورة هود : ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب . يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيتهم عذاب غير مردود ﴾ (٢) وفى سورة العنكبوت : ﴿ قال إن فيها لوطاً ، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ (٣) وقال تعالى ههنا : ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ﴾ وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته ﴿ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ أى : فما وجدنا فيها غير أهل بيت مسلمين يعنى لوطاً وبنتيه .

قوله تعالى : ﴿ وتركنا فيها آية ﴾ أى : عبرة وعلامة لأهل ذلك الزمان ومن بعدهم كما قال تعالى : ﴿ ولقد تركنا فيها آية بينة لقوم يعقلون ﴾ (٤) وقوله : ﴿ للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ لأنهم هم المتفعون بالذكرى — كما قال تعالى : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما تؤخره إلا لأجل معدود يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن

١ — سورة هود الآية : ٧٣

٢ — سورة هود الآيات : ٧٤ — ٧٦

٣ — سورة العنكبوت الآية : ٣٢

٤ — سورة العنكبوت الآية : ٣٥

ربك فعال لما يريد ، وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ^(١)

قوله تعالى : ﴿ وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسultan مبین ، فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون ، فأخذناه وجنوده فنبذناهم في الیم وهو ملیم ﴾ أى : وتركنا أيضا في قصة موسى مع فرعون وقومه آية : ﴿ إذ أرسلناه إلى فرعون بسultan مبین ﴾ أى : بدليل باهر وحجة قاطعة ﴿ فتولى بركنه ﴾ أى : فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق المبين استكبارا وعنادا . ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في الیم ﴾ فكان عاقبة أمرهم خسرًا ، ألقاهم ﴿ في الیم ﴾ أى البحر ﴿ وهو ملیم ﴾ أى : وهو ملوم كافر جاحد فاجر معاند .

قوله تعالى : ﴿ وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ أى : وتركنا في عاد آية لمن تأمل واعتبر وتفكر وازدجر ﴿ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ وهى التى لا تلقح سحابا ولا شجرا ، ولا رحمة فيها ولا بركة ولا منفعة بل هى كما قال المولى : ﴿ ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ وقوله : ﴿ ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ أى : كالشيء الهشيم الهالك البالى وقال السدى : كالتراب المدقوق

وقوله تعالى : ﴿ وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ، فتعوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين ﴾ أى : وفي ثمود أيضا عبرة وآية حين قيل لهم عيشوا متمتعين بالدنيا ﴿ حتى حين ﴾ أى : إلى وقت الهلاك وهو ثلاثة أيام كما جاء في سورة هود قال لهم النبى صالح : ﴿ ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ، فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ ، إن ربك هو القوى العزيز ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾ ^(٢) وقيل : معنى ﴿ تمتعوا حتى حين ﴾ أى : أسلموا وتمتعوا إلى وقت فراغ آجالكم قال ابن كثير : والظاهر أن هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون ﴾ ^(٣) وهكذا قال ههنا : ﴿ وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين فتعوا عن أمر ربهم ﴾ أى : خالفوا أمر الله فعقروا الناقة ﴿ فأخذتهم الصاعقة ﴾ أى : صيحة العذاب ﴿ فما استطاعوا من قيام ﴾ أى : من نهوض . قال

١ — سورة هود الآيات : ١٠١ — ١٠٨

٢ — سورة هود الآيات : ٦٤ — ٦٧

٣ — سورة فصلت الآية : ١٧

ابن عباس : أى : ذهبت أجسامهم وبقيت أرواحهم فى العذاب . ﴿ وما كانوا منتصرين ﴾ أى : ولا يقدرّون على أن ينتصروا مما هم فيه قال تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تنبيء ﴾ (١).

وقوله تعالى : ﴿ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ أى : وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿ إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ .

من آيات القدرة الباهرة

ورسالة الجن والإنس

قال تعالى :

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَيِّدُونَ ﴿٥٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٦١﴾ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّونٌ ﴿٦٢﴾ اتَّوَصَّوْا بِهِ ءَبَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٦٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٦٤﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ اللَّهَ كَرِىُّ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٦٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٦٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٦٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٦٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٧٠﴾

معانى المفردات

(بنيناها بأيد) قال ابن عباس وغيره : أى : بقوة .
(إنا لموسعون) أى : لذو سعة بخلقها وخلق غيرها ، من الوسع بمعنى الطاقة .

- (الأرض فرشناها) مهدناها وبسطناها كالفرش للاستقرار عليها .
 (خلقنا زوجين) صنفين ونوعين مختلفين .
 (ففروا إلى الله) فاهربوا من عقابه إلى ثوابه
 (طاغون) متجاوزون الحد في الكفر .
 (ليعبدون) ليخضعوا لى ويتذلّلوا .
 (ذنوباً) أى : نصيباً من العذاب .
 (فويل) هلاك أو شدة عذاب .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أثبت سبحانه وأقام الأدلة على أنه كائن لا محالة — أرشد إلى وحدانيته سبحانه وعظيم قدرته ، فبين أنه خلق السموات بغير عمد ، وبسط الأرض ودحاها ، لتصلح لسكنى الإنسان والحيوان ، وخلق من كل نوع من أنواع الحيوان زوجين ذكراً وأنثى ليستمر بقاء الأنواع إلى أن يشاء الله فناء العالم ثم أمرهم أن يعتصموا بحبل الله وأنذرهم شديد عقابه ، وحذرهم أن يجعلوا مع الله نداً وشريكاً . ثم أردف هذا فذكر أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليأمرهم ويكلفهم بعبادته ، لا لاحتياجه إليهم فى تحصيل رزق ولا إحضار طعام ، فالله هو الرزاق ذو القوة ثم ختم السورة بتهديد أهل مكة بأنه سيصيبهم من العذاب مثل ما أصاب من قبلهم من الأمم السالفة ، فأولى لهم ألا يستعجلوه بقولهم : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » فقد حقت عليهم كلمة ربك فى اليوم الذى يوعدون ، وسيقع عليهم العذاب ما لا مرد له ، ولا يجدون له رافعاً .

قوله تعالى : ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم الماهدون ﴾

قال العلامة ابن كثير : يقول تعالى منبهاً على خلق العالم العلوى والسفلى : ﴿ والسماء بنيناها ﴾ أى : جعلناها سقفاً محفوظاً رفيعاً ﴿ بأيد ﴾ أى : بقوة قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثورى وغير واحد : ﴿ وإنا لموسعون ﴾ أى : قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد حتى استقلت كما هى . ﴿ والأرض فرشناها ﴾ أى : جعلنا فراشا للمخلوقات كقوله تعالى : ﴿ فنعم الماهدون ﴾ أى : وجعلناها مهداً لأهلها فنعم الماهدون نحن لهم والمعنى فى الجمع للتعظيم .

قوله تعالى : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ أى : صنفين ونوعين مختلفين قال مجاهد : يعنى الذكر والأنثى والسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والنور والظلام ، والسهل والجبل ، والجن والإنس ، والخير والشر ، والبكرة والعشى ، وكالأشياء المختلفة الألوان من الطعوم والأرايح والأصوات . أى : جعلنا هذا كهذا دلالة على قدرتنا ، ومن قدر هذا فليقدر على الإعادة . وقيل : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ لتعلموا أن خالق الأزواج فرد فلا يقدر فى صفته حركة ولا سكون ، ولا ضياء ولا ظلام ، ولا قعود ولا قيام ، ولا ابتداء ولا انتهاء ، إن هو عز وجل ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ لذا قال تعالى : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أى : لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له ف ﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ . قوله تعالى : ﴿ ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين ﴾

قال ابن عباس : فروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم .
وقال الحسين بن الفضيل : احترزوا من كل شيء دون الله فمن قرأ إلى غيره لم يمتنع منه .

وقال أبو بكر الوراق : فروا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن . وقوله : ﴿ إني لكم منه نذير مبين ﴾ أى : أنذركم . عقابه على الكفر والمعصية . وقد كان من دعاء الحبيب المصطفى — صلوات ربي وسلامه عليه — « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك ، سبحانك لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »^(١)

وكان ﷺ إذا أوى إلى فراشه نام على شقه الأيمن وقال « اللهم إني أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك ، ولا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك ، امنت بكتابك الذى أنزلت وبنبيك الذى أرسلت »^(٢) وقوله تعالى : ﴿ ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إني لكم منه نذير مبين ﴾ قال ابن عباس : أى : أنذركم بأسه وسيفه إن أشركتم بالله .

١ — ابن ماجه — كتاب الدعاء — باب ما تعوذ منه رسول الله ﷺ — ١٢٦٢/٢ رقم ٣٨٤١ والترمذى — كتاب الدعوات — باب رقم ٧٦ ح ٥ صفحة ٥٢٤ حديث رقم ٣٤٩٣ وقال الترمذى : حديث حسن
٢ — اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب ما يقول عند النوم وأخذ المعنجم رقم ١٧٣٨

حاجة العبد إلى أن يعبد الله أعظم

من حاجة الجسد إلى روحه

قال ابن القيم رحمه الله : « اعلم أن حاجة العبد إلى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً في محبته ولا في خوفه ولا في رجائه ولا في التوكل عليه ولا في العمل له ولا في الحلف به ولا في النذر له ولا في الخضوع له ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب أعظم من حاجة الجسد إلى روحه والعين إلى نورها ، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به ، فإن حقيقة العبد روحه وقلبه ولا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو ، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره وهي كادحة إليه كدحاً فملاقية ، ولا بد لها من لقائه ، ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له ورضاه وإكرامه لها ، ولو حصل للعبد من اللذات والسرور بغير الله ما حصل لم يدم له ذلك ، بل ينتقل من نوع إلى نوع ومن شخص إلى شخص ويتنعم بهذا في وقت ثم يعذب ولا بد في وقت آخر ، وكثيراً ما يكون ذلك الذي يتنعم به ويلتذ به غير منعم له ولا ملذ بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك ، وإنما يحصل له بملاسته من جنس ما يحصل للجرب من لذة الأظفار التي تحكه فهي تدمى الجلد وتخرقه وتزيد في ضرره ، وهو يؤثر ذلك لما في حكمها من اللذة ، وهكذا ما يتعذب به القلب من محبة غير الله هو عذاب عليه ومضرة وألم في الحقيقة لا تزيد لذته على لذة حك الجرب ، والعاقل يوازن بين الأمرين ويؤثر أرجحهما وأنفعهما والله الموفق المعين ، وله الحجة البالغة كما له النعمة السابغة ، والمقصود أن إله العبد الذي لا بد له منه في كل حالة وكل دقيقة وكل طرفة عين هو الإله الحق الذي كل ما سواه باطل ، والذي إنما كان فهو معه ، وضرورته وحاجته إليه لا تشبهها ضرورة ولا حاجة بل هي فوق كل ضرورة وأعظم من كل حاجة ، ولهذا قال إمام الحنفاء : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ . والله أعلم .. أ هـ .

قوله تعالى : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون فتول عنهم فما أنت بملوم وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ يقول تعالى مسلماً لنيبه — ﷺ — : — وكما قال لك هؤلاء المشركون قال المكذبون الأولون لرسولهم : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾ كما قال سبحانه : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ... الآية ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أتواصوا به ؟ ﴾ أى : أوصى بعضهم بعضاً بهذه المقالة ؟ ﴿ بل هم قوم طاغون ﴾ أى : ولكن هم قوم طغاة تشابهت قلوبهم فقال متأخرهم كما قال متقدمهم : ﴿ فتول عنهم ﴾ أى : فأعرض عن هؤلاء المشركين ﴿ فما أنت بملوم ﴾ يعنى فما نلومك على ذلك . ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ أى : إنما ينتفع بها القلوب المؤمنة كما قال سبحانه : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان

له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴿ وكما قال جل في علاه : ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم وأقاموا الصلاة ﴾ وكما قال سبحانه : ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ .

قال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ أى : إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم . وقال ابن عباس — رضى الله عنهما — : ﴿ إلا ليعبدون ﴾ أى : إلا ليقروا بعبادتي طوعاً أو كرها ، وهذا اختيار ابن جرير . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾^(١)

وقوله تعالى : ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ .

قال ابن عباس وأبو الجوزاء : أى : ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا أن يطعموها . وقيل : المعنى ما أريد أن يرزقوا عبادى ولا أن يطعموهم ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ أى : الشديد القوى . ومعنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ، ومن عصاه عذبه أشد العذاب ، وأخبر سبحانه أنه غير محتاج إليهم بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم فهو خالقهم ورازقهم قال الإمام أحمد عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ — يعنى قال الله تعالى — « يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك »^(٢)

قال ابن كثير : وقد ورد في بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى « ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبنى تجدنى ، فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء »^(٣)

١ — سورة المؤمنون الآيات : ١١٥ — ١١٧

٢ — سنن الترمذى — كتاب صفة القيامة باب ٣٠ ٦٤٢/٤ رقم ٢٤٦٦ وقال حديث حسن غريب

٣ — انظر تفسير ابن كثير — تفسير سورة الزاريات ٤٠٢/٧ آية ٥٨

بحث في العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

العبادة : هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة :
فالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وصدق الحديث . وأداء الأمانة وبر الوالدين ، وصلة
الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين ، والإحسان
للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم ، والدعاء ، والذكر ، والقراءة ،
وأمثال ذلك من العبادة ، وكذلك حب الله ورسوله وخشيته الله ، والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له ،
والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من
عذابه ، وأمثال ذلك ، هي من العبادة لله .

وذلك : أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له ، والمرضية له ، التي خلق الخلق لها . كما قال تعالى :
﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ﴿ وبها أرسل جميع الرسل ، كما قال نوح لقومه : ﴿ اعبدوا
الله ما لكم من إله غيره ﴾ ^(١) وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم . وقال تعالى :
﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ، ومنهم من
حقت عليه الضلالة ﴾ ^(٢) وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله
إلا أنا فاعبدون ﴾ ^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ ^(٤) ، كما قال في الآية
الأخرى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ، وإن هذه أمتكم
أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ ^(٥) وجعل ذلك لازماً لرسوله إلى الموت كما قال : ﴿ واعبد ربك
حتى يأتيك اليقين ﴾ ^(٦)

١ - سورة الأعراف الآية : ٥٩

٢ - سورة النحل الآية : ٣٦

٣ - سورة الأنبياء الآية : ٢٥

٤ - سورة الأنبياء الآية : ٩٢

٥ - سورة المؤمنون الآيتان : ٥١ ، ٥٢

٦ - سورة الحجر الآية : ٩٩

وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه فقال تعالى : ﴿ وله من في السموات والأرض ، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾^(١)

وقال تعالى : ﴿ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾^(٢).

وذم المستكبرين عنها بقوله : ﴿ وقال ربكم ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾^(٣).

ونعت صفوة خلقه بالعبودية فقال تعالى : ﴿ عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ﴾^(٤) وقال : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ﴾^(٥) الآيات ولما قال الشيطان : ﴿ رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾^(٦) قال الله تعالى : ﴿ هذا صراط على مستقيم إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾^(٧).

وقال في وصف الملائكة بذلك : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾^(٨) وقال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، لقد جئتم شيئا إذا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴾^(٩) وقال النبي عن المسيح الذي ادعت فيه الإلهية والنبوة : ﴿ إن النبي — ﷺ — في الحديث الصحيح « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله »^(١٠)

(والإطراء : الزيادة في المدح والتغالي فيه)

٧ — سورة الحجر الآيات : ٤١ ، ٤٢
٨ — سورة الأنبياء الآيات : ٢٦ — ٢٨
٩ — سورة مريم الآيات — ٨٨ — ٩٥
١٠ — مسند أحمد ١ / ٥٥

١ — سورة الأنبياء الآيات : ١٩ ، ٢٠
٢ — سورة الأعراف الآية : ٢٠٦
٣ — سورة غافر الآية : ٦٠
٤ — سورة الإنسان الآية : ٦
٥ — سورة الفرقان الآية : ٦٣
٦ — سورة الحجر الآيات : ٣٩ ، ٤٠

وقد نعت الله بالعبودية في أكمل أحواله . فقال في الإسراء : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً ﴾^(١) وقال في الإيحاء : ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾^(٢) وقال في الدعوة : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾^(٣) . وقال في التحدى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾^(٤)

فالدین كله داخل فى العبادة . وقد ثبت فى الصحيح أن جبریل لما جاء إلى النبی ﷺ — فى صورة أعرابی ، وسأله عنه الإسلام قال : « أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً ، قال : فما الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله والبعث بعد الموت ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : فما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك — ثم قال فى آخر الحديث : « هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم »^(٥) فجعل هذا كله من الدين . [العبودية مدارها على قاعدتين هما أصلهما : حب كامل ، وذل تام] والدين يتضمن معنى الخضوع والذل ، يقال : دنته ، فدان : أى : أذلتته فذل . ويقال : يدين الله ، ويدين الله ، أى يعبد الله ويطيعه ، ويخضع له ..

فدين الله : عبادته وطاعته والخضوع له .

والعبادة أصل معناها : الذل أيضاً . يقال طريق معبد . إذا كان مذلاً وقد وطأته الأقدام .

لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب ، فهي تتضمن غاية الذل لله ، بغاية المحبة له ...

ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له ، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له ، لم يكن عابداً له ، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه . ولهذا لا يكفي أحدهما فى عبادة الله تعالى . بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء ، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء ، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله فتعظيمه باطل قال تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم

١ — سورة الإسراء الآية : ١

٢ — سورة النجم الآية : ١٠

٣ — سورة الجن الآية : ١٩

٤ — سورة البقرة الآية : ٢٣

٥ — صحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ١ / ٣٦ رقم ٨

وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴿١﴾

فجنس المحبة تكون لله ولرسوله ، كالطاعة . فإن الطاعة لله ولرسوله ، والإرضاء لله ولرسوله ﴿٢﴾ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴿٣﴾ ، والإيتاء لله ولرسوله ﴿٤﴾ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ﴿٥﴾ وأما العبادة وما يناسبها من التوكل والخوف ، ونحو ذلك . فلا يكون إلا لله وحده كما قال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا : بأنا مسلمون ﴾ ﴿٦﴾

وتحرير ذلك : أن « العبد » يراد به المعبود الذى عبده الله ، فذلله ودبره وصرفه ، وبهذا الاعتبار ؛ فال مخلوقون كلهم عباد الله : الأبرار منهم والفجار ، والمؤمنون والكفار ، وأهل الجنة وأهل النار . اذهب ربهم كلهم ومليكهم ، لا يخرجون عن مشيئته وقدرته وكلماته التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر . فما شاء كان وإن لم يشاءوا ، وما شاءوا إن لم يشأ — لم يكن . كما قال تعالى : ﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ﴾ ﴿٧﴾ .

فهو سبحانه رب العالمين ، وخالقهم ورازقهم ، ومحييهم ومميتهم ومقلب قلوبهم ، ومصرف أمورهم ، لا رب لهم غيره ، ولا مالك لهم سواه ، ولا خالق لكل شيء ومدبره ومسخره إلا هو ، سواء اعترفوا بذلك أو انكروه وسواء علموا ذلك أو جهلوه ، لكن أهل الإيمان منهم عرفوا ذلك وآمنوا به وشكروه بعبودية الإلهية ؛ رغباً ورهباً ، بخلاف من كان جاهلاً بذلك أو جاحداً له ، مستكبراً على ربه ، لا يقر ولا يخضع له ، مع علمه بأن الله ربه وخالقه فالمعرفة بالحق إذا كانت مع الاستكبار عن قبوله والجدد له ، كان عذاباً على صاحبه كما قال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها بأنفسهم ظلماً وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ ﴿٨﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ ﴿٩﴾ فإن اعترف العبد

١ - سورة التوبة الآية : ٢٤

٢ - سورة التوبة الآية : ٦٢

٣ - سورة التوبة الآية : ٥٩

٤ - سورة آل عمران الآية : ٦٤

٥ - سورة آل عمران الآية : ٨٣

٦ - سورة النمل الآية : ١٤

٧ - سورة الأنعام : ٣٣

أن الله ربه وخالقه وأنه مفتقر إليه محتاج إليه ، عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله . وهذا العبد يسأل ربه ، ويتضرع إليه ويتوكل عليه . لكن قد يطيع أمره وقد يعصه ، وقد يعبد مع ذلك وقد يعبد الشيطان والأصنام . ومثل هذه العبودية لا تفرق بين أهل الجنة وأهل النار ، ولا يصير بها الرجل مؤمناً . كما قال تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾^(١) . فإن المشركين كانوا يقرون أن الله خالقهم ورازقهم وهم يعبدون غيره . قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾^(٢) وقال تعالى : ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله قل أفلا تذكرون ؟ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله قل فأن تسحرون ﴾^(٣)

وكثير ممن يتكلم في الحقيقة فيشدها ، لا يشهد إلا هذه الحقيقة . وهي الحقيقة الكونية التي يشترك فيها وفي شهودها وفي معرفتها المؤمن والكافر والبر والفاجر بل إبليس معترف بهذه الحقيقة وأهل النار .

أقال تعالى حاكياً عن إبليس : ﴿ رب فأنظرني إلى يوم يبعثون ﴾^(٤) وقال له : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾^(٥) وأمثال هذا من الخطاب الذي يقر فيه بأن الله ربه وخالقه وكذلك أهل النار قالوا : ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ﴾^(٦) وقال تعالى عنهم : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ، قال : أليس هذا بالحق ؟ قالوا : بلى وربنا ﴾^(٧) فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها ، ولم يقم بما أمر الله به من الحقيقة الدينية التي هي عبادته المتعلقة بألوهيته وطاعة أمره وأمر رسوله ، كان من جنس إبليس ومن أهل النار ، فإن ظن مع ذلك أنه من خواص أولياء الله وأهل المعرفة والتحقيق ، الذين يسقط عنهم الأمر والنهي الشرعيان ، كان من شر أهل الكفر والإلحاد ، ومن ظن أن الخضر وغيره يسقط عنهم الأمر لمشاهدة الإرادة ونحو ذلك . كان قوله هذا من شر أقوال الكافرين بالله ورسوله ، حتى يدخل في النوع الثاني من معنى العبد ، وهو العبد بمعنى العابد فيكون عابداً لله ، لا يعبد إلا إياه ، فيطيع أمره وأمر رسوله ، ويوالي أولياءه المؤمنين المتقين ، ويعادى أعداءه الكافرين والفاسقين .

١ - سورة يوسف الآية : ١٠٦

٢ - سورة الزمر الآية : ٢٨

٣ - سورة المؤمنون الآيات : ٨٤ - ٨٩

٤ - سورة ص الآية ٧٩

٥ - سورة ص الآية ٧٩

٦ - سورة المؤمنون الآية : ١٠٨

٧ - سورة الانعام الآية : ٣٠

وهذه العبادة متعلقة بألوهيته ، ولهذا كان عنوان التوحيد « لا إله إلا الله » بخلاف من يقر بربوبيته ولا يعبد ، أو يعبد معها إلهاً آخر . فالإله هو الذى يأله القلب بكمال الحب والتعظيم ، والإجلال والإكرام ، والخوف والرجاء ، ونحو ذلك .

ويقول شيخ الإسلام : ومن عبادته وطاعته ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب الإمكان ، والجهاد فى سبيله لأهل الكفر والنفاق ، فتجتهدون فى إقامة دينه مستعينين به ، مزيلين بذلك ، ما قدر من السيئات ، دافعين ما قد يخاف من آثار ذلك ،

فهذا حال المؤمنين بالله ورسوله العابدين لله . وكل ذلك من العبادة .. ثم يقول : فالخالف لما بعث الله به رسوله من عبادته وحده وطاعته رسوله لا يكون متبعاً لدين شرعة الله أبداً ، كما قال تعالى : ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين ﴾ (١) ...

والعبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط ونحو ذلك من الأسماء : مقصودها واحد ، ولها أصلان .

أحدهما : أن لا يعبد إلا الله .

والثانى : أن لا يعبد إلا بما أمر وشرع ، لا يعبد به غير ذلك من الأهواء والظنون والبدع . قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ بلى ، من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (٣)

وقال تعالى : ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ (٤)

١ - سورة الجاثية الآيتان : ١٨ ، ١٩

٢ - سورة الكهف الآية : ١١٠

٣ - سورة البقرة الآية : ١١٢

٤ - سورة النساء الآية : ١٢٥

فالعَمَلُ الصَّالِحُ : هو الإحسان وهو فعل الحسنات ، والحسنات : هي ما أحبه الله ورسوله ، وهو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب . فما كان من البدع في الدين التي ليست في الكتاب ، ولا في صحيح السنة فإنها وإن قالها من قاله ، وعمل بها من عمل : ليست مشروعة . فإن الله لا يحبها ولا رسوله ، فلا تكون من الحسنات ولا من العمل الصالح . كما أن من يعمل ما لا يجوز ، كالفواحش والظلم : ليس من الحسنات ولا من العمل الصالح .

وأما قوله : ﴿ ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ ، وقوله : ﴿ أسلم وجهه لله ﴾ فهو إخلاص الدين لله وحده ، وكان عمر بن الخطاب يقول : « اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً » .

وقال الفضيل بن عياض في قوله تعالى : ﴿ ليلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ قال : أخلصه وأصوبه . قالوا : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً ، والخالص أن يكون لله ، والصواب : أن يكون على السنة ..

إذا تبين هذا فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله ، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ...

ثم يقول شيخ الإسلام : إذا تبين ذلك . فمعلوم أن الناس يتفاضلون في هذا الباب تفاضلاً عظيماً وهو تفاضلهم في حقيقة الإيمان . وهم ينقسمون فيه إلى عام وخاص ، ولهذا كانت إلهية الرب لهم فيها عموم وخصوص . ولهذا كان الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل . وفي الصحيح عن النبي — ﷺ — أنه قال : « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخمصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، إن أعطى رضى ، وإن منع سخط »^(١) كما قال تعالى ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ﴾^(٢) فرضاهم لغير الله ، وسخطهم لغير الله ، وهكذا حال من كان متعلقاً برئاسة أو بصورة ، ونحو ذلك من أهواء نفسه ، إن حصل له رضى ، وإن لم يحصل له سخط ، فهذا عبد ما يهواه من ذلك ، وهو

١ — صحيح البخارى — كتاب الجهاد والسير — باب الحراسة في الغزو في سبيل الله ٤ / ٤١ وابن ماجه — كتاب الزهد — باب في المكثرين ٢ / ١٣٨٦ رقم ٤١٣٦

٢ — سورة التوبة الآية : ٥٨

رقيق له . إذا الرق والعبودية في الحقيقة . هو رق القلب وعبوديته . فما استرق القلب واستعبده .
فالقلب عبده ولهذا يقال :

العبد حر ما قنع والحر عبد ما طمع

وقال القائل :

أطلت مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعت لكنت حراً

قال الخليل - ﷺ - قال تعالى : (فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون)^(١)

فالعبد لا بد له من رزق ، وهو محتاج إلى ذلك . فإذا طلب رزقه من الله صار عبداً لله ، فقيراً إليه ، وإذا طلبه من مخلوق صار عبداً لذلك المخلوق فقيراً إليه ، ولهذا كانت مسألة المخلوق محرمة في الأهل وإنما أبيحت للضرورة . وفي النهي عنها أحاديث كثيرة في الصحاح والسنن والمسانيد ، كقوله - ﷺ - : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلاقى الله وليس في وجهه مُزعة لحم »^(٢) (المزعة : القطعة الصغيرة)^(٣)

وقوله : « لا تحل المسألة إلا لذي غُرم مقطع ، أو دم مدجع ، أو فقر مدقع »^(٤) وهذا المعنى في الصحيح .

وقال في الحديث « من يستغنى يغنه الله ، ومن يستعفف يعفه الله ومن تصبر يصبه الله ، وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر »^(٥) .

١ - سورة العنكبوت الآية : ١٧

٢ - صحيح مسلم - كتاب الزكاة - باب كراهة المسألة للناس ٢ / ٧٢٠ رقم ١٠٤٠

٣ - ابن ماجه - كتاب الزكاة - باب كراهية المسألة ١ / ٥٨٩ رقم ١٨٤٠ وأبو داود - كتاب الزكاة - باب من يعطى من الصدقة وجد الغنى ٢ / ٢٧٧ رقم ١٦٢٦ والترمذي - كتاب الزكاة - باب من تحل له الزكاة رقم ٦٥٠ وقال : حديث حسن

٤ - سنن الترمذي - كتاب الزكاة - باب ما جاء من لا تحل له الصدقة ٢ / ٨١ رقم ٦٤٧ والطبراني في المعجم الكبير ٤ /

١٧ رقم ٣٥٠٤ مع تقديم وتأخير

٥ - سنن الترمذي - كتاب البر والصلة - باب ما جاء في الصبر ٤ / ٣٧٣ رقم ٢٠٢٤

وأوصى خواص أصحابه « أن لا يسألوا الناس شيئاً »
 وفي المسند أن أبا بكر كان يسقط السوط من يده ، فلا يقول لأحد : ناولني إياه » ويقول . :
 « إن حبيبي أمرني أن لا أسأل الناس شيئاً »^(١)

وفي صحيح مسلم وغيره عن عوف بن مالك أن النبي — ﷺ — « بايعه في طائفة ، وأسر إليهم كلمة خفيفة : أن لا تسألوا الناس شيئاً ، فكان بعض أولئك النفر يسقط السوط من يد أحدهم ولا يقول لأحد ناولني إياه »^(٢)

وقد دلت النصوص على الأمر بمسألة الخالق والنهي عن مسألة المخلوق في غير موضع . كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾^(٣) وقول النبي — ﷺ — لابن عباس « اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله » .

ومنه قول الجليل (فابتغوا عند الله الرزق) ، ولم يقل : فابتغوا الرزق عند الله ، لأن تقديم الظرف يشعر بالاختصاص والحصر ، كأنه قال لا تبتغوا الرزق إلا عند الله ، وقد قال تعالى ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾^(٤)

والإنسان لا بد له من حصول ما يحتاج إليه من الرزق ونحوه . ودفع ما يضره ، وكلا الأمرين شرع له أن يكون دعاؤه لله ، فلا يسأل رزقه إلا من الله ، ولا يشتكي إلا إليه ، كما قال يعقوب عليه السلام : ﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾^(٥)

والله تعالى ذكر في القرآن الهجر الجميل والصفح الجميل ، والصبر الجميل . وقد قيل : إن الهجر الجميل : هو هجر بلا أذى . والصفح الجميل صفح بلا معاتبة ، والصبر الجميل . صبر بغير شكوى

١ — مسند أحمد — مسند أبي بكر ١ / ١٨٠ رقم ٦٥ . وقال الشيخ شاكر : إسناده ضعيف لانقطاعه لأن ابن أبي مليكة تابعي ثقة لم يدرك أبا بكر .

٢ — صحيح مسلم — كتاب الزكاة — باب كراهة المسألة للناس ٢ / ٧٢٠ رقم ١٠٤٣

٣ — سورة الشرح الآيتان : ٧ ، ٨

٤ — سورة النساء الآية : ٣٢

٥ — سورة يوسف الآية : ٨٦

إلى المخلوق . ولهذا قرىء على أحمد بن حنبل في مرضه : أن طاووساً كان يكره أن ين المريض ويقول إنه شكوى . فما أن أحمد حتى مات .

وأما الشكوى إلى الخالق فلا تنافى في الضبر الجميل فإن يعقوب قال : (فصبر جميل) وقال : (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله) .

ومن دعاء موسى : « اللهم لك الحمد وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، وبك المستغاث ، وعليك التكال ، ولا حول ولا قوة إلا بك » وفي الدعاء الذي دعا به النبي ﷺ — لما فعل به أهل الطائف ما فعلوا « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي : وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت ربى ورب المستضعفين ، اللهم إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، غير أن عافيتك هى أوسع لى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به الظلمات ، وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة . أن ينزل بى سخطك ، أو يحل على غضبك : لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله » (١) .

وكلما قوى طمع العبد فى فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته قويت عبوديته له ، وحرية مما سواه ، فكما أن طمعه فى المخلوق يوجب عبوديته له ، فبأسه منه يوجب غنى قلبه عنه ، كما قيل استغنى عن شئت تكن نظيره ، وتفضل على من شئت تكن أميره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره » .

فكذلك طمع العبد فى ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له ، وإعراض قلبه عن الطلب من الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله . لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق ، بحيث يكون قلبه معتمداً على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه ، وإما على أهله وأصدقائه وإما على أمواله وذخائره ، وإما على ساداته وكبرائه ، كما لك أو ملكه ، وشيخه ومخدومه وغيرهم ، فمن هو قد مات أو يموت .

قال تعالى : ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خيراً ﴾ (٢)

١ — مجمع الزوائد للبيهقى : كتاب المغازى والسير — باب خروج النبى ﷺ — إلى الطائف ٦ / ٣٥ والقرطبى ١٦ / ٢١١

٢ — سورة الفرقان الآية : ٥٨

وكل من علق قلبه بالمخلوقات أن ينصروه أو يرزقوه ، أو أن يهدوه ، خضع قلبه لهم ، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك . وإن كان في الظاهر أميراً لهم ، مديراً لأموارهم ، متصرفاً بهم . فالعقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر .

فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة — ولو كانت مباحة — يبقى قلبه أسيراً لها تتحكم فيه وتتصرف بما تريد ، وهو في الظاهر سيدها لأنه زوجها أو مالكة ولكنه في الحقيقة هو أسيرها ومملوكها . لا سيما إذا علمت بفقره إليها وعشقه لها . وأنه لا يعتاض عنها بغيرها . فإنها حينئذ تتحكم فيه تحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور ، الذي لا يستطيع الخلاص منه ، بل أعظم ، فإن أسر القلب أعظم من أسر البدن ، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن . فإن من استعبد بدنه واسترق لايالي ما دام قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً ، بل يمكنه الإحتيال في الخلاص .

وإما إذا كان القلب والذي هو ملك الجسم — رقيقاً مستعبداً . يتيماً لغير الله ، فهذا هو الذل والأسر المحض ، والعبودية الذليلة لما استعبد القلب . وعبودية القلب وأسرته هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب ، فإن المسلم لو أسره كافر أو استرقه فاجر بغير حق ، لم يضره ذلك ، إذا كان قائماً بما يقدر عليه من الواجبات ومن استعبد بحق إذا أدى حق الله وحق مواليه فله أجران ، ولو أكره على التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان لم يضره ذلك . وأما من استعبد قلبه فصار عبداً لغير الله فهذا يضره ذلك كل الضرر ولو كان في الظاهر ملك الناس .

فالحرية حرية القلب ، والعبودية عبودية القلب ، كما أن الغنى غنى النفس .

قال النبي — ﷺ — « ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس »^(١) .

وهذا لعمر الله إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة . فأما من استعبد قلبه صورة محرمة : امرأة أو صبي . فهذا هو العذاب الذي لا يدانيه عذاب .

١ — صحيح البخارى — كتاب الرقاق — باب الغنى غنى النفس — ٨ / ١١٨ وابن ماجه — كتاب الزهد — باب القناعة ١٣٨٦ / ٢ رقم ٤١٣٧ والترمذى — كتاب الزهد — باب ما جاء أن الغنى غنى النفس ٤ / ٥٨٦ رقم ٢٣٧٣ وقال الترمذى : حديث حسن صحيح

وهؤلاء العشاق عشاق الصور من أعظم الناس عذاباً وأقلهم ثواباً ، فإن العاشق لصورة إذا بقى متعلقاً بها ، مستعبداً لها اجتمع له من أنواع الشر والخسران والنساء مالا يحصيه إلا رب العباد . ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى ، فقد دام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشد ضرراً عليه ممن يفعل ذنباً ، ثم يتوب منه ويزول أثره من قلبه . وهؤلاء يشبهون بالسكارى والمجانين كما قيل :

سكران : سكر هوى ، وسكر مدامة . ومتى إفاقة من به سكران ؟
ومن أعظم أسباب هذا البلاء : إعراض القلب عن الله ، فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له ، لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك ، ولا ألد ولا أمتع ولا أطيب .

والإنسان لا يترك محبوباً إلا بمحسوب آخر يكون أحب إليه منه ، أو خوفاً من مكروه : فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح ، أو بالخوف من الضرر .

قال تعالى في حق يوسف : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ ^(١) فالله يصرف عن عبده ما يسوءه من الميل إلى الصور والتعلق بها ، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله .

ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص له بحيث تغلبه نفسه على اتباع هواها . فإذا ذاق طعم الإخلاص لله وقوى في قلبه انقهر له هواه بلا كبير علاج .

قال تعالى : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر ﴾ ^(٢) فإن الصلاة فيها دفع لشر مكروه ، وهو الفحشاء والمنكر . وفيها تحصيل لخير محبوب ، وهو ذكر الله .

وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع ذلك المكروه . فإن ذكر الله عبادة لله ، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها .

وأما اندفاع الشر عنه فهو مقصور لغيره على سبيل التبع . والقلب خلق يحب الحق ويريده ويطلبه ، فلما عرضت له إرادة الشر طلب دفع ذلك فإنها تفسد القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدغل .

ولهذا قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ ^(٢) وقال : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ ^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَّى مِنْكُمْ أَحَدٌ أَبَدًا ﴾ ^(٤)

فجعل سبحانه غض البصر وحفظ الفرج هو أقوى تزكية للنفس ، ويبين أن ترك الفواحش من زكاة النفوس ، وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور ، من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغير ذلك .

وكذلك طلب الرياسة والعلو في الأرض قلبه رقيق لمن يعينه عليها ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم ، فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم ، فيبذل لهم الأموال والولايات ، ويعفو عما يجترحونه ليطيعوه ويعينوه ، فهو في الظاهر رئيس مطاع ، وفي الحقيقة عبد مطيع لهم .
والتحقيق أن كلاهما فيه عبودية للآخر ، وكلاهما تارك لحقيقة عبادة الله . وإذا كان تعاونهما على العلو في الأرض بغير الحق كانا بمنزلة المتعاونين على الفاحشة أو قطع الطريق . فكل واحد من الشخصين — لهواه الذي استعبده واسترقه — مستعبد للآخر وهكذا أيضا طالب المال ، فإن ذلك المال يستعبده ويسترقه .

وهذه الأمور نوعان : منها : ما يحتاج العبد إليه ، ككل ما يحتاج إليه من طعامه وشرابه وسكنه ومنكحه ، ونحو ذلك فهذا يطلبه من الله ، ويرغب إليه فيه . فيكون المال عنده — يستعمله في حاجته — بمنزلة حماره الذي يركبه ، وبساطه الذي يجلس عليه ، بل بمنزلة الكنيف الذي يقضى فيه حاجته ، من غير أن يستعبده ، فيكون هلوياً . إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً .
ومنها : ما لا يحتاج العبد إليه . فهذا لا ينبغي له أن يعلق قلبه به .

فإذا علق قلبه به صار مستعبداً له ، وربما صار معتمداً على غير الله . فلا يبقى معه حقيقة العبادة لله ، ولا حقيقة التوكل عليه ، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله ، وشعبة من التوكل على غير الله .

١ — سورة الشمس الآيتان : ٩ ، ١٠ .

٢ — سورة الأعلى الآيتان : ١٤ ، ١٥ .

٣ — سورة النور الآية : ٣٠ .

٤ — سورة النور الآية : ٢١ .

وهذا من أحق الناس بقوله — ﷺ — : « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس القطيفة ، تعس عبد الخميصة »^(١) وهذا هو أعطاه إياها سخط ، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضى الله ، ويسخطه ما يسخط الله ويحب ما أحبه الله ورسوله ، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله . ويوالى أولياء الله ، ويعادى أعداء الله . وهذا هو الذى استكمل الإيمان ، كما فى الحديث « من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان »^(٢) .

وقال — ﷺ — : « أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله »^(٣) .

وفى الصحيح عنه — ﷺ — : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ، ومن كان يكره أن يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يلقى فى النار »^(٤) فهذا وافق ربه فيما يحبه وما يكرهه .

فكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأحب المخلوق ، لا لغرض آخر . فكان هذا من تمام حبه لله .

فإن محبة محبوب من تمام محبة المحبوب . فإذا أحب أنبياء الله وأولياء الله ، لأجل قيامهم بمحوبات الحق ، لا لشيء آخر ، فقد أحبه الله لا لغيره .

وقد قال تعالى : ﴿ فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾^(٥)

ولهذا قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾^(٦) فإن الرسول لا يأمر إلا بما يحب الله ولا ينهى إلا عما يبغضه الله ، ولا يفعل إلا ما يحب الله ولا يخبر إلا بما يحب الله التصديق به ، فمن كان محباً لله لزم أن يتبع الرسول ، فيصدقه فيما أخبر ، ويطيعه فيما أمر ، ويتأسى فيما فعل . ومن فعل هذا قد فعل ما يحبه الله ، فيحبه الله .

١ — صحيح البخارى — كتاب فضل الجهاد والسير — باب الحراسة فى الغزو فى سبيل الله ٤ / ٤١ وابن ماجه — كتاب الزهد — باب فى الكثيرين ٢ / ١٣٨٥ رقم ٤١٣٥
٢ — سنن أبى داود — كتاب السنة — باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ٥ / ٦٠ رقم ٤٦٨١
٣ — مسند أحمد ٤ / ٢٨٦
٤ — صحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب بيان خصال من اتصف بهم وجد حلاوة الإيمان ٦٦١ رقم ٤٣
٥ — سورة المائدة الآية : ٥٤
٦ — سورة آل عمران الآية : ٣١

وقد جعل الله لأهل محبته علامتين : اتباع الرسول ، والجهاد في سبيله ، وذلك لأن الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبه الله : من الإيمان ، والعمل الصالح ، وفي دفع ما يبغضه الله : من الكفر ، والفسوق والعصيان .

وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ — إِلَى قَوْلِهِ — حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾^(١) فتوعد من كان أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله والجهاد في سبيله بهذا الوعيد الشديد ، بل قد ثبت عنه — ﷺ — في الصحيح أنه قال « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين »^(٢) .

فحقيقة المحبة : لا تتم إلا بمؤالاة المحبوب ، وهو موافقته في حب ما يحب وبغض ما يبغض ، والله يحب الإيمان والتقوى ، ويبغض الكفر والفسوق والعصيان . ومعلوم أن الحب يحرك إرادة القلب . فكلما قويت المحبة في القلب ، طلب القلب فعل المحبوبات .

فإذا كانت المحبة تامة استلزمت إرادة حازمة في حصول المحبوبات فإذا كان العبد قادراً عليها حصلها ، وإن كان عاجزاً عليها ففعل ما يقدر عليه من ذلك : كان له أجر كأجر الفاعل .

كما قال النبي — ﷺ — : « إِنْ بِالْمَدِينَةِ لِرَجَالٍ مَا سَرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ ، قَالُوا : وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ ؟ قَالَ : وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ ، حَبَسَهُمُ الْعَذْرُ »^(٣) .

والجهاد هو بذل الوسع — وهو كل ما يملك من القدرة — في حصول محبوب الحق ، ودفع ما يكرهه الحق ، فإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد وكان تركه دليلاً على ضعف محبة الله ورسوله في قلبه . ومعلوم أن المحبوبات لا تنال غالباً إلا باحتمال المكروهات ، سواء كانت محبة صالحة أو فاسدة ، فالمحبون للمال والرئاسة والصور لا ينالون مطالبهم إلا بضرر يلحقهم في الدنيا . مع ما يصيبهم من الضرر بالمال نفسه في الدنيا والآخرة .

١ — سورة التوبة الآية : ٢٤

٢ — صحيح البخارى — كتاب الإيمان — باب حب الرسول من الإيمان ١ / ١٢ وابن ماجه — المقدمة — باب في الإيمان ١ /

٢٦ رقم ٦٧

٣ — صحيح البخارى — كتاب الجهاد والسير — باب من حبه العذر عن الغزو ٤ / ٣١ وابن ماجه — كتاب الجهاد — باب

من حبه العذر عن الجهاد ٢ / ٩٢٣ رقم ٢٧٦٥

فالمحب لله ورسوله إذا لم يحتمل ما يرى من تحمل المحبين لغير الله ما يحتملون في سبيل حصول محبوبهم ، دل ذلك على ضعف محبته لله ، إذ كان ما يسلكه أولئك في نظرهم — هو الطريق الذي يشير به العقل .

ومن العلوم أن المؤمن أشد حبا لله كما قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾^(١)

نعم قد يسلك المحب لضعف عقله وفساد تصوره طريقاً لا يحصل له بها المطلوب . فمثل هذه الطريقة لا تحمد إذا كانت المحبة صالحة محمودة . فكيف إذا كانت فاسدة . والطريق غير موصل ؟ كما يفعله المتهورون في طلب المال والرياسة والصور ، من حب أمور توجب لهم ضرراً ولا تحصل لهم مطلوباً . وإنما للمقصود الطرق التي يسلكها ذو العقل السليم لحصول مطلوبة .

وإذا تبين هذا . فكلما ازداد القلب حبا لله ازداد له عبودية وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبا وحرية مما سواه والقلب فقير بالذات إلى الله من جهتين : من جهة العبادة ، وهي العلة الغائية . ومن جهة الاستعانة والتوكل ، وهي العلة الفاعلة . فالقلب لا يصلح ، ولا يفلح ، ولا ينعم ، ولا يسر ، ولا يطيب ، ولا يسكن ، ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحده ، وحبه والإنابة إليه ، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ، ولم يسكن ، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه بالفطرة من حيث هو معبوده ومحبوه ومطلوبه . وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة . وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له ، فإنه لا يقدر له على تحصيل ذلك السرور والسكون إلا الله . فهو دائماً مفتقر إلى حقيقة ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾^(٢) . فإنه لو أعين على حصول كل ما يحبه ويطلبه ويشتهي ويريده ، ولم يحصل له عبادته لله ، فلن يحصل إلا على الألم والحسرة والعذاب ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها ، إلا بإخلاص الحب لله ، بحيث يكون الله هو غاية مراده ونهاية مقصوده ، وهو المحبوب له بالقصد الأول ، وكل ما سواه إنما يحبه لأجله لا يحب شيئا لذاته إلا الله ، ومتى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقق حقيقة ﴿ لا إله إلا الله ﴾ ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة لله .

وكان فيه من نقص التوحيد والإيمان ، بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك ، ولو سعى في هذا المطلوب ، ولم يكن مستعينا بالله متوكلا عليه ، مفتقرا إليه في حصوله ، لم يحصل ، فإنه ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

فالعبد مفتقر إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود ومن حيث هو المسئول المستعان به ، المتوكل عليه ، فهو إلهه الذي لا إله غيره ، وهو ربه الذي لا رب سواه ، ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين . فمتى كان يحب غير الله لذاته ، أو يلتفت إلى غير الله أنه يعينه . كان عبداً لما أحبه ، وعبداً لما رجاه ، بحسب حبه له ورجائه إياه ، وإذا لم يحب أحداً لذاته إلا الله ، وأى شيء أحبه سواه فإنما أحبه له ، ولم يرج قط شيئاً إلا الله ، وإذا فعل ما فعل من الأسباب ، أو حصل ما حصل منها كان مشاهداً أن الله هو الذي خلقها وقدرها وسخرها له ، وأن كل ما في السموات والأرض فالله ربه ومليكه وخالقه ومسخره وهو مفتقر إليه ، كان قد حصل له من تمام عبوديته لله بحسب ما قسم له من ذلك . والناس في هذا على درجات متفاوتة ، لا يحصى طرفيها إلا الله . فأكمل الخلق وأفضلهم وأعلاهم وأقربهم إلى الله وأقواهم ، وأهداهم أتمهم عبودية لله من هذا الوجه .

وهذا هو حقيقة دين الإسلام الذي أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه ، وهو أن يستسلم العبد لله لا لغيره ، فالمستسلم له ولغيره مشرك ، والممتنع عن الاستسلام له مستكبر . وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ — « يقول الله : العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى واحداً منهما عذبتة » (٢٤١) ... (مختصراً من رسالة العبودية للإمام ابن تيمية) :

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾

أى فإن للذين ظلموا أنفسهم باشتغالهم بغير ما خلقوا له من العبادة ، وإشراكهم بالله — عز وجل — وتكذيبه رسوله نصيباً من العذاب مثل نصيب نظرائهم من الأمم السالفة التى كذبت رسلها . ﴿ فلا يستعجلون ﴾ أى : فلا يطلبون منى أن أعجل بالإتيان به ، فإنى لا أخاف الفتور ، ولا يلحقنى عجز وهذا جواب عن قولهم . ﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ (٣) ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ (٤) ﴿ فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون ﴾ أى : فويل

١ — مسلم — كتاب الإيمان — باب تحريم الكبر وبيان ٩٣/١ رقم ٩١ وأبو داود — كتاب الناس — باب ما جاء في الكبر ٤ / ٣٥١ رقم ٤٠٩١ والترمذى — كتاب البر والصلة — باب ما جاء في الكبر ٣ / ٢٤٣ رقم ٢٠٦٦ .

٢ — صحيح مسلم — كتاب البر والصلة — باب تحريم الكبر ٤ / ٢٠٢٣ رقم ٢٦٢٠ وسنن أبى داود كتاب اللباس — باب ما جاء في الكبر ٤ / ٣٥٠ رقم ٤٠٩٠ وابن ماجه — كتاب الزهد — باب البراءة من الكبر والتواضع ٢ / ١٣٩٧ رقم ٤١٧٤ ومسند أحمد ٢ / ٢٤٨ ، ٣٧٦ ، ٤١٤ .

٣ — سورة الأعراف الآية : ٧٠ .

٤ — سورة النحل الآية : ١ .

لهم من حلول ذلك العذاب الذى وعدوه يوم القيامة حين لا تغنى نفس عن نفس شيئاً ولا هم ينصرون ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراغاً كأنهم إلى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون﴾^(١) .

تفسير سورة الطور

مقدمة :

قال صاحب البصائر :
السورة مكية بالاتفاق
عدد آياتها : تسع وأربعون
وكلماتها : ثلاثمائة واثنى عشرة
وحروفها : ألف وخمسمائة .
مجموع فواصل آياتها (من رعا)
وسميت سورة الطور ، لمفتتحها .

مقصود السورة

معظم مقصود السورة : القسم بعذاب الكفار ، والإخبار عن ذلهم فى العقوبة ، ومنازلهم فى النار ، وطرب أهل الجنة بثواب الله الكريم الغفار ، وإلزام الحجة على الكفرة الفجار ، وبشارتهم قبل عقوبة العقوبى بعذابهم فى هذه الدار ، ووصية سيد رسل الأبرار بالعبادة والاصطبار ، فى قوله تعالى : ﴿ ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾^(٢)

المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ أم يقولون شاعر ﴾ أعاد (أم) خمس عشرة مرة وكلها إلهامات ليس للمخاطبين بها عنها جواب .

١ — سورة المعارج الآيتان : ٤٣ ، ٤٤

٢ — سورة الطور الآية : ٤٩

قوله : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ بالواو ، وعطف على قوله : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ ﴾ وكذلك : ﴿ وَأَقْبَلَ ﴾ بالواو ، وفي الواقعة : ﴿ يَطُوفُ ﴾ بغير واو فيحتمل أن يكون حالاً ، أو يكون خبراً بعد خبر . وفي الإنسان ﴿ وَيَطُوفُ ﴾ عطف على ﴿ وَيَطَافُ ﴾ .

مناسبتها لما قبلها

- ١ — إن في ابتداء كل منهما وصف حال المتقين .
- ٢ — إن في نهاية كل منهما وعيداً للكافرين .
- ٣ — إن كلا منهما بدئت بقسم بآية من آياته تعالى الكونية التي تتعلق بالمعاش أو المعاد ، ففي الأول أقسم بالرياح الذاريات التي تنفع الإنسان في معاشه ، وهنا أقسم بالطور الذي أنزل فيه التوارة النافعة للناس في معادهم .
- ٤ — في كل منهما أمر النبي بالتذكير والإعراض عما يقول الجاحدون من قول مختلف
- ٥ — تضمنت كلتاها الحجاج على التوحيد والبعث ، إلى نحو ذلك من المعاني المتشابهة في السورتين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ٢ فِي رَقٍ مَّنْشُورٍ ٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٥
وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ٩
وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ١١ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ١٢ يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَىٰ
نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ١٣ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤ أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ١٥ أَصَلَوْهَا
فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْجَزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٦ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ١٧
فَلَكِهِينَ يَمَاءً أَتَنَّهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقْنَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ١٨ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٩
مُتَكِعِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ٢٠ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا
بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ٢١ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ

وَلَحِمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيمٌ ﴿٢٣﴾ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ
 كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ
 ﴿٢٦﴾ فَمَنْ آلَهُ عَلَيْنَا وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السُّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

معانى المفردات

(الطور) المراد به طور سينين ، وهو الجبل الذى كلم الله عليه موسى — عليه السلام — (وكتاب مسطور) المراد بالكتاب هنا : ما كتب من الكتب السماوية كالقرآن ، والتوراة ، والإنجيل ، والمسطور : أى : المكتوب على طريق منظم (رق) الرق (بالفتح والكسر) جلد رقيق يكتب فيه (منشور) بالمنشور المفتوح الذى لاختم عليه . (والبيت المعمور) قيل : المراد الكعبة ، وقيل : بيت يحيط البيت المعمور فى السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم وعلى كلا القولين فكل منهما سيد البيوت . (والسقف المرفوع) هو السماء . (والبحر المسجور) أى : الموقد المحمى ، من سجر النار أى : أوقدها وعنى به باطن الأرض وهو الذى دل عليه الكشف الحديث ولم تعرفه الأمم قديماً . (تمور) تضطرب وترتج وهى فى مكانها ، وأصل المور التردد فى الذهاب والمجيء . (خوض) أصل الخوض السير فى الماء . ثم استعمل فى الشروع فى كل شئ وغلب فى الخوض فى الباطل (يدعون) أى : يدفعون دفعا شديدا بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ويدفعون إلى النار ويطرحون فيها . (فاكهين) أى : طيبة نفوسهم مسرورة بما هى فيه ، (وقاهم) حفظهم (هنيئا) الطعام الهنىء : مالا يلحق المرء فيه مشقة ولا يعقبه تخمة ولا سقم ، (وزوجناهم) أى : قرناهم (حور عين) الحوار : واحدته حوراء ، والحور : أسوداد المقلة ، والعين : واحدته عيناء : أى : واسعة العينين .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ والطور ، وكتاب مسطور ، فى رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع ، يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا فويل يومئذ للمكذبين الذين هم فى خوض يلعبون ، يوم يدعون إلى نار جهنم دعا هذه النار التى كنتم بها تكذبون ، أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون ، اصلوفا فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ .

أقسم سبحانه بمخلوقاته العظيمة ، الدالة على كمال قدرته ، وبديع صناعته وتضمن هذا القسم خمسة أشياء (والطور ، وكتاب مسطور ، في رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع والبحر المسجور) فالطور هو الجبل مظهر بركة الدنيا والآخرة ، وهو الجبل الذي اختاره الله لتكليم موسى عليه السلام . قال عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه : عن نوف البكالي قال : أوحى الله — عز وجل — إلى الجبال : إني نازل على جبل منكم . قال فشتمخت الجبال كلها إلا جبل الطور ، فإنه تواضع ، وقال أرضى بما قسم الله لي ، فكان الأمر عليه ، وجبل هذا شأنه حقيق أن يقسم الله به ، وإنه لسيد الجبال .

(والثاني) (وكتاب مسطور) الكتاب المسطور في الرق المنشور المراد به الكتاب المنزل من عند الله ، وأقسم الله به لعظمته وجلالته ، وما تضمنته من آيات ربوبيته ، وأدلة صحف مطهرة ، بأيدي سفرة ، كرام بررة . فالصحف هي الرق ، وكونه بأيدي سفرة هو كونه منشوراً وعلى هذا فيكون قد أقسم سبحانه بسيد الجبال وسيد الكتب ويكون ذلك متضمناً للنبتين المعظمتين . نبوة موسى ونبوة محمد — ﷺ — وكثيراً ما يقرن بينهما وبين محلها كما في سورة التين والزيتون .

ثم أقسم بسيد البيوت ، وهو البيت المعمور قال علي وابن عباس وغيرهما : هو بيت في السماء حيال الكعبة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم يخرجون منه فلا يعودون إليه . وقيل : هو البيت الحرام . قال ابن القيم : ولا ريب أن كلا منهما معمور : فهذا معمور بالملائكة وعبادتهم . وهذا معمور بالطائفين والقائمين والركع والسجود ، وعلى كلا القولين فكل منهما سيد البيوت .

ثم أقسم سبحانه بمخلوقين عظيمين من بعض مخلوقاته . وهما مظهر آياته وعجائب صنعته . وهما السقف المرفوع وهو السماء فإنها من أعظم آياته قدراً وارتفاعاً ، وسعة وسمكاً ، ولوناً ، وإشراقاً وهي محل ملائكته ، وهي سقف العالم ، وبها انتظامه ، ومحل النيرين اللذين بهما قوام الليل والنهار ، والسنين والشهور ، والأيام ، والصيف والشتاء والربيع والخريف . ومنها تنزل البركات وإليها تصعد الأرواح ، وأعمالها وكلماتها الطيبة .

(والثاني) البحر المسجور ، وهو آية عظيمة من آياته وعجائبه التي لا يحصيها إلا الله قال مجاهد : (البحر المسجور) الموقد وقد جاء في الخبر : « إن البحر يُسجر يوم القيامة فيكون ناراً »^(١) ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْبُحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ قال علي وابن عباس : أوقدت فصارت ناراً^(٢) .

١ — انظر تفسير الطبري — سورة الطور والتكوير آية : ٦

٢ — انظر تفسير ابن كثير في هذه الآية

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ، مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ هذا جواب القسم أى : إن عذاب يوم القيامة لمحيط بالكافرين المكذبين بالرسل (ماله من دافع) لا يدفعه عنهم دافع ، ولا يجدون من دونه مهرباً ، ثم ذكر سبحانه وقت وقوعه فقال : (يوم تمور السماء موراً وتسير الجبال سيرا) والمور حركة في تموج وتكفؤ وذهاب ومجىء ولهذا فرق سبحانه بين حركة السماء وحركة الجبال فقال : (وتسير الجبال سيراً) وقال تعالى : (وإذا الجبال سيرت) من مكان إلى مكان . وأما السماء فإنها تتكفأ ، وتموج ، وتذهب وتجيء .

قوله تعالى : (فويل يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) الذين هم في خوض يلعبون (قال ابن القيم : ثم ذكر وعيد المكذبين بالمعاد والنبوة ، وذكر أعمالهم وعلومهم التي كانوا عليها ، وهى الخوض الذى هو كلام باطل ، واللعب الذى هو سعى ضائع . فلا علم نافع ولا عمل صالح . بل علومهم خوض بالباطل ، وأعمالهم لعب . ولما كانت هذه العلوم والأعمال مستلزمة لدفع الحق بعنف وقهر أدخلوا جهنم وهم يدعون إليها دعاً قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاءً ﴾ أى : يدفع في أقفيتهم وأكتافهم ، دفعاً بعد دفع . فإذا وقفوا عليها وعابنوها وقفوا ، وقيل لهم : ﴿ هَلْهَذَا النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴾ وتقولون لا حقيقة لها ولا من أخبر بها صادق ثم يقال : (أفسح هذا ؟) الآن كما كنتم تقولون للحق لما جاءكم به الرسل . أنه سحر ، وأنهم مسجرة . فهذا الآن سحر لا حقيقة له كما قلتم ، أم على أبصاركم غشاوة فلا تبصرونها ؟ أم أنتم لا تبصرون ؟ أفعميت أبصاركم اليوم عن رؤية هذا الحق ، كما عميت في الدنيا فلا تبصرون الحق ؟

ثم سلب عنهم نفع الصبر الذى كانوا في الدنيا إذا دهمتهم الشدائد وأحاطت بهم لجأوا إليه وتعللوا إليه وتعللوا بإنقضاء البلية لانقضاء أمدها . فقليل لهم يومئذ : ﴿ اصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ كلاهما سواء عليكم لا يجدى عنكم الصبر ولا الجزع ، فلا الصبر يخفف عنكم حمل هذا العذاب . ولا الجزع يعطف عليك قلوب الخزنة ولا يستنزل لكم الرحمة . ثم اعلّموا بأن الرب تعالى لم يظلمهم بذلك ، وإنما هو نفس أعمالهم صارت عذاباً ، فلم يجدوا من اقترانهم به بدأ بل صارت عذاباً لازماً لهم كما كانت إرادتهم وعقائدهم الباطلة وأعمالهم القبيحة لازمة لهم ، ولزوم العذاب لأهله في النار بحسب لزوم تلك الإرادة الفاسدة ، والعقائد الباطلة وما يترتب عليها من الأعمال لهم في الدنيا . فإذا زال ذلك اللزوم في وقت ما بضده وبالتوبة النصوح زوالاً كلياً لم يعذبوا عليه في الآخرة ، لأن أثره قد زال من قلوبهم وألسنتهم وجوارحهم ولم يبق له أثر يترتب عليه . فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والمادة الفاسدة إذا زالت من البدن بالكلية لم يبق هناك ألم ينشأ عنها ، وإن لم تزل تلك الإرادة والأعمال ولكن عارضها معارض أقوى منها كان التأثير للمعارض وغلب الأقوى الأضعف . وإن تساوى الأمران تدافعا وقاوم كل منهما حكم الله وحكمته في خلقه ، وأمره ونهيه وعقابه ولا يظلم ربك أحداً .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ، فَكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ، كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، مُتَكئينَ عَلَى سُرُرٍ مُصَفُوفَةٍ ، وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾

ثم ذكر سبحانه أرباب العلوم النافعة ، والأعمال الصالحة والاعتقادات الصحيحة وهم المتقون ، فذكر مساكنهم وهم في الجنان ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ وذكر حالهم في المساكن وهو النعيم . وذكر نعيم قلوبهم وراحتهم بكونهم ﴿ فَكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أى : يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم من أصناف الملاذ من مأكّل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك فجمع لهم سبحانه بين النعيمين : نعيم القلب بالتفكه . ونعيم البدن بالأكل والشرب والنكاح . ﴿ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ فوفاهم ما يكرهون . وأعطاهم ما يحبون جزاء وفاقاً لأنهم تركوا ما يكره وأتوا بما يحب ، فكان جزاؤهم مطابقاً لأعمالهم .

وقوله تعالى : ﴿ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى يقال لهم ذلك : ﴿ هَنِيئًا ﴾ الهنىء ما لا تنغيص فيه ولا نكد ولا كدر . قال الزجاج : أى : ليهنئكم ما صرتم إليه . وقيل : أى : متعم بنعيم الجنة إمتاعاً هنيئاً ، وقيل : ﴿ هَنِيئًا ﴾ أى : لا تموتون ؛ فإن ما لا يبقى أو لا يبقى الإنسان معه منغص غير هنىء فأخبر سبحانه عن دوام ذلك لهم ثم ذكر جل في علاه مجالسهم وهيئاتهم فيها فقال تعالى : (متكئين على سرر مصفوفة) وفي ذكر اصطفاها تنبيه على كمال النعمة عليهم بقرب بعضهم من بعض ، ومقابلة بعضهم بعضاً . كما قال تعالى : (متكئين عليها متقابلين) فإن من تمام اللذة والنعيم أن يكون مع الإنسان في بستانه ومنزله من يحب معاشرته ويؤثر قرب ، ولا يكون بعيداً منه . قد حيل بينه وبينه . بل سريره إلى جانب سرير من يحبه .

وذكر سبحانه أزواجهم وأنهم الحور العين . وقد تكرر وصفهم في القرآن بهاتين الصفتين قال مجاهد : زوجناهم بهن أى : أنكحناهم إياهن . والحور العين قال مجاهد : التى يحار فيها الطرف بادياً فح سوقهن من وراء ثيابهن ، ويرى الناظر وجهه فى كبد إحداهن وكالمرآة من رقة الجلد وصفاء اللون . وقال قتادة : بحور ، أى : بيض وكذا قال ابن عباس . وقال مقاتل : الحور البيض الوجوه ، العين : الحسان الأعين . وعين حوراء : شديدة السواد ، نقية البياض ، طويلة الأهداب مع سوادها ، كاملة الحسن . فوصفهن بالبياض والحسن والملاحة ، كما قال تعالى : (خيرات حسان) فالبياض فى ألوانهن ، والحسن فى وجوههن ، والملاحة فى عيونهن وقد وصف الله — سبحانه — نساء أهل الجنة بأحسن الصفات ودل بما وصف بما سكت عنه .

قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا واتبعهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾

ثم أخبر سبحانه عن تكميل نعيمهم بإلحاق ذرياتهم بهم في الدرجة وإن لم يعملوا أعمالهم لتقر أعينهم بهم ، ويتم سرورهم وفرحهم ، وأخبر سبحانه أنه لم ينقص الآباء من عملهم من شيء بهذا الإلحاق فينزلهم من الدرجة العليا إلى الدرجة السفلى ، بل ألحق الأبناء بالآباء ووفر على الآباء أجورهم ودرجاتهم .

قال الحافظ الطبراني عن ابن عباس أظنه عن النبي — ﷺ — قال : « إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فقال إنهم لم يبلغوا درجتك فيقول يارب قد عملت لي ولهم فيؤمر بإلحاقهم به » وقرأ ابن عباس : « والذين آمنوا واتبعهم ذريتهم بإيمان »^(١) الآية .

قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية : يقول والذين أدرك ذريتهم الإيمان فعملوا بطاعتي ألحقهم بإيمانهم إلى الجنة وأولادهم الصغار تلحق بهم قال ابن كثير هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء ، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء فقد قال الإمام أحمد عن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — : « إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول يارب أنى لي هذه ؟ فيقول باستغفار ولدك لك »^(٢) واسناده صحيح وله شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة — رضى الله عنه — عن رسول الله — ﷺ — : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »^(٣)

قوله تعالى : ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ لما أخبر سبحانه عن مقام الفضل وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضى ذلك أخبر عن مقام العدل وهو أنه لا يؤخذ أحداً بذنب أحد فقال تعالى : ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ أى : مرتين بعمله ولا يحمله عليه ذنب غيره من الناس سواء كان أباً أو ابناً كما قال تعالى : ﴿كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين في جنات يتساءلون عن المجرمين﴾^(٤)

١ — المعجم الكبير للطبراني ١١ / ٤٤٠ رقم ١٢٢٤٨

٢ — مسند أحمد ٢ / ٥٠٩

٣ — صحيح مسلم — كتاب الوصية — باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ٣ / ١٢٥٥ رقم ١٦٣١ وأبو داود — كتاب الوصايا — باب ما جاء في الصدقة عن الميت ٣ / ٣٠٠ رقم ٢٨٨٠ والترمذى — كتاب الأحكام — باب في الوقف رقم ١٣٧٦ والنسائي — كتاب الوصايا — باب فضل الصدقة عن الميت رقم ٣٦٨١

٤ — سورة المدثر الآيات : ٣٨ — ٤١

قوله تعالى : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهِةٍ وَلَحْمٍ مَّا يَشْتَهُونَ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْنِيمَ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَوْلُؤُا مَكْنُونٌ ﴾

ثم ذكر سبحانه إمدادهم باللحم والفاكهة والشرب . وأنهم يتعاطون كؤوس الشراب بينهم ، يشرب أحدهم ويناول صاحبه ليتم بذلك فرحهم وسرورهم ، ثم نزه ذلك الشراب عن الآفات من اللغو من أهله عليه ولحوق الأثم لهم فقال : ﴿ لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْنِيمَ ﴾ فقصد باللغو السباب ، والتخاصم ، والهجر والفحش في المقال . ونفى بالتأنييم جميع الصفات المذمومة التي أثمت شارب الخمر . وتأمل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْنِيمَ ﴾ ولم يقل ولا إثم أى : ليس فيها ما يحملهم على الإثم ، ولا يؤثم بعضهم بعضاً بشربها ولا يؤثمهم الله بذلك ولا الملائكة فلا يلغون ولا يآثمون .

ثم وصف سبحانه خدمهم الطائفين عليهم بأنهم كاللؤلؤ في بياضهم ، والمكنون : المصون الذى لا تدينسه الأيدي ، فلم تذهب الخدمة تلك المحاسن وذلك اللون والصفاء والبهجة . بل مع انتصابهم لخدمتهم كأنهم لؤلؤ مكنون ، ووصفهم في موضع آخر : ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حُسْبَتَهُمْ لَوْلُؤاً مَثُوراً ﴾ ففى ذكره المنشور إشارة إلى تفرقهم في حوائج ساداتهم وخدمتهم ، وذهابهم ، ومجيئهم وسعة المكان ، بحيث لا يحتاجون أن ينضم بعضهم إلى بعض فيه لضيقه .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ، فَمِنْ اللَّهِ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾

ثم ذكر سبحانه ما يتحدثون به هناك وأنهم يقولون : ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أى : كنا خائفين في محل الأمن بين أهل والأقارب والعشائر فأوصلنا ذلك الخوف والإشفاق إلى أن من الله علينا ، فأمننا مما نخاف : (ووقانا عذاب السموم) وهذا ضد حال الشقى الذى كان في أهله مسرورا . فهذا كان مسرورا مع إساءته . وهؤلاء كانوا مشفقين مع إحسانهم فبدل الله — سبحانه — إشفاقهم بأعظم الأمن ، وبدل أمن أولئك بأعظم المخاوف . فبالله سبحانه المستعان . ثم أخبر عن حالهم في الدنيا . وأنهم كانوا يصبرون لله فيها . فأوصلتهم عبادته وحده إلى قربه وجواره ، ومحل كرامته والذى جمع لهم ذلك كله بره ورحمته ، فإنه هو البر الرحيم ، فهذا هو المقسم عليه بتلك الأقسام الخمسة في أول السورة والله أعلم . (مستفاد من كتاب التبيان لابن القيم)

الجزء السابع والعشرون

إرشاد وتوجيه ومناقشة

قال تعالى :

فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٣٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٤٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَبِّصِينَ ﴿٤١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُهُمْ بِهِذًا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ أَنْخُلِقُونَ ﴿٤٥﴾ أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُصِيطِرُونَ ﴿٤٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٤٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٥٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿٥٤﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٥٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٥٨﴾ وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٥٩﴾

معاني المفردات

﴿ فذكر ﴾ أى : فاثبت على ما أنت عليه من التذكير . ﴿ والكاهن ﴾ من يخبر بالأخبار الماضية الخفية بضرب من الظن ﴿ نتربص ﴾ أى : نتظر ﴿ المنون ﴾ الدهر وريية : حوادثه وحروفه ﴿ والأحلام ﴾ العقول ﴿ والطغيان ﴾ تجاوز الحد فى المكابرة والعناد ﴿ تقوله ﴾ أى : أخلقه من تلقاء نفسه ، إذ التقول لا يستعمل غالبا إلا فى الكذب . ﴿ أم خلقوا من غير شيء ﴾ : أى من غير خالق ﴿ خزائن ربك ﴾ أى : خزائن رزقه ﴿ المسيطرون ﴾ أى : القاهرون المسلمون عليها من قوتهم : سيطر على كذا . إذا راقبه وأقام عليه ﴿ سلم ﴾ أى : مرتقى إلى السماء ، ﴿ بسلطان مبين ﴾ أى : بحجة واضحة تصدق استماعه ، ﴿ مغرم ﴾ أى : التزام غرامه تطلبها منهم ، ﴿ مثقلون ﴾ أى : محملون ثقلا ﴿ الغيب ﴾ أى : علم الغيب ﴿ كيدا ﴾ أى : شرا ، ﴿ المكيدون ﴾ أى : الذين يحيق بهم الشر ويعود

إليهم وباله . ﴿ كسفاً ﴾ أى : قطعة ، ﴿ مركوم ﴾ أى : متراكم ملقى على بعض ، ﴿ يصعقون ﴾ أى : يقتلون ، ﴿ دون ذلك ﴾ أى : قبله وهو ما أصابهم من القحط سبع سنين ، بأعيننا . أى : فى حفظنا وحراستنا ، ﴿ إدبار النجوم ﴾ أى وقت إدبارها من آخر الليل أى : غيبتها بضوء الصباح .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أن العذاب واقع بالكافرين لا محالة ، وأن الفريقين المصدقين والمكذبين مجزيون بأعمالهم ، وأن الرسول — ﷺ — على الحق المبين الذى من كذبه باء بغضب من الله ، ومن صدقه استحق رضوانه ومغفرة من لدته — أمر رسوله هنا بالثبات على التذكر والموعظة ، وعدم المبالاة بما يكيد به أولئك الكائدون ، فإنه هو الغالب حجه وسيفاً فى هذه الدار ومنزلة ورفعة فى دار القرار ، ثم ذكر تناقض أقوالهم لينبه إلى فساد آرائهم ، وإلى أنهم ما أعرضوا عن الحق إلا اتباعاً للهوى لا اتباعاً للدليل والبرهان ، وبعد أن أقام عليهم الحجة وسد عليهم المسالك ، طلب إليه أن يتوكل عليه ، وأن يعلم أن كيدهم لا يضره شيئاً ، فالله ناصرهم عليهم ، وسيظهر دينه ، ويتم له الغلبة والفلح عليهم ، فدعهم وشأنهم حتى يأتى اليوم الذى لا مرد له ، يوم لا تنفعهم حبايلهم وشراكمهم التى كانوا ينصبون مثلها فى الدنيا ، ولا يجدون لهم إذ ذاك ولياً ولا نصيراً ، وأن الله سيصيبهم بعذاب من عنده فى الدنيا قبل ذلك اليوم ، وأنه ناصرهم عليهم وكائنك بعين رعايته ، واذكر ربك حين تقوم من منامك ، ومن مجلسك وحين تغيب النجوم ، ويصبح الصباح وتغرد الأطيوار مسبحة منزهة خالق السموات والأرض ، قائلة سبوح ، قدوس ، رب الملائكة والروح .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ﴾

يقول تعالى أمراً رسوله — ﷺ — : بأن يبلغ رسالته إلى عباده وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه ثم نفى ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال : ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ أى : لست بحمد الله بكاهن كما تقول الجهلة من كفار قريش ، والكاهن الذى يأتى الرئى من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء (ولا مجنون) وهو الذى يتخبطه الشيطان من المس . ومن قال إنه كاهن : شية بن ربيعة ومن قال إنه مجنون : عقبة بن أبى معيط .

ثم ذكر أنهم ترقوا في الإنكار عليه فقال :

﴿ أم يقولون شاعر نربص به ريب المنون ، قل تربصوا فإن معكم من المتربصين ﴾

روى أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة وذهبت مذاهب شتى في صدّ دعوته — ﷺ — ومقابلة هذا الخطر الداهم عليهم ، وماذا يفعلون في الخلاص منه ، فقال قائل من بني عبد الدار : تربصوا به ريب المنون ، فإنه شاعر ويهلك كما هلك زهير والنابعة والأعشى ، ثم أفترقوا على هذه المقالة فنزلت الآية (رواه محمد بن اسحق في السيرة عن ابن عباس) فقال تعالى منكرّاً عليهم : (أم يقولون شاعر نربص به ريب المنون) أي قوارع الدهر ، والمنون الموت ، يقولون ننتظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فيستريح منه ومن شأنه قال تعالى أمر رسوله أن يهددهم ويتهكم بهم : (قل تربصوا فإن معكم من المتربصين) أي : قل لهم : انتظروا وتمهلوا في ريب المنون ، فإن متربص معكم منتظراً قضاء الله في وفيكم ، وستعلمون لمن عقبى الدار .

قوله تعالى : (أم تأمرهم أحلامهم بهذا ، أم هم قوم طاغون) أي : عقولهم تأمرهم بهذا الذي يقولونه فيك من الأقاويل الباطلة التي يعلمون في أنفسهم أنها ضلال معاندون فهذا هو الذي يحملهم على ما قالوه فيك كقوله تعالى : ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾

قوله تعالى : ﴿ أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾

أي : أيقولون كاهن أم يقولون شاعر أم يقولون إنه افتري القرآن واختلقه من تلقاء نفسه ؟ (بل لا يؤمنون) أي : أن كفرهم هو الذي حملهم على هذه المطاعن وزين لهم أن يقولوا ما قالوا . ثم رد عليهم جميع ما زعموا وتحداهم في دحض ما قالوا

فقال :

(فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) أي : إن كان شاعراً فليديهم الشعراء العظماء ، أو كاهناً . فليديكم الكهان الأذكياء ، وإن كان قد تقوله فليديكم الخطباء الذين يحبرون الخطب ، فهلّم فليأتوا بمثل هذا القرآن إن كانوا صادقين فيما يزعمون ، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس ما جاءوا بمثله ولا بعشر سور من مثله ولا بسورة من مثله . قال تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾^(١)

بحث في الإعجاز القرآني

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله في كتابه النبأ العظيم ما نصه :

القرآن معجزة لغوية

« من كان عنده شيء من الشك في هذه القضية فليأذن لنا أن نستوضحه فيم ذلك الشك ؟ هل حدثته نفسه بأنه هو يستطيع أن يأتي بكلام في طبقة البلاغة القرآنية ؟ أم هو قد عرف من نفسه القصور عن تلك الرتبة ، ولكنه لم يعرف عن الناس ما عرف من نفسه ؟

أم علم أن الناس جميعاً قد سكتوا عن معارضة القرآن ، ولكنه يعلم أن سكوتهم عنه كان عجزاً ، ولا أن عجزهم جاء من ناحية القرآن ذاته .

إن علم أنهم قد عجزوا عنه وأنه هو الذي أعجزهم ، ولكنه لم يعلم أن أسلوبه كان من أسباب إعجازه ؟

أم هو يوقن بأن القرآن الكريم كان وما زال معجزة بيانية لسائر الناس ولكنه لا يوقن بأنه كان معجزاً كذلك لمن جاء به ؟

أم يؤمن بهذا كله ، ولكنه لا يدري . ما أسرارها وما أسبابه ؟

هذه وجوه ستة ، لكل وجه منها علاج يخصه . وسنعالجها على هذا الترتيب :

١ — فأما إن كان مثار الشبهة عنده أنه زاول شيئاً من صناعة الشعر أو الكتابة ، وآنس من نفسه اقتداراً في البيان فوسوس له شيطان الإعجاب بنفسه والجهل بالقرآن أنه يستطيع الإتيان بمثل أسلوبه ، فذلك ظن لا يظنه بنفسه أحد من الكبار المنتهين ، وإنما يعرض — إن عرض — للأغرار الناشئين ومثل هذا دواؤه عندنا نصح نتقدم به إليه أن يطيل النظر في أساليب العرب وأن يستظهر على فهمها بدراسة طرف من علوم الأدب حتى تستحكم عنده ملكة النقد البياني ، ويستبين له طريق الحكم في مراتب الكلام وطبقاته ثم ينظر في القرآن بعد ذلك وأناله زعيم بأن كل خطوة يخطوها في هذه السبيل ستزيده معرفة بقدره ، وستحل عن نفسه عقدة من عقد الشك في أمره ، إذ يرى هنالك أنه كلما ازداد بصيرة بأسرار

اللغة وإحساناً في تصريف القول ، وامتلاكاً لخاصية البيان ، ازداد بقدر ذلك هضماً لنفسه ، وإنكاراً لقوته ، وخضوعاً بكلية أمام أسلوب القرآن . وهذا قد يبدو لك عجباً ، أن يزداد شعور المرء بعجزه عن الصنعة بقدر ما تتكامل فيها قوته ويتسع بها علمه . ولكن لا عجب . فتلك سنة الله في آياته التي يصنعها بيديه : لا يزيدك العلم بها والوقوف على أسرارها إلا إذعاناً لعظمتها وثقة بالعجز عنها . ولا كذلك صناعات الخلق ، فإن فضل العلم بها يمكنك منها ويفتح لك الطريق إلى الزيادة عليها . ومن هنا كان سحرة فرعون هم أول المؤمنين برب موسى وهارون فإن أبى المغرور إلا إصراراً على غروره ، وكبر عليه أن يقر بعجزه وقصوره ، دعوانه إلى الميدان ليحرب نفسه ويبرز قوته ، وقلنا له : أخرج لنا أحسن ما عندك لننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ... غير أننا نعظه بوحدة أخرى : ألا يخرج على الناس ببضاعته حتى يُطيل الرويّة ويحكم الموازنة وحتى يستيقن الإحسان والإجادة ، فإنه إن فعل ذلك كان أدنى أن يتدارك غلظه ويوارى سوءته . وإلا فقد أساء المسكين إلى نفسه من حيث أراد الإحسان إليها .

وإن في التاريخ لعبراً تؤثر عن أناس حاولوا مثل هذه المحاولة : فجاءوا في معارضة القرآن بكلام لا يشبه القرآن ولا يشبه كلام أنفسهم ؛ بل نزلوا به إلى حزب من السخف والتفاهة بادّ عواره ، باق عاره وشفاره . فمنهم عاقل استحيا أن يتم تجربته فحطم قلمه ومزق صحيفته . ومنهم ماكر وجد الناس في زمنه أعقل من أن تروج فيهم سخافاته ، فطوى صحفه وأخفاها إلى حين (ومن ذلك ما اشتهر عن تلك الكتب التي وصفها زعماء نحلتي « القاديانية » و « البهائية » لتكون دستوراً دينياً كالقرآن وقد لفقوها تلفيقاً ركيكاً من آيات قرآنية وكلمات عامية ، وبدلوا فيها أصول الإسلام وفروعه ، وادعوا فيها لأنفسهم النبوة أو الألوهية ...)

ومنهم طائش برز بها إلى الناس . فكان سخرية للساخرين ومثلاً للآخرين . (كمسيلمة الكذاب ...)

فمن حدثته نفسه أن يعيد هذه التجربة مرة أخرى فلينظر في تلك العبر وليأخذ بأحسنها . ومن لم يستح فليصنع ما يشاء .

٢ — وأما إن كان مدخل الشبهة عنده أنه رأى في الناس من هو أعلى منه كعباً في هذه الصناعة ، فقال في نفسه : « لكن لم أكن أنا من فرسان هذا الميدان ، ولم يكن لي في معارضة القرآن يدان : لعل هذا الأمر يكون يسيراً على من هو أفصح مني لساناً وأسحر بياناً » فمثل هذا تقوله له : إرجع إلى أهل الذكر من أدباء عصرك فاسألهم هل يقدرّون أن يأتوا بمثله ؟ فإن قالوا لك « لو نشاء لقلنا مثل

هذا « فقل : « هاتوا برهانكم ! » وإن قالوا : « لا طاقة لنا به » فقل : أى : شئ أكبر من العجز شهادة على الإعجاز .

ثم أرجع إلى التاريخ فاسأله : ما بال القرون الأولى ؟ ينبئك التاريخ أن أحداً لم يرفع رأسه أمام القرآن في عصر من أعصاره وأن بضعة نفر الذين انفضوا رؤوسهم إليه باؤوا بالخزى والهوان ، وسحب الدهر على آثارهم ذيل النسيان .

أجل . لقد سجل التاريخ هذا العجز على أهل اللغة أنفسهم في عصر نزول القرآن . وما أدراك ما عصر نزول القرآن ؟ هو أزهى عصور البيان العربى ، وأرقى أدوار التهذيب اللغوى . وهل بلغت المجامع اللغوية في أمة من الأمم ما بلغته الأمة العربية في ذلك العصر من العناية بلغتها ، حتى أدركت هذه اللغة أشدها ؛ وتم لهم بقدر الطاقة البشرية تهذيب كلماتها وأساليبها ؟ .. ما هذه الجموع المحشودة في الصحراء ، وما هذه المنابر المرفوعة هنا وهناك ؟ — إنها سوق العرب تعرض فيها أنفس بضائعهم وأجود صناعاتهم ؛ وما هى إلا بضاعة الكلام وصناعة الشعر والخطابة يتبارون في عرضها ونقدها ، واختيار أحسنها والمفاخرة بها ، ويتنافسون فيها أشد التنافس ، يستوى في ذلك رجالهم ونسأؤهم وما أمر حسان والخنساء وغيرهما بخاف على متأدب .

فما هو إلا أن جاء القرآن — وإذا الأسواق قد انفضت ، وإذا الأندية قد صِفرت ، إلا عنه . فما قدر أحد منهم أن يئاريه أو يجاريه ، أو يقترح فيه إبدال كلمة بكلمة ، أو حذف كلمة أو زيادة كلمة ، أو تقديم واحدة وتأخير أخرى . ذلك على أنه لم يسد عليهم باب المعارضة بل فتحه على مصراعيه ، بل دعاهم إليه أفراداً أو جماعات ، بل تحداهم وكرر عليهم ذلك التحدى في صور شتى ، متكبها بهم متنزلاً معهم إلى الأخف فالأخف : فدعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله ، ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سور مثله . ثم أن يأتوا بسورة واحدة مثله ثم بسورة واحدة من مثله (وانظر كيف تنزل معهم في هذه المرتبة من طلب المماثل إلى طلب شئ مما يماثل كأنه يقول : لا أكلفكم بالمماثلة العامة ، بل حسبكم أن تأتوا بشئ فيه جنس المماثلة ومطلقها ، وبما يكون مثلاً على التقريب لا التجديد ولذا كان هو آخر صيغ التحدى نزولاً ، فلم يجيء التحدى بلفظ (من مثله إلا في سورة البقرة المدنية) وأباح لهم في كل مرة أن يستعينوا بمن شاءوا من استطاعوا ، ثم رماهم والعالم كله بالعجز في غير موارد

فقال : ﴿ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (١) سورة الإسراء . وقال : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ﴾ (٢) سورة البقرة فانظر أى إلهاب ، وأى استفزاز ! لقد أجهز عليهم بالحكم البات المؤبد في قوله : ﴿ ولن تفعلوا ﴾ ثم هددهم بالنار ، ثم سواهم بالحجارة . فلعمري لو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا عن

(١) سورة الإسراء آية : ٨٨

(٢) سورة البقرة آية : ٢٤

منافسته وهم الأعداء الألداء وأبادة الضيم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزيمتهم وفخارهم ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سلماً يصعدون به إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طود شاخ، فما استطاعوا أن يظهره وما استطاعوا له نقباً... حتى إذا استياسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم ما كان جوابهم إلا أن ركبوا متن الخوف، واستنطقوا السيوف بدل الحروف. وتلك هي الحيلة التي يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان، وكل من لا يستطيع دفعاً عن نفسه بالقلم واللسان.

ومضى عصر القرآن والتحدى قائم ليحرب كل امرئ نفسه، وجاء العصر الذي بعده وفي البادية وأطرافها أقوام لم تختلط أنسابهم ولم تنحرف ألسنتهم، ولم تتغير سليقتهم، وفيهم من لو استطاعوا أن يأتوا هذا الدين من أساسه، ويثبتوا أنهم قادرون من أن القرآن على ما عجز عنه أوائلهم، لفعلوا، ولكنهم ذلت أعناقهم له خاضعين، وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل:

ثم مضت تلك القرون، وورث هذه اللغة عن أهلها الوارثون غير أن هؤلاء الذين جاءوا من بعد، كانوا أشد عجزاً وأقل طمعاً في هذا المطلب العزيز. فكانت شهادتهم على أنفسهم مضافة إلى شهادة التاريخ على أسلافهم، وكان برهان الإعجاز قائماً أمامهم من طريقين: وجداني وبرهاني.. ولا يزال هذا دأب الناس والقرآن حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

٣ — فإن قال لنا: نعم، قد علمت أنه لم يأت أحد بشيء في معارضة القرآن. ولكن ليس كل ما لم يفعله الناس يكون خارجاً عن حدود قدرتهم، فربما ترك الإنسان فعلاً هو من جنس أفعاله الاختيارية لعدم قيام الأسباب التي من شأنها أن تبعث عليه، أو لأن صارفاً إليها ثبط همته وصرف إرادته عنه مع توافر الأسباب الداعية إليه، أو لأن عارضاً فجائياً عطل آلاته وعاق قدرته عن إحداث ذلك الفعل بعد توجه إرادته نحوه — فعلى الفرضين الأولين يكون عدم معارضة القرآن قلة اكتراث بشأنه لا عجزاً عن الإتيان بمثله، وعلى الفرض الأخير يكون تركه عجزاً عنه حقاً، لكن ليس لمانع فيه من جهة غلو طبقته عن مستوى القدرة البشرية بل لمانع خارجي هو حماية القدرة العليا له وصيانتها إياه عن معارضة المعارضين، ولو أزيل هذا المانع لجاء الناس بمثله.

قلنا له هذه الفروض كلها لا تنطبق على موضوعنا بحال.

أما الأول فإن الأسباب الباعثة على المعارضة كانت موفورة متضافرة، وأي شيء وأقوى في استثارة حمية خصمك من ذلك التقريع البليغ المتكرر الذي توجهه إليك معلنا فيه عجزه عن مضاهاة عملك؟ إن هذا التحدى كاف وحده في إثارة حفيظة الجبان وإشعال همته للدفاع عن نفسه بما تبلغه طاقته فكيف

لو كان الذي تتخذهه مجبولاً على الأنفة والحمية ؟ وكيف لو كان العمل الذي تتخذه به هو صناعته التي بها يغامر ، والتي هو فيها المدرب الماهر وكيف لو كنت مع ذلك ترميه بسفاهة الرأي وضلال الطريق ؟ وكيف لو كنت تبتغي من وراء هذه الحرب الجدلية هدم عقائده ، وهو عوائده وقطع الصلة بين ماضيه ومستقبله ؟

وأما الثاني فإن هذه الأسباب قد رأيناها آتت بالفعل ثمراتها ، وأيقظت همم المعارضين إلى أبعد حدودها ، حتى كان أمر محمد والقرآن هو شغلهم المشاغل ، وهمهم الناصب ، فلم يدعوا وسيلة من الوسائل لمقاومته باللطف أو بالعنف إلا استنبطوها وتذرعوا بها ؛ أيخادعون عن دينه لينين لهم ويركن قليلاً إلى دينهم ، أم يسامونه بالمال والملك ليكف عن دعوته ، أم يتراضون بمقاطعته وبحبس الزاد عنه وعن عشيرته الأقربين حتى يموتوا جوعاً أو يسلموه ، أم يمنعون صوت القرآن أن يخرج من دور المسلمين خشية أن يسمعه أحد من أبنائهم ، أم يلقون فيه الشبهات والمطاعن أم يهيمون بصاحبه بالسحر والجنون ليصدوا عنه من لا يعرفه من القبائل القادمة في المواسم ، أم يمكرون به ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه ، أن يخطرون بمهجهم وأموالهم وأهليهم في محاربتهم . أفكان هذا كله تشاغلاً عن القرآن وقلة عناية بشأه ؟ !

ثم لماذا كل هذا وهو قد دهم على أن الطريق الوحيد لإسكانه هو أن يجيئوه بكلام مثل الذي جاءهم به ؟ ألم يكن ذلك أقرب إليهم وأبقى عليهم لو كان أمره في أيديهم ؟ ولكنهم طرخوا الأبواب كلها إلا هذا الباب ، وكان القتل والأسر والفقر والذل كل أولئك أهون عليهم من ركوب هذا الطريق الوعر الذي دهم عليه . فأى شيء يكون العجز إن لم يكن هذا هو العجز ؟

لا ريب أن هذه الحملات كلها لم تكن موجهة إلى شخص النبي وأصحابه فقد كانوا من قبل تعطفهم عليهم أرحامهم ، وتحبهم إليهم مكارم أخلاقهم كما أنها لم تكن موجهة إلى القرآن في الصدور ولا في داخل البيوت فقد قبلوا منهم أن يعبد امرؤ ربه في بيته كيف يشاء إنما كانت مصوبة إلى هدف واحد ، ومقاومة لخطر واحد هو إعلان هذا القرآن ونشره بين العرب .

ولا يهجن في روعك أنهم ما تقموا من الإعلان بالقرآن إلا أنه دعوة جديدة إلى دين جديد فحسب . كلا ، فقد كان في العرب حنفاء من فحول الخطباء والشعراء وكانت خطبهم وأشعارهم مشحونة بالدعوة إلى ما دعا إليه القرآن من دين الفطرة . فما بالهم قد أهمهم من أمر محمد وقرآنه ما لم يعنهم من أمر غيره ؟ وما ذلك إلا أنهم وجدوا له شأنًا آخر لا يشبه شأن الناس ، وأنهم أحسوا في قرآنه قوة غلبة ، وتياراً جارفاً يريد أن ييسط سلطانه حيث يصل صدى صوته ، وأنهم لم يجدوا سبيلاً لمقاومته

من طريق المعارضة الكلامية التي هي هجّيراهم ، والتي هي الطريق المباشر الذي تحداهم به . فلا جرم كان الطريق الوحيد عندهم لمقاومته هو الحيلولة بمختلف الوسائل بين هذا القرآن وبين الناس مهما كلفهم ذلك من تضحية . وكذلك فعلوا . وكذلك مضت السنة فيمن بعدهم من أعداء القرآن إلى يومنا هذا

وأما الثالث فإنه لو كان عجزهم عن مضاهاة القرآن لعارض أصابهم حال بينهم وبين شيء في مقدورهم ، لما استبان لهم ذلك العجز إلا بعد أن يسطوا ألسنتهم إليه ، ويجربوا قدرتهم عليه ، لأنه ما كان لأمرى أن يحس بزوال قدرته عن شيء كان يقدر عليه كقدرته على القيام والقيود إلا بعد محاولة وتجربة . ونحن قد علمنا أنهم قعدوا عن هذه التجربة ، ولم يشرع منهم في هذه المحاولة إلا أقلهم عدداً وأسفهم رأياً . فكان ذلك آية على يأسهم الطبيعي من أنفسهم ، وعلى شعورهم بأن عجزهم عنهم عجز فطري عتيد ، كعجزهم عن إزالة الجبال ، وعن تناول النجوم من السماء ، وأنهم كانوا في غنى بهذا العلم الضروري عن طلب الدليل عليه بالمحاولات والتجارب .

على أنهم لو كانوا لم يعرفوا عجزهم عنه بادية ذي بدء وإنما أدركهم العجز بعد شعورهم بأنه في مستوى كلامهم ، لكان عجبهم إذاً من أنفسهم : كيف عيوا به وهو منهم على طرف التمام ؟ ولجعلوا يتساءلون فيما بينهم أي داء أصابنا فعقد ألسنتنا عن معارضة هذا الكلام الذي هو ككل كلام ؟ أو لرجعوا إلى بيانهم القديم قبل أن يصيبهم العجز فجاءوا بشيء منه في محاذاته . ولكنهم لم يجيئوا فيه بتقديم ولا جديد ، وكان القرآن نفسه هو مثار عجبهم وإعجابهم ، حتى إنهم كانوا يخرون سجداً لسماعه من قبل أن تمضي مهلة يوازنون فيها بينه وبين كلامهم ، بل إن منهم من كان يغلبه هذا الشعور فيفيض على لسانه اعترافاً صحيحاً . « ما هذا بقول بشر »

٤ — فإن قال : قد تبينت الآن أن سكوت الناس عن معارضة القرآن كان عجزاً ، وأنهم وجدوا في طبيعة القرآن سرّاً من أسرار الإعجاز يسمو به عن قدرتهم ولكنني لست أفهم أن ناحيته اللغوية يمكن أن تكون من مظان هذا السر ، لأنني أقرأ القرآن فلا أجده يخرج عن معهود العرب في لغتهم العربية :

فمن حروفهم رُكِّبت كلماتهم ومن كلماتهم ألفت جملة وآياته ، وعلى مناهجهم في التأليف جاء تأليفه . فأى جديد في مفردات القرآن لم يعرفه العرب من موادّها وأبنيتها ؟ وأى جديد في تركيب القرآن لم تعرفه العرب من طرائقها ولم تأخذ به في مذاهبها ، حتى نقول إنه قد جاءهم بما فوق طاقتهم اللغوية ؟ قلنا له : أما أن القرآن الكريم لم يخرج في لغته عن سنن العرب في كلامهم أفراداً وتركيباً فذلك في جملة حق لا ريب فيه . وبذلك كان أدخل في الإعجاز . وأوضح في قطع الأعدار

﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته . أعجمى وعربى ؟ ! ﴾

وأما بعد فهل ذهب عنك أن مثل صنعة البيان ، كمثل صنعة البنيان : فالمهندسون البناؤون ، لا يخلقون مادة بناء لم تكن في الأرض ، ولا يخرجون في صنعتهم عن قواعدها العامة ، ولا يعدو ما يصنعونه أن يكون جدراناً مرفوعة ، وسقفاً موضوعة ، وأبواباً مشرعة ، ولكنهم تتفاضل صناعتهم وراء ذلك ، في اختيار أمتن المواد وأبقاها على الدهر ، وأكثها للناس من الحر والقر ، وفي تعميق الأساس ، وتطويل البنيان ، وتخفيف المحمول منها على حامله ، والانتفاع بالمساحة اليسيرة في المرافق الكثيرة ، وترتيب الحجرات والأبهاء ، بحيث يتخللها الضوء والهواء ، فثم من يفى بذلك كله ، أوجله ، ومنهم من يخل بشيء منه ، أو أشياء ، إلى فنون من الزينة والزخرف ، يتفاوت الذوق الهندسى فيها ، تفاوتاً بعيداً . كذلك ترى أهل اللغة الواحدة ، يؤدون الغرض الواحد ، على طرائق شتى ، تاوت حفظها في احسن والقبول ، وما من لغة من كلامهم ، ولا وضع من أوضاعهم ، بخارج عن مواد اللغة وقواعدها في الجملة ، ولكن حسن الاختيار في تلك المواد والأوضاع ، قد يعلو بالكلام ، حتى يسترعى سمعك ، ويثلج صدرك ، ويملك قلبك ، وسوء الاختيار في شيء من ذلك ، قد ينزل به حتى تمجّه أذنك ، وتغنى منه نفسك ، وينفر منه طبعك .

ذلك أن اللغة ، فيها العام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والمجمل والمبين ، وفيها العبارة والأشارة ، والفحوى والإيحاء ، وفيها الخبر والإنشاء ، وفيها الجمل الإسمية والفعلية ، وفيها النفى والإثبات ، وفيها الحقيقة والمجاز ، وفيها الإطناب والإيجاز ، وفيها الذكر والحذف ، وفيها الابتداء والعطف ، وفيها التعريف والتنكير ، وفيها التقديم والتأخير ، وهلم جراً

ومن كل هذه المسالك ، ينفذ الناس إلى أغراضهم ، غير ناكبين بوضع منها عن أوضاع اللغة جملة ، بل هم في شعابها يتفرقون ، وعند حدودها يلتقون .

يبد أنه ليس شيء من هذه المسالك بالذى يجمل في كل موطن ، وليس شيء منها بالذى يقبح في كل موطن . إذاً لكان الأمر على طالبه ، ولأصبحت البلاغة في لسان الناس طعماً واحداً ، وفي سمعهم نغمة واحدة . كلا ، فإن الطريق الواحد ، قد يبلغك مأمناً حيناً ، ويقصّر بك عن غايتك حيناً آخر ، ورب كلمة تراها في موضع ما كالخرزة الضائعة ، ثم تراها بعينها في موضع آخر ، كالدرة اللامعة ، فالشأن إذاً في هذه الطرق أيها أحق بأن يسلك في غرض غرض ، وأيها أقرب توصيلاً إلى مقصد مقصد ، ففي الجدال ، أيها أقوم بالحجة ، وأدحض للشبهة ، وفي الوصف أيها أدق تمثيلاً للواقع ، وفي موطن اللين ، أيها أخف على الأسماع وأرفق بالطباع ، وفي موطن الشدة ، أيها أشد اطلاعاً على الأفتدة بتلك النار الموقدة ، وعلى الجملة ، أيها أوفى بحاجات البيان وأبقى بطراوته على الزمان .

والأمر في هذا الاختيار عسير غير يسير ، لأن مجال الاختيار كثير الشعب ، يختلف الألوان في صور المفردات والتراكيبات ، والناس ليسوا سواء في استعراض هذه الألوان ، فضلاً عن الموازنة بينها ، فضلاً عن حسن الاختيار فيها

فالجديد في لغة القرآن أنه في كل شأن يتناوله من شؤون القول ، يتخير له أشرف المواد ، وأمسها رحماً بالمعنى المراد ، وأجمعها للشوارد ، وأقبلها للامتزاج ، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها ، الذى هو أحق بها ، وهى أحق به : بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة ، وصورته الكاملة ، ولا يجد

اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين وقرارة المكين ، لا يوماً أو بعض يوم ، بل على أن تذهب العصور ، ويحییء العصور ، فلا المكان يريد بساكنه بدلاً ، ولا الساكن يبغي عن منزله حولاً ، وعلى الجملة يبيحك من هذا الأسلوب ، بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان .

هذا مطلب له دليله ، وإجمال له تفصيله ، وليس من قصدنا ، أن نعجلك الآن بالبحث في أدلته وتفاصيله ، وإنما أردنا أن نزيح عنك هذه الشبهة ، لتعلم أن ليس كل الكلام عربي ، ككل كلام عربي ، وأن هذه الناحية اللغوية ، جديرة بأن تتفاوت فيها القوى ، نازلة إلى حد العجز ، أو صاعدة إلى حد الإعجاز .

فإن أحببت أن تعرف للقرآن الكريم سبقه ، وبلوغه الغاية في هذا المضمار ، وأنت بعد لم ترزق قوة الفصل بين درجات الكلام ، فاعلم أنه لا سبيل لك إلى القضاء في هذا الشأن عن حس وخبرة ، وإنما سبيلك أن تأخذ حكمه سلماً عن أهله ، وتقنع فيه بشهادة العارفين به ، وإذاً يكون من حقت علينا أن نقدم لك مثلاً عن شهادتهم ، فخذ الآن هذا المثال :

جاء الوليد بن المغيرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قرأ عليه القرآن كأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال له ياعم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً ، ليعطوكه ، فإنك أتيت محمداً ، لتعرض لما قبله ، قال الوليد : لقد علمت قريش أني من أكثرها مالاً ، قال : فقل فيه قولاً ، يبلغ قومك أنك منكر له وكراره ، قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم مني بالشعر ، لا برجزه ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمير أعلاه ، مشرق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلو ، وإنه ليحطم ما تحته . . . الحديث رواه الحاكم عن ابن عباس . وقال صحيح على شرط البخاري .

فإذا أنت لم يهلك جمال العطاء ، عما تحته من الكنز الدفين ، ولم تحجبك بهجة الأستار ، عما وراءها من السر المصون ، بل فليت القشرة عن لبها ، وكشفت الصدفة عن درها ، فتفدت من هذا النظام اللفظي إلى ذلك النظام المعنوي ، تجلى لك ما هو أبهى وأبهر ، ولقيك منه ما هو أروع وأبدع .

لا نريد أن نحدثك ها هنا عن معاني القرآن وما حوته من العلوم الخارجة عن متناول البشر ، فإن لهذا الحديث موضعاً يبغي إن شاء الله في بحث الإعجاز العلمي ، وحديثنا كما ترى لا يزال في شأن الإعجاز « اللغوي » ، وإنما اللغة ألفاظ .

بيد أن هذه الألفاظ ، ينظر فيها ، تارة من حيث هي أبنية صوتية ، مادتها الحروف ، وصورتها الحركات والسكنات ، من غير نظر إلى دلالتها ، وهذه الناحية ، قد مضى لنا القول فيها آنفاً . وتارة من حيث هي أداة لتصوير المعاني ونقلها ، من نفس المتكلم إلى نفس المخاطب بها وهذه هي الناحية التي سنعالجها الآن ، ولا شك أنها هي أعظم الناحيتين أثراً في الإعجاز اللغوي ، الذي نحن بصددده ، إذ اللغات تتفاضل من حيث هي بيان ، أكثر من تفاضلها من حيث هي أجراس وأنغام .

(الشبه الخامسة والرد عليها)

هـ — سيقول السائل ، إذا انتهى معنا إلى هذا الموضع ، لقد أغلقتم عنا بهذا البيان باباً من الشك ، ولكنكم لم تلبثوا أن فتحتم علينا منه باباً جديداً ، ألم تقولوا لنا إن هذه الصناعة البيانية ، ليست في الناس بدرجة واحدة ، وإن القوى تذهب فيه متفاوتة ، على مراتب شتى ، فما نرى إذاً علينا من حرج ، أن نعد الإعجاز ، الذي حدثتمونا عنه أمراً مشاعاً ، يجري في أساليب الناس ، كما يجري في القرآن ، ألا ترون أن كل قائل ، أو كاتب ، إنما يضع في بيانه ، قطعة من عقله ووجدانه ، على الصورة التي تهديه إليها فطرته ومواهبه ؟ وأن اختلاف الناس في هذه الوسائل ، يتبعه البتة اختلاف طرائقهم في التعبير عن أغراضهم ؟ إنكم لتستطيعون أن تحصوا في اللغة العربية ، صوراً كلامية بعدة الناطقين بها ، بحيث لا تجدون كاتباً يكتب ، كما يكتب كاتب آخر على السواء ، ولا قارئاً كذلك ، بل إنتم لا محالة واجدون عند كل واحد منهاجاً خاصاً في الأداء ، فليس البدوى كالحضرى ، ولا الذكى كالغبي ، وليس الطائش كالحليم ، ولا المريض كالسليم ، وليس الأدنى في هذا الباب ، يستطيع الصعود إلى الأعلى ، ولا الأعلى ، يستطيع النزول إلى الأدنى ، بل المتشابهان فطرة ومزاجاً ، المتساويان تربية وتعليماً ، قد يشربان من كأس واحدة ، ثم لا يتناقضان بالكلام على صورة واحدة ، فكيف تأمرون الناس أن يجيئوكم بمثل القرآن ، وهم لا يقدرُونَ أن يجيء بعضهم بمثل كلام بعض ؟ وكيف تعدون عجزهم عن آية على قدسيته ، وأنتم لا تعدون عجز كل امرئ عن الإتيان بأسلوب غيره آية ، على أن ذلك الأسلوب ، صنع إلهى محض ، لا كسب فيه للذى جرى على لسانه ؟ أليس هذا القياس يسوِّغ لنا ، أن نفترض القرآن كلاماً بشرياً كسائر كلام البشر ، غير أنه اختص أسلوبه بخاصه ، كما اختص كل امرئ بأسلوب نفسه ؟

وجوابنا لهذا القائل أن نقول له : لسنا نماريك في أن كلام المتكلم ، إنما هو صورة تملئها عليه فطرته ومواهبه ، ولا في أن هذه الفطره والمواهب لتفاوتها عند أكثر الناس ، لا بد أن تترك أثرها من التفاوت في صور كلامهم ، ولا في أن تلك الفطر والمواهب إن تشابهت عند فريق من الناس ، فأملت عليهم صوراً متشابهة من القول ، فإنها لا تخرجها في عامة الأمر صورة واحدة .

كل هذا نسلمه ولا ننكره ، لا يضُرُّنا ولا يوهن شيئاً من حجتنا ، ذلك أننا حين نتحدى الناس بالقرآن ، ولا نطالبهم أن يجيئونا بنفس صورته الكلامية ، كلا .. ذلك ما لا يطمع فيه ، ولا ندعو المعارضين إليه ، وإنما نطلب كلاماً أيّاً كان نمطه ومنهاجه ، على النحو الذى يحسنه المتكلم أيّاً كانت

فطرته ومزاجه ، بحيث إذا قيس مع القرآن بمقياس الفضيلة البيانية ، حاذاه أو قاربه في ذلك المقياس ، وإن كان على غير صورته الخاصة ، فالأمر الذى ندعوهم إلى التماثل ، أو المقاربة فيه ، هو هذا المقدار الذى فيه يتنافس البلغاء ، وفيه يتماثلون أو يتقاربون ، وذلك غير المعارض والصور المعنية ، التى لابد من الاختلاف فيها بين متكلم ومتكلم ...

هب إذا المدعوين لمعارضة القرآن ، فيهم الأكفاء والأنداد لنبي القرآن ، فى الفطرة والسليقة الغربية ، أو من هم أكمل منه فيها ، أو هم جميعا دونه فى تلك المنزلة ، فأما الأعلون فسيجيئون على وفق سليفهم ، بقول أحسن من قوله ، وأما الأنداد فسيجيئون بشيء مثله ، وأما الآخرون فلن يكبر عليهم أن يقاربوا ويحيثوا بشيء من مثله ، وشيء من هذه المراتب الثلاث ، لو تم لكان كافياً ، فى رد الحجة وإبطال التحدى .

سنقول : بل اختار الواقع ، وهو أن العرب على اختلاف مراتبهم فى البيان ، لم يرتفعوا إلى طبقة البلاغة المحمدية ، وأزعم أن هذا القصور الذاتى الذى قعد بهم عن مجاراته فى عامة كلامه ، هو الذى قعد بهم عن معارضة قرآنه ، إذاً لا يكون هذا العجز حجة لكم على قدسية الأسلوب القرآنى ، كما لم يكن حجة عندكم على قدسية الأسلوب النبوى .

فنجيب : أما أن محمداً ﷺ ، كان هو أفصح العرب وكان له فى هذه الفضيلة البيانية المقام الأول بينهم غير مزاحم ، فذلك ما لا نمارى — بل لا نمتري — فيه نحن ولا أحد ممن يعرف العربية ، غير أننا نسأل ما مبلغ هذا التفاوت الذى كان بينهم وبينه ؟ أكان مما يتفق مثله فى مجارى العادات ، وبين بعض الناس وبعض فى حدود القوة البشرية ، أم كان أمراً شاذاً خارقاً للعادة بالكلية ؟

فأما إن كان كما نعهد شبيهاً بما يكون فى العادة بين البليغ والأبلغ ، وبين الحسن والأحسن ، فلا شك أن هذا النحو من الحلو إن حال بينهم وبين الجيء بمثل كلامه كله ، لم يكن ليحول بينهم وبين قطعة واحدة منه ، ولئن أعجزهم أن ينزلوا منه بمكان قريب ، ألا وإننا قد أرخينا لهم العنان فى معارضة القرآن بهذا أو ذاك ، وأغمضنا لهم فيما يحيئوننا أن يكون كلا أو (بعضاً) ، وكثيراً أو يسيراً ، ومماثلاً أو قريباً من المماثل ، فكان عجزهم عن ذلك كله سواء .

وأما إن قيل : أن التفاوت بينه على السواء وبين سائر البلغاء ، كان إلى حد انقطاع صلتهم به جملة ، ولا اختصاصه من بين العرب ومن بين الناس بفطرة شاذة ، وتنتسب إلى سائر الفطر فى قليل

ولا كثير إلا كما تنتسب القدرة الى العجز ، أو الإمكان إلى الاستحالة ، فلا شك أن القول بذلك ، هو أخو القول بأن من الإنسان ، لا يكون من عمل الإنسان ، ذلك أن الطبيعة الإنسانية العامة واحدة ، والطبائع الشخصية تقع فيها الأشباه والأمثال في الشيء بعد الشيء ، وفي الواحد بعد الواحد ، إن لم يكن ذلك في كل عصر ، ففي عصور متطاولة ، وإن لم يكن في كل فنون الكلام ، ففي بعض فنونه .
وكم رأينا من أناس كثيرة ، تتشابه قلوبهم وعقولهم وألستهم ، فتوافق خواطرهم وعباراتهم حيناً ، وتتفاوت أحياناً ، حتى لقد خيل إليك أن الروح السارى في القولين ، روح واحد ، وأن النفس ها هنا هو النفس هناك ، وكذلك رأينا من الأدباء المتأخرين ، من يكتب بأسلوب ابن المقفع وعبد الحميد ومن يكتب بأسلوب الهمداني والحوارزمي ، وهلم جرا .

فلو كان أسلوب القرآن ، من عمل صاحبه الإنسان ، لكان خليقاً أن يجيء بشيء من مثله ، من كان أشبه بهذا الإنسان مزاجاً ، وأقرب إليه هدياً وسمتاً ، وألصق به رحماً ، وأكثر عنه أخذاً وتعلماً ، أو لكان جديراً بأصحابه ، الذين نزل القرآن بين أظهرهم فقرأوا واستظهروه ، وتذوقوا معناه وتمثلوه ، وترسموا خطواته ، واغترفوا من مناهله ، أن يدينوا أسلوبهم شيئاً من أسلوبه على ما تقضى به غريزة التأسي ، وشيمة نقل الطباع من الطباع ، ولكن شيئاً من ذلك كله لم يكن ، وإنما كان قصارى فضل البليغ فيهم ، كما هو جهد البليغ فينا ، أن يظفر بشيء يقتبسه منه في تضاعيف مقالته ، ليزيدها به علواً ونباهة شأن .

بل نقول : لو كان الأسلوب القرآني صورة لتلك الفطرة المحمدية ، لوجب على قياس ما أصَّلته من المقدمات ، أن ينطبع من هذه الصورة على سائر الكلام المحمدي ، ما أنطبع منها على أسلوب القرآن ، لأن الفطرة الواحدة ، لا تكون فطرتين ، والنفس الواحدة ، لا تكون نفسين ، ونحن نرى الأسلوب القرآني ، فراه ضرباً واحده ، ونرى الأسلوب النبوي ، فراه ضرباً واحده ، لا يجري مع القرآن في ميدانه ، إلا كما تجري محلقات الطير في جو السماء ، لا تستطيع إليها صعوداً ، ثم نرى أساليب الناس ، فنراها على اختلافها ضرباً واحداً ، لا تعلو عن سطح الأرض ، فمنها ما يجبو حبواً ، ومنا ما يشتد عدواً ، ونسبة أقوالها إلى القرآن ، كنسبة هذه « السيارات » الأرضية إلى تلك « السيارات » السماوية .

نعم لقد تقرأ القطعة من الكلام النبوي ، فتطمع في إقتناصها ومجاراتها ، كما تطمع في إقتناص الطائر أو مجاراته ، ولقد تقرأ الكلمة من الحكمة ، فيشبه عليك أمرها ، أمن كلمات النبوة هي ، أم من كلمات الصحابة أو التابعين ، ذلك على ما علمت من امتياز الأسلوب النبوي ، بمزيد الفصاحة ،

ونقاء الديباجة ، واحكام السّد ، ولكنه امتياز ، قد يدق على غير المنتهين في هذا الفن ، وقد يقصر الذوق وحده عن إدراكه ، فيلجأ إلى النقل يستعينه في تميز بعض الحديث المرفوع ، من الحديث الموقوف أو المقطوع .

أما الأسلوب القرآني ، فإنه يحمل طابعاً ، لا يلتبس معه غيره ، ولا يجعل طامعاً ، يطمع أن يحوم حول جماء ؟ بل يدع الأعناق تشرب إليه ، ثم يردها ناكسة الأذقان على الصدور

فإن كان السائل من طلاب الحق كما وصفنا ، وانتهى من بحثه إلى حيث أشرنا ، فأبصر وسمع ، وقايس ووازن وذاق ووجد ، فسوف يتقدم إلينا بكلمته الأخيرة قائلاً : نعم لقد نثلت كنانة الكلام بين يدي ، وعجمت سهامها ، فما وجدت كالقرآن أصلي عوداً ، ولقد وردت مناهل القول وتذوقت طعومها فما وجدت كالقرآن أعذب مورداً ، والآن آمنت أنه كما وصفتموه ، نسيج وحده ، وأنه يعلو ولا يعلى ، وأنه يحطم ما تحته ، غير أنني وقد أدركت من قوة الأسلوب القرآني وحلاوته ما أدركت — ما يزال الذي أحسُّ به من ذلك معني بتجمجم في الصدر ، لا حسن تفسيره ولا أملك تعليقه . وما زالت النفس بعد هذا وذلك ، نزاعة إلى درس تلك الخصائص والمزايا ، التي استأثر القرآن بها عن سائر الكلام ، وكان فيها سر إعجازه اللغوي ، فهل من سبل إلى عرض شيء من ذلك علينا ، لتطمئن قلوبنا ، ونزداد إيماناً إلى إيماننا ؟

نقول : أما الآن ، فقد — والله — طلبت منا جسيماً ، وكلفتنا مراماً بعيداً ، لمثله انتدب العلماء والأدباء من قبلنا وفي عصرنا ، فحفيت من دونه أعلامهم ، ولم يزيدوا إلا أن ضربوا له الأمثال ، واعترفوا بأن ما نخفي عليهم منه أكثر مما فطنوا له ، وأن الذي وصفوه بما أدركوه ، أقل مما ضاقت به عباراتهم ، ولم تقف به إشاراتهم .

ونحن وقد أفضت إلينا النوية من بعدهم ، هل تحسب أننا سنسلك سبيلاً غير سبيلهم ، فنزعم أننا في هذه العجالة ، سنبرز لك سر الإعجاز جملة ؟ كلا ، ولا استقراء ما كشفه الناس من جوانبه ، كلا ولا استقصاء ما نحسه نحن من تلك الجوانب وإنما نريد أن نصور لك بعض تلك الخصائص ، التي تلاقينا من كتاب الله كلما سمعناه ، أو تلوناه وتدبرناه ، لعلك واجد في القليل منها ما لا تجده في الكثير ، مما يعده الناس ، فإن زادك الناس من ذلك أنواعاً ، رجونا أن نزيدك من النوع الواحد إقناعاً وانتفاعاً .

أول ما يفاجؤك

أول ما يلاقيك ويسترعى انتباهك من أسلوب القرآن الكريم ، خاصية تأليفه الصوتي في شكله وجوهه .

دع القارئ المجوّد ، يقرأ القرآن ، ويرتله - حق ترتيله نازلاً بنفسه على هوى القرآن وليس نازلاً بالقرآن على هوى نفسه ، ثم انتبذ منه مكاناً قصياً ، لا تسمع فيه جرس حروفه ، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها ، ومدّاتها وعنّاتها ، واتصالاتها وسكناتها ، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية وقد جرّدت تجريداً ، وأرسلت ساذجة في الهواء ، فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب ، لا تجده في كلام آخر لو جرّد هذا التجريد ، وجود هذا التجويد .

ستجد اتساقاً وائتلافاً ، يسترعى من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر ، على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر ، وستجد شيئاً آخر ، لا تجده في الموسيقى ولا في الشعر ، ذلك أنك تسمع القصيدة من الشعر ، فإذا هي تتحد الأوزان فيها بيتاً بيتاً ، وشطراً شطراً ، وتسمع القطعة من الموسيقى ، فإذا هي تتشابه أهواؤها ، وتذهب مذهباً متقارباً فلا يلبث سمعك أن يمّجها ، وطبعك أن يملّها ، إذا أعيدت وكررت عليك بتوقيع واحد ، بينما أنت من القرآن أبداً في لحن متنوع متجدد ، تنتقل فيه بين أسباب وأوتاد ونواصل على أوضاع مختلفة ، يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء ، فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم ، بل لا تفتأ تطلب منه المزيد .

هذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن ، لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن ، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب ، فكيف يخفى على العرب أنفسهم ؟

وترى الناس قد يتساءلون ، لماذا كانت العرب إذا اختصمت في القرآن ، قارنت بينه وبين الشعر نفيّاً وإثباتاً ، ولم تعرض لسائر كلامها من الخطابة وغيرها ؟

وأنت فهل تبينت هاهنا الجواب ، وهديت إلى السر الذى فطنت له العرب ، ولم يفطن له المستعربون ؟

إن أول شيء أحسسته تلك الأذن العربية فى نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتى البديع ، الذى قسمت فيه الحركة والسكون ، تقسيماً منوعاً ، يجدد نشاط السامع لسماعه ، ووزعت فى تضاعيفه حروف المد والغنة ، توزيعاً بالقسط ، يساعد على ترجيع الصوت به ، وتهادى النفس فيه آناً بعد آناً ، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى ، فيجد عندها راحته العظمى ، وهذا النحو من التنظيم الصوتى ، إن كانت العرب قد عمدت إلى شيء منه فى أشعارها ، فذهبت فيها إلى حد الإسراف فى الاستهواء ، ثم إلى حد الإملال فى التكرير ، فإنها ما كانت تعهده قط ، ولا كان يتبها لها بتلك السهولة فى منشور كلامها ، سواء منه المرسل والمسجوع ، بل كان يقع لها فى أجود نثرها عيوب ، تغض من سلاسة التركيب ، ويمكن معها إجادة ترتيله ، إلا بإدخال شيء عليه ، أو حذف شيء منه .

لا عجب إذاً إن يكون أدنى الألقاب إلى القرآن فى خيال العرب أنه شعر ، لأنها وجدت فى توقعه هزة لا تجد شيئاً منها إلا فى الشعر ، ولا عجب أن ترجع إلى أنفسها ، فتقول : ما هو بشعر لأنه — كما قال الوليد : ليس على أعاريض الشعر فى رجزه ، ولا فى قصيدة ، ثم لا عجب أن تجعل مردّ هذه الحيرة أخيراً ، إلى أنه ضرب من الحد ، لأنه جمع بين طرفى الإطلاق والتقييد فى حد وسط ، فكان له من النثر جلاله وروعته ، ومن الشعر جماله ومتعته .

فإذا ما اقتربت بأذنيك قليلاً قليلاً ، فطرق سمعك جواهر حروفه خارجه من مخارجها الصحيحة ، فاجأتك منه لمدة أخرى فى نظم تلك الحروف ، ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها . هذا يكبر وذاك يصغر ، وثالث يهمس ورابع يجهر ، وآخر ينزل على النفس ، وآخر يحتبس عنده النفس وهلم جرا ، فترى الجمال اللغوى ماثلاً أمامك فى مجموعة مختلفة مؤتلفة ، لا كركرة ولا ثرثرة ، ولا رخاوة ولا معازلة ، ولا تناكر ولا تنافر وهكذا ترى كلاماً ليس بالحضري الفاتر ، ولا بالبدوى الخشن ، بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها برقة الحاضرة وسلامتها ، وقدر فيه الأمران تقديراً لا يبغي بعضها على بعض . فإذا مزيج منهما ، كأنما هو عصارة اللغتين أو كأنما هو نقطة الاتصال بين القبائل ، عندها تلتقى أذواقهم ، وعليها تأتلف قلوبهم .

من هذه الخصوصية والتي قبلها ، تتألف القشرة السطحية للجمال القرآنى ، وليس الشأن فى هذا الغلاف إلا كشأن الأصداف مما تحويه من اللآلى النفيسة ، فإنه جلت قدرته ، قد أجرى سنته فى نظام هذا العالم ، أن يغشى جلائل أسرارهِ بأستار لا تخلو من متعة وجمال ، ليكون ذلك من عوامل

حفظها وبقائها بتنافس المتنافسين فيها ، وحرصهم عليها ، انظر كيف جعل باعته الغذاء ، ورابطة المحبة قواماً لبقاء الإنسان فرداً وجماعة ، فكذاك لما سبقت كلمته أن يصون علينا نفائس العلوم ، التي أودعها هذا الكتاب الكريم ، قضت حكمته أن يختار لها صواناً يحببها إلى الناس بعذوبته ، ويغريهم عليها بظلالوته ، ويكون بمنزلة « الحذاء » يستحث النفوس على السير إليها ، ويهون عليها وعناء السفر في طلب كمالها ، لا جرم اصطفى لها من هذا اللسان العربي المبين ذلك القلب العذب الجميل ، ومن أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبداً في أفواه الناس وآذانهم ، مادامت فيهم حاسة تذوق ، وحاسة تسمع ، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب ، يفقهون بها حقيقة سره ، وينفذون بها إلى بعيد غوره (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)^(١) .

هل عرفت أن نظم القرآن الكريم ، يجمع الى الجمال عزة وغرابة ؟ وهل عرفت أن هذا الجمال ، كان قوة إلهية حفظ بها القرآن من الفقد والضياع ؟

فاعرف الآن أن هذه الغرابة ، كانت قوة أخرى قامت بها حجة القرآن في التحدى والإعجاز ، وأعتصم بها من أبدى المعارضين والمبدلين ، وأن ذلك الجمال ، ما كان ليكفى وحده في كف أيديهم عنه ، بل كان أجدر أن يغريهم به ، ذلك أن الناس — كما يقول الباقلاني (في كتابه : إعجاز القرآن) — إذا استحسنوا هذه الصناعة ، يتبع بعضهم بعضها فيما يستجيدونه من الأساليب ، وربما أدرك اللاحق فيهم شأن السابق ، أو أرى عليه ، كما صنع ابن العميد بأسلوب الجاحظ ، وكما يصنع الكتاب والخطباء اليوم ، في اقتداء بعضهم ببعض ، وأساليب الناس على اختلاف طرائفها في النثر والشعر إلا مناهل مورودة ، ومسالك معبدة ، تؤخذ بالتعلم ، وتراضى الألسنة والأقلام عليها بالمرانة ، كسائر الصناعات .

فما الذي منع الناس أن يخضعوا أسلوب القرآن لألسنتهم وأقلامهم ، وهم شرع في إستحسان طريقتهم ، وأكثرهم الطالبون لإبطال حجته ؟ ما ذاك إلا أن فيه منعة طبيعية ، كفت ولا تزال تكف أيديهم عنه ، ولا ريب أن أول ما تلاقيك هذه المناعة فيما صورناه لك من غريب تأليفه في بنيته ، وما أتخذه في رصف حروفه وكلماته ، وجمله وآياته ، من نظام له سمت وحده ، وطابع خاص به ، خرج فيه عن هيئة كل نظم تعاطاه الناس أو يتعاطونه ، فلا جرم ، لم يجدوا له مثلاً يحاذونه به ، ولا سبيلاً يسلكونه إلى تذليل منهجه ، وآية ذلك أن أحداً لو حاول أن يدخل عليه شيئاً من كلام الناس ، من السابقين منهم أو اللاحقين ، من الحكماء أو البلغاء ، أو النبيين والمرسلين لأفسد بذلك مزاجه في فهم كل قارئ ، ولجعل نظامه يضطرب في أذن كل سامع ، وإذاً لناذى الداخل على نفسه بأنه واغل دخيل ،

ولنفاه القرآن عن نفسه ، كما ينفي الكير خبث الحديد ﴿ وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾^(١) .

فإذا أنت لم يُلْهَكْ جمال العطاء ، عما تحته من الكنز الدفين ، ولم تحجبك بهجة الأستار ، عما ورأها من السر المصون ، بل فليست القشرة عن لبها ، وكشفت الصدفة عن درّها ، فنفدت من هذا النظام اللفظي إلى ذلك النظام المعنوي ، تجلى لك ما هو أبهى وأبهر ، ولقيتك منه ما هو أروع وأبدع .

لا نريد أن نحدثك ها هنا عن معاني القرآن وما حوته من العلوم الخارجة عن متناول البشر ، فإن هذا الحديث موضعاً يحىء إن شاء الله في بحث الإعجاز العلمي ، وحديثنا كما ترى لا يزال في شأن الإعجاز « اللغوي » وإنما اللفظ ألفاظ .

بيد أن هذه الألفاظ ، ينظر فيها ، تارة من حيث هي أنية صوتية ، ما دتها الحروف ، وصورتها الحركات والسكنات ، من غير نظر إلى دلالتها ، وهذه الناحية ، قد مضى لنا القول فيها آنفاً . وتارة من حيث هي أداة لتصوير المعاني ونقلها ، من نفس المتكلم إلى نفس المخاطب بها ، وهذه هي الناحية التي سنعالجها الآن ، ولا شك أنها هي أعظم الناحيتين اثراً في الإعجاز اللغوي ، الذي نحن بصددده ، إذ اللغات تتفاضل من حيث هي بيان ، أكثر من تفاضلها من حيث هي أجراس وأنغام .

أما النظر في المعاني القرآنية ، من جهة ما فيها من العلوم العجيبة ، فتلك خطوة أخرى ، ونظرة خارجة عن البحث اللغوي جملة ، إزاء الفضيلة البيانية ، إنما تعتمد دقة التصوير ، وإجادة التعبير عن المعنى كما هو ، سواء عندها أن يكون ذلك المعنى من جنس ما تتناوله عقول الناس أو لا يكون ، بل سواء عندها أن يكون ذلك المعنى حقيقة أو خيالاً ، وأن يكون هدى في نفسه على أى صورة أخرجته ، وبأى لغة عبرت عنه .

نعم قد تتفاوت اللغات في الوفاء بحق المعنى ، فيكون التعبير الجيد مما يزيد في قيمته العلمية ، لكن النظر ههنا في قيمة البيان لا في قيمة المبين ، فلا تعجل عجل علينا بتلك النظرة العلمية ، حتى نفرغ من هذه النظرة اللغوية .

والآن فنبدأ وصفنا لبعض خصائص القرآن البيانية . ولنرتبها على أربعة مراتب :

١ — القرآن في قطعة قطعة منه .

٢ — القرآن في سورة سورة منه .

٣ — القرآن فيما بين بعض السور وبعض

٤ — القرآن في جملته .

« القرآن في قطعة قطعة منه »

لبينا ندرى والله ماذا نقول لك في أسلوب معجز في وصفه ، كما هو معجزة في نفسه ؟ غير أننا نقول كلمة هي جملة القول فيه ، وهي أنه « تلتقى عنده نهايات الفضيلة كلها ، على تباعد ما بين أطرافها » . هذه كلمة تحتاج تفسيراً طويلاً يمتلئ به الصدر ، ولا ينطلق به اللسان ، وكل ما سنحاوله أن نفسر لك جانباً منها بقدر الطاقة ، غير أننا قبل أن نحدثك في هذا الجانب عن القرآن ، سنحدثك عن كلام الناس حديثاً ، يفهمه كل من عاج صنع البيان بنفسه ، لتعرف من وجوه النقص هاهنا ، وجوه الكمال هناك ، ومن أبواب العجز هاهنا ، أسباب الإعجاز هناك ! .

« القصد في اللفظ » و « الوفاء بحق المعنى »

نهایتان كل من حاول أن يجمع بينهما ، وقف منهما موقف الزوج بين ضرتين لا يستطيع أن يعدل بينهما دون ميل ما إلى إحداهما :

فالذي يعتمد إلى ادخار لفظه وعدم الإنفاق منه إلا على حد الضرورة لا ينفك من أن يحيف على المعنى قليلاً أو كثيراً ، ذلك أنه إما أن يؤدي لك مراده جملة لا تفصيلاً ، فيكون سبيله سبيل من يقول في باب الحاجة : « صدقوا ، أو كذبوا » وفي باب الوصف « حسن ، أو قبيح » وفي باب الإخبار « كان أو لم يكن » وفي باب الطلب « افعل ، أو لا تفعل » لا زائد على ذلك ، وإما أن يذهب فيه إلى شيء من التفصيل ، ولكنه إذ يأخذه الحذر من الإكثار والإسراف ، يبذل جهده في ضم أطرافه ، وحذف ما استطاع من أدوات التمهيد والتشويق ، ووسائل التقرير والتثبيت ، وما إلى ذلك مما تمس إليه حاجة النفس في البيان ، حتى يخرج ثوباً متقلصاً يقصر عن غايته ، أو هيكلًا من العظم ، لا يكسوه لحم ولا عصب ، ورب حرف واحد ينقص من الكلام يذهب بمائه ورونقه ، ويكشف شمس فصاحته ، ورب اختصار يطوى الكلام طياً ، يزهق روحه ، ويعمى طريقه ؛ ويرد إيجازه عياً وإلغازاً .

والذي يعتمد إلى الوفاء بحق المعنى وتحليله إلى عناصره ؛ وإبراز كل دقائقه بقدر ما يحيط به علمه ، وما يؤديه إليه إلهامه لا يجد له بُدأً من أن يمد في نفسه مدأً ، لأنه لا يجد في القليل من اللفظ ما يشفي صدره ، ويؤدي عن نفسه رسالتها كاملة فإذا أعطى نفسه حظها من ذلك ، لا يلبث أن يباعد ما بين

أطراف كلامه ، ويطيء بك في الوصول إلى غايته ، فتحس بقوة نشاطك ، وباعثة إقبالك ، اجتذبتين في التفاؤل والاضمحلال ، إن عامة من نعرفهم من الفصحاء قدامى ومحدثين ، يؤتون من هذا الجانب غالباً ، أعني جانب الإملاك والإسراف ، لا جانب الإخلال والإجحاف ، وأكثرهم تجمع بهم شهوة البيان إلى أبعد من هذا الحد « فمنهم » من يذهب إلى التكلف والتفصح ، باستعمال الغريب من المفردات والتراكيب ، فيكلفك أن تبدى وتعيد ، وتقبل وتدبر ، حتى تهتدى إلى وجه مراده ، وهكذا لا يزداد كلامه بالبسط إلا ضعفاً عن الفهم . « ومنهم » من يُلقى حول المعنى ركاماً من الحشو والفضول ، ينوء بحمله ، أو يلبسه ثوباً فضفاضاً من المترادف والمتقارب ، يتعثر في أذْياله ، يحسب أنه يوفى لك المعنى ويحدده ، وفي الحق إنما ينشده ويبدده ، ولعل أمثل هؤلاء طريقة من لو حذفت شطر كلامه ، لأغناك عنه ثاني شطريه ...

ولئن ظفرت بأحد وفق لتقريب نيتك الغائتين إلى حد ما ، في جملة أو جملتين ، فتربص به كيف أمره بعد ذلك ، وانظر كيف يدركه الكلال والإعياء وفترة الطبع الإنساني ، فينحل من عقدة كلامه ، ما كان وثيقاً ، ويدبل من زهرته ، ما كان غصناً طرياً ، ثم لا يعود إلى قوته إلا في الشيء بعد الشيء ، كما تصادف في التراب قطعة من التبر هاهنا ، وقطعة هناك ، فتقول ؛ هذا نفيس جيد ، وهذا أنفس وأجود ، وهذا هو واسطة العقد وبيت القصيد .

سل العلماء بنقد الشعر والكلام :: « هل رأيت قصيدة ، أو رسالة كلها أو جلها معنى ناصع ، ولفظ جامع ، ونظم رائع ؟ لقد أجمعت كلماتهم على أن أبرع الشعراء ، لم يبلغوا مرتبة الإجادة ، إلا في أبيات محدودة ، من قصائد معدودة ، وكان لهم من وراء ذلك المتوسط والردىء ، والغث والمستكره ، وكذلك قالوا في الكتاب والخطباء ، والأمر فيهم أبين .

فإن سرك أن ترى كيف تجتمع هاتان الغائتان على تمامهما بغير فترة ولا انقطاع ، فانظر حيث شئت من القرآن الكريم ، تجد بياناً قد قدر على حاجة النفس أحسن تقدير ، فلا تحس فيه بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقدير ، يؤدي لك من كل معنى صورة نقية وافية . « نقية » لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها ، « وافية » لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ، ولواحقها الكمالية ، كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه ، ففي كل جملة منه ، جهاز من أجهزة المعنى ، وفي كل كلمة منه ، عضو من أعضائه ، وفي كل حرف منه ، جزء بقدره ، وفي أوضاع كلماته من جملة ، وأوضاع جملة من آياته سر الحياة الذي ينتظم المعنى بأدائه ، وبالجملة ترى كما يقول الباقلاني : « محاسن متوالية ، وبدائع تترى » .

ضع يدك حيث شئت من المصحف ، وعد مأخضته كفك الكلمات عدداً ، ثم أحص عدتها من أبلغ كلام تختاره خارجاً عن الدفتين ، وانظر نسبة ما حواه هذا الكلام من المعاني إلى ذاك ، ثم انظر : كل كلمة تستطيع أن تسقطها ، أو تبدلها من هذا الكلام ، دون إخلال بغرض قائله ؟ وأي كلمة تستطيع أن تسقطها ، أو تبدلها من هذا الكلام ، دون إخلال بغرض قائله ؟ فكتاب الله تعالى كما يقول ابن عطية — : « لو نزعته منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب لفظة أحسن منها لم توجد » بل هو كما وصفه الله : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾^(١)

(ج - د)

« خطاب العامة » و « خطاب الخاصة »

وهاتان غايتان عند الناس ، فلو أنك خاطبت الأذكىء بالواضح المكشوف ، الذي تخاطب به الأغبياء ، لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب ، ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة ، التي تخاطب بها الأذكىء ، لجثتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم ، فلا غنى لك — إن أردت أن تعطى كلتا الطائفتين حظها كاملاً من بيانك — أن تخاطب كل واحدة منهما بغير ما تخاطب به الأخرى ، كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال ، فأما أن جملة واحدة ، تلقى إلى العلماء والجهلاء ، وإلى الأذكىء والأغبياء ، وإلى السوق والملوك ، فيراها كل منهم مقدرة على مقياس عقله ، وعلى وفق حاجته ، فذلك ما لا تجده على أئمة ، إلا في القرآن الكريم ، فهو قرآن واحد يراه البلغاء ، أو في كلام بلطائف التعبير ، ويراه العامة ، أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم ، لا يلتوى على أفهامهم ، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة ، فهو متعة العامة والخاصة على السواء ، ميسر لكل من أراد ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾^(٢) .

(ه - و)

« إقناع العقل » و « إقناع العاطفة » .

وفي النفس الإنسانية قوتان ، قوة التفكير ، وقوة الوجدان ، وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها ، فأما إحداها فتنب عن الحق لمعرفة ، وعن الخير للعمل به ، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم ، والبيان التام ، هو الذي يوفى لك هاتين الحاجتين ، ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين ، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية ، والمتعة الوجدانية معاً .

١ — هود آية : ١

٢ — القمر آية رقم : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠

لقد عرفنا كلام العلماء والحكماء ، وعرفنا كلام الأدباء والشعراء ، فما وجدنا من هؤلاء ولا هؤلاء ، إلا غلوا في جانب ، وقصوراً في جانب . (فأما الحكماء) فإنما يؤدون إليك ثمار عقولهم غذاء لعقلك ، ولا تتوجه نفوسهم إلى استهواء نفسك ، واختلاب عاطفتك ، فتراهم حين يقدمون إليك حقائق العلوم ، لا يأبهون لما فيها من جفاف وعري ونبو عن الطباع . (وأما الشعراء) فإنما يسعون إلى استثارة وجدائك ، وتحريك أوتار الشعور من نفسك ، فلا يبالون بما صوّروه لك أن يكون غياً ، أو رشداً ؛ وأن يكون حقيقة ، أو تخيلاً ، فتراهم جادين ، وهم هازلون ، يستبكون وإن كانوا لا يكونون ، ويطربون وإن كان لا يطربون ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾^(١) .

وكل امرئ حين يفكر ، فإنما هو فيلسوف صغير ، وكل امرئ حين يحس ويشعر ، فإنما هو شاعر صغير ، فسل علماء النفس « هل رأيتم أخطأ ، تتكافأ فيه قوة التفكير ، وقوة الوجدان ، وسائر القوى النفسية على سواء ، ولو مالت هذه القوى إلى شيء من التعادل ، عند قليل من الناس ، فهل ترونها تعمل في النفس دفعة وبنسبة واحدة ؟ يجيبونك بلسان واحد كلا : بل لا تعمل إلا مناوبة في حال بعد حال ، وكلما تسلطت واحدة منهن ، أضمحلت الأخرى ، وكاد ينمحي أثرها ، فالذى ينهك في التفكير تتناقض قوة وجدانه ، والذي يقع تحت تأثير لذة أو ألم ، يضعف تفكيره ، وهكذا لا تقصد النفس الإنسانية إلى هاتين الغايتين قصداً واحداً ، وإلا لكانت مقبلة مدبرة معاً ، وصدق الله : ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾^(٢) .

وأما أن أسلوباً واحداً ، يتجه اتجاهاً واتحداً ، ويجمع في يديك هذين الطرفين معاً ، كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أوراقاً وأزهاراً وأثماراً معاً ، أو كما يسرى الروح في الجسد والماء في العود الأخضر ، فذلك مالا تظفر به في كلام بشر ، ولا هو من سنن الله في النفس الإنسانية .

فمن لك إذا بهذا الكلام الواحد ، الذي يجيء من الحقيقة البرهانية الصارمة ، بما يرضى حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين ، ومن المتعة الوجدانية الطيبة ، بما يرضى حتى هؤلاء الشعراء المرحّين ؟

ذلك الله رب العالمين ، فهو الذي لا يشغله شأن عن شأن ، وهو القادر على أن يخاطب العقل

١ — الشعراء الآيات : ٢٢٤ — ٢٢٦

١ — الأحزاب آية : ٤

والقلب معاً بلسان ، وأن يمزج الحق والجمال معاً ، يلتقيان ولا يبغيان ، وأن يخرج من بينهما شراباً خالصاً سائغاً للشاربين ، وهذا هو ما تجده في كتابه الكريم ، حيثما توجهت ألا تراه في فسحة قصصه وأخباره لا ينس حق العقل من حكمة وعبره ؟ (أقرأ مثلاً سورة القصص وسورة يوسف) أو لا تراه في معمعة براهينه وأحكامه ، لا ينس حظ القلب من تشويق وترقيق ، وتحذير وتنفير ، وتهويل وتعجيب ، وتبكيك وتأنيب ؟ يث ذلك في مطالع آياته ، ومقاطعها وتضاعيفها ﴿ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾^(١) و ﴿ إنه لقول فصل وما هو بالهزل ﴾^(٢) .

(ز - ح)

« البيان » و « الإجمال »

وهذه عجيبة أخرى ، تجدها في القرآن ، ولا تجدها فيما سواه ، ذلك أن الناس إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم ، لم تتسع لتأويل ، وإذا أجملوها ، ذهبوا إلى الإبهام والإلباس ، أو إلى اللغو الذي لا يفيد ، و يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان في كلام واحد ، وتقرأ القطعة من القرآن ، فتجد في ألفاظها من الشفوف والملاسة والإحكام ، والخلو من كل غريب عن الغرض ، ما يتسابق به مغزاها إلى نفسك ، دون كذا خاطر ، ولا استعادة حديث ، كأنك لا تسمع كلاماً ولغات ، بل ترى صوراً وحقائق ماثلة ، وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به خيراً ، ووقفت على معناه محدوداً ... هذا ولو رجعت إليه كرة أخرى ، لرأيتك منه بإزاء معنى جديد ، غير الذي سبق إلى فهمك أول مرة ، وكذلك حتى ترى للجملة الواحدة ، أو الكلمة الواحدة وجوهاً عدة ، كلها صحيحة ، أو محتملة الصحة ، كأنما هي فص من الماس ، يعطيك كل ضلع منه شعاعاً ، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة ، بهرتك بألوان الطيف كلها ، فلا تدري ماذا تأخذ عينك ، وماذا تدع ، ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك ، لرأى منها أكثر مما رأيت ، وهكذا تجد كتاباً مفتوحاً مع الزمان ، يأخذ كل منه ما يسر له ، بل ترى محيطاً مترامياً الأطراف ، لا تحده عقول الأفراد ولا الأجيال .

وهذا مثل صغير : أقرأ قوله تعالى : ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ — الآية ٢١٢ من سورة البقرة — وانظر هل ترى كلاماً أبين من هذا في عقول الناس .

ثم انظر كم في هذه الكلمة من مرونة ، فإنك لو قلت في معناها : إنه سبحانه يرزق من يشاء بغير محاسب يحاسبه ، ولا هائل يسأله ، لماذا ييسط الرزق لهؤلاء ، ويقدره على هؤلاء ، أصبت . ولو

١ — الزمر آية : ٢٣

٢ — الطارق الآيتان : ١٣ — ١٤

قلت إنه يرزق من يشاء من حيث لا ينتظر ولا يحتسب ، أصبت ، ولو قلت : إنه يرزقه بغير معاتبة ومناقشة له على عمله ، أصبت . ولو قلت : يرزقه كثيراً لا يدخل تحت حصر ولا حساب ، أصبت ، فعلى الأول يكون الكلام تقريراً لقاعدة الأرزاق في الدنيا ، وأن نظامها لا يجري على حسب ما عند المرزوق ، من استحقاق بعلمه أو عمله ، بل تجرى وفقاً لمشيئته وحكمته سبحانه في الابتلاء ، وفي ذلك ما فيه من التسلية لفقراء المؤمنين ، ومن الهضم لنفوس المغرورين من المترفين .

وعلى الثاني يكون تنبيهاً على سعة خزائنه ، وبسطه يده جل شأنه .

وعلى الثالث : يكون تلويحاً للمؤمنين ، بما سيفتح الله لهم من أبواب النصر والظفر ، حتى يبدل عسرهم يسرا ، وفقيرهم غنى ، من حيث لا يظنون ، وعلى الرابع والخامس ، يكون وعداً للصالحين إما بدخولهم الجنة بغير حساب ، وإما بمضاعفة أجورهم أضعافاً كثيرة لا يحصرهم العد ، ومن وقف على علم التأويل ، واطلع على معترك أفهام العلماء في آية رأى من ذلك العجب العاجب .

هأنحن أولاً ، قد عرضنا لك جانباً من تلك العجائب البيانية ، التي لا تنال مثلها أيدي الناس ، وها قد أعطيناك في حاشية كل منها نموذجاً صغيراً ، يفتح لك الباب إلى احتدائه في سائر القرآن ، فهل ترى في هذا وفاء بما وعدناك ، وبما عودناك ، من التقفية على آثار التفصيل بشيء من التطبيق والتمثيل ؟ أم لا لاتزال بحاجة إلى المزيد من هذه الأمثلة ؟

سنزيدك ، وسنوجه نظرك بنوع خاص إلى دقة التعبير القرآني ، ومثانة نظمه ، وعجيب تصرفه ، حتى يؤدي لك المعنى الوافر الثري ، وفي اللفظ القاصد النقي ، إذ كانت هذه الخاصة الأولى — من الخواص التي ذكرناها — أحوج إلى التوقيف والإرشاد .

يقول الله تعالى في ذكر حجاج اليهود : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم : آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ . قَالُوا : نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟ ﴾ (سورة البقرة الآية ٩١)

هذه قطعة من فصل من قصة بني إسرائيل ، والعناصر الأصلية التي تبرزها لنا هذه الكلمات القليلة ، تتلخص فيما يلي :

١ — مقالة ينصح بها الناصح لليهود ، إذ يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن .

٢ — إجابتهم لهذا الناصح بمقالة تنطوى على مقصدين .

٣ — الرد على هذا الجواب بركنيه ، من عدة وجوه .

وأقسم لو أن محامياً بليغاً ، وكلت إليه الخصومة بلسان القرآن في هذه القضية ، ثم هدى إلى استنباط هذه المعاني ، التي تختلج في نفس الداعى والمدعو ، لما وسعه في أدائها أضعاف أضعاف هذه الكلمات ، ولعله بعد ذلك لا يفى بما حولها من إشارات ، واحتراسات وآداب وأخلاق .

قال الناصح لليهود : آمنوا بالقرآن كما آمنتم بالتوراة ، ألستم قد آمنتم بالتوراة ، التي جاء بها موسى ، لأنها أنزلها الله ، فالقرآن الذي جاء به محمد أنزله الله ، فأمنوا به كما آمنتم بها . فانظر كيف جمع القرآن هذا المعنى الكثير في هذا اللفظ الوجيز (آمنوا بما أنزل الله) . وسر ذلك أنه عدل بالكلام عن صريح اسم القرآن إلى كنياته ، فجعل دعاءهم إلى الإيمان به دعاء إلى الشيء بحجته ، وبذلك أخرج الدليل والدعوى في لفظ واحد .

ثم انظر كيف طوى ذكر المنزل عليه فلم يقل : آمنوا بما أنزل الله « على محمد » مع أن هذا جزء متمم لوصف القرآن المقصود بالدعوة ، أتدرى لم ذلك ؟ .. لأنه لو ذكر لكان في نظر الحكمة البيانية زائداً ، وفي نظر الحكمة الإرشادية مفسداً .. أما الأول فلأن هذه الخصوصية لا مدخل لها في الإلزام ، فأدير الأمر على القدر المشترك ، وعلى الحد الأوسط الذي هو عمود الدليل .. وأما الثاني فلأن إلقاء هذا الاسم على مسامع الأعداء من شأنه ، أن يخرج أضغانهم ، ويثير أحقادهم ، فيؤدى إلى عكس ما قصده الداعى من التأليف والإصلاح ، وذلك إلى ما في هذا الحذف من الإشارة إلى طابع الإسلام ، وهو أنه ليس دين تفريق وخصومة ، بل هو جامع ما فرقه الناس من الأديان ، داع إلى الإيمان بالكتب كلها على سواء ، بما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين شيء من كتبه ، كما لا نفرق بين أحد من رسله ، كان جواب اليهود أن قالوا : إن الذى دعانا للإيمان بالتوراة ، ليس هو كونها أنزلها الله فحسب بل إننا آمننا بها ، لأن الله أنزلها علينا ، والقرآن لم ينزله علينا ، فلكم قرآنكم ولنا توراتنا ، ولكل أمة شرعة ومنهاج ، هذا هو المعنى الذى أوجزه القرآن في قوله : ﴿ نؤمن بما أنزل علينا ﴾ وهذا هو المقصد الأول ، وقد زاد في إيجاز هذه العبارة ، أن حذف منها فاعل الإنزال ، وهو لفظ الجلالة ، لأنه تقدم ذكره في نظيرتها .

من البين أن اقتصارهم على الإيمان بما أنزل عليهم ، يرمى إلى كفرانهم بما أنزل على غيرهم ،

وهذا هو المقصد الثاني ، ولكنهم تحاشوا التصريح به ، لما فيه من شفاعة التسجيل على أنفسهم بالكفر ، فأراد القرآن أن يبرزه ، انظر كيف أبرزه ؟

إنه لم يجعل لازم مذهبهم مذهباً لهم ، ولم يدخل مضمون قولهم في جملة ما نقله من كلامهم ، بل أخرجه في معرض الشرح والتعليق على مقالاتهم ؛ فقال : (ويكفرون بما وراءه) أليس ذلك هو غاية الأمانة في النقل !

ثم انظر إلى التعبير عن القرآن بلفظ (ماوراءه) فإن لهذه الكلمة ، وجهاً تعم به غير القرآن ، ووجهاً تخص به هذا العموم ، ذلك أنهم كما كفروا بالقران المنزل على محمد ، كفروا بالإنجيل المنزل على عيسى ، وكلاهما وراء التوراة ، أى جاء بعدها ، ولكنهم لم يكفروا بما قبل التوراة من صحف إبراهيم مثلاً مثلاً ، وهكذا تراه قد حدد الجريمة تمام التحديد ، باستعمال هذا اللفظ الجامع المانع ، وهذا هو غاية الإنصاف وتحري الصدق في الاتهام .

جاء دور الردّ والمناقشة فيما أعلنوه وما أسروه ، فتراه لا يبدأ بمحاورتهم في دعوى إيمانهم بكتبهم ، بل يتركها مؤقتاً ، كأنها مسلمة ، لينى عليها وجوب الإيمان بغيره من الكتب ، فيقول : كيف يكون إيمانهم بكتبهم باعثاً على الكفر بما هو حق مثله ؟ لا ، بل (هو الحق) كله — وهل يعارض الحق ، حتى يكون الإيمان بأحدهما موجباً للكفر بالآخر ؟

ثم يترقى ، فيقول : وليس الأمر بين هذا الكتاب الجديد وبين الكتب السابقة عليه ، كالأمر بين كل حق وحق ؟ فقد يكون الشيء حقاً وغيره حقاً ، فلا يتكاذبان ، ولكنهما في شأنين مختلفين ، فلا يشهد بعضهما لبعض ، أما هذا الكتاب فإنه جاء شاهداً و (مصداقاً) لما بين يديه من الكتب ، فأنى يكذب به من يؤمن بها ؟ !

ثم يستمر في إكمال هذا الوجه قائلاً : ولو أن التحريف أو الضياع ، الذى نال من هذه الكتب ، قد ذهب بمعالم الحق فيها ، جملة ، لكان لهم بعض العذر في تكذيبهم بالقرآن ، إذ يحق لهم أن يقولوا « إن البقية المحفوظة من هذه الكتب في عصرنا ، ليس بينها وبين القرآن ، هذا التطابق والتصادف ، فليس الإيمان بها موجباً للإيمان به ، بل لو أن هذه البقية ، ليست عندهم ، ولكنهم كانوا عن دراستها غافلين ، لكان لهم مثل ذلك العذر ، أما وهذا القرآن مصدق لما هو قائم من الكتاب في زمنهم وبأيديهم ، ويدرسونه بينهم ، فماذا يعتذرون وأتى يذهبون ؟ ! هذا المعنى كله يؤديه لنا القرآن بكلمة (لما معهم)

فانظر إلى الاحكام في صنعة البيان ، إنما هي كلمة رفعت ، وأخرى وضعت في مكانها عند الحاجة إليها ، فكانت هذه للكلمة حسماً لكل عذر ، وسداً لكل باب من أبواب الحرب ، بل كانت هذه الكلمة وحدها ، بمثابة حركة تطويق للخصم ، أتمت في خطوة واحدة ، وفي غير ما جلبه ولا طنطنه .

ولما قضى وطر النفس من هذا الجانب المطوى ، الذي ساقه مساق الاعتراض والاستطراد ، استوى إلى الرد على المقصد الأصلي ، الذي تجحوا بإعلانه والانتحار به ، وهو دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم ، فأوسعهم إكذاباً وتفنيداً ، وبين أن داء الجحود فيهم ، داء قديم ، قد أشربوه في قلوبهم ، ومضت عليه القرون ، حتى أصبح مرضاً مزمناً ، وأن الذي أتوه اليوم من الكفر بما أنزل على محمد ، ما هو إلا حلقة متصلة بسلسلة كفرهم بما أنزل عليهم ؛ وساق على ذلك الشواهد التاريخية المفضة ، التي لا سبيل لإنكارها ، في جهلهم بالله ، وانتهاكهم حرمة أنبيائه ، وتمردهم على أوامره : (قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟)

١ — تأمل كيف أن هذا الانتقال ، كانت النفس قد استعدت له في آخر المرحلة السابقة ، إذ يفهم السامع من تكذيبهم بما يصدق كتابهم ، أنهم صاروا مكذبين بكتابهم نفسه ، وهل الذي يكذب من يُصدقك يبقى مصداقاً لك ؟ !

غير أن هذا المعنى ، إنما أخذ استنباطاً من أقوالهم ، وإلزاماً لهم بمآل مذهبهم ، ولم يؤخذ بطريق مباشر من واقع أحوالهم ، فكانت هذه هي مهمة الرد الجديد .

وهكذا كانت كلمة (مصداقاً لما معهم) مغلاقاً لما قبلها ، مفتاحاً لما بعدها ، وكانت آخر درجة في سلم الغرض الأول هي أول أجزاء الكلام ! وما أرشد هذه القيادة للنفس بزمam البيان ، تدريجاً له على مدارجها ، وتنزيلاً له على قدر حاجتها وفي وقت تلك الحاجة ! فما هو إلا أن آنس تطلع النفس واستشراقها من تلك الكلمة إلى غاية ، إذا هو قد استوى بها إلى تلك الغاية ، ووقفها عليها تامة كاملة .

٢ — وانظر كيف عدل بالإسناد عن وضعه الأصلي ، وأعرض عن ذكر الكاسب الحقيقي لتلك الجرائم ، فلم يقل : (فلم قتل آباؤكم أنبياء الله واتخذوا العجل : وقالوا سمعنا وعصينا ؟) إذ كان القول على هذا الوضع حجة داحضة في بادئ الرأي فكان يحق لهم في جوابها ، أن يقولوا : « ومالنا ولا بآئنا ؟ تلك أمة قد خلت ، ولا تزر وازرة وزر أخرى »

ولو زاد مثلاً « وأنتم مثلهم ، قد تشابهت قلوبكم وقلوبهم ، لجاء هذا التدارك بعد فوات الوقت ، ولتراخى حيل الكلام وفترت قوته .

فكان اختصار الكلام على ما ترى — يوقفهم بادية ذى بدء في موقف الاتهام — إسراعاً بتسديد سهم الحجة إلى هدفها ، وتنبيهاً في الوقت نفسه على أنهم ذرية بعضها من بعض ، وأنهم سواسية في الجرم ، فعلى أيهم وضعت يدك ، فقد وضعتها على الجاني الأثيم ، لأنهم لا ينفكون عن الاستئنان بسنة أسلافهم ، أو الرضى عن أفعالهم ، أو الانطواء على مثل مقاصدهم .

٣ — وانظر كيف زاد هذا المعنى ترشيحاً بإخراج الجريمة الأولى . وهي جريمة القتل في صيغة الفعل المضارع ، تصويراً لها بصورة الأمر الواقع الآن ، كأنه بذلك يعرض علينا هؤلاء القوم أنفسهم وأيديهم ملوثة بتلك الدماء الزاكية .

٤ — ولقد كان التعبير بهذه الصيغة مع ذكر الأنبياء بلفظ عام ، مما يفتح باباً من الإيحاش لقلب النبي العربي الكريم ، وباباً من الاطماع لأعدائه في نجح تدابيرهم ومحاولاتهم لقتله ، فانظر كيف أسعفنا بالاحتراس عن ذلك كله بقوله (من قبل) فقطع بهذه الكلمة أطماعهم ، وثبت بها قلب حبيبه ، إذ كانت بمثابة وعده إياه بعصمته من الناس ، ذلك إلى ما فيها من تنبيه على أصل وضع الكلام ، وعلى ما صنع به من التحوز المذكور آنفاً في الاسناد وفي الصيغة .

٥ — وانظر كيف جرى بالأفعال في الجرائم التالية ، على صيغة الماضي ، بعد أن وطأ لها بهذه الكلمة . (من قبل) فاستقام التاريخ على وضعه الطبيعي ، حين لم تبق هناك حاجة إلى مثل التعبير الأول .

٦ — وانظر إلى الآداب العالية في عرض الجريمة الثانية ، وهي جريمة الشرك ، فإنها لما كانت أغلظ من سابقتها ، وأشد نكراً في العقول ، نبه على ذلك ألطف تنبيه بحذف أحد ركنيها ، فلم يقل اتخذتم العجل الها ، بل طوى هذا المفعول الثاني استبشاعاً للتصريح به في صحبة الأول ، وبياناً لما بينهما من مفارقة ، .. وكم في هذا الحذف من تعبير وتهويل ! فرب صمت هو أنطق بالحكم ، وأنكى في الخصم .

٧ — ثم انظر إلى النواحي التي أوتر فيها الإجمال على التفصيل ، إعراضاً عن كل زيادة ، لا تمس إليها حاجة البيان في الحال ، فقد قال : إن القرآن مصدق لما معهم ، ولم يبين مدى هذا التصديق ، أفي أصول الدين فحسب ، أم في الأصول والفروع جميعاً ، أم في الأصول وبعض الفروع ، وإلى أى حد ؟ ذلك أن هذا كلام الملوك لا يتنزل إلا بقدر معلوم ، وماذا يعنى الداعى إلى أصل الإيمان أن يمتد التطابق بين الأديان إلى فروعها ، أو لا يمتد ؟ فليبحث علماء التشريع .

وقال : إنهم يقتلون أنبياء الله ، فمن هم أولئك الأنبياء ؟ لبحث علماء التاريخ !

وقال : إن موسى جاءهم بالبينات .. فكم هي ؟ وما هي ؟

وقال : إنه أخذ عليهم ميثاقهم ، فعلى أى شيء كان الميثاق ؟ أن حكمة البيان القرآني ، لأجل من أن تعرض لهذه التفاصيل في مثل هذا الموضع ، ولو ذكرت هاهنا ، لكان مثلها مثل من يُسأل :

لم ضربت عبدك ؟ فيقول : لأنه ضرب غلاماً اسمه كذا ، واسم أبيه كذا ، وحليته كذا ، وولد في عام كذا ، ألا ترى أن هذا زائد وكثير .

٨ — ولو ذهبنا نتبع سائر ما في هذه القطعة من اللطائف ، لخرجنا عن حد التمثيل والتنبيه ، الذي قصدنا إليه ، فلنكتف بتوجيه نظرك فيها إلى سر دقيق لا تراه في كلام الناس ، ذلك أن المرء إذا اهمه أمر من الدفاع ، أو الإقناع ، أو غيرهما ، بدت على كلامه مسحة الإنفعال بأغراضه ، وكأن تأثيره بها في نفسك على قدر تأثيره هو ، طبعاً أو تطبعاً ، فتكاد تحس بما يخالجه من المسرة في ظفره ، ومن الامتعاض في إخفاقه ، بل تراه يكاد يهلك أسفاً لو أعرض الناس عن هداه ، إذا كان مؤمناً بقضيته ، مخلصاً في دعوته ، كما هو شأن الأنبياء عليهم السلام ، أما هنا فإنك تلمح وراء الكلام قوة أعلى من أن تنفعل بهذه الأغراض ، قوة تؤثر ولا تتأثر ، تصف لك الحقائق خيرها وشرها في عزة من لا ينفعه خير ، واقتدار من لا يضره شر .

هذا الطابع من الكبرياء والعظمة ، تراه جلياً من خلال هذا الأسلوب المقتصد في حجاجه أخذاً ورداً ، المقتصد في وصفه مدحاً وقدحاً ،

انظر إليه حين يجادل عن القرآن ، فلا يزيد في وصفه على هذه الكلمة : (هو الحق) . نعم إنها كلمة تملأ النفس ، ولكن هل تشبعك أيها الإنسان تلك الكلمة ، إذا أردت أن تصف حقيقة من الحقائق ، التي تقتنع بها ، وتحب أن تقنع بها الناس ؟

وانظر إليه بعد أن سجّل على بني إسرائيل أفحش الفحش ، وهو وضعهم البقر الذي هو مثل في البلادة ، موضع المعبود الأقدس ، وبعد أن وصف قسوة قلوبهم في تأبيهم على أوامر الله مع حملهم عليها بالآيات الرهيبة ، فتراه لا يزيد على أن يقول في الأولى : إن هذا « ظلم » وفي الثانية : « بئسما » صنعتم ، أذلك كل ما تقابله به هذه الشفاعات ؟ نعم إنهما كلمتان وافيتان بمقدار الجريمة لو فهمتا على وجههما ، ولكن الألم وحرارة الاندفاع في الانتقام ؟ بل أين الإقناع والتشجيع وأين الإسراف والفجور الذي تراه في كلام الناس إذا أحفظوا بالنيل من مقامهم ؟

لله ما أعف هذه الخصومة ، وما أعز هذا الجنب وأغناه عن شكر الشاكرين وكفر الكافرين ، وتالله إن هذا كلام لا يصدر عن نفس بشر .

قلنا إن القرآن الكريم ، يستثمر دائماً برفق أقل ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من

المعاني . أجل ، تلك ظاهرة بارزة فيه كله ، يستوى فيها مواضع إجمالية ، التي يسميها الناس مقام الإيجاز ، ومواضع تفصيله ، التي يسمونها مقام الإطناب ، ولذلك نسميه إيجازاً كله ؛ لأننا نراه في كلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد ، ولا يميل إلى الاسراف ميلاً ما ، ونرى أن مراميه في كلا المقامين لا يمكن تأديتها كاملة العناصر والحلى ، بأقل من ألفاظه ولا بما يسامر بها ، فليس فيه كلمة إلا هي مفتاح لفائدة جليلة ، وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى ...

« وبعد » فإن سر الإيجاز في القرآن لا يقف عند الحد الذي أشرنا إليه ، من اجتناب الحشو والفضول به ، وانتفاء الألفاظ الجامعة المانعة التي هي — بطبيعتها اللغوية — أيم تحديدا للغرض ، وأعظم اتساعاً لمعينة المناسبة ، لا ، بل إنه كثيراً ما يسلك في إيجازه سبيلاً أعز وأعجب .

فلقد تراه يعمد — بعد حذف فضول الكلام وزوائده — إلى حذف شيء من أصوله وأركانه ، التي لا يتم الكلام في العادة بدونها ، ولا يستقيم المعنى إلا بها ، ولقد يتناول بهذا الحذف كلمات وجملات كثيرة متلاحقة ومتفرقة في القطعة الواحدة ، ثم تراه في الوقت نفسه يستثمر تلك البقية الباقية من اللفظ في تأدية المعنى كله بجلاء ووضوح ، وفي طلاوة وعدوبة ، حتى يخيل إليك من سهولة مسلك المعنى في لفظة ، أن لفظة أوسع منه قليلاً .

فإذا ما طلبت سر ذلك ، رأيته قد أودع معنى تلك الكلمات أو الجمل المطوية في كلمة هنا وحرف هناك ، ثم أدار الأسلوب إدارة عجيبة ، وأمر عليها جندرة البيان بيد صناع ، فأحكم بها خلقه وسواه ، ثم نفخ فيه من روحه ، فإذا هو مصقول أملس ، وإذا هو نير مشرق ، لا تشعر النفس بما كان فيه من حذف وطي ، ولا بما صار إليه من استغناء واكتفاء ، إلا بعد تأمل وفحص دقيق .

لا نكران أن العرب كانت تعرف شيئاً من الحذف في كلامها ، وترى ذلك من الفضيلة البيانية ، متى قامت الدلائل اللائحة على ذلك المحذوف ، ولو كان من أجزاء الجملة ومقوماتها ، فإذا قيل للعربي أين أخوك ، قال : في الدار ، وإذا قيل له : من في الدار ؟ قال : أخى ، ولو قال أخى في الدار ، لعد ذلك منه ضرباً من اللغو والحشو ، لكن الشأو ، الذي بلغه القرآن في هذا الباب — كغيره من أبواب البلاغة — ليس في متناول الألسنة والأقلام ، ولا في متناول الأمانى والأحلام .

خذ لذلك مثلاً قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ ... فَنَذَرَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾^(١) الآية مسوقة في شأن منكرى البعث

الذى قال لهم النبى : إني رسول الله إليكم ، وإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقالوا متهمين : ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾^(١) فلما لم يجبه الله إلى اقتراحهم ، وأخر عنهم العذاب إلى ساعته المحدودة ، أطغاهم طول الأمن والدعة ، والعافية الحاضرة ، حتى نسوا ريب الدهر ، وأمنوا مكر الله ، وما يحبسهم لو كان آتياً ؟

أراد القرآن أن يقول في جواب هذا الاستعجال — لو كانت سنة الله قد مضت بأن يعجل للناس الشر إذا استعجلوه ، كتعجيله لهم بالخير إذا استعجلوه ، لعجله لهؤلاء ، ولكنه قد جرت سنته التي لا تبدل ، بأن يمهل الظالمين ، ويؤخر حسابهم إلى أجل مسمى ، وعلى وفق هذا النظام الميسنون ، سترك هؤلاء وشأنهم ، حتى يجيء وقتهم .

هذا هو الوضع الذى يوضع عليه الكلام فى السنة الناس ، وفى طبيعة اللغة ، لتأدية المعنى الإجمالى الذى ترمى إليه الآية ، فانظر ماذا جرى .. ؟

١ — كان الكلام فى وضعه العادى مؤلفاً من قضايا ثلاث : اثنتان منها بمثابة المقدمات ، والثالثة بمنزلة النتيجة . فاقصرا القرآن على الأولى والأخيرة ، أما الوسطى ، وهى الاستدراك — أو الاستثنائية ، كما يسميها علماء المنطق ، فقد طواها طياً .

٢ — وكانت المقدمة الأولى فى وضعها الساذج ، تتألف من أربعة أطراف : تعجيل من الله فى الخير وفى الشر ، واستعجال من الناس كذلك ، ولكن الكلام هاهنا ليس فيه إلا تعجيل واحد من الله ، واستعجال واحد من الناس .

٣ — وكانت المقابلة فى التشبيه بحسب الظاهر إنما هى بين تعجيل وتعجيل ، أو بين استعجال واستعجال ، فأدير الكلام فى الآية على وجه غريب ، وجعلت المشابهة بين تعجيل واستعجال ، وبعد هذا التصرف كله ، هل ترى كلاماً مبتوراً ، أو طريقاً ملتوياً يتعثر فيه الفهم ؟ أم ترى مغزى الآية لائحاً للعامة والخاصة كالبدر ليس دونه سحب ؟

فارجع إلى طلب شيء من أسرار البيان ، وقل : كيف جاء هذا الاشراف مع هذا الاختصار البليغ ؟

نقول :

(أما الأول)

فإنه لم يدع تلك المقدمة المطوية إلا بعد أن رفع لها علمين من جانبيها ، يدلان على مكانها ، ويوحيان بها إلى النفس من وراء حجاب ، فقد أقام عن يمينها كلمة « لو » الامتناعية التي صدر بها المقدمة الأولى ، دلالة على أنه لا يكون منه هذا التعجيل ، وعن يسارها حرف التفريع ، التي صدر به النتيجة في قوله : (فنذر) لكي ينم على أن لهذا الفرع أصلاً من جنسه يقال فيه : ولكن شأنه أن يذر الناس ، فلذلك يذر هؤلاء .

ولما كانت الفاء وحدها ليست نصّاً في المطلوب ، لأنها كما تكون للتفريع ، تكون لمجرد العطف — فربما اتصل القارئ عاطفاً بها على جزاء الشرط قبلها ، من قبل أن يتبين له فساد المعنى لو عطف — لم يكتف بالفاء ، بل عزّزها بقوتين أخريين ، إذ حوّل صيغة النتيجة من الماضي إلى المضارع ، ثم من الغيبة إلى التكلم ؛ ليكون هذا الانقطاع اللفظي بينها وبين ما قبلها ، إيذاناً بانقطاعها عنه معنى وإذناً بالوقوف دونها ، حتى لا تقع النفس لحظة ما في أدنى اضطراب أو ليس ، ذلك إلى ما في التحويل من الافتنان في الأسلوب تجديداً لنشاط السامع ، ومن إلقاء الرعب في القلوب بصدور نطق الوعيد والاستدراج على لسان الجبروت الملكي نفسه .

(أما الثاني)

فإنه لما حذف طرفين من الأطراف الأربعة ، لم يحذفهما من جنس واحد ، بل أبقى من كل زوجين واحداً ، هو نظير ما حذفه من صاحبه ، لينبه بالمذكور على المحذوف ، فكانت كلمة « التعجيل » منبهة على نظيرتها في المشبه به ، وكلمة « الاستعجال » منبهة على مقابلتها في المشبه .

(أما الثالث)

فإنه نبه به على معنى هو غاية في اللطف ، وهو سر الامهال ، وحكمة عدم التعجيل من الله ، ذلك بأنه صوّر هذا التعجيل المفروض بصورة ، تشبه التماس الطالب وحرصه الشديد على إرضاء شهوته ، وسد حاجته الملحة ، التي تبعثه على استعجاله ، ولا سيما إذا كان يطلب الخير لنفسه ، كأنه قيل : إنه تعالى لو عجل لهم ذلك ، لكان مثله بهذا التعجيل ، كمثل هؤلاء المستعجلين في استفزاز البواعث إياه ، وحاش لله .

هذا إلى تصرفات عجيبة أخرى

(منها) أن كلمة « لو » بحسب وضعها وطبيعة معناها ، تتطلب أن يليها فعل ماضى ، ولكن المطلوب ها هنا ليس هو نفي المضى فحسب ، بل بيان أن هذا الفعل خلاف سنة الله ، التى لن تجد لها تبديلا ، فلو أدى المعنى على هذا الوضع لطال الكلام ، ولقيل « لو كانت سنة الله المستعمرة فى خلقه أن يعجل .. الخ » ! فانظر كيف اختصر الكلام فى لفظ واحد ، بإخراج الفعل فى صورة المضارع ، الدال على التكرار والاستمرار ، واكتفى بوضع « لو » قرينة على أن ما بعدها ماضى فى معناه ، وهكذا أدى الغرضين جميعاً فى رفق ولين .

(ومنها) أنه كان مقتضى التطابق بين الشرط والجواب ، أن يوضع الجواب عدلا له فيقال : (لعجله : ولكنه عدل إلى ما هو أفخم وأهول ، إذ بين أنه لو عجل للناس الشر ، لعجل لهؤلاء منه نوعاً خاصاً هم له أهل ، وهو العذاب المستأصل الذى تقضى به آجالهم .

(ومنها) أنه كان مقتضى الظاهر فى تقرير النتيجة أن يقال :

« فنذرهم » أو « فنذر هؤلاء » ولكنه قال : (فنذر الذين لا يرجون لقاءنا) تحصيلا لغرضين مهمين ، أحدهما التنبيه على أن منشأ هذا الاستعجال منهم هو عدم إيمانهم بالبعث ، والثانى التنبيه على أن قاعدة الإمهال من الله قاعدة عامة لهم ولأمثالهم .
(ومنها غير ذلك ...)

قل لنا بربك : لو ظفرت فى كلام البشر بوحدة من هذه التصرفات ، ففى أى أسلوب غير أسلوب القرآن تظفر بهذه المجموعة ، أو بما يدانيها فى هذا القدر ، أو فى ضعيفة من الألفاظ ؟

— ٢ —

القرآن فى سورة سورة منه

« الكثرة » و « الواحدة »

هذا الذى حدثناك عنه من عظمة الثروة المعنوية فى أسلوب القرآن على وجازة لفظه ، يضاف إليه أمر آخر ، هو زينة تلك الثروة وجمالها ، ذلك هو تناسق أوضاعها ، وائتلاف عناصرها ، وأخذ بعضها بحجز بعض ، حتى إنها لتتنظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها . وأنت قد تعرف أن الكلام

في الشأن الواحد ، إذا ساء نظمه ، انحلت وحدة معناه ، فتفرق من أجزائها ما كان مجتمعاً ، وانفصل ما كان متصلاً ، كما تتبدد الصورة الواحدة على المرآة ، إذا لم يكن سطحها مستوياً ، أليس الكلام هو مرآة المعنى ؟ فلا بد إذاً لإبراز تلك الوحدة الطبيعية « المعنوية » من إحطام هذه الوحدة الفنية « البيانية » وذلك بتمام التقريب بين أجزاء البيان ، والتأليف بين عناصره ، حتى تتماسك وتتعانق ، أشد التماسك والتعانق ، ليس ذلك بالأمر الهين ، كما قد يظنه الجاهل بهذه الصناعة ؟ بل هو مطلب كبير « يحتاج » مهارة وحذقاً ولطف حس في اختيار المواقع لتلك الأجزاء ، أيها أحق أن يجعل أصلاً أو تكميلاً ، وأيها أحق أن يُبدأ به أو يختم ، أو يتبوأ مكاناً وسطاً ؟ « ثم يحتاج » مثل ذلك في اختيار أحسن الطرق لمزجها ، بالإسناد ، أو بالتعليق أو بالعطف ، أو بغيرها ، هذا كله بعد التلطف في اختيار تلك الأجزاء أنفسها ، والاطمئنان على صلة كل منها بروح المعنى ، وأنها نقية من الحشو ، قليلة الاستطراد ، وأن أطرافها وأوساطها تستوى في تراميها إلى الغرض ، ويستوى هو في استهدافه لها ، كما تستوى أبعاد نقط الدائرة بالقياس إلى المركز ويستوى هو بالقياس إلى كل منها .

تلك حال المعنى الواحد ، الذي تتصل أجزاؤه فيما بينها اتصالاً طبيعياً ، فما ظنك بالمعاني المختلفة في جوهرها ، المنفصلة بطبيعتها كم من المهارة والحذق ، بل كم من الاقتدار السحري ، يتطلبه التأليف بين أمزجتها الغريبة ، واتجاهاتها المتشعبة ؟ حتى لا يكون الجمع بينها في الحديث ، كالجمع بين القلم والحذاء والمنشار والماء ، بل حتى يكون لها مزاج واحد واتجاه واحد ، وحتى يكون عن وحدتها الصغرى وحدة جامعة أخرى .

إنه من أجل عزة هذا الطلب ، نرى البلغاء وإن أحسنوا وأجادوا إلى حد ما في غرض غرض ، كان منهم الخطأ والإساءة في نظم تلك الأغراض كلاً أو جلاً . « فالشعراء » حينما يجيئون في القصيدة الواحدة بمعان عدة ، أكثر ما يجيئون بها أشتاتاً لا يلوى بعضها على بعض ، وقليل ما يهتدون إلى حسن التخلص من الغرض إلى الغرض ، كما في الانتقال من النسيب إلى المدح . « والكتاب » ربما استعانوا على سيد تلك الثغرات ، باستعمال أدوات التنبيه ، أو الحديث عن النفس ؛ كقولهم : ألا وإن .. هذا ولكن .. بقي علينا .. ولننتقل .. نعود .. قلنا .. وسنقول ..

هذا شأن الأغراض المختلفة ، إذا تناولها الكلام الواحد في المجلس الواحد ، فكيف لو قد جيء بها في ظروف مختلفة ، وأزمان متطاولة ؟ ألا تكون الصلة فيها أشد انقطاعاً ، والهوية تبتنئ أعظم اتساعاً ، فإن كنت قد أعجبتك من القرآن نظام تأليفه البياني في القطعة منه ، حيث الموضوعات شتى ، والظروف متفاوتة ، لترى من هذا النظام ما هو أدخل في الإعجاز والإعجاب ...

أما إن طلبت شاهداً من العيان على صحة ما أجلناه في هذا الفصل ، من نظام الوحدات في السور على كثرة أسباب اختلافها ، وأما إن أحببت أن نريك نموذجاً من السور المنجمة ، كيف التأمت منها سلسلة واحدة من الفكر ، تتلاحق فيها الفصول والحلقات ، ونسق واحد من البيان ، تتعلق فيه الجمل والكلمات ، فأى شيء أكبر شهادة وأصدق مثلاً ، من سورة نعرضها عليك هي أطول سور القرآن كافة ، وهي أكثرها جمعاً للمعاني المختلفة ، وهي أكثرها في التنزيل نجومياً ، وهي أبعداها في هذا التنجيم تراخياً .

تلك هي سورة البقرة التي جمعت بضعا وثمانين ومائتي آية ، وحوت فيما وصل إلينا من أسباب نزولها نيفاً وثمانين نجماً ؛ وكانت الفترات بين نجومها تسع سنين عدداً .

واعلم أنه ليس من ههنا الآن ، أن نكشف لك عن جملة الوشائج اللفظية والمعنوية ، التي تربط أجزاء هذه السورة الكريمة بعضها ببعض ، فتلك دراسة تفصيلية لها محلها من كتب التفسير ...

وإنما نريد أن نعرض عليك السورة عرضاً واحداً نرسم به خط سيرها إلى غايتها ، ونبرز به وحدة نظامها المعنوي في جملتها ، لكي ترى في ضوء هذا البيان كيف وقعت كل حلقة موقعها من تلك السلسلة العظمى ...

(نظام عقد المعاني في سورة البقرة)

اعلم أن هذه السورة على طولها ، تتألف وحدتها من : مقدمة ، وأربعة مقاصد ، وخاتمة . على هذا الترتيب .

(المقدمة) في التعريف بشأن هذا القرآن ، وبيان أن ما فيه من الهداية ، قد بلغ حداً من الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب سليم ، وإنما يعرض عنه من لا قلب له ، أو من كان في قلبه مرض .

(المقصد الأول) في دعوة للناس كافة إلى اعتناق الاسلام .

(المقصد الثاني) في دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة ، إلى ترك باطلهم والدخول في هذا الدين الحق .

(المقصد الثالث) في عرض شرائع هذا الدين تفصيلاً .

(المقصد الرابع) ذكر الوازع والنازع الدينى ، الذى يبعث على ملازمة تلك الشرائع ، ويعصم عن مخالفتها .

(الخاتمة) فى التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد ، وبيان ما يرجى لهم فى آجلهم وعاجلهم .

رغبنا إليك أيها القارئ الكريم ، حين تدرس معنا تفاصيل هذا النسق ، أن تستظهر بالمصحف بين يديك ، لتكون من الموقنين بصحة ما نشير إليه فى كل خطوة .

المقدمة فى عشرين آية (١ - ٢٠)

١ - بدئت السورة الكريمة بثلاثة أحرف مقطعة ، لا عهد للعرب بتصدير مثلها فى الإنشاء والإنشاء ، وإنما عهدوها من القراء الكاتبين فى بدء تعليمهم النهجى للناشئين . (أ . ل . م)

ومهما يكن من أمر المعنى ، الذى قصد إليه بهذه الأحرف ، والسر الذى وضعت هنا من أجله ، فإن تقديمها بين يدى الخطاب مع غرابة نظمها وموقعها ، من شأنه أن يوقظ الأسماع ، ويوجه القلوب لما يلى هذا الأسلوب الغريب .

٢ - وألحقت بهذه الأحرف الثلاثة جمل ثلاث :

أما أولاهن : فإعلان للسامع أن ما سيتلى عليه الآن ، هو خير كتاب أخرج للناس ، وأنه ليس فى الوجود ما يصلح أن يسمى كتاباً بالقياس إليه (ذلك الكتاب)

وأما الأخريان فيدعمان هذا الكم بالحجة والبرهان ، أليس تفاضل الكتب ، إنما هو بمقياس ما تحويه من حق لا يشوبه باطل ، أو ليس أكمل الكمال بعد هذا الحق أن يكون نيراً لا يثير شبهه ، أو ليس أكمل الكمال بعد هذا وذاك ، أن يكون ذلك الحق ، مما تمس إليه حاجة الناس فى إنارة السبيل ، وإقامة الدليل ، إذا ما اشتبهت عليهم السبيل ، وتفرقت المسالك ، فذلكم القرآن هو جماع هذه الفضائل الثلاث ، فهو الحق المحض الذى لا باطل فيه ، بل هو الحق اللائح ، الذى لا شبهة باطل فيه ، ثم هو بعد ذلك الهدى المبين ، الذى يخرج الناس من الظلمات إلى النور (لاريب فيه . هدى) .

هكذا كان موقع هذه الجمل الثلاث ، بعد تلك الأحرف الثلاثة ، موقع التنويه بالمقصود بعد

التنبيه إليه .

وكذلك المربي الصالح « يبدأ » خطابه الجليل الشأن ، باستنصات الناس واسترعاء أسماعهم « ويشي » باتخاذ الوسائل التي تثير فيهم بواعث الإقبال على طلب الاستفادة .

٣ — أول ما تتشوف إليه النفس ، بعد سماع هذا الوصف البليغ للقرآن وهدايته ، هو تعرف الأثر الذي سيحدثه في الناس ومقدار إجابتهم لدعوته ، فمست الحاجة إلى أن ينساق الحديث لبيان هذه الحقيقة العجيبة ، وهي انقسام الناس في شأنه إلى فئات ثلاث : فئة تؤمن به ، وأخرى كافرة ، وثالثة مترددة حائرة ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

فكيف تُرى ينتقل من الحديث عن الكتاب إلى الحديث عن الناس ؟ أيجعل الحديث عنهم حديثاً مؤثفاً اثتافاً بحتاً ؟ ... أم يسوقه مساق الاستدراك على ما قبله ؟ ..

شيء من ذلك لم يكن ، ولكن انظر إليه وقد مزج الحديثين لا يفطن لما حدث بينهما من الانتقال ، ذلك أنه في أول الأمر لم يعرض لذكر الطائفتين الأخرتين ، بل أعرض عنهما ، كأن القرآن لم ينزل من أجلهما ، ثم عمد إلى الطائفة الأولى ، فجعل الحديث عنها من تمام الحديث عن هداية القرآن نفسه ، قائلاً إنه : (هدى للمتقين الذين يؤمنون ...) فكانت هذه « اللام الجارة » هي المعبرة السرية التي انزلق عليه الكلام ، وانصب انصباباً واحداً إلى نهاية الحديث عن المؤمنين .

٤ — ولقد كان قصر الانتفاع بهداية القرآن على هذه الطائفة وحدها ، بعد وصف القرآن بأنه الحق الواضح الذي لا ريب فيه ؛ حريّاً في بادئ الرأي أن يعدّ من المفارقات ، التي تثير في نفس السامع أشد العجب ، إذ كيف تكون الحقائق القرآنية بهذه المرتبة من الوضوح ، ثم لا تنفذ إلى قلب كل من يسمعها ؟ !

ومن جهة أخرى ، فقد كان موقف هذا النبي الرحيم — ﷺ — في جدة البالغ في دعوة أمته ، وحرصه الشديد على هدايتهم ، مصوراً له في عين من يراه ، بصورة الطامع في إيمان الناس أجمعين ، الظان أن هذه الأمنية ستصبح في متناول يده ، متى أخذ الناس في أسبابها العادية ، كأنه يرى أن ليس بينهم وبين هذه مسلمون ، ذلك مع أن القرآن يكاد يحدد الآن مهمته ، ويقول إن الذي سينتفع بهداه إنما هم المتقون ، فكان هذا التحديد مظنة ، لأن يتهل الرسول — ﷺ — إلى ربه قائلاً : سبحانه اللهم ، ولم لا يهتدى به الناس أجمعون !

وجب إذاً أن تقرر الحقيقة بصورة حاسمة لكل طماعية وتردد ، مريحة للنفس من طلب ما لا سبيل إليه ، وأن تبين مع ذلك الموانع الطبيعية من عموم هداية القرآن ، بأسلوب ينزه القرآن نفسه عن شائبة

القصور ، ويردّ النقص إلى قابلية القابل ، لا إلى فاعلية الفاعل ، وهل يغض من مهارة الطبيب أن يُعرض المريض عن تناول الدواء منه فيموت بجهله ؟ وهل يضير الشمس ألا ينتفع بنورها العمى أو المتعمون ؟ — (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ...)

هكذا انتقل الحديث عن المؤمنين ، الذين سبقت لهم الحسنى ، إلى الكافرين ، الذين حقت عليهم كلمة العذاب ، لا على وجه اقتران الحديثين في القصد من أول الأمر ، إذاً لعطف أحدهما على الآخر ، بل على وجه يبنى فيه بعض الكلام على بعض ، إجابة لهذا السؤال الذى نطقت به الحال ، وإزالة لذلك التعجب الذى أثاره سابق المقال ، وهذا هو ما يسميه علماء البلاغة بالاستئناف البيانى .

٥ — وجرى الحديث عن هؤلاء إلى نهايته ، فنضم الشكل إلى شكله ، وعطفت الطائفة الثالثة على اختها ، لأنهم فى التجافى عن الهدى مشتركون ، تتشابه قلوبهم وإن اختلفت ألسنتهم .. (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين)

٦ — وارجع الآن قليلاً إلى نظام الأحاديث عن الطوائف الثلاثة ، لترى كيف تقابلت أوضاعها وتمّ التقابل ، فقد اشتمل الحديث فى كل طائفة على ثلاثة عناصر ، مرتبة على هذا النمط : وصف الحقيقة الواقعة ، فبيان السبب فيها ، فالإخبار عن نتائجها المنتظرة .

« فحقيقة » الطائفة الأولى أنهم قوم حصلوا فضيلة التقوى بركيذها العلمى والعملى ، وسبب ذلك استمسакهم بالهدى ، وإمدادهم بالتوفيق من ربهم ، ومآل أمرهم ، الفوز والفلاح .

« وحقيقة » الطائفة الثانية ، أنهم مجردون من أساس التقوى ، وهو الإيمان ، وأنهم مصرون على ذلك إصراراً لا ينفع مع إنذار « والسبب » عدم انتفاعهم بما وهبهم الله من وسائل العلم ، فلمهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، وعاقبة أمرهم العذاب الأليم .

« وحقيقة » الطائفة الثالثة صفة مركبة من ظاهر خير ، وباطن سوء ، فهم يقولون بألسنتهم إنهم مؤمنون ، وليس فى قلوبهم من الإيمان شيء ، ولكل من الوصفين سبب وجزاء أما دعواهم الإيمان ، فسببها قصد المخادعة ، وجزاء الخداع عائد إليهم ، وأما إصرارهم الكفر فسببه مرضى قلوبهم . وجزاء زيادة المرض والعذاب الأليم .

وكما بين سبحانه فى الطائفة الثانية ، أنها بلغت من الإصرار والغبوة مبلغاً لا يجدى معه الإنذار ، بين فى الطائفة الثالثة ، أنها بلغت من الغرور والجهالة المركبة مبلغاً لا ينفع فيه نصيح الناصحين ، فهم

المفسدون ، ويزعمون أنهم المصلحون ، وهم السفهاء ، ويزعمون أنهم الراشدون ، ومن لك بشفاء سقيم يعتقد أنه سليم ؟ ثم كما ختم الكلام في شأن الطائفة الأولى ، بأن سجل لهم وصف الهدى والفلاح ، ختم الكلام في شأن الطائفتين الآخرين ، بأن سجل عليهما وصف الضلالة والخسران .

لذلك ضرب الله لكلتا الطائفتين مثلاً يناسبها ، فضرب مثلاً للمعتزين المحتوم على قلوبهم ، بقوم كانوا يسرون في ظلام الليل فقام فيهم رجل استوقد لهم ناراً يهتدون بضوئها ، فلما أضاءت ما حوله ، لم يفتح بعض القوم أعينهم لهذا الضوء الباهر ، بل لأمر ما سلّبوا نور أبصارهم ، وتعطلت سائر حواسهم عند هذه المفاجئة ، فذلك مثل النور الذي طلع به محمد — ﷺ — في تلك الأمة الأمية على فترة من الرسل ، فتفتحت له البصائر المستنيرة هنا وهناك ، لكنه لم يوافق أهواء المستكبرين ، الذي ألفوا العيش في ظلام الجاهلية ، فلم يرفعوا له رأساً ، ثم نكسوا على رؤوسهم ، ولم يفتحوا له عيناً بل خروا عليه صماً وعمياناً . (١) قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى (١) .

وضرب مثلاً للمتريدين المخادعين ، بقوم جادتهم السماء بغيث منهمر ، في ليلة ذات رعود وبروق ، فأما الغيث فلم يلقوا له بالاً ، ولم ينالوا منه نيلاً ، فلا شربوا منه قطرة ، ولا استنبتوا به ثمرة ، ولا سقوا به زرعاً ولا ضرعاً ، وأما تلك التقلبات الجوية والرعد والبرق ، فكانت هي مثار اهتمامهم ، ومناط تفكيرهم ، ولذلك جعلوا يترصدونها ، ويدبرون أمورهم على وفقها ، لا بسين لكل حال لبوسها ، سيراً تارة ، ووقوفاً تارة ، واختفاء تارة أخرى ... ذلك أبداً دأب المنافقين في كل أمرهم ، إن توقعوا ربما عطلا التمسوه في أى صفت وجدوه ، وإن توقعوا أذى كذلك ، تنكروا للفتنة التي ينالها في سبيلها شيء من المكروه ، وإذا أظلم عليهم الأمر قاموا بعيداً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، أما الذي يؤمن بالله واليوم الآخر ، فإن له قبله الحق لا يخشى في الله لومة لائم .

وليس يبالي حين يقتل مسلماً . على أى جنب كان في الله مصرعه

هنا تمت المقدمة بعد أن وصفت القرآن بما هو أهله ، ووضعت متبعيه ومخالفيه كلاً بما يستحقه ، ولا مزية أن وصف هذه الطوائف جميعها راجع في المآل إلى الثناء على القرآن ؛ فإن الشيء الذي يكون متبعوه هم أهل الهدى والفلاح ، ومخالفوه هم أهل الضلالة والخسر ، لا يكون إلا حقاً واضحاً لا ريب فيه .

فما هو ذلك الحق الذى لا يتبعه إلا مهتد مفلح ، ولا يعرض عنه إلا بالضياء الباهر والغيث الكثير ؟

لاشك أن هذا كله تشويق أى تشويق لسماع الحقائق التى يدعو القرآن الناس إليها . فانظر على أى نحو ساق بيانها .

لقد كان ظاهر السياق يقضى بأن يقال : أن هذه الحقائق التى يدعو القرآن الناس إليها . فانظر على أى نحو ساق بيانها .

لقد كان ظاهر السياق يقضى بأن يقال : أن هذه الحقائق ، هى أن يعبدوا ربهم وحده ، ويؤمنوا بكتابه ونبيه (الخ) جرياً على أسلوب الغيبة ، الذى جرى عليه فى وصف الكتاب ، وفى وصف الناس ، ولكنه حوّل مجرى الحديث من الأخبار والغيبة إلى النداء والمخاطبة قائلاً : (يأيها الناس اعبدوا ربكم ...)

أتعرف شيئاً من سر هذا التحويل ؟

إن ذلك الوصف الدقيق الذى وصف القرآن به الطوائف الثلاث « متقين ، وكافرين ، ومخادعين » قد نقلهم عند السامع من حال إلى حال فبعد أن كانوا غيباً فى مبدأ الحديث عنهم ، أصبحوا الآن بعد ذلك الوصف الشافى حاضرين فى خيال السامع ، كأنهم رأى عين ، وفى مكان ينادون منه ، فاستحقوا أن يوجه الحديث إليهم ، كما يوجه إلى الحاضرين فى الحس والمشاهدة ، هذا من الناحية العامة ، وأما من الناحية الأخرى ، فإن هذه الأمثال البليغة التى ضربت فى شأن المعرضين خاصة ، قد أبرزتهم أمام السامع فى صورة محزنة ، تبعث فى نفسه أقوى البواعث لنصحهم وتحذيرهم .

حتى أنه لا يشفى صدره ، إلا أن يناديهم أو يسمع من يناديهم ، أن افتحوا أعينكم أيها القوم ، وتعالوا إلى طريق النجاه . وهكذا استعدت النفس أتم استعداد ، لسماع هذا النداء . (يأيها الناس اعبدوا ربكم) — الآيات إلى آخر المقصد الأول .

المقصد الأول من مقاصد السورة : فى خمس آيات (٢١ — ٢٥) .

فى هذه الآيات الخمس تسمع نداء قوياً موجهاً إلى العالم كله بثلاثة مطالب :

١ — أن لا تعبدوا إلا الله ولا تشركوا به شيئاً .

٢ — أن آمنوا بكتابه الذى نزل على عبده .

٣ — أن اتقوا أليم عذابه ، وابتغوا جزيل ثوابه .

هذه المطالب الثلاثة هي الأركان الثلاثة للعقيدة الإسلامية ، تراها قد بسطت مرتبة على ترتيبها الطبيعي ، من المبدأ ، إلى الواسطة ، إلى الغاية .

وترى كل واحد من الركنين الأولين ، قد أقيم على أساس من البرهان العقلي القاطع لكل شبهة ، أما الركن الثالث ، فقد جرى به مجرداً عن هذا النوع من البرهان ، ولكنه نفخ فيه من روح الإلهاب ، وتحريك الوجدان ، بالتحذير والتبشير ما يسد في موضعه مسد البرهان .

عود على بدء : في أربع عشرة آية (٢٦ — ٣٩)

١ — بدأ الكلام في السورة — كما علمت — بوصف القرآن بما فيه من الهدى اجمالاً : فكان الحق أن يعود إلى وصف طريقة القرآن في هذه الهداية ، ليقول أنها هداية كاملة بالبيان الوافي الشامل لكل شيء ، فانظر كيف مهد لهذا الانتقال تمهيداً يتصل من أول السورة إلى هذا الموضع :

أما المقدمة ، فقد وصف فيها الفرق الثلاث وصفاً شافياً ضرب للناس أمثالهم ، وحقق أن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم .

وأما المقصود ، فقد بين فيه أن لله وحده المثل الأعلى ، الذي لا يشاركه فيه شيء الأنداد ، ثم وضع فيه الفاصل بين النبي والمنتبى بتلك المعجزة العالمية ، التي لا يستطيع أحد من دون الله أن يأتي بمثلها ، ثم ذكر مثل النار التي أعدت للكافرين ، ومثل الجنة التي وعد المتقون .

فتراه قد تناول في هذه الأمثال ضروباً شتى من الحقائق علوية وسفلية ، مادية ومعنوية .. حتى كانت نهاية الحديث ، أن عرض ما في الجنة من أنواع المتع واللذائذ الشخصية والجنسية ، تلك المعاني التي قد يستحي المرء من ذكرها ، وقد يخالها الجاهل نابية عن سنن الخطاب الإلهي الأعظم ، غافلاً عن أنه الحق الذي لا يستحي من الحق ، وأنه الرحيم الذي يتنزل رحمته إلى مستوى العقول البشرية ، فيبين لهم كل ما يحتاجون إلى بيانه مما يحبون أو يكرهون ، ومما يرجون أو يحذرون .

وهكذا انساق الحديث من ذكر هذه النماذج المتفاوتة إلى استنباط القاعدة الكلية منها ، ببيان أن هذه هي طريقة القرآن في هدايته ، فهو يضرب الأمثال كلها ، ويبين الحقائق حلوها ومرها ، واضعاً

كل شيء في موضعه ، مسمى له باسمه ، لا يبالي أن يتناول في بيانه جلائل الأمور أو محقراتها (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها)

حقاً إن شأن هذا الكتاب في تفصيل الحق والباطل ، والضرار والنافع ، شأن كتاب الأعمال في تفصيل الحسنات والسيئات ، كلاهما لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

وكما أن وصف القرآن بالهدى إجمالاً ، قد جر هناك إلى ذكر انقسام الناس في قبول هدايته ، وإلى النعي على من أعرض عنه ، كذلك وصف طريقته في الهداية ، قد جرّها هنا إلى مثل هذا التقسيم . (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً) وإلى النعي على الضالين بذكر مساوئهم وتفصيل نقائصهم (وما يضل به إلا الفاسقين)

وكما أن بيان أوصافهم هناك ، قد جلاهم أمام السامع في صورة تحرك داعيته لسماع ندائهم بالنصح والتعليم ، كذلك بيان أوصافهم هنا قد استفز النفوس إلى سماع مخاطبتهم بالتعجيب والإنكار : (كيف تكفرون بالله — الآيات) .

٢ — وكذلك عاد الكلام إلى المقصد الأول بأركانه الثلاثة ، ولكن في ثوب جديد :

(أما في الركن الأول) فقد سمعته هناك ، يأمر بعبادة الله ، وتسمعه هنا ، ينهى عن الكفر بالله . وهناك ذكرهم بنعمة إيجادهم مجملة ، وهنا يذكرهم بها مفصلة متممة ، وهناك عرفهم بنعمة تسخير الأرض والسماء لهم ، وهنا يعرفهم بذلك في شيء من التفصيل .

(وأما الركن الثاني)

فقد ذكر هناك نبوة هذا النبي الخاتم ، وهنا ذكر نبوة ذلك النبي الأول آدم ، لتعلم أن نبينا لم يكن بدعاً من الرسل ، وأن أمر التشريع والنبوات أمر قديم متصل بنشأة الانسان ، وقد مهد لهذا البيان ، بذكر تاريخ تلك النشأة العجيبة ، وما جرى في شأنها من الحديث مع الملائكة ، ذلك الحديث الدال على مزيد العناية الإلهية بهذا النوع البشري ،

اختاره الله لخلافة الأرض ، وآثره على سائر الخلق بفضيلة العلم ، ليكون آلامتان بذلك جارياً مع الامتتان بالنعمة المذكورة في الركن الأول على حسن نسق — ثم اتصل من هذا التفصيل ، إلى شرح ما نشأ عنه من حسر إبليس وعداوته القديمة للإنسان الأول ، ومخادعته إياه بوساوسه ، وما انتهى إليه

أمر الخادع والمخدوع من ابتلائهما ، وابتلاء ذريتهما بالتكاليف . وهو — كما ترى — حديث يطلب بعضه بعضاً ، ويأخذ بعضه بأعناق بعض .

(وأما الركن الثالث) فقد رأيت هناك يصف الجنة والنار بمألهما من وصف رائع أو مروع ، وتراه هنا يكتفى عن وصفهما بذكر اسمهما وتعيين أهلها ناظماً مصنع الأجزية مع وضع التكاليف في سلك واحد ، ومتخلصاً أحسن تخلص من أحدهما إلى الآخر ، بتقرير أن اتباع التكاليف أو عدم اتباعها ، هو مناط السعادة أو الشقاوة في العقبى .

ولقد ختم الكلام هنا — كما ختمه في المقدمة — بشأن المخالفين ، تمهيداً للانتقال مرة أخرى إلى نداء فريق منهم ، ودعوتهم إلى الإسلام ، وهو المقصد الثاني

المقصد الثاني من مقاصد السورة : في ثلاث وعشرين ومائة آية (٤٠ — ١٦٢) :

بحسبك أن تعلم أن هذه السورة هي غرة السور المدنية ، وأن المدينة كان يسكنها أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، وأكثرهم جدالاً في دينهم بما أوتوه من العلم قبلهم ، بحسبك أن تعلم هذا وذاك ، لتعرف سر تلك العناية الموفورة بهذا الجانب من الدعوة ، نعني دعوة بني اسرائيل خاصة بعد دعوة الناس عامة ، ولتعلم حكمة ذلك التبسط في الحديث معهم تارة ، والحديث عنهم تارة أخرى ، بالوان تختلف هجوماً ، ودفاعاً ، واستمالة واستطالة إلى ما بعد نصف السورة .

وسترى حين تنتقل في هذه الأحاديث مرحلة مرحلة ، ما يملك قلبك من جمال نظامها ودقة تقسيمها .

(بدأ) الكلام معهم بآية فذة (٤٠) هي على قلة كلماتها جامعة لأغراض الحديث كله ، ففيها يناديهم بأحب أسمائهم ، وأشرف أنسابهم ، ويذكرهم بسابق نعمة الله عليهم إجمالاً ، ويبني على ذلك دعوتهم إلى الوفاء بعهدهم ، ويرغبهم ويزهدهم .

(ثم) رجع إلى هذه الأغراض يفصلها على تدرج ، وبقدر معلوم ، فشرح العهد الذي طلب منهم الوفاء به ، في ست آيات (٤١ — ٤٦) — وبين مقدار النعمة التي امتن بها عليهم في آية (٤٧) ومقدار المخافة التي خوفهم منها في آية أخرى (٤٨) .

(ثم) قسم الحديث إلى أربعة أقسام :

(القسم الأول) يذكر فيه سالفة اليهود منذ بعث فيهم موسى عليه السلام .

(القسم الثاني) يذكر فيه أحوال المعاصرين منهم للبعثة المحمدية .

(القسم الثالث) يذكر فيه أولية المسلمين منذ إبراهيم عليه السلام .

(القسم الرابع) يذكر فيه حاضر المسلمين في وقت البعثة .

أرأيت هذه المراحل الأربع ، التي سلكها القرآن في دعوة بني اسرائيل ، كيف رتبها مرحلة مرحلة ، وكيف سار في كل مرحلة منها خطوة خطوة .

فارجع البصر كرة أخرى إلى هذه المرحلة الأخيرة منها ، لتنظر كيف استخدم موقعها هذا ، لتحقيق غرضين مختلفين ، وجعلها حلقة اتصال بين مقصدين متتائين ، فهي في جملتها مناجات من الله للنبي والمؤمنين ، في خاصة شأنهم ، وفيما يعينهم من أمر دينهم ، ولكنه جعل هذه النجوى طرفين ، لئلا يكون كل طرف منها بلون المقصد الذي يتصل به ، فالتقى المقصدان فيها على أمر قد قدر ، ألم تر كيف بدأها ، بأن قص على المؤمنين مقالة أعدائهم في بعض حقائق الاسلام ، وعمد إلى هذه الحقائق ، التي تماروا فيها ، فجعل يمسح غبار الشبهه عن وجهها ، حتى جلاها بيضاء للناظرين ، فكانت هذه البداية — كما ترى — نهاية لتلك المعارك الطويلة ، التي حورب فيها الباطل في كل ميدان ، ثم رأيت كيف ساق الحديث ، فجعل يثبت أقدام المؤمنين على تلك الحقائق النظرية والعملية ، ويحرضهم على الاستمسك بها في غير ما آبه ، أفلا تكون هذه النهاية بداية لمقصد جديد بعدها ، يراد به هداية المؤمنين إلى تعاليم الاسلام مفصلة ؟

بلى .. إن ذلك هو ما توحى به سياقه هذه النجوى المتواصلة ، التي مدت في خطاب المؤمنين مداً ، وحولت مجرى الحديث معهم رويداً رويداً ، حتى صار من ألقى سمعه إليها ملياً ، يسمع في طيها نداءً خفياً : أن قد فرغنا اليوم من الأعداء جهاداً ، وأقبلنا على الأولياء تعليماً وإرشاداً ، وأن قد طوينا كتاب الفجار ، وجئنا نفتتح كتاب الإبرار ، وأن هذه الصفحة الأخيرة من دعوة بني اسرائيل ، لم تكن إلا طليعة من كتاب الحق ، تنبئ أن سيتلوها جيشه الجرار ، أو شعاعة من فجر الهدى سيتحول الزمان بها من سواد الليل إلى بياض النهار ، إلا ترى الميدان ، قد أصبح خالياً من تلك الأشباح الاسرائيلية ، التي كانت تتراءى لك في ظلام الباطل تهاجمها وتهاجمك ، هل تحس منهم من أحد أو تسمع له ركزاً ؟

أو لا ترى هذه الأشعة الأولى من شمس الشريعة الاسلامية ، قد انبعثت يسوق بعضها بعضاً ، أصول جامعة ، نظرية تتبعها طائفة من فروعها الكبرى العملية ، ألم يأن لسائر الفروع أن تجيء من خلفها ، حتى تبلغ الشمس ضحاها ...

هكذا تفتحت الأذان لسماع شرائع الإسلام مفصلة ، فلو أنها أقبلت علينا الآن عدداً وسرداً ، ما حسبنا الحديث عنها حديثاً مقتضياً .

لكن القرآن ، وقد وضع على أدق الموازين البيانية وأرفقها بحاجات النفوس ، لم يشأ أن يهجم على المقصود ، مكتفياً بهذا التمهيد ، بل أراد أن يقدم بين يديه شقة تستجم النفس فيها من ذلك السفر البعيد ، وتأخذ أهدتها لرحلة أخرى إلى ذلك المقصد الجديد ، فانظر فيما يلي :

المدخل إلى المقصد الثالث : في خمس عشرة آية (١٦٣ — ١٧٧) .

نصف وعشر من الآيات الكريمة ، هي بمثابة الدهليز بين الباب والدار ، يقطعها السائر في خطوات ثلاث :

- (الخطوة الأولى) تقرير وحدة الخالق المعبود ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾^(١)
- (الخطوة الثانية) تقرير وحدة الأمر المطاع ﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً .. ﴾^(٢)
- (الخطوة الثالثة) فهرس إجمالي للأوامر والطاعات المطلوبة .
- ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر .. ﴾^(٣)

المقصد الثالث من مقاصد السورة : في ست ومائة آية (١٧٨ — ٢٨٣) بعد إرساء الأساس ، تكون إقامة البنيان ، وبعد الأطمئنان على سلامة الخارج ، يجيء دور البناء والإنشاء في الداخل ...

نعم ، لقد تم (إصلاح العقيدة) التي هي روح الدين وجوهره ، فليبدأ (تفصيل الشريعة) التي هي مظهر الدين وهيكله .. لقد أزيلت شبه المعاندين ، وأقيمت الحجة عليهم ، فلم يبق إلا إنارة السبيل للسالكين . وإيضاح المحجة بين يديهم .. كانت العناية من قبل موجهة إلى بيان (حقائق الإيمان) فلنتوجه الآن ، إلى بسط (شرائع الإسلام) .

١ — البقرة آية رقم : ١٦٤ .

٢ — البقرة آية رقم : ١٦٨ .

٣ — البقرة آية رقم : ١٧٧ .

وأنت فقد رأيت كيف مهّدت السورة لهذا التحول ، إذ وضعت برزخاً يربط أطراف الحديث ، ويلتقى فيه سباقها ، وسياقها ... ولو أنك تلفت الآن التفاتة يسيرة إلى جانبك ، لرأيت أدنى هذا البرزخ إليك تلك الآية الجامعة (آية البر) التي انتظمت أصول الدعوة بشطريها : النظرى والعملى ، ولرأيت أدنى هذين الشطرين إليك ، هو هذا الشطر العملى .

فاعلم الآن ، أن هذا الشطر العملى ، الذى لمخناه من قبل مطوياً فى فهرس موجز ، سنراه فيما يلى ، مبسوطاً فى بيان مفصل .

ففى نيف ومائة آية ، سنرى فناً جديداً من المعانى ، مهمته رسم نظام العمل للمؤمنين ، وتفصيل الواجب والحرام والحلال لهم فى شتى مناص الحياة ، فى شأن الفرد ، وفى شأن الأسرة ، وفى شأن الأمة ... بياناً مؤتلفاً تارة ، وجواباً عن سؤال تارة أخرى ، متناولاً فى جملته عشرات من شعب الأحكام ..

هذه الحكمة العامة : فى تأخير إقامة البنيان ، ريثما أرسيت قواعد وفى تأجيل الفروع ، حتى أحكمت أصولها ، ستبدو من ورائها حكم جزئية ، وأسرار دقيقة ، لمن أقبل على هذه الفروع ، ينظر إلى تلاصق لبناتها فى بنيتها ، وتناسق حباتها فى قلايتها ، ثم رجع ينظر فى وجه التقابل بين ذلك الإجمال السابق ، وهذا التفصيل اللاحق ..

فناخذ فى استعراض الحلقات الرئيسية لهذه السلسلة الجديدة : لقد ختمت آية البر كما رأيت ، بخصلة من خصال البر ، مُيزت فى إعرابها تمييزاً ، فكان ذلك تنويهاً بشأنها أى تنويه ، تلك هى خلة الصبر ، التى شعبتها الآية المذكورة إلى ثلاث شعب : الصبر فى البأساء ، والصبر فى الضراء ، والصبر حين البأس ، فهل تعلم أنه الآن وقد برىء دور التفصيل ستكون هذه الخصلة بشعبها الثلاث ، أول ما تعنى السورة بنشره من تلك الخصال ، وأنها ستنتشرها نشرأ مرتباً ترتيباً تصاعدياً ، على عكس ترتيب الطى ، الصبر حين البأس ، ثم الصبر فى الضراء ، ثم الصبر فى البأساء ، وهل تعلم أن هذا النظام التصاعدى نفسه ، سيتبع فى سائر الخصال ، الوفاء بالعهود والعقود ، ثم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والبذل والتضحية فى سبيل الله ؟

إليك البيان مفصلاً :

الصبر حين البأس :

لا تحسبته هنا صبراً على الجروح والقروح فى الحرب ، فذلك معنى سلبى استسلامى ، ولا تحسبته صبراً فى البطش والفتك بالأعداء ، فذلك جهد عملى إيجابى حقاً ، ولكن مرده إلى قوة العضل والعصب ،

لا إلى قوة الخلق والأدب « ليس الشديد بالصرعة ، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب »^(١)

هكذا سيختار الله لنا من مثل الصبر أمثلها ، ومن موازينه أوزنها في معايير القيم ؛ ذلك هو ضبط النفس حين البأس ، كفاً لها عن الاندفاع وراء باعثة الانتقام ، وردعاً لها من الاسراف في القتل ، ووقوفاً بها عند حد التماثل والتكافؤ العادل .

(القصاص — ١٧٨ — ١٧٩) .. وإذا كانت تداعي المعاني يسوقنا من الحديث عن القتل ، إلى الحديث عمن هم بشرف الموت ، ناسب تميم الكلام ، ببيان ما يجب على المحتضر من الوصية لأقاربه برأ بهم (الوصية ١٨٠ — ١٨٢)
الصبر في الضراء :

وكذلك سيختار الله لنا من أبواب الصبر في الضراء أعلاها ، ليس الصبر على الأمراض والآلام بإطلاق ، ولكنه الصبر على الظماً والخمصة في طاعة الله (الصوم ١٨٣ — ١٨٧) وينساق الحديث عن الصوم المؤقت عن بعض الحلال ، إلى الصوم الدائم عن السحت والحرام (١٨٨) .
الصبر في البأساء :

وعلى هذا التخط نفسه ، سنرى الصبر في البأساء هنا ليس هو ذلك الصبر الاضطرارى على الفقر والأزمات المالية والجوائح السماوية ، ولكنه الصبر الاختيارى على التضحية بالأموال إنفاقاً لها في سبيل الله .

والمثال الذى يختاره التنزيل الحكيم هنا مثال مزدوج ، ينتظم الصبر في البأساء والضراء جميعاً ، إذ يجمع بين الجهاد بالنفس والجهاد بالمال (الحج إلى بيت الله ١٨٩ — ٢٠٢) ولا تنس ها هنا أن تنظر إلى المعبرة اللطيفة ، التى انتقل بها الحديث من الصوم إلى الحج ... تلك هى مسألة الأهلة ، التى جعلها الله مواقيت للصوم وللحج جميعاً (١٨٩) .

ولنقف بك ها هنا وقفة يسيرة ، نشير فيها إلى شأن عجيب من شؤون النسق القرآنى فى هذا الموضع ؛ ذلك أنه حين بدىء بذكر الحج ، لم تتصل به أحكامه ولاء ، بل فصل بين اسمه وحكمه بست آيات فى أحكام الجهاد بالنفس والمال فى قتال الأعداء (١٩٠ — ١٩٥) — فاصلة ، يحسبها الجاهل رقعة غريبة فى ثوب المعنى الجديد .. ولكن الذى يعرف تاريخ الاسلام وأسباب نزول القرآن ،

يعرف ما لهذه الفاصلة من شرف الموقع ، وإصابة المحز ، لا مجرد الاقتران الزماني بين تشريع الحج وبين غزوة الحديبية ، في السنة السادسة من الهجرة ، ولكن لأن أداء المناسك في ذلك العام كان عزمًا لم ينفذ ، وأملًا لم يتحقق ؛ إذ حصر المسلمون يومئذ عن البيت ، وهموا أن يبطشوا بأعدائهم ، الذين صدوهم عنه ؛ لولا أن الله نهاهم عن البدء بالعدوان ، وأمرهم ألا يقاتلوا في المسجد الحرام إلا من قاتلهم فيه ، فانصرفوا راجعين ، مستسلمين لأمر الله ، منتظرين تحقيق وعد الله ، فكذاك فلينصرف القاريء أو المستمع ها هنا ، وهو متعطش لإتمام حديث الحج على أن يعود إليه بعد فاصل ، كما انصرف المسلمون اذ ذاك عن مكة ، وهم إليها متعطشون ، على أن يعودوا إليها من عام قابل ... هكذا كانت هذه الآيات الفاصلة تذكراً خالداً لتلك الأحداث الأولى ، وهكذا كان القرآن الحكيم مرآة صافية ، نطالع فيها صور الحقائق من كل لون ، نقتبسها تارة من تصريح تعبيره ، وطوراً من نهجه وأسلوبه ، في تعجيل البيان أو تأخيره ، ثم كانت هذه الآيات الفاصلة في الوقت نفسه درساً عملياً في صبر المتعلم على أستاذه ، لا يعجله بالسؤال عن أمر في أثناء حديثه ؛ ولكن يتلبث قليلاً حتى يحدث له منه ذكراً في ساعته الموقوتة ، وهكذا لن يطول بنا الانتظار ، حتى نرى أحكام الحج والعمرة ، تجيء في إثر ذلك على شوق وظمأ ، فتشبع وتروى بالبيان الشافي الوافي (١٩٦ — ٢٠٣) وبتمام هذا البيان ، تم الحلقة الأولى من الأحكام ، أعني فريضة الصبر في البأساء والضراء وحين البأس .

استجمامة (٢٠٤ — ٢١٤)

وشاءت حكمة الله ، وتلطفه بنا في تربية نفوسنا على طاعة أمره ؛ ألا يصعد بنا إلى الحلقة الثانية ، من فورنا هذا ، ولكن بعد استرواحة فيها شيء من الموعظة العامة ، يثبت بها القلوب على ما مضى ، ويوطيء لها السبيل إلى ما بقى ، .. وكان من حسن الموقع لهذه الموعظة العامة ، أنها اتصلت بالموعظة الخاصة ، التي ختم بها حديث الحج ، والتي قسمت الناس من حيث آمالهم ومطامعهم إلى فريقين : فريق يطلب خير الدنيا ، ولا يفكر في أمر الآخرة ، وفريق لا تنسيه دنياه مصالح أخراه (٢٠٠ — ٢٠٢) فجاءت الموعظة العامة ، تقسم الناس من حيث ما فيهم من خلق الأثرة أو الإيثار إلى فئتين ! فئتين : فئة لا تبالى أن تضحي الأثرة أو الإيثار إلى العباد ، وعمران البلاد ، وفئة على العكس من ذلك ، لا ترضى أن تضحي بنفسها في سبيل مرضاة الله (٢٠٤ — ٢٠٧) وتخلص الآيات الحكيمة من هذا التقسيم ، إلى توجيه النصيح للمؤمنين ، بأن يخلصوا نفوسهم من شوائب الهوى ، ويستسلموا بكليتهم لأوامر الله ، دون تفريق بين بعضها وبعض ، محذرة إياهم من الزلل عنها ، بعد أن هدوا إليها ، ووقفوا عليها ، مغرية لهم عما قد يصيبهم من البأساء والضراء في سبيل إقامتها ، ضاربة لهم المثل في ذلك بسنة السلف الصالح من الأمم السابقة (٢٠٨ — ٢١٤) .

هنا تمت الاسترواحة بالموعظة العامة .

وستكون الحلقة التالية في تفصيل الخصلة الثانية من الخصال العملية ، التي أجملت في آية البر ، وهي الوفاء بالعهود والعقود ، وستختار من بين هذه العقود أحقها بالعناية والرعاية ، عقدة الزواج وما يدور حول محورها من شؤون الأسرة : أليست الأسرة هي المجال الأول للتدريب على حسن العشرة ، وعلى التنزه من رذيلة الأنانية والأثرة ؟ ثم أليست الأمور متى استقامت في هذا المجتمع الصغير ، استقامت بالتدريج في المجتمع الكبير ، ثم في المجتمع الأكبر ؟

تري كيف سيكون الانتقال إلى هذه الحلقة الثانية ؟ هل يصعد القرآن بنا تَوّاً إلى تفصيل هذه الشؤون المنزلية المشتبكة المتشعبة ؟ كلا إن هذا البيان التربوي الحكيم ، لن يهجم بنا عليها دفعة ، ولكنه سيتلطف في الوصول بنا إليها على معراج من الأسئلة والأجوبة ، تتصل أوائلها بالأحكام الماضية : الإنفاق والجهاد (٢١٥ - ٢١٨) ، وتتصل أواخرها بالأحكام التالية : مخالطة اليتامى ، وشرائط المصاهرة ، وموانع المباشرة (٢٢٠ - ٢٢٢) وهكذا نصل في رفق ولين ، دون اقتضاب ولا ابتسار ، إلى صميم الحلقة الثانية (٢٢٣ - ٢٣٧) حيث نتلقى في شأن الحياة الزوجية دستوراً حكيماً ، مؤلفاً من شطرين ، شطره الأول يعالج شؤون الأسرة في أثناء اتصالها (٢٢٣ - ٢٣٢) وشطرها الأخير يعالج شؤونها في حال انحلالها وانفصالها (٢٣٣ - ٢٣٧)

تأمل أول كل شيء في خط سير المعاني :

انظر كيف استهل الحديث بإرسال الأساس ، وذلك بتقرير حق العشرة والمخالطة الزوجية (٢٢٣) ثم انظر كيف تلاه النهي عن إدخال اليمين في أمثال هذه الحقوق المقدسة ، سواء بالحلف على منع البر عن مستحقه ، أو على قطع ما أمر الله به أن يوصل (٢٢٤ - ٢٢٥) وكيف عقبه بحكم فرعى من فروع هذا المبدأ متصل بالعلاقة الزوجية ، وهو حكم من حلف على الإمتناع عن زوجته (٢٢٦ - ٢٢٧) وكيف اتصل من هنا بأحكام الطلاق ، وما يتبع الطلاق من حقوق وواجبات (٢٢٨) .

فاذا أعجبك هذا التسلسل المعنوي ، وهذا التدرج المنطقي ، في شؤون كانت متفرقة ، ارتجلتها الحوادث ارتجالاً ، فتعال معي لأضع يدك في هذه القطعة ، على حرف واحد ، تلمس فيه مبلغ الاحكام في التأليف بين هذه المتفرقات ، حتى صارت شأنًا واحداً ذا نسق واحد :

ذلك هو موضع النقلة من فتيا الإيلاء إلى فتيا الطلاق :
(وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم والمطلقات يتربصن ..)

ألا ترى كيف أدير الأسلوب في حكم الإيلاء على وجه معين ، يطل القارئ منه على أفق متلبد ، ينذر باحتمال الفراق ؛ فلما جاء بعده الحديث عن أحكام الفراق لم يكن غريباً ، بل وجد مكانه مهياً له من قبل ؛ كأنه خاتمة حكم الإيلاء ، وكانت بمثابة عروة مفتوحة ، تستشرف إلى عروة أخرى تشبك معها ؛ فلما جاءت فتيا الطلاق في إبانها ، كانت هي تلك العروة المنتظرة ، وما هو إلا أن التقت العروتان حتى اعتنقتا ، وكانت منهما حلقة مفرغة ، لا يدري أين طرفاها ، وهكذا أصبح الحديثان حديثاً واحداً ..

ترى من علم محمداً — لو كان القرآن من عنده — أنه سوف يُستفتى يوماً ما في تلك التفاصيل الدقيقة لأحكام الطلاق ؟ ومن علمه أنه سيجد لهذا السؤال جواباً ، وأن هذا الجواب سيوضع في نسق مع حكم الإيلاء ، وأنه ينبغي لاستقامة النسق كله ، أن يساق حكم الإيلاء ، الذي وقع الاستفتاء فيه الآن ، على وجه يجعل آخر شقيه هو أدناهما إلى حديث الطلاق ، الذي سوف يسأل عنه بعد حين ؛ لكي ينضم الشكل إلى شكله متى جاء وقت بيانه ؟ .. هيات أن يحوم علم البشر حول هذا الأفق الأعلى ، فإنما ذلك شأن عالم الغيب الشهادة ، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

وتمضى السورة في هذا النمط الجديد ، مفصلة آثار الطلاق وتوابعه كلها : عدة ، ورجعة ، وخلعاً ، ورضاعاً ، واسترضاعاً ، وخطبة ، وصداقاً ، ومتعة ... إلى تمام هذه الحلقة الثانية . (٣٧) .

وهناك تبدأ الحلقة الثالثة (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى^(١)) (٢٣٨) —

(٢٧٤) .

فلننظر : كيف تمت النقلة بين هاتين الحلقتين ؟

إننا بمقدار ما رأينا من التلبث والتمكث ، والاستجمام ، والتنفس بين الحلقة الأولى والثانية . سنرى على عكس ذلك بين الحلقة الثانية والثالثة ، نقلة شبه خاطفة ، بل لفته جدّ مباغته ، قد يحسبها الناظر اقتضاباً ، وما هي باقتضاب إلا في حكم النظر السطحي ... أما من تابع معنا سير قافلة المعاني منذ بدايتها ، وقطع معنا ثلثي الطريق ، الذي رسمته آية البر : من الوفاء بالعهود ، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس ، فإنه لا ريب سوف يستشرف معنا إلى ثلثه الباقي : إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وبذل المال على حبه في سبيل الله ، وسوف يرى أن هذه الحلقة الثالثة ، قد جاءت هنا في رتبها وفي موضعها المقدر لها ، وفق ترتيبها في الآية الجامعة ..

سيقول قائل : نعم ، لقد جاءت في موضعها ورتبتها ، ولكن الانتقال إليها قد تم دون إعداد نفسى ، ولا تمهيد بيانى التى ختمت بها الحلقة السابقة . (وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم . إن الله بما تعملون بصير)^(١) فهذه لو تدبرت معبرة ذهبية ، وضعت وقت الحاجة إليها ، بعد أن استطال الحديث في تفصيل الحقوق والواجبات المنزلية ، معبرة جىء بها لتنقلنا من ضوضاء المحاسبة والمخاصمة ، إلى سكون المسامحة والمكارمة ؛ فكانت معراجاً وسطاً ، صعد بنا إلى أفق أعلى ، تمهيداً للعروج بنا فيما يلى ، إلى الأفق الأعلى .. ألا تسمع إلى هذه الكلمات : (ولا تنسوا الفضل بينكم) لا تنسوا . الفضل .. بينكم إن كل حرف أقام بيننا فترة ما ، ليفصل في شؤونا ، ثم أخذ الآن يطوى صحيفة أحكامه ، ليتحول بنا عنها إلى ما هو أهم منها ، فقال لنا وهو يطويها : دعوا المشادة في هذه الشؤون الجزئية الصغرى ؛ سووها فيما بينكم بقانون البر والفضل ، الذى هو أسمى من قانون الحق والعدل ، وحولوا أبصاركم معى إلى الشؤون الكلية الكبرى ، التى هى أحق بأن يتوفر عليها العزم والقصد ، وأجرى أن يشتغل بها العقل والقلب ... نعم نعم لقد كفاكم هذا حديثاً عن حقوق الزوج والولد ، فاستمعوا الآن إلى الحديث عن حقوق الله والوطن :

حافظوا على الصلوات ... انفقوا في سبيل الله ... جاهدوا في سبيل الله ..

« وبعد » فهل حديث الصلاة هنا يعتبر مقصداً أصلياً مستقلاً ، أم هو جزء من مقصد آخر ؟

إن الخطاب هنا بالصلاة وغيرها يتوجه إلى المجاهدين ، من حيث هم مجاهدون ، ليحل المشاكل التى يثيرها موقف الجهاد نفسه قبل أن يوجه إليهم الأمر الصريح بالقتال ..

فأول هذه المشاكل مشكلة الصلاة في الحرب : ألا يكون الجهاد رخصة في إسقاط هذا الواجب أو في تأجيله .

يجيبنا الكتاب العزيز : لا رخصة في ترك الصلاة ، ولا في تأجيلها ، لا في سلم ولا في حرب ، لا في أمن ولا في خوف (حافظوا على الصلوات) (٢٣٨) وإنما الرخصة عند الخوف في شيء واحد : في صفات الصلاة وهيأتها (فإن خفتم فرجالاً أو ركبانا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون) (٢٣٩) . والصلاة كما نعلم قوة معنوية ، على العدو ، وعدة من عدد النصر ، لا جرم كان من الحكمة أن تزود بها أرواح المجاهدين ، قبل أن يؤمروا بالقتال أمراً صريحاً ، والصلاة في الوقت نفسه

طهره للنفس من مساوىء الأخلاق ، تنقيها من دنس الشح والحرص على حطام الدنيا ، لا جرم كان من الحكمة كذلك جعلها دعامة للوصية الآنفة ، التى أمرتنا بالتسامح والتكأرم فى المعاملات ... هكذا كان وضع حديث الصلاة مزدوج الفائدة : دواء وغذاء معاً ، ينظر إلى الأمام وإلى الوراء جميعاً ، بل قل إنه مثلث الفائدة ، لأنه فى نظره إلى الخلف لا ينظر إلى الآفة الآنفة وحدها ، بل ينظر كذلك إلى الآفة الجامعة ، ليفصل إجمالها فى هذا الجانب ..

والجندى فى الحرب تشغله على الأقل مخافتان ، نخافة على نفسه وعلى المجاهدين معه ، من أخطار الموت أو الهزيمة ؛ ونخافة على أهله من الضياع والعيلة لو قتل ، .. لذلك إنساق البيان الكريم يطرد من قبله كلتا المخافتين ..

أما أهله ، فقد وصى الله للزوجة ، إذا مات زوجها ، بأن تمتع حولاً كاملاً فى بيته ، وكذلك مطلقة سيقرر لها حق فى المتعة لا ينس ، فليقر عيناً من هذه الناحية (٢٤٠ - ٢٤٢) وأما خوف الموت ، فليعلم أن الذى يطلب الموت قد توهب له الحياة .
(ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم) (٢٤٣) .

وأما خوف الهزيمة ، فإن النصر بيد الله (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله) وتلك سنة الله فى المرسلين (٢٤٦ - ٢٥٣) .

هكذا أبعدت المخاوف كلها عن قلوب المجاهدين ، بعد أن زودت أرواحهم بزيادة التقوى ، وهكذا أصبحوا على استعداد نفسى كامل ، لتلقى الأوامر العليا ، فليصدر إليهم الأمر صريحاً بالجهاد فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم (٢٤٤ - ٢٤٥) ولتفصل لهم العبرة التاريخية التى تثبت أقدامهم حين البأس ، والتى تزيدهم أملاً فى النصر (٢٤٦ - ٢٥٣) والجهاد كما قلنا جهادان : جهاد بالنفس ، وجهاد بالمال ، ولقد أخذ الجهاد بالنفس حظه من الدعوة فى آفة قصيرة (٢٤٤) ثم فى آيات كثيرة (٢٤٦ - ٢٥٣) . وأخذ الجهاد بالمال بعض حظه فى آفة قصيرة (٢٥٥) فمن العدل أن يأخذ تمام حظه فى آيات كثيرة كذلك ، وهكذا نرى الدعوة إليه تأخذ الآن قسطها ، مطبوعاً بطابع الشدة تارة (٢٥٤ - ٢٦٠) وطابع اللين تارة (٢٦١) وطابع التعليم المفصل لآداب البذل تارة أخرى (٢٦٢ - ٢٧٤) .

ثم ينساق الحديث عن فضيلة التضحية والإيثار ، التى هى أسمى الفضائل الاجتماعية ، إلى رذيلة الجشع والاستئثار ، التى هى فى الطرف المقابل ، أحط أنواع المعاملات البشرية ، (أعنى رذيلة الربا ،

التي تستغل فيها حاجة الضعيف ، ويتقاضى فيها المحسن ثمن المعروف ، الذي يبذله أضعافاً مضاعفة (٢٧٥ — ٢٧٩) وكان هذا الاقتران بينهما في البيان ، إبرازاً لمدى الافتراق بين قيمتهما في حكم الضمائر الحية .

وبين هذين الطرفين ، يقيم القرآن ميزان القسط في الحد الأوسط ، جاعلاً لصاحب الحق سلطاناً في المطالبة برأس ماله كله ، لا ينتفض منه شيء (لا تظلمون ولا تُظلمون) . غير أنه يحذرننا من سوء استعمال هذا الحق بإزاء المعسرين ، فيأمرنا أن نتخذ فيهم إحدى الحسنيين ، إما الانتظار إلى الميسرة ، وإما التنازل لهم نهائياً عن الدين ، وهذه أكرم وأفضل (وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون) . (٢٨٠ — ٢٨١) .

ولما كان الطابع البارز في هذا التشريع القرآني ، وهو طابع القناعة والسماحة ، قد يوحى إلى النفوس شيئاً من التهاون في امر المال ، وربما مال بها إلى التفريط في حفظه وتثميته ، جاءت آيتا الدين والرهان (٢٨٢ — ٢٨٣) تدفعان عن نفوسنا هذا التوهم ، وتصوغان للمؤمنين دستوراً هو أدق الدساتير المدنية ، في حفظ الحقوق وضبطها وتوثيقها .

بمختلف الوسائل ، تمهيداً لإنفاقها في أحسن الوجوه ، فمن لم يجد سبيلاً إلى التوثق بوثيقة ما ، ولم يبق أمامه إلا أن يكل عميله إلى ذمته وأمانته (فيلؤد الذي أوتمن أمانته) .

وهكذا ختم الشطر العملي من السورة ، بهذه القاعدة المثلى التي هي أساس كل معاملة شريفة ، أعنى قاعدة الصدق والأمانة ، جعلنا الله من أهل الصدق والأمانة ... آمين .

المقصد الرابع من مقاصد السورة : في آية واحدة (١٨٤)

في الآية السابقة ، انتهت مهمة الأحكام التفصيلية ، عند الحد الذي أراد الله بيانه في هذه السورة ، وبها ختم الشطر الثاني من الحقيقة الدينية ، وهو شطرها العملي ؛ بعد أن أرسى شطرها الاعتقادي في الآي ، وما بعدها . وهكذا تناول البيان حتى الآن ١ — حقائق الإيمان ، ٢ — شرائع الإسلام ... هل بقي في بنيان الدين شيء فوق هذه الأركان ؟

نعم ، لقد بقيت ذروته العليا ، وحليته الكبرى ..

بعد الإيمان ... والإسلام ، بقى الإحسان ، وهو كما فسرهُ صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه ، أن تراقب الله فى كل شأنك ، وأن تستشعر شهادته لك فى شرك وإعلانك ، وأن تستعد لحاسبته لك ، حتى على ذات صدرك ، ودخيلة نفسك .. مطلب عزيز لا يطيق الوفاء به كل مؤمن ، ولا كل سلم ، وإنما يحوم حول حماه صفوة الصفوة من المتقين ...

وكأنه لعزة هذا المطلب ونفاسته صان الله درته اليتيمة فى هذه الآية الواحدة ، التى توج بها هامة السورة : (٢٨٤) .

الخاتمة : فى آيتين اثنتين (٢٨٥ — ٢٨٦) .

والآن وقد تناول البيان أركان الدين كلها ، وألم بعناصره جميعها ، الإيمان ، الإسلام ، والإحسان ، لم يبق بعد تمام الحديث إلا طى صحيفته وإعلان ختامه ؟

فهل تعرف كيف طويت صحيفة هذه السورة ، وكيف أعلن ختامها ؟
لنعد بذاكرتنا إلى الآيات الخمس التى افتتحت بها سورة البقرة ، لنرى كيف تتجاوب تلك المقدمة ، مع هذه الخاتمة ، ثم كيف يتعانق الطرفان هكذا ، ليلتحم من قوسيهما سور محكم ، يحيط بهذه السورة ، فإذا هى سورة حقاً ، أى بنية محبوكة سورة ، ألم يكن مطلع السورة ، وعداً كريماً لمن سيؤمن بها ، ويطيع أمرها ، بأنهم أهل الهدى وأهل الفلاح ؟

ألسنا نتقرب الآن صدى هذا الوعد ؟ بلى ، إننا ننتظر الآن أن تحدثنا السورة هل آمن بها أحد وهل اتبع هداها أحد ؟ ثم ننتظر منها إن كل ذلك قد وقع ، أن تحدثنا عن جزاء من ثم ننتظر منها إن كان ذلك قد وقع ، أن تحدثنا عن جزاء من استمع واتباع ...

وهكذا سيكون مقطع السورة :

- ١ — بلاغا عن نجاح دعوتها : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ... وقالوا سمعنا وأطعنا)
- ٢ — وفاء بوعدها لكل نفس بذلت وسعها فى اتباعها : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)
- ٣ — فتحاً لباب الأمل على مصراعيه أمام هؤلاء المهتدين ، فليسطوا إذاً أكفهم مبتهلين : (ربنا ربنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) .

تلك هي سورة البقرة ... أرأيت وحدثها في كثرتها ، أعرفت اتجاه خطوطها في لوحها ؟ أرأيت كيف التحمت لبناتها من غير ملاط يمسكها ، وارتفعت سماؤها بغير عمد تسندها ؟ أرأيت كيف انتظم من رأسها وصدرها وأحشائها وأطرافها ، لا أقول أحسن دمية ، بل أجمل صورة حية .

كل ذرة في خلقتها ، وكل خلية في عضوها ؛ وكل عضو في جهازه ، وكل جهاز في جسمه ، ينادى بأنه قد أخذ مكانه المقسوم ، وفقاً لخط جامع مرسوم ، رسمه مرنى النفوس ومزكيا ، ومنور العقول وهاديا ، ومرشد الأرواح وحاديها فتالله لو أن هذه السورة ، رتبت بعد تمام نزولها ، لكان جمع أشتاتها على هذه الصورة معجزة ، فكيف وكل نجم منها — كسائر النجوم في سائر السور — كان يوضع في رتبته من فور نزوله ، وكان يحفظ لغيره مكانه انتظاراً لحلوله ؛ وهكذا كان ما لم ينزل منها معروف الرتبة ، محدد الموقع قبل أن ينزل ؟ ثم كيف وقد اختصت من بين السور المنجمة ، بأنها حددت مواقع نجومها لا قبل نزولها بعام أو بعض عام ، بل بتسعة أعوام ؟ لعمرى لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات ، وفي أساليب تربيته معجزات ، وفي نبوءاته الصادقة معجزات ، وفي تشريعاته الخالدة معجزات ، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات ومعجزات ، لعمرى إنه في ترتيب آية على هذا الوجه هو معجزة المعجزات .

مناقشة

قوله تعالى : ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المصيطنون ، أم هم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين ، أم له البنات ولكم البنون ، أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون ، أم عندهم الغيب فهم يكتبون ، أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون ، أم لهم إله غير الله سبحانه الله عما يشركون ﴾

قال البخارى عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه : قال سمعت النبي — ﷺ — : يقرأ في المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية (أم خلقوا من غير شيء ، أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض ؟ بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المصيطنون ؟)

كاد قلبى أن يطير ، وجبير بن مطعم ، كان قد قدم على النبي — ﷺ — ، بعد وقعة بدر في فداء الأسارى ، وكان إذا ذاك مشركاً ، فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة ، من جملة ما حمله على الدخول في الاسلام بعد ذلك .

قوله تعالى : ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴾ هذا المقام في إثبات الربوبية ، وتوحيد الألوهية قال تعالى : ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴾ ؟ أى أوجدوا من غير موجد ؟ أم هم أوجدوا أنفسهم . أى لا هذا ، ولا هذا ، بل الله هو الذى خلقهم وأنشأهم ، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، كما قال تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ أم خلقوا السموات والأرض ، بل لا يوقنون ﴾ أى : ليس الأمر كذلك ، فإنهم لم يخلقوا شيئاً ﴿ بل لا يوقنون ﴾ بالحق ولا يتدبرون فى الآيات ، فيعلموا خالقهم وخالق السموات والأرض . وقوله : ﴿ أم عندهم خزائن ربك ﴾ من النبوة والرزق وغيرهما ، فيخصوا من شاءوا بما شاءوا ﴿ أم هم المصيطرون ﴾ الأرباب الغالبون ، حتى يدبروا أمر الربوبية ، ويبينوا الأمور على مشيئتهم ﴿ أم لهم سلم يستمعون فيه ﴾ أى أيدعون أن لهم مرتقى إلى السماء ، ومصعداً وسبياً (يستمعون فيه) أى عليه الأخبار ، ويصلون به إلى علم الغيب ، كما يصل إليه محمد — ﷺ — بطريق الوحي .

﴿ فليأت مستمعهم بسلطان مبين ﴾ أى بحجة بينة أن هذا الذى هم عليه حق .

وقوله تعالى : ﴿ أم له البنات ولكم البنون ﴾ سفه أحلامهم حيث اختاروا لله ما يكرهون ، وهم حكماء عند أنفسهم ، أى تضيفون إلى الله البنات مع أنفتكم منهن ، والمشركون يزعمون أن الملائكة بنات الله ، مع أنهم يضيقون من نسبة البنات إليهم .

وقوله تعالى : ﴿ أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون ﴾ أى : إنك يا محمد متجرد فى دعوتك ، لا تبغى من ورائها مالا ولا جاهاً ، فماذا يضايقهم . ﴿ فهم من مغرم مثقلون ﴾ أى فهم من أدنى شيء يتبرمون منه ويثقلهم ويشق عليهم .

وقوله : ﴿ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ ﴾ أى : ليس الأمر كذلك ، فإنه لا يعلم من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله .

وقوله : ﴿ أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون ﴾ يقول تعالى : أم يريد هؤلاء بقولهم

غير الله تعالى ، حتى يلجأوا إليه وقت الضيق والشدة ؟ ويستنجدوا به لدفع الضر والعذاب عنهم ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ أى تنزه وتقدس الله عما يشركون به من الأوثان والأصنام .

هذا فى الرسول وفى الدين ، غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه ، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم ﴿ ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله ﴾^(١) فالذين كفروا هم المكيدون ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾^(٢) .

وقوله جل فى علاه : ﴿ أم لهم إله غير الله ؟ سبحان الله عما يشركون ﴾ أى ألهم خالق رازق ،

قال الخليل : كل ما فى سورة « الطور » من ذكر « أم » فكلمة استفهام وليس بعطف ، ولقد تكررت كلمة « أم » خمس عشرة مرة و « أم » عند علماء اللغة ، تجىء فى هذا السياق للإضراب ، الذى يعقبه استفهام ، قد يكون توبيخاً ، أو تقريراً ، أو تعجبياً .

إلهى

يامن له عنت الوجوه بأسرها رهبا وكل الكائنات توحدا
أنت الإله الواحد الحق الذى كل القلوب له تقرر وتشهد

قوله تعالى : ﴿ وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم ، فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون ، يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون ﴾

أى أن هؤلاء قوم ديدنهم العناد والمكابرة ، فلو رأوا بعض ما سألوا من الآيات ، فعاینوا كسفاً من السماء ساقطاً — لكذبوا وقالوا : سحاب بعضه فوق بعض ، لأن الله قد ختم على قلوبهم ، وأعمى أبصارهم ، فأصبحوا ينكرون ما تبصره الأعین ، وتسمعه الآذان ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾^(٣)

١ — فاطر آية رقم : ٤٣

٢ — الشعراء آية رقم : ٢٢٧

٣ — الحجر الآيتان رقم ١٤ — ١٥

ثم أمر رسوله — ﷺ — أن يتركهم وشأنهم ، فقال تعالى : ﴿ فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون ﴾ أى فدعهم وشأنهم ، ولا تكثر بهم ، حتى يأتى اليوم الذى يجازون فيه بسيئات أعمالهم ، وذلك يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ، يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون ﴾^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون ﴾ أى لا ينفعهم كيدهم ، ولا مكرهم الذى استعملوه فى الدنيا ، لا يجزى عنهم يوم القيامة شيئا (لا هم ينصرون) ولا يجدون لهم نصيرا ، ولا معينا يدفع عنهم ما يحيق بهم من العذاب .

قوله تعالى : ﴿ وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون ، واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ، وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾

أى وإن هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى (عذابا دون ذلك أى قبل ذلك فى الدار الدنيا ، كقوله تعالى : ﴿ ولنديقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ﴾^(٢)) ولهذا قال تعالى : ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أى نعتبهم فى الدنيا ، ونبتليهم فيها بالمصائب ، لعلهم يرجعون ، ويثوبون إلى رشدهم ، فلا يفهمون ما يراد بهم ، بل إذا خلى عنهم مما كانوا فيه ، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه ، كما قال سبحانه : ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون ، يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾^(٣) .

قوله تعالى : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ أى واصبر على أذاهم ، ولا تبال بهم ، وامضى لأمر الله ، وبلغ ما أرسلت به ، واصدع بما تؤمر ، فإنك بمراى منا نراك ، ونرى أعمالك ، ونحوطك ونحفظك ، فلا يصل إليك منهم أذى ، كما قال تعالى : ﴿ فإن عصوك فقل إني برىء مما تعملون ، وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين إنه هو السميع العليم ﴾^(٤)

١ — المعارج الآيات : ٤٢ — ٤٤

٢ — السجدة آية : ٢١

٣ — الدخان الآيتان : ١٥ ، ١٦

٤ — الشعراء الآيات : ٢١٦ — ٢٢٠

وقوله تعالى : ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ، ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾

قوله تعالى : ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ أى ونزه ربك مما لا يليق به ، حين تقوم من منامك ، ومن كل مجلس بأن تقول : سبحان الله وبحمده . قال ابن عباس : أى صل لله حين تقوم من منامك

قال أبو الجوزاء : ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ أى من نومك من فراشك ، واختاره ابن جرير . قال القرطبي : وفى هذا روايات صحاح ، منها حديث عبادة عن النبي ﷺ — قال : « من تعارّ في الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال اللهم اغفر لي أو دعا استجيب له ، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته »^(١) أخرجه البخارى (وتعارّ) الرجل من الليل إذا هب من نومه مع صوت .

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ — كان يقول إذا قام إلى الصلاة في جوف الليل : « اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن . ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق ، ولقاؤك الحق ، والجنة حق والنار حق والساعة حق والنبيون حق ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت ، وعليك توكلت وبك آمنت ، وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاکمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ولا إله غيرك »^(٢) متفق عليه .

وعن ابن عباس أيضا أنه عليه الصلاة والسلام ، كان إذا استيقظ من الليل ، مسح النوم عن وجهه ؛ ثم قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة آل عمران^(٣) .

وفى سنن أبى داود عن عائشة أن رسول الله ﷺ — كان إذا استيقظ من الليل : قال : « لا إله إلا أنت سبحانك ، اللهم أستغفرك لذنبى ، وأسألك رحمتك ، اللهم زدنى علما ، ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى ، وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب »^(٤)

١ — أخرجه البخارى فى صحيحه ج ٢ ص ٦٨ كتاب التهجد بالليل باب فضل من تعار من الليل فصلى . وانظر تفسير ابن كثير فى تفسير سورة الطور آية ٤٨ ج ٧ ص ٤١٤ .

٢ — أخرجه البخارى كتاب التوحيد ج ٩ ص ١٤٣ باب قول الله تعالى أنا الرزاق ذو القوة المتين .

٣ — أخرجه البخارى كتاب التفسير سورة آل عمران ج ٦ ص ٥٢ — ٥٣ .

٤ — أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب ج ٥ ص ٣٠٦ برقم ٥٠٦١ باب ما يقول الرجل إذا تعار من الليل .

وقال ابن أبي حاتم عن عطاء بن أبي رباح أنه حدثه عن قول الله تعالى : ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ يقول حين تقوم من كل مجلس إن كنت أحسنت ازددت خيراً ، وإن كنت غير ذلك كان هذا كفارة له .

وقال عبد الرازق عن أبي عثمان الفقير إن جبريل علم النبي ﷺ — إذا قام من مجلسه أن يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك »^(١) قال معمر وسمعت غيره يقول هذا القول كفارة المجالس ، قال ابن كثير ، هذا الحديث مرسل وقد وردت أحاديث سنده من طرق يقوى بعضها بعضاً .

وقوله تعالى : ﴿ ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾ أى واذكره واعبد به بالتلاوة والصلاة في الليل ؛ لأن العبادة فيه أشق على النفس ، وأبعد من الرياء قال تعالى : ﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً ﴾^(٢) وقال سبحانه : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وإدبار النجوم ﴾ أى وحين إدبار الليل بظهور ضوء الصبح ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : إنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر ﴿ وقد ثبت في الصحيحين من عائشة رضى الله عنها قالت لم يكن رسول الله ﷺ — على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر ﴾^(٤) وفي لفظ مسلم « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها »^(٥) .

١ — أخرجه ابن كثير في تفسير سورة الطور رقم ٤٨ ح ٧ ص ٤١٥ أخرجه سنن أبي داود كتاب الأدب باب في كفارة المجلس ح ٥ ص ١٨٢ رقم ٤٨٥٩ ، أخرجه مصنف عبد الرزاق باب كفارة المجالس ح ١١ ص ٢٤ رقم ١٩٧٩٦
٢ — للزمل آية : ٦
٣ — الأسراء آية : ٧٩
٤ — رواه مسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب ركعتي الفجر ح ١ ص ٥٠١ رقم ٧٢٣ / ٩٤
رواه البخارى في صحيحه كتاب التهجد بالليل باب التعاهد على ركعتي الفجر ح ٢ ص ٧١ — ٧٢ وانظر تفسير ابن كثير تفسير سورة الطور آية رقم ٤٩ ح ٧ ص ٤١٦
٥ — رواه صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين باب استحباب ركعتي سنة الفجر ، والحد عليهما وتخفيفهما والمحافظة عليهما ح ١ ص ٥٠١ رقم ٧٢٥ / ٩٦ . وانظر أيضاً تفسير بن كثير تفسير سورة الطور آية رقم ٤٩ ح ٧ ص ٤١٦

تفسير سورة النجم

مقدمة

قال صاحب البصائر : السورة مكية بالاتفاق
 عدد آياتها : اثنتان وستون
 وكلماتها : ثلاثمائة وستون
 وحروفها : ألف وأربعمائة وخمسون
 مجموع فواصل آياتها (واهن)
 سميت النجم لمفتحتها

مقصود السورة :

القسم بالوحي ، وهداية المصطفى — ﷺ — وبيان معراج الكرامة ، وذكر قبيح أقوال الكفار ، وعقيدتهم في حق الملائكة والأصنام ، ومدح مجتنبي الكبائر ، والشكوى من المعرضين عن الصدقة ، وبيان جزاء الأعمال في القيامة ، وإقامة أنواع الحجة على وجود الصانع ، والاشارة إلى أحوال من أهلكوا من القرون الماضية ، والتخويف بسرعة مجيء القيامة ، والأمر بالخضوع والانقياد لأمر الحق تعالى في قوله : ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ .

المتشابهات : قوله : ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ ، وبعده : ﴿ ان يتبعون إلا الظن ﴾ ليس بتكرار ، لأن الأول متصل بعبادتهم اللات والعزى (ومناة الثالثة الأخرى) ، والثاني بعبادتهم الملائكة ، ثم ذم الظن فقال : ﴿ إن الظن لا يغنى من الحق شيئا ﴾ .

قوله : ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ (ما أنزل) في جميع القرآن بالألف إلا في الأعراف (ما نزل بها من سلطان) .

مناسبتها لما قبلها من وجوه

- ١ — إن السورة قبلها ختمت بقوله : (وإدبار النجوم) وبدأت هذه بقوله ﴿ والنجم إذا هوى ﴾
- ٢ — إن السورة قبلها ذكر فيها تقوّل القرآن ، وذكر هذا في مفتتح هذه السورة .
- ٣ — أنه قال هناك في المؤمنين : ﴿ ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ وقال هنا في الكفار : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ .

وهي كما أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود أول سورة أعلن النبي ﷺ — قراءتها ، فقرأها في الحرم والمشركون يسمعون .
وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي « إن أول سورة أنزلت فيها سجدة ﴿ والنجم ﴾ فسجد رسول الله ﷺ — وسجد كلهم إلا رجلاً رأيته أخذ كفّاً من تراب فسجد عليه ؛ فرأيته بعد ذلك قتل كافراً وهو أمية بن خلف^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝ (١١) أَفَتَمْرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۝ (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝ (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝ (١٨)

١ — أخرجه : البخاري في صحيحه ج ٦ ص ١٧٧ كتاب التفسير [تفسير سورة النجم] ، وإخرجه صحيح مسلم ج ١ ص ٤٠٥ رقم ١٠٥ / ٥٧٦ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب سجود التلاوة . وأخرجه أبو داود في سننه ج ٢ ص ١٢٢ رقم ١٤٠٦ كتاب الصلاة باب من رأى فيها السجود .

معانى المفردات

﴿ والنجم ﴾ جنس النجوم إذا غربت أو صعدت ﴿ هوى ﴾ يقال هوى النجم هويًا (بالفتح) أى سقط وغرب . وهويًا (بالضم) إذا علا وصعد . ﴿ ماضل ﴾ ما حاد عن الطريق المستقيم . ﴿ صاحبكم ﴾ أى مصاحبكم ، والتعبير عنه ﷺ بعنوان المصاحبة لهم ، إيدانا بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشرعية ، فإن طول صحبتهم له ، ومشاهدتهم لشئونه العظيمة ، تقتضى إحاطتهم خيرا ببراءته مما نسب إليه ، وبإنصافه بالهدى والرشاد . ﴿ وماغوى ﴾ أى وما أعتقد باطلاً . والخطاب فى هذا لقريش ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ أى ما يتكلم بالباطل ، ﴿ شديد القوى ﴾ المراد به جبريل أمين الوحي عليه السلام ، ﴿ ذو مرة ﴾ أى ذو حصفة عقل وقوة عارضة .

﴿ فاستوى ﴾ أى فاستقام على صورته التى خلقه الله عليها عند حراء فى بدء النبوة ، وهو بالأفق الأعلى : أى بالجبهة العليا من السماء المقابلة للناظر ، ﴿ ثم دنا ﴾ أى ثم قرب ﴿ فتدلى ﴾ أى فنزل . من قولهم تدلت القمرة . ﴿ قاب قوسين ﴾ الغاب مقدار ما بين القبض والسيئة ، ولكل قوس قبان ، والعرب تقدر الأطوال بالقوس والرمح ، وبالذراع والباع والخطوة ، والشبر والإصبع ﴿ أو أدنى ﴾ : أى أقرب من ذلك ، والمراد بالفؤاد فؤاده - ﷺ - ﴿ ما رأى ﴾ أى ما رآه ببصره ﴿ أفتمارونه على ما يرى ﴾ أى أفتجادلونه على ما يراه معاينة ، ﴿ نزلة أخرى ﴾ أى مرة أخرى . ﴿ سدرة المنتهى ﴾ هى شجرة نبى ، قالوا إنها فى السماء السابعة عن يمين العرش ، ﴿ جنة المأوى ﴾ أى : الجنة التى يأوى إليها المتقون يوم القيامة ، ﴿ يغشى ﴾ أى يغطى ، ﴿ ما زاغ البصر ﴾ أى ما عدل عن رؤية العجائب التى أمر برؤيتها ويمكن منها ، وما مال يميناً ولا شمالاً ، ﴿ وما طغى ﴾ أى ما جاوز ما أمر به ، ﴿ آيات ربه الكبرى ﴾ أى عجائبه الملكية والملكوتية فى ليلة المعراج .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى .

يقول الإمام ابن القيم فى تفسير هذه الآيات المباركات .

أقسم سبحانه بالنجم عند هويه ، على تنزيه رسوله وبراءته ، مما نسبته إليه أعداؤه من الضلال والغى .

واختلف الناس فى المراد بالنجم ، فقال الكلبي : عن ابن عباس : أقسم بالقرآن إذا نزل منجماً على رسوله : أربع آيات ، وثلاثاً ، والسورة وكان بين أوله وآخره عشرون سنة ، وهو قول مقاتل ولضحاك ، ومجاهد وعلى هذا فسمى القرآن نجماً ، لتفرقه فى النزول ، والعرب تسمى التفرق تنجيماً ، والمفرق نجماً ، وقول (هوى) على هذا القول أي : نزل من على إلى أسفل ، وكذلك قال الأصمعي : هوى يهوى هو بفتح الهاء ، إذا سقط الى أسفل .

وقال ابن عباس فى رواية على بن أبى طلحة ، وعطية فى قوله تعالى : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ يعنى الثريا إذا سقطت وغابت وهو لرواية الأخرى عن مجاهد . والعرب إذا أطلقت النجم تعنى به الثريا ، وقال أبو حمزة اليماني : يعنى النجوم إذا انتشرت يوم القيامة ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عكرمة : يعنى النجوم التى ترمى بها الشياطين ، إذا سقطت فى آثارها عند استراق السمع ، وهذا قول الحسن وهو أظهر الأقوال .

ويكون سبحانه ، قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة ، التى نصبها الله سبحانه آية وحفظاً للوحى من استراق الشياطين له ، على أن ما أتى به رسوله حق وصدق ، لا سبيل للشيطان ، ولا طريق له إليه ، بل قد أحرس بالنجم إذا هوى ، رصداً بين يدي الوحى ، وجرساً له . وعلى هذا فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه فى غاية الظهور ، وفى المقسم به دليل على المقسم عليه .

وليس بالبين تسميه القرآن عند نزوله بالنجم إذا هوى ، ولا تسمية نزوله هويماً ، ولا عهد فى القرآن ذلك ، فيحمل هذا اللفظ عليه ؛ وليس بالبين تخصيص هذا القسم بالثريا وحدها إذا غابت .

وليس بالبين أيضاً القسم بالنجوم عند انتشارها يوم القيام . بل هذا مما يقسم الرب عليه ويدل عليه بآياته ، فلا يجعله نفسه دليلاً ، لعدم ظهوره للمخاطبين ، ولا سيما منكروا البعث ، فإنه سبحانه إنما استدل بما لا يمكن جحده ، ولا المكابرة فيه ، فأظهر الأقوال قول الحسن . والله أعلم .

وبين المقسم به والمقسم عليه من التناسب مالا يخفى ، فإن النجوم التى ترمى الشياطين آيات من آيات الله ، يحفظ بها دينه ووحيه وآياته المنزلة على رسوله ، بها ظهر دينه وشرعه ، وأسماءه ،

وصفاته ، وجعلت هذه النجوم المشاهدة خدماً وحرساً لهذه النجوم الهاوية ، ونفى سبحانه عن رسوله الضلال المنافى للهدى ، والغى المنفى للرشد فقال تعالى : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ فالهدى فى علمه ، والرشاد فى علمه ، وهذان الأصلان هما غاية كمال العبد ، وبهما سعادته وفلاحه ، وبهما وصف النبى — ﷺ — خلفاءه — فقال : « عليكم بستى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ^(١) » فالراشد ضد الغاوى ، والمهedy ضد الضال ، وهو الذى زكت نفسه ، بالعلم النافع والعمل الصالح ، وهو صاحب الهدى ، ودين الحق ، لا يشتبه الراشد المهدى ، بالضال الغاوى إلا على أجهل خلق الله ، وأعماهم قلباً ، وأبعدهم من حقيقة الإنسانية ، والله در القائل :

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره اذا استوت عنده الأنوار والظلم .

فالناس أربعة أقسام : ضال فى علمه غاوى فى قصده وعمله . وهؤلاء شرار الخلق وهم مخالفوا الرسل .

(الثانى) مهتد فى علمه غاوى فى قصده وعمله . وهؤلاء هم الأمة الغضبية — أمة اليهود — ومن تشبه بهم ، وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به .

(الثالث) ضال فى علمه ، ولكن قصده الخير وهو لا يشعر .

(الرابع) مهتد فى علمه ، راشد فى قصده ، وهؤلاء ورثة الأنبياء . وهم وإن كانوا الأقلين عدداً منهم الأكثرون عند الله قدراً ، وهم صفوة الله من عباده وحزبه من خلقه .

وتأمل كيف قال سبحانه ﴿ ما ضل صاحبكم ﴾ ولم يقل ما ضل محمد تأكيداً لإقامة الحجة عليهم ، بأنه صاحبهم ، وهم أعلم الخلق به ومجاله وأقواله وأعماله وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غى ولا ضلال ولا ينقمون عليه أمراً واحداً قط وقد نبه على هذا المعنى بقوله ﴿ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ﴾ وبقوله ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾

قوله تعالى ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾

ينزه نطق رسوله أن يصدر عن هوى . وبهذا الكمال هداه ورشده وقال ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ ولم يقل وما ينطق بالهوى ، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به . فتضمن نفى الأمرين نفى الهوى عن مصدر النطق ونفيه عن نفسه : فنطقه بالحق ، ومصدره الهدى والرشاد لا الغى والضلال .

قوله تعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل أى ما نطقه إلا وحى يوحى . وهذا أحسن من قول من جعل الضمير عائداً إلى القرآن فإنه يعم نطقه بالقرآن والسنة وإن كليهما وحى يوحى .

وقد احتج الشافعى لذلك فقال : لعل من حجة من قال بهذا قوله ﴿وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ .

وقال الشافعى : أخبرنا مسلم عن ابن جريج عن أبى طاووس عن أبيه أن عنده كتاباً نزل به الوحى ، وما فرض رسول الله ﷺ — من صدقة وعقول — الديات — وإنما نزل به الوحى .

وذكر الأوزاعى عن حسان بن عطية قال : كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ — بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن يعلمه إياه .

وقد صح عنه ﷺ أنه قال : «ألا أنى أوتيت الكتاب ومثله معه» وهذا هو السنة بلا شك . وقد قال الله تعالى ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ وهما القرآن والسنة . وبالله التوفيق .

قوله تعالى ﴿عَلِمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ ثم أخبر تعالى عن وصف من علمه الوحى والقرآن ، مما يعلم أنه مضاد لإوصاف الشيطان معلم الضلال والغواية . فقال ﴿عَلِمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ وهذا نظير قوله تعالى ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أى جميل المنظر ، حسن الصورة ، ذو جلاله ليس شيطانياً أقبح خلق الله وأشوههم صورة . بل هو من أجمل خلق الله وأقواهم وأعظمهم أمانة ومكانة عند الله . وهذا تعديل لسند الوحى والنبوة ، وتركية له . كما تقدم نظيره فى سورة التكوير . فوصفه بالعلم والقوة ، وجمال المنظر وجلالته . وهذه كانت أوصاف الرسول البشرى والملكى . فكان رسول الله ﷺ — أشجع الناس ، وأعلمهم وأجملهم ، والشياطين وتلامذتهم بضد من ذلك ، فهم أقبح الخلق صورة ومعنى ، وأجمل الخلق وأضعفهم همأً ونفوساً .

قوله تعالى ﴿فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾

قوله تعالى : ﴿ فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ ثم ذكر سبحانه استواء هذا المعلم بالأفق الأعلى ، ودنوه وتدليه وقربه من رسول الله ﷺ ، وإيحاء الله ما أوحى ، فصور سبحانه لأهل الإيمان صورة الحال من نزول جبريل من عنده ، إلى أن استوى بالأفق ، ثم دنى فتدلى ، وقرب من رسوله ، فأوحى إليه ما أمره الله بإيحاءه ، حتى كأنهم يشاهدون صورة الحال ، ويعاينونها ، هابطاً من السماء ، إلى أن صار بالأفق الأعلى ، مستويا عليه ، ثم نزل وقرب من محمد ﷺ ، وخاطبه بما أمره الله به قائلاً : ربك يقول لك : كذا وكذا ، وأخبر سبحانه عن مسافة هذا القرب ، بأنه قدر قوسين ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ أو أدنى من ذلك ، وليس هذا على وجه الشك ، بل تحقيق لقدر المسافة ، وأنها لا تزيد عن قوسين ألبتة .

قوله تعالى : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ﴾ ثم أخبر تعالى عن تصديق فؤاده لما رآه عيناه ، وأن القلب صدق العين ، وليس كمن رأى شيئاً على خلاف ما هو به ، فكذب فؤاده وبصره ، بل ما رآه ببصره صدقه الفؤاد ، وعلم أنه كذلك . وقوله : ﴿ أفتمارونه على ما يرى ﴾ أى أفتكذبونه وتجادلونه فيما رآه بعينه من صورة جبريل عليه السلام له .

قوله تعالى : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ، مازاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ .

ثم أخبر سبحانه عن رؤيته لجبريل مرة أخرى عند سدرة المنتهى ؛ فالمرّة الأولى كانت دون السماء بالأفق الأعلى ، والثانية كانت فوق السماء عند سدرة المنتهى ، وقد صح عنه ﷺ أنه جبريل عليه الصلاة والسلام ، رآه على صورته التى خلق عليها مرتين كما فى الصحيحين عن زر بن حبیش أن سئل عن قوله تعالى : ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ قال : أخبرني ابن مسعود أن النبي ﷺ ، رأى جبريل به ستمائة جناح^(١) . وقال البخارى ، عنه : رأى رفرفا أخضر يسد الأفق ؛ وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة فى قوله تعالى : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ قال : رأى جبريل عليه السلام ، وفى صحيحه أيضاً عن مسروق ، قال : كنت متكئاً عند عائشة ، فقالت : ثلاث من تكلم بواحدة منهن ، فقد أعظم على الله الفرية ، قلت : ما هن ؟ قالت : من زعم أن محمداً رأى ربه ، فقد أعظم على الله الفرية ، قال : وكنت متكئاً فجلست ، فقلت : يأم المؤمنين انظرونى ولا تتعجلينى ألم يقل الله عز وجل : ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ ؟ فقالت : أنا أول هذه الأمة ، سأل عن ذلك رسول الله ﷺ ، فقال : « إنما هو جبريل ، لم أره على صورته التى خلق عليها غير هاتين المرتين ،

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان ح ١ ص ٥٤ ، باب فى ذكر سورة المنتهى رقم ١١٠ . وأخرجه مسلم فى كتاب الاسيمان ح ١

ص ١٥٨ برقم ١٧٤/٢٨٠ ، ١٧٤/٢٨١ ، ١٧٤/٢٨٢ .

رأيته منبسطا من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض ، فقالت : أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ الأنعام آية ١٠٣ ، أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه بما يشاء إنه على حكيم ﴾ الشورى آية ٥١ ، قالت : ومن زعم أن محمدا ، كتم شيئا من كتاب الله ، فقد أعظم على الله الفرية . والله عز وجل يقول : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ المائدة آية ٦٧ ، قالت : ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد ، فقد أعظم على الله الفرية والله عز وجل يقول : ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ ولو كان محمد كاتما شيئا مما أنزل عليه لكتبتم هذه الآية ﴿ وإذا تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ (١) الأجزاب آية ٣٧ ، وفي الصحيحين عن معروق أيضا ، قال : سألت عائشة رضي الله عنها ، هل رأى محمد ربه ؟ فقالت : سبحان الله ! لقد وقف شعري لما قلت (٢) وفيها أيضا قال ، قلت لعائشة : فأين قوله تعالى : ﴿ ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ قالت : (إنما ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجال وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته ، فسد الأفق) (٣) .

وفي صحيح مسلم بأن أبا ذر سأل النبي ﷺ هل رأيت ربك فقال : « نور أنى أراه » (٤)

وفي صحيح مسلم أيضا من حديث أبي موسى الأشعري قال : قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات ، فقال : « إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام . يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » (٥) وهذا الحديث ساقه مسلم بعد حديث أبي ذر المقدم وهو كالتفسير له . ولا ينافي هذا قوله في الحديث الصحيح — حديث الرؤية يوم القيامة — « فيكشف الحجاب فينظرون إليه » فإن النور الذي هو حجاب الرب تعالى يراد به الحجاب الأدنى إليه ، وهو لو كشف لم يبق له شيء ، كما قال ابن عباس في قوله عز وجل ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ح ١ ص ١٥٩ برقم ١٧٧/٢٨٧ .

(٢) أخرجه مسلم ح ١ ص ١٦٠ برقم ١٧٧/٢٨٩ .

(٣) أخرجه مسلم ص ١٦١/١٦٠ برقم ١٧٧/٢٩٠ .

(٤) أخرجه مسلم ح ١ ص ١٦١ برقم ١٧٨/٢٩١ .

(٥) أخرجه مسلم ح ١ ص ١٦١ ب ١٦٢ برقم ١٧٩/٢٩٣ .

قال : ذاك نوره الذى هو نوره ، إذا تجلى به لم يقم له شيء ، وهذا الذى ذكره ابن عباس يقتضى أن قوله ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ على عمومته وإطلاقه فى الدنيا والآخرة ، ولا يلزم من ذلك أن لا يُرى ، بل يرى فى الآخرة بالأبصار من غير إدراك .

وإذا كانت أبصارنا لا تقوم لإدراك الشمس على ما هى عليه ، وإن رأتها مع القرب الذى بين المخلوق والمخلوق ، فالتفاوت الذى بين أبصار المخلوقات وذات الرب جل جلاله أعظم وأعظم ، ولهذا لما حصل للجبل أدنى شيء ومن تجلى الرب تساقى الجبل واندك لسبحات ذلك القدر من التجلى ، وفى الحديث الصحيح المرفوع « جنتان من ذهب آتيتهما وحليتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آتيتهما وحليتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه ، فى جنة عدن » (١) .

فهذا يدل أن رداء الكبرياء على وجهه تبارك وتعالى ، هو المانع من رؤية الذات ، ولا يمنع من أصل الرؤية ، فإن الكبرياء والعظمة أمر لازم لذاته تعالى ، فإذا تجلى سبحانه لعباده يوم القيامة ، وكشف الحجاب بينهم وبينه ، فهو الحجاب المخلوق ، وأما أنوار الذات الذى يحجب عن إدراكها ، فذاك صفة للذات لا تفارق ذات الرب جل جلاله ، ولو كشف ذلك الحجاب ، لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه ، وتكفى هذه الإشارة فى هذا المقام للمصدق الموقن ، وأما المعطل الجهى فكل هذا عنده باطل ومحال .

والمقصود أن المخبر عنه بالرؤية فى سورة النجم ، هو جبريل عليه السلام . وأما قول ابن عباس : رأى محمد ربه بفؤاده مرتين ، فالظاهر أن مستنده هذه الآية ، وقد تبين أن المرئى فيها جبريل ، فلا دلالة فيها على ما قاله ابن عباس ، وقد حكى عثمان بن سعيد الدارسى الإجماع على ما قالته عائشة ، فقال — فى نقضه على بشر المريسى فى الكلام على حديث ثوبان ومعاذ ، أن رسول الله ﷺ قال : رأيت ربي البارحة فى أحسن صورة ، فحكى تأويل المريسى الباطل — ثم قال : ويلك إن تأويل هذا الحديث على غير ما ذهبت إليه ، أما أن رسول الله ﷺ ، قال فى حديث أبى ذر : « إنه لم ير ربه ، وقال رسول الله ﷺ « لن تروا ربكم حتى تموتوا ، وقال عائشة رضى الله عنها : من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية .

وأجمع المسلمون على ذلك ، مع قول الله ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ يعنون أبصار أهل الدنيا ، وإنما هذه الرؤية كانت في المنام ، يمكن رؤية الله على كل حال كذلك ، وروى معاذ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال : « صليت ما شاء الله من الليل ، ثم وضعت جنبي ، فأتاني ربي في أحسن صورة » فهذا تأويل هذا الحديث عند أهل العلم ؛ قال القاضي عياض : « وقد رأيت لبعض السلف والمتأخرين ما معناه : أن رؤيته تعالى في الدنيا ممتنعة لضعف تركيب أهل الدنيا وقواهم ، وكونها متغيرة ، عرضة للآفات والفناء ، فلم تكن لهم قدرة على الرؤية ، فإذا كان في الآخرة ، وركبوا تركيباً آخر ، ورزقوا قوى أخرى ثابتة باقية ، وأتم أنوار قلوبهم وأبصارهم وقلوبهم قووا على الرؤية ، وقد رأيت نحو هذا من تلك ابن أنس قال : لم ير في الدنيا لأنه باق ، ولا يرى الباقي بالفاني ، فإذا كان في الآخرة ورزقوا أبصار باقية ربي الباقي بالباقي .

قال القاضي أبو الفضل : وهذا كلام مليح ، وليس فيه دليل على الاستحالة إلا من حيث ضعف القدرة ، فإذا قوى الله من شاء من عباده فأقدره على حمل أعباء الرؤية لم يمتنع في حقه .

وقال شيخ الإسلام ابن حجر : « جاءت عن ابن عباس أخبار مطلقة وأخرى مقيدة ، فيجب حمل مطلقة على مقيدة ، فمن ذلك قول ابن عباس : أتعجبون من أن تكون الخلعة لإبراهيم ، والكلام لموسى ، والرؤيا لمحمد ؟ وعنه : رأى ربه بفؤاده مرتين ، وعنه : لم يره بعينه ، وإنما رآه بقلبه ، فعلى هذا يمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفى عائشة ، بأن يحمل نفيها على رؤية البصر ، وإثباته على رؤية القلب . قال أبو إسحق محمد بن إبراهيم تلميذ ابن حجر : المراد برؤية الفؤاد : رؤية القلب بخلق إدراك البصر فيه ، لا مجرد حصول العلم ، وذلك بخلاف غيره من الأولياء ، فإنهم إذا أطلقوا الرؤية والمشاهدة لأنفسهم ، فإنما يريدون المعرفة فأعلمه ؛ فإنه من الأمور المهمة التي يغلط فيها كثير من الناس ، وقد تقدم أن ذلك ممتنع شرعاً .

وقوله تعالى : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ .

قال ابن عباس : ما زاغ البصر يمينا ولا شمالاً ، ولا جاوز ما أمر به ، وعلى هذا المفسرون ، فنفي عن نبيه ما يعرض للرأى ، الذي لا أدب له بين يدي الملوك والعظماء ، من التفاته يمينا وشمالاً ، وجاوزه بصره لما بين يديه ، وأخبر عنه بكمال الأدب في ذلك المقام ، وفي تلك الحضرة إذا لم يلتفت جانباً ، ولم يمد بصره إلى غير ما أرى من الآيات ، وما هناك من العجائب ، بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبه إطراقه وإقباله على ما أرى ، دون التفاته إلى غيره ، ودون تطلعه إلى ما لم يره ، مع ما

في ذلك في ثبات الجأش ، وسكون القلب وطمأنينته ، وهذا غاية الكمال ، وزيف البصر ، التفاته جانبا ، وطغيانه ، مده أمامه إلى حيث ينتهي ، فنزه في هذه السورة علمه عن الضلال ، وقصده وعمله عن الغي ، ونطقه عن الهوى ، وفؤاده عن تكذيب بصره ، وبصره عن الزيف والطغيان ، وهكذا يكون المدح .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ كقوله تعالى : ﴿ لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾^(١) . أى الدالة على قدرتنا وعظمتنا ، وبهاتين الآيتين ، استدل من ذهب من أهل السنة ، أن الرؤية تلك الليلة لم تقع ، لأنه قال : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ ولو كان رأى ربه ، لأخبر بذلك ، ولقال ذلك للناس .

عبادة غير الله باطلة

قال تعالى :

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴿٢٣﴾ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴿٢٤﴾ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٥﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٦﴾ * وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شِفَاءٌ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٧﴾ إِنْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَىٰ ﴿٢٨﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٠﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣١﴾

معاني المفردات

- ﴿ اللات ، والعزى ، ومناة ﴾ : أصنام كانت تعبدتها العرب في جاهليتها .
 ﴿ الأخرى ﴾ أى : المتأخرة الوضعية القدر .
 ﴿ ضيزى ﴾ أى : قسمة جائرة غير عادلة .

المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن بين سبحانه ما رآه محمد ﷺ ، من العجائب ليلة المعراج ، قال للمشركين ماذا رأيتم في هذه الأصنام ؟ وكيف تحضرون أنفسكم في العالم المادى وأصنامهم ، وتقطعون على أنفسكم طريق التقدم والارتقاء ، وإن النفس لا ترقى إلا بما استعدت له ، فإذا وقفت النفوس عند هذه المادة وتلك الأصنام لم تكن لها عروج إلى السماء ، ولا سيما أن هذه الأصنام ، لا تشفع لهم عند ربهم ، ولا تجديهم نفعا ، فما هذا منهم إلا أباطيل لا تغنى عن الحق شيئا ، وعليك أيها الرسول أن تعرض عن هؤلاء ، الذين لا هم لهم ، إلا جمع حطام الدنيا والتمتع بزخرفها ، وإن ربك هو العليم بحالهم ، ويجازيهم بما يقولون ويعتقدون جزاء وفاقا .

التفسير :

قوله تعالى : ﴿ أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى ، إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ قال البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ اللات والعزى ﴾ قال : كان اللات رجلاً يلى السوق ، سويق الحاج . قال ابن جرير : وكذا العزى من العزيز ، وكانت شجرة عليها بناء وأستار (بنخلة) وهى بين مكة والطائف ، وكانت قريش يعظمونها ... وأما (مناة) فكانت بالمشلل عند قدير ، بين مكة والمدينة ، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها ، يعظمونها ويهلون منها للحج إلى الكعبة .

وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها ، طواغيت آخر ، تعظمها العرب كتعظيم الكعبة ، غير هذه الثلاثة ، التى نص عليها في كتابه العزيز ، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها .

ولهذا قال تعالى : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ؟ ﴾ أى تجعلون له ولدا ، وتجعلون ولده أنثى ، وتختارون لأنفسكم الذكور ، فلو أقسمتم أنتم ومخلوقون مثلكم هذه القسمة ، لكانت قسمة جائرة ، لذا قال تعالى : ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ أى تلك قسمة جائرة غير مستوية ، ناقصة غير تامة ، لأنكم جعلتم لربكم ما تكرهونه لأنفسكم ، وآثرتم أنفسكم بما ترضون لها ، ثم أنكر عليهم سبحانه — ما ابتدعوه من الكذب والافتراء ، فى عبادة الأصنام ، وتسميتها آلهة فقال تعالى :

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أى أن هذه الأصنام التى تسمونها آلهة — هى أسماء فحسب ، وليس لها مسميات هى الحق البتة ، كما تزعمون وتعتقدون أنها تستحق أن يُعكف على عبادتها ، وتقديم القرابين إليها ، وليس لكم من حجة ولا برهان ، تؤيدون به ما تقولون ، وإنما قلد فيها الآخر الأول ، وتبع فى ذلك الأبناء الآباء ، ولا يخفى ما فى ذلك من التحقير ، كما تقول : ما هو الاسم إذا لم يكن مشتملا على صفة معتبرة لها شأن وقدر ، وفى الآية قوله تعالى :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمَ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(١) .

ثم أكد ما سلف بقوله تعالى : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ أى ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم ، الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم ، وإلا حظوظ نفوسهم فى رياستهم ، وتعظيم آبائهم الأقدمين .

ثم بين أنه ما كان ينبغى لهم ذلك ، لأنه قد جاءهم ما ينبههم إلى سوء رأيهم ، وعظيم غفلتهم ، فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴾ أى هم يتبعون ما كان عليه أشلافهم ، وينقادون إلى آرائهم ، وقد كان ينبغى أن يكون لهم فى ذلك هزدر ، لكنهم أعرضوا عنه وتولوا ﴿ كَانَهُمْ حَمَرٌ مُسْتَفْرَّةٌ فَرَتْ مِنْ قُسُورَةٍ ﴾^(٢) .

قصة الغرائق « موضوعة »

ذكر الأستاذ الدكتور / محمد بن محمد أبو شهبة فى كتابه « الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير » ما نصه :

ومن الموضوعات فى أسباب النزول ما ذكره بعض المفسرين فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمَا

(١) يوسف آية : ٤٠ .

(٢) المدثر الآيتان : ٥٠ — ٥١ .

أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد . وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ^(١) .

فقد ذكر بعض المفسرين ما قاله السيوطى : أخرج ابن أبى حاتم وابن جرير ، وابن المنذر ، من طريق بسند صحيح : (كما زعم) عن سعد بن جبير قال : قرأ النبى — ﷺ — بمكة : ﴿ والنجم ﴾ فلما بلغ : ﴿ أفرايم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ ألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرائيق العلا ، وإن شفاعتهن لترجى ، فقال المشركون : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم ، فسجدوا وسجد ، فنزلت ، وأخرجه البزار وابن مردويه ، بوجه آخر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس — فيما أحسبه — وقال : لا يروى متصلا إلا بهذا الإسناد ، وبعد أن ذكر له طرقا كثيرة قال : وكلها إما ضعيفة ، وإما منقطعة ، سوى طريق سعيد بن جبير الأولى ، وهذا الطريق ، وطريقان آخران مرسلان عند ابن جرير ، هم معتمد المصححين للقصة ، كابن حجر والسيوطى ^(٢) .

وهذه القصة غير ثابتة : لا من جهة النقل ، ولا من جهة العقل والنظر . أما من جهة النقل :

فقد طعن فيها كثير من المحققين والمحدثين ، قال البيهقى وهو من كبار رجال السنة : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ، وقال القاضى عياض فى كتابه « الشفاء » : إن هذا الحديث لم يخرج أحد من أهل الصحة ، ولا رواية ثقة بسند سليم متصل ، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون ، والمولوعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم ، ومن حكيت عنه هذه المقالة من المفسرين والتابعين ، لم يسندوها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب ، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية ، والمرفوع منها حديث شعبة ، قال أبو بكر البزار : هذا الحديث لا نعرفه يروى عن النبى ﷺ بإسناد متصل ، إلا هذا ، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد ، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير ، وإنما يعرف عن الكلبي عن أبى خالد عن ابن عباس ، فقد بين أبو بكر أنه لا يعرف عن طريق يجوز ذكره سوى هذا ، وفيه من الضعف ما نبه عليه ، مع وقوع الشك فيه ، الذى لا يوثق به ولا حقيقة معه ، وأما حديث الكلبي فمما لا يجوز الرواية عنه ، ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه أ . ه . وكذا أنكر القصة القاضى

(١) الحج الآيات : ٥٢ — ٥٤ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤٣٩ طبع الشعب .

أبو بكر بن العربي وطعن فيها من جهة النقل ، وسئل محمد بن إسحاق وابن خزيمة ، عن هذه القصة فقال : هذا من وضع الزنادقة ، وذهب إلى وضعها الإمام : أبو منصور الماتريدي وصنف منها كتابا نحن نرى : أن من أنكرها وقضى بوضعها ، أكثر ممن صححها اعتمادا على روايات مرسلة .

اضطراب الرواية

ومما يقلل الثقة بالحديث : اضطراب الروايات اضطراباً فاحشاً ، فقائل يقول : إنه كان في الصلاة ، وآخر يقول : قالها في نادى قومه ، وثالث يقول : قالها وقد أصابته سنة ، ورابع يقول : بل حدث نفسه فيها ، ومن قائل : إن الشيطان قالها على لسانه ، وإن النبي لما عرضها على جبريل قال : ما هكذا أقرأتكم ؟ وآخر يقول : بل أعلمهم الشيطان : أن النبي قرأها كما رويت : تلك الغرائق العلا على أنحاء مختلفة ، وكل هذا الاضطراب مما يوهن الرواية ، ويقلل الثقة بها ، والحق أبلغ والباطل لجج .

والقصة لم يخرجها أحد ممن التزموا الصحاح ، ولا أحد من أصحاب الكتب المعتمدة ، والذي روى في البخارى — عن ابن عباس : « أن النبي — ﷺ — قرأ : النجم وهو بمكة ، فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والأنس » ، وفي رواية ابن مسعود : « أول سورة أنزلت فيها السجدة والنجم ، قال : فسجد رسول الله — ﷺ — وسجد من خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه ، فرأيتُه بعد ذلك قتل كافراً^(١) » . أما سجود المسلمين : فاتباعاً لأمر الله ، وأما سجود المشركين : فلما سمعوه من أسرار البلاغة الفاتكة ، وعيون الكلم والجوامع ، مع التهديد والإنذار ، وقد كان العربى يسمع القرآن ، فيخر له ساجداً ، أضف إلى ذلك : ما فيه من موافقة الجماعة ، والشخص إذا كان في جماعة يندفع إلى موافقتها من غير ما يشعر ، ولو كان الأمر على خلاف ما يهوى ويحب ، وهذا أمر مشاهد ، وفي علم النفس ما يؤيده ، وذكر البخارى في تفسير سورة الحج قال : وقال ابن عباس : « إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته » : إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه ، فيبطل الله ما يلقي الشيطان ، ويحكم آياته ويقال : أمنيته قراءته ، فقد حكى الثانى بصيغة التمريض التى تدل على الضعف ، وليس في هذا ولا ذاك ما يشير إلى ما يزعمون .

(١) أخرجه البخارى ح ٦ ص ١٧٧ طبع الشعب .

المعتمدون للقصة

ومع ما ذكرنا من قول المحققين في القصة ، فقد حكمت الصنعة والقواعد الاصطلاحية على الحافظ ابن حجر ، فصحح القصة ، وجعل لها أصلا ، قال في « الفتح » في تفسير الحج ، مع ما ساق الطرق الكثيرة ، وكلها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيف ، وإما منقطع ، لكن كثرة الطرق تدل على أنها أصلا ، مع أن لها طريقين مرسلين آخرين ، رجاهما على شرط الصحيح : أحدهما : ما أخرجه الطبري من طريق يونس بن يزيد ، عن ابن شهاب ، حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فذكر نحوه ، والثاني : ما أخرجه أيضا من طريق المعتمد بن سليمان ، وحماد بن سلمة ، فرقهما عن داود بن أبي هند عن أبي العالية ، وبعد أن ذكر كلام القاضي أبي بكر بن العربي ، والقاضي عياض قال : وجميع ذلك لا يتمشى مع القواعد ، فإن الطرق إذا كثرت وتبينت مخارجها ، دل ذلك على أن لها أصلا ، وقد ذكرت أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح ، وهي مراسيل ، يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل ، وكذا من لا يحتج لاعتضاد بعضها ببعض ، وإذا تقرر ذلك ، تعين تأويل ما فيها مما يستنكر ، وهو قوله : ألقى الشيطان على لسانه ، تلك الغرائق العلا ، فإنه لا يجوز حمله على ظاهره ، لأنه يستحيل عليه — ﷺ — أن يزيد في القرآن عمدا ما ليس منه ، وكذا سهوا إن كان مغايرا ، لما جاء به من التوحيد ، لمكان عصمته ، وقد سلك العلماء في ذلك مسالك ، وبعد أن ذكر الكثير منها ، ولم يرتضه ارتضى لتصحيح القصة هذا التأويل ، وهو أن النبي ﷺ — كان يرتل القرآن ترتيلا ، فارتصده الشيطان في سكتة من السكتات ، ونطق بتلك الكلمة محاكيا نغمته ، بحيث سمعها من دنا ، فظنه من قوله ، وأشاعها بين الناس ، قال : وهو الذي ارتضاه القاضي عياض وأبو بكر بن العربي أهد . والقاضيان : عياض وأبو بكر رأيهما البطلان نقلا وعقلا ، ولكنهما ارتضيا ذلك تنزيلا على تسليم الصحة .

الذي أجيب به على ما ذكره الحافظ

١ — إن جمهور المحدثين لم يحتجوا بالمرسل ، وجعلوه من قسم الضعيف ، لاحتمال أن يكون المحذوف غير صحابي ، وحينئذ ، يحتمل أن يكون ثقة أو غير ثقة ، وعلى الثاني فلا يؤمن أن يكون كذابا ، والإمام مسلم قال في مقدمة كتابه : والمرسل في أصل قولنا وقول أهل العلم بالإخبار ، ليس بحجة .

٢ — الاحتجاج بالمرسل إنما هو الفرعيات التي يكفى فيها الظن ، أما الاحتجاج به على إثبات شيء يصادم العقيدة وينافي دليل العصمة فغير مسلم ، وقد قال علماء التوحيد : أن خبر الواحد — لو كان صحيحاً — لا يؤخذ به فى العقائد ، لأنه لا يكتفى فيها إلا باليقين ، فما بالك بالضعيف .

٣ — هذا التأويل الذى ارتضاه ما أضعفه عند النظر والتأمل ، فهو يوقع متأوله فيما فر منه ، وهو تسلط الشيطان على النبى ، فالتسلط عليه بالمحاكاة ، كالتسلط عليه بالإجراء على لسانه ، كلاهما لا يجوز ، وفتح هذا الباب خطر على الرسالات ، وإذا سلمنا أن الشيطان ، هو الذى نطق فى أثناء سكوت الرسول ، فكيف لا يسمع ما حكاه الشيطان ؟ وإذا سمعنا فكيف لا يبادر إلى إنكارها ؟ والبيان فى مثل هذا وجب على الفور ، وإذا لم يسمع النبى ، ألم يسمع أصحابه ؟ وإذا سمعوا فكيف يسكتون ؟ وإذا لم يسمعوا فهل بلغ من تسلط الشيطان أن يحول بينهم وبين السماع ؟

ثم كيف يتفق هذا وما روى : من أن النبى حزن حزناً شديداً وأن جبريل قال له ما جئتك بهذا الحق !!

الحق : أن نسج القصة مهما تأول فيه المتأولون ، فهو مهلهل متداع لا يثبت أمام البحث .

مصادمة القصة للقرآن المتواتر

فقد أفادت القصة ؛ تسلط الشيطان على النبى بالزيادة فى القرآن ما ليس منه ، وهو مخالف لقوله تعالى : ﴿ إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾^(١) .

وأى شخص أحق بهذه العبودية من الأنبياء — بله رسول الله — ؟

وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ... ﴾^(٢) . وأى بشر أصدق إيماناً ، وأقوى توكلأً من رسول الله ؟ ..

وأما بطلان القصة من جهة العقل والنظر

فقد قام الدليل وأجمعت الأمة على عصمته — عليه الصلاة والسلام — من مثل ما روى ، إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا ، من مدح آلهة العرب وهو كفر ، أو أن يتصور عليه الشيطان ، ويشبهه

(١) الحجر آية : ٤٢ .

(٢) النحل آية : ١٠٠ .

عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ، ويعتقد النبي ذلك ، حتى ينبهه جبريل ، وذلك ممتنع في حقه أن يقول من قبل نفسه عمداً وهو كفر ، أو سهواً وهو معصوم ، وقد ثبت بالبراهين والإجماع عصمته من جريان ذلك على لسانه ، أو قلبه لا عمداً ولا سهواً ، أو يكون للشيطان سبيل عليه في التبليغ ، ولو وجدنا ذلك ، لذهبت الثقة بالأنبياء ، ولوجد المارقون سبيلاً للتشكيك في الأديان .

ووجه آخر لفساد هذه القصة : وهو أن الله — تعالى — ذم الأصنام في هذه السورة ، وأنكر على عابديها ، وجعلها أسماء لا مسمى لها ، وما التمسك بأذيالها إلا أوهام وظنون ، فلو أن القصة صحيحة ، لما كان هناك تناسب بين ما قبلها وما بعدها ، ولكان النظام مفككاً ، والكلام متخاذلاً ، وكيف يقع مدح بين ذمين ؟ بل كيف يجوز هذا ممن كمل عقله على كل العقول ، واتسع في باب البيان ومعرفة الفصيح علمه ؟ وكيف يطمئن إلى مثل هذا التناقض السامعون ، وهم أهل اللسان والفصاحة ، ومنهم أعداؤه الذين يتلمسون له الزلات والعترات ؟ ولو أن ما روى كان واقعاً لشغب المعادون ، وارتد الضعفاء من المؤمنين ، ولقامت قيامة مكة ، كما حدث في الإسراء ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ..

ومما يدل على افتعال القصة : ما ذكره الأستاذ الإمام محمد عبده في رده هذه الفرية ، وهو : أن وصف العرب لآلهتهم بالغرانيق لم يرد لا في نظمهم ولا في خطبهم ، ولم ينقل عن أحد : إن ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم ، إلا ما جاء في : « معجم ياقوت » من غير سند ولا معروف بطريق صحيح ، والذي تعرفه اللغة ، أن الغرنوق والغرانيق : اسم لطائر مائى أسود أو أبيض ، ومن معانيه ، الشاب الأبيض الجميل ، ويطلق على غير ذلك (راجع القاموس) ، ولا شيء من معانيه اللغوية ، يلائم معنى الإلهية والأصنام ، حتى يطلق عليها في فصيح الملام ، الذي يعرض على أمراء الفصاحة والبيان ، ولا يجوز أن يكون هذا من قبيل المجاز ، بتشبيه الأصنام والآلهة بالغرانيق ، لأن الذوق الأدنى ، يأبى ذلك .

زعم مردود

وقد تناول أحد أعداء الدين ، وهو « سيرموير » المستشرق : الذي طبل لهذه القصة وزمر ، أن يدعمها بما يزعم أنه صحيح ، وهو ما روى : أن النبي لما قال ذلك ، تهادن المسلمون والمشركون ، وترامى الخبر إلى مهاجرى الحبشة ، فرجعوا إلى وطنهم ، وهو باطل ، والسبب في رجوع مهاجرى الحبشة ، هو : إسلام السيد الهمام عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فقد أعز الله به الإسلام ،

وقوى شوكة المسلمين ، فخفف المشركون من غلوائهم مما رغب مهاجري الحبشة في الرجوع إلى وطنهم ، وانضم إلى ذلك ، حدوث ثورة في بلاد النجاشي ، كان اعترافه بأن ما جاء به القرآن في عيسى ، وأنه عبد الله ورسوله حق مصدق لما جاء به الأنجيل ، وإيواؤه المسلمين بعض أسبابها ، فأثر المسلمون العودة على المقام بالحبشة ، خشية أن يتطير إليهم الشرر ، والضرر .

وإذا كانت القصة غير ثابتة من جهة النقل ، وهي مخالفة للقرآن المتواتر ، ومناقضة لما ثبت بالعقل ، مع تعذر التأويل ، فلا جرم ؛ أن التحقيق يدعوني ، إلى أن أصدع ، بأن حديث الغرائق مكذوب مختلق ، وضعه الزنادقة ؛ الذين يحاولون إفساد الدين والطعن في خاتم الأنبياء .

وإذا انتهينا إلى هذه النتيجة الموفقة ، فما معنى الآية حينئذ ؟ وللإجابة عن ذلك ؛ أذكر خلاصة ما ذكره الأستاذ الإمام في تفسيرها ، وفي تفسيرها وجهان ، الأول ، أن التمني بمعنى القراءة ، إلا أن الإلقاء لا بالمعنى الذي ذكره المبطلون ، بل بمعنى إلقاء الأباطيل والشبه مما يحتمله الكلام ، ولا يكون مراداً للمتكلم ، أو لا يحتمله ، ولكن يدعى أن ذلك يؤدي إليه ، وذلك من عمل المعاجزين ، الذين دأبهم محاربة الحق ، يتبعون الشبه ، ويسعون وراء الرية ، ونسبة الإلقاء إلى الشيطان حينئذ ، لأنه مثير الشبهات بوساوسه ، ويكون المعنى : وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ، إلا إذا حدث قومه عن ربه ، أو تلا وحياً أنزل الله فيه هداية لهم ، قام في وجهه مشاغبون ، يقولون عليه ما لم يقله ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، وينشرون ذلك بين الناس ، ولا يزال الأنبياء يجادلونهم في سبيل الحق ، حتى ينتظر ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان من شبه ، ويثبت الحق ، وقد وضع الله هذه السنة في الخلق ، ليميز الخبيث من الطيب ، فيفتن ضعفاء الإيمان ، الذين في قلوبهم مرض ، ثم يتمحص الحق عند أهله ، وهم الذين أوتوا العلم ، فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وتثبت له قلوبهم .

ثانياً : أن التمني : المراد به ، تشهى حصول الأمر المرغوب فيه ، وحديث النفس بما كان ويكون ، والأمنية من هذا المعنى ... وما أرسلنا من رسول ولا نبي ، إلا إذا تمنى هذه الأمنية السامية ، ألقى الشيطان في سبيله العثرات ، وأقام بينه وبين مقصده العقبات ووسوس في صدور الناس ، فثاروا في وجهه ، وجادلوه بالسلاح حيناً ، وبالقول حيناً آخر ، فإذا ظهروا عليه والدعوة في بدايتها ، ونالوا منه وهو قليل الأتباع ، ظنوا أن الحق في جانبهم ، وقد يستدرجهم الله جرياً على سنته ، يجعل الحرب بينهم وبين المؤمنين سجلاً ، فيخدع بذلك الذين في قلوبهم شك ونفاق ، ولكن سرعان ما يمحى الله ما ألقاه الشيطان من الشبهات ، وينشئ من ضعف أنصار الآيات قوة ، ومن ذلهم عزة ، وتكون كلمة

الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، ليعلم الذين أوتوا العلم أن ما جاء به الرسل هو الحق ، فتخبت له قلوبهم ، وإن الله هادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ، هذا هو الحق ، وما عدا ذلك فهو باطل . أ . ه .

الأمر لله وحده

قوله تعالى : ﴿ أم للإنسان ما تمنى فلله الآخرة والأولى وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أم للإنسان ما تمنى ﴾ أى ليس كل من تمنى خيراً حصل له كقوله تعالى : ﴿ ليس بآمانكم ولا أمانى أهل الكتاب ﴾^(١) . ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال ، ولا كل من ود شيئاً يحصل له .

قال القرطبي وقيل : ﴿ أم للإنسان ما تمنى ﴾ من غير جزاء ليس الأمر كذلك . وقيل : ﴿ أم للإنسان ما تمنى ﴾ من شفاعاة الأصنام ، نزلت في النضر بن الحرث ، وقيل في الوليد بن المغيرة ، وقيل في سائر الكفار .

قوله تعالى : ﴿ فلله الآخرة والأولى ﴾ يعطى من يشاء ويمنع من يشاء ، لا ما تمنى أحد . فكل شيء يجرى بتقديره ومشيئته ، ومشيئته تنفذ ، لا مشيئة للعباد ، إلا ما شاء لهم ، فما شاء لهم كان ، وما لم يشأ لم يكن ، قال جل في علاه : ﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ هذا توبيخ من الله تعالى لمن عبد الملائكة والأصنام ، وزعم أن ذلك يقربه إلى الله تعالى ، فاعلم أن الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتهم على الله ، لا تشفع إلا لمن أذن أن يشفع له ، كما قال تعالى : ﴿ ... بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾^(٣) .

(١) سورة النساء : آية رقم ١٢٣ .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٥٤ .

(٣) سورة الأنبياء : الآيتان : ٢٦ — ٢٨ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونُ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْإِنْسِ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يَغْنَىٰ مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ هم الكفار الذين قالوا : إن الملائكة بنات الله ، والأصنام بنات الله ﴿ لَيَسْمُونُ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْإِنْسِ ﴾ أى كتسمية الإنس ، أى يعتقدون أن الملائكة إناث ، وأنهم بنات الله ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أى أنهم لم يشاهدوا خلقة الملائكة ، ولم يسمعوا ما قالوه عن رسول الله ﷺ — ولم يروه فى كتاب ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يَغْنَىٰ مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ أى لا يجدى شيئا ولا يقوم أبدا مقام الحق .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾ أى فأعرض عن مثل هؤلاء الذين أعرضوا عن كتابنا ، ولم يأخذوا بما فيه ، مما يوصل إلى سعادتهم فى المعاش والمعاد من المعتقدات الحقة ، وقصص الأولين المذكرة بأمور الآخرة ، وما فيها من نعيم مقيم ، أو عذاب أليم ، وانتصروا على شئون الدنيا ورضوا بزخرفها وجدوا فى بلوغ أسمى المراتب فيها . ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ أى أن انتهى علمهم أن يتفهموا شئون الحياة الدنيا ، ويتمتعوا باللذات ويتصرفوا فى التجارات ، ليحصلوا على ما يكون لهم فيها من بسطة فى المال ، وسعة فى الرزق ، ويكونوا ممن يشار إليهم بالبنان ، وما به يذكرون لدى الناس ، ولا يُغنون بما وراء ذلك ، فشئون الآخرة دبر آذانهم ، ووراء ظهورهم ، لا يعرفون منها قبىلا من دبير .

روى الإمام أحمد عن أم المؤمنين عائشة — رضى الله عنها — قالت : قال رسول الله ﷺ — « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » (٢) .

(١) سورة الزخرف : آية ١٩٠ .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده ح ٦ ص ٧١ من رواية لعائشة .

وفي الدعاء المأثور « اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا » . وعن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : « ألا إن الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله تعالى ، وما وآله ، وعالمًا ومتعلمًا »^(١) . رواه الترمذى وقال حديث حسن وعن أنس — رضى الله عنه — أن النبى — ﷺ — قال : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة »^(٢) . متفق عليه .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى ﴾ أى إن ربك هو العليم بمن واصل ليله بنهاره ، وصباحه بمساءه مفكرًا فى آياته فى الكون ، وفيما جاء على ألسنة رسله ، حتى اهتدى إلى الحق الذى ينجيه فى آخرته ، ويبلغه رضوان ربه ، ويبلغه سعادة الدنيا بالسير على السنن التى وضعها فى خليقته ، فاحتذى حذوها وسار على أثرها — وبمن حاد عن الطريق وجعل إلهه هواه وركب رأسه ، فلم يلو على شىء مما جاء به الداعى الناصح الأمين ، وإنه لمجاز كلا بما كسب واكتسب ، وسيجزيه على الجليل والحقير ، والصغير والكبير ، بحسب ما أحاط به واسع علمه ، وبمقدار فضله على من أحببت إليه مصداقا لقوله : ﴿ نَبِئْ عِبَادِى أَنِ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنِّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾^(٣) .

وخلاصة القول : إن هؤلاء قوم لا تجدى منهم الذكرى ، ولا تؤثر فيهم العظة ، ﴿ فلا تبشس بما كانوا يفعلون ﴾^(٤) .

العدالة الإلهية

قال تعالى :

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنٰى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴿٣٢﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِى

(١) أخرجه الترمذى ح ٤ ص ٤٨٥ — ٤٨٦ . كتاب الزهد . باب ما جاء فى هو أن الدنيا على الله . رقم ٢٣٢٢ .

(٢) أخرجه البخارى ح ٤ ص ٦١ عن رواية لأنس .

(٣) الحجر : الآيتان ٤٩ — ٥٠ .

(٤) هود : آية ٣٦ .

تَوَلَّى ۝ وَأَعْطَى قَلِيلًا ۝ وَأَكْدَى ۝ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ۝ ٢٥ ۝ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ۝ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ۝ ٢٧ ۝ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ۝ ٢٨ ۝ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ۝ ٢٩ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ۝ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى ۝ ٤١ ۝ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ۝ ٤٢ ۝ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ۝ ٤٣ ۝ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝ ٤٤ ۝ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۝ ٤٥ ۝ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ۝ ٤٦ ۝ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ۝ ٤٧ ۝ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ۝ ٤٨ ۝ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى ۝ ٤٩ ۝ وَأَنَّهُ رَاهِلٌكَ عَادًا الْأُولَى ۝ ٥٠ ۝ وَتَمُودَ أَفَمَا أَبْقَى ۝ ٥١ ۝ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلِ أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْمَ أَظْلَمَ وَاطْغَى ۝ ٥٢ ۝ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ۝ ٥٣ ۝ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ۝ ٥٤ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ۝ ٥٥ ۝ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذُرِ الْأُولَى ۝ ٥٦ ۝ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ۝ ٥٧ ۝ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝ ٥٨ ۝ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ ٥٩ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ ٦٠ ۝ وَأَنْتُمْ سَعِيدُونَ ۝ ٦١ ۝ فَاتَّبِعُونِ ۝ ٦٢ ۝ وَأَعْبُدُونِ ۝ ٦٣ ۝

معاني المفردات

﴿ بما عملوا ﴾ أى بالعقاب على عملهم . ﴿ بالحسنى ﴾ أى بالمشوبة الحسنى وهى الجنة . ﴿ كبائر الإثم ﴾ ما يكبر عقابه كالزنا وشرب الخمر . ﴿ الفواحش ﴾ واحدها فاحشة ، وهى ما عظم قبحها من الكبائر . (اللمم) ما صغر من الذنوب . وهو فى اللغة اسم لما قل قدره ومنه لمة الشعر ، وقيل اللمم : الدنو من الشئ دون ارتكابه من قولهم ألمات بكذا : أى قاربت منه ، وعليه فالمراد الهم بالذنب وحديث النفس دون حدوث فعل ، ومن ثم قال سعيد بن المسيب : هو ما خطر على القلب ، (الأجنة) واحدها جنين ، وهو الولد مادام فى البطن . (تولى) أى أعرض عن اتباع الحق . (أكدى) أى قطع العطاء من قولهم : حفر فأكدى . أى بلغ كدية أى صخرة تمنعه من إتمام العمل . (ينبأ) يخبر . (صحف موسى) هى التوراة ، وصحف إبراهيم ما نزل عليه من الشرائع . (وفى) أى أتم ما أمر به (ألا تزر وازرة وزر أخرى) . أى لا تحمل نفس حمل نفس أخرى . (المنتهى) أى المعاد يوم القيامة والجزاء حين الحشر ، (تمنى) أى تدفع فى الرحم . (النشأة الأخرى) هى إعادة الأرواح إلى الأجساد حين البعث . (أغنى وأقنى) أى أغنى من شاء وأفقر من شاء . (الشعرى) هى الشعري العبور وهى ذلك النجم الوضاء ، الذى يُقال له مرزم الجوزاء ، وقد عبدته طائفة من العرب ، ، (وعاد الأولى) هم قوم هود . (وعادا الأخرى) من ولد عاد الأولى . (والمؤتفكة) هى قرى قوم لوط ، سميت بذلك لأنها اثتفكت بأهلها : أى انقلبت بهم . (أهوى) أى أسقط فى الأرض . (غشاها) أى غطاها .

﴿ الآلاء ﴾ : إنعم واحدها ألى (بالفتح والكسر) . ﴿ تمارى ﴾ تمتري وتشك ، والخطاب للإنسان .
 ﴿ هذا نذير من النذر ﴾ أى أن محمداً بعض من أنذر . ﴿ أزفت ﴾ قربت والآفة ، الساعة ، وسميت
 بذلك لقرب قيامها ، أولدونها من الناس ، كما جاء فى قوله تعالى ﴿ اقتربت الساعة ﴾ ^(١) . ﴿ من دون
 الله ﴾ أى من غيره . ﴿ كاشفة ﴾ أى نفس تكشف وقت وقوعها وتبينه ، لأنها من أخفى المغيبات ،
 (والحديث) القرآن . ﴿ سامدون ﴾ أى لاهون غافلون . وعن ابن عباس : السمود : الغناء فى لغة
 حمير ، يقال : استمدى لنا ، أى غنى لنا ، قال أبو عبيدة : المسمود الذى غنى له .

المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن أمر سبحانه رسوله بالإعراض عن المشركين ، وذكر أنه هو العليم باستعدادهم ، وإنهم قوم
 ضالون لا يصل الحق إلى شغاف قلوبهم ، ولا يلتفتون إليه بعيونهم ، ذكر هنا أنه لا يهملهم ، بل سيجزيهم
 بسوء صنيعهم ، وهو العليم بما فى السموات والأرض فلا يترك عباده هملاً ، بل يجازيهم بعدله ، فيثيب
 المحسن بالجنة ، ويعاقب المسيء بما هو أهله ، ثم أردف ذلك ذكر أوصاف المحسنين ، ثم حذر عباده
 بأنه لا تخفى عليه خافية من أمورهم ، من حين أن كانوا أجنة فى بطون أمهاتهم إلى أن يموتوا ، فيعلم
 المطيع من العاصى ، فلا حاجة للعبد إذا إلى مدح نفسه بفعل الطاعات ، واجتناب السيئات ، ثم ذكر
 أن من العجب العاجب بعد أن يسمع سامع ، ويرجو عاقل أن غيره يقوم مقامه فى تحمل وزره ويعطيه
 جُعلاً ، لكنه ما أعطاه إلا قليلاً ، حتى وقف عن العطاء ، ومن ثم وبخه على ذلك ، بأن علم هذا
 لا يكون إلا بوحي ، فهل علم منه صحة ما اعتقد ؛ كلا فجميع الشرائع المعروفة لكم ، كشرية موسى
 وإبراهيم على غير هذا ، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، فمن أين
 وصل له أن ذلك مجزى له ، ثم بين سبحانه أنه المحي والمميت ، وأنه هو المتصرف فى أمور العالم خلقاً
 وتديراً وملكاً ، وأن أمر المعاد تحت قبضته ، وأن الخلق إذ ذاك يرجعون إليه ، وأن بعض الأمم كذبت
 رسلها وأنكرت الخالق ، وختم سبحانه السورة ، كما بدأها بالحديث عن هذا القرآن العظيم ، فقال :
 ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون ﴾ فلا تعجبوا من القرآن منكبين ، ولا تضحكوا
 منه مستهزئين وابكوا حزناً على ما فرطتم فى جنب الله ، وعلى غفلتكم عن مواعظه وحكمه التى فيها
 سعادتكم ، واسجدوا شكراً لبارئ النسيم الذى أوجدها من العدم ، واعبدوه بكرة وعشيا ، شكراً
 على آلائه ، وتقليبكم فى نعمائه .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه الغنى عما سواه ، الحاكم في خلقه بالعدل ، خلق الخلق بعلمه ، وقدر لهم أقداراً ، وضرب لهم آجالاً ، ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم ، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم ، يهدي من يشاء ، ويعصم ويعافي ، فضلاً ، ويضل من يشاء ، ويخذل ويبتلى ، عدلاً ، وكلهم يتقلبون في مشيئته ، بين فضله وعدله . ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ أى فهو يجازى بحسب علمه المحيط بكل شيء ، المحسن بالإحسان ، والمسيء بصنيع ما أساء ، كما قال تعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ، وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ (١) .

ثم ذكر سبحانه أوصاف المحسنين فقال تعالى : ﴿ الذين يحبون كباثر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ أى أن المحسنين هم الذين يتعدون عما عظم شأنه من كباثر المعاصي ، كالشرك ، وقتل النفس ، التى حرم الله إلا بالحق ، والزنا ، وشهادة الزور ، وعقوق الوالدين ... ولا تقع منهم إلا صفائرها ، فيتوبون إلى ربهم ويندمون على ما فرط منهم . كقوله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كباثر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾ (٢) .

وقال ههنا : ﴿ الذين يحبون كباثر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ وهذا استثناء منقطع ، لأن اللمم من صفائير الذنوب ومحقرات الأعمال .

روى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تمنى

(١) الجاثية : الآيتان ٢١ - ٢٢ .

(٢) النساء : آية ٣١ .

وتشتبهى ، والفرج يصدق من ذلك أو يكذبه ^(١) ، أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرازق به . فإن تقدم بفرجه كان زانيا ، وإلا فهو اللمم ، كذا قال ابن جرير عن ابن مسعود . وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿إِلا اللمم﴾ قال : إلا ما سلف وكذا قال زيد بن أسلم ، وقال ابن جرير عن مجاهد أنه قال في هذه الآية (إلا اللمم) قال : الذى يلتم بالذنب ثم يدعه .

قال الشاعر :

إن تغفر اللهم تغفر جمًّا وأى عـبد لك مـا ألما

وقال الكلبي : اللمم على وجهين كل ذنب لم يذكر الله عليه حدًّا في الدنيا ولا عذابًا في الآخرة ، فذلك الذى تكفره الصلوات الخمس ما لم يبلغ الكبائر والفواحش ، والوجه الآخر هو الذنب العظيم ، يلتم به الإنسان المرة بعد المرة فيتوب منه .

وقوله تعالى : ﴿إن ربك واسع المغفرة﴾ أى رحمته سبحانه وسعت كل شيء ، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها ، قال تعالى : ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى﴾ ^(٢) . وقال جل ذكره : ﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾ ^(٣) . وقال سبحانه : ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيمًا﴾ ^(٤) . وقال تعالى : ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء، رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم﴾ ^(٥) . وقال تعالى : ﴿ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون﴾ ^(٦) .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : يا ابن آدم : إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى .

(١) أخرجه أحمد ح ٢ ص ٢٧٦ طبع دار الفكر العربى . وانظر صحيح مسلم ح ٤ ص ٢٠٤٧ . كتاب القدر . باب قدر ابن آدم حظه من الزنا : رقم ٢٦٥٧/٢١ .
(٢) طه : آية ٨٢ .
(٣) الزمر : آية ٥٣ .
(٤) النساء : آية ١١٠ .
(٥) غافر : آية ٧ .
(٦) الأعراف : الآيات ١٥٦ — ١٥٨ .

يا ابن آدم : لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك . يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح^(١) .

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة
فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن
فمن الذى يدعو ويرجو المجرم
ما لى إليك وسيلة إلا الرجا
وجميل عفوك ثم إني مسلم

قوله تعالى : ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ . أى هو سبحانه بصير بكم ، عليم بأحوالكم ، وأقوالكم ، التى ستصدر عنكم ، وتقع منكم حين أنشأ أبائكم آدم من الأرض ، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذر ، ثم قسمهم فريقين ، فريقاً للجنة ، وفريقاً للسعير .

قال مكحول : كنا أجنة فى بطون أمهاتنا ، فسقط منا من سقط ، وكنا فيمن بقى ، ثم كنا مراضيع ، فهلك من هلك ، وكنا فيمن بقى ، ثم صرنا يفعة ، فهلك منا من هلك ، وكنا فيمن بقى ، ثم صرنا شباباً ، فهلك منا من هلك ، وكنا فيمن بقى ، ثم صرنا شيوخاً — لا أبالك — فماذا بعد هذا ننتظر !؟

وقوله : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ أى فإذا علمتم ذلك ، فلا تثنوا على أنفسكم بالطهارة من المعاصى ، أو بزكاة العمل وزيادة الخير ، بل اشكروا الله على فضله ومغفرته ، فهو العليم بمن اتقى المعاصى ، ومن ولغ فيها ودنس نفسه باجتراحها .

قال الحسن فى هذه الآية : قد علم الله سبحانه كل نفس ما هى عاملة ، وما هى صانعة ، وإلى ما هى صائرة .

والآية بكوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون شيئاً ﴾^(٢) .

(١) أخرجه الترمذى ح ٥ ص ٥١٢ كتاب الدعوات . باب فى فضل التوبة والاستفسار . رقم ٣٥٤٠ .

(٢) النساء : آية ٤٩ .

وقال مسلم في صحيحه عن محمد بن عمرو بن عطاء قال سميت ابنتي برة ، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم وسميت برة فقال رسول الله ﷺ « لا تزكوا أنفسكم إن الله أعلم بأهل البر منكم فقالوا بم نسميها ؟ قال : سموها زينب »^(١) .

وروى أحمد عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال مدح رجل رجلاً عند النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ « ويلك قطعت عنق صاحبك — مرارا — أو كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل أحسب فلاناً ، والله حسبي ، ولا أزكى على الله أحداً ، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك »^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ أفرايت الذي تولى ، وأعطى قليلاً وأكدى ، أعنده علم الغيب فهو يرى ، أم لم ينبأ بما في صحف موسى ، وإبراهيم الذي وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ .

يقول تعالى ذاما لمن تولى عن طاعة الله : فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ﴿ وأعطى قليلاً وأكدى ﴾ قال ابن عباس : أطاع قليلاً ثم قطعه ، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة وغير واحد ، قال عكرمة وسعيد كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئراً فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل ، فيقولون أكدينا ويتركون العمل .

قوله تعالى : ﴿ أعنده علم الغيب فهو يرى ﴾ أى عند هذا الذى أمسك خشية الإنفاق ، وقطع معروفة أعنده علم الغيب أنه سينفذ ما فى يده ، حتى قد أمسك عن معروفه ، فهو يرى ذلك عياناً ؟ أى ليس الأمر كذلك ، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلاً وشحاً وهلعاً .

قوله تعالى : ﴿ أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى ﴾ أى ألم يخبر بما نصت عليه التوراة ، وما ذكر فى شرائع إبراهيم الذى وفى بما عاهد الله عليه ، وأتم ما أمر به ، وإنما ذكر ما جاء فى شريعتى هذين النبيين فحسب ، لأن المشركين كانوا يدعون أنهم على شريعة أبيهم إبراهيم ، وأهل الكتاب كانوا يدعون أنهم متبعون ما فى التوراة وصحفها قريبة العهد منهم .

(١) أخرجه مسلم ح ٣ ص ١٦٨٧ ، ١٦٨٨ برقم ٢١٤٢/١٩ .

(٢) أخرجه أحمد : ح ٥ ص ٤٦ ط دار الفكر العربى .

ثم فصل سبحانه ما جاء في هاتين الشريعتين فقال تعالى : ﴿ أن لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ، وأن إلى ربك الملتجى ، وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أमत وأحيا وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى ، وأنه هو أغنى وأقنى وأنه هو رب الشعرى ، وأنه أهلك عادا الأولى ، وثمود فما أبقى وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ، والمؤتفكة أهوى ، فغشاها ما غشى ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أن لا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أى لا تحمل نفس ذنوب نفس أخرى . كقوله تعالى : ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾^(١) . أى ولا تكسب كل نفس إثما إلا كان عليها جزاؤه دون غيرها ، ولا تحمل نفس فوق حملها حمل نفس أخرى ، بل تحمل كل نفس حملها فحسب قال تعالى : ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ أى كما لا يحمل على الإنسان وزر غيره ، لا يحصل له من الأجر إلا ما كسب لنفسه ، ومن هذا استنبط الإمام مالك والإمام الشافعى ومن تبعهما ، أن القراءة لا يصح إهداء ثوابها إلى الموتي ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ، ولا حثهم عليه ، ولا أرشدهم إليه ، بنص ولا إيماء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة — رضى الله عنهم — لو كان خيرا لسبقونا إليه ، وباب القربان يقتصر فيه على النصوص ، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء ، فأما الدعاء والصدقة ، فذاك مجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما ، وأما الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له »^(٣) . فهذه الثلاثة فى الحقيقة هى من سعيه وكده وعمله ، كما جاء فى الحديث ، إن طيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه ، والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هى من آثار عمله ووقفه ، وقد قال تعالى : ﴿ إنا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدموا

(١) سورة الأنعام : آية ١٦٤ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٨٦ .

(٣) أخرجه أحمد ج ٢ ص ٣٧٢ ومسلم ح ٣ ص ٢٥٥ برقم ١٦٣١/١٤ .

وآثارهم ﴿١﴾ . والعلم الذى نشره فى الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضاً من سعيه وعمله ، وثبت فى الصحيح « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ... الحديث » ﴿٢﴾ . (أفاده العلامة ابن كثير) .

قوله تعالى : ﴿ وأن سعيه سوف يرى ﴾ أى أن عمله سيعرض يوم القيامة على أهل المحشر ، ويطلعون عليه ، فيكون فى ذلك إشادة بفضل المحسنين ، وتوبيخ للمسيئين ، كقوله تعالى : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ ﴿٣﴾ . ﴿ يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر ﴾ ﴿٤﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ أى ثم يجزى بعمله أوفى الجزاء وأوفره فيضاعف الله له الحسنه ، ويبلغها سبعمائة ضعف ، ويجازى بالسيئة مثلها ، أو يعفو عنها بفضلها ، قال تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾ ﴿٥﴾ . وقال سبحانه : ﴿ مثل الذى ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ ﴿٦﴾ . وقال جل فى علاه : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ ﴿٧﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وإن إلى ربك المنتهى ﴾ أى وأن مرجع الأمور يوم الميعاد إلى ربك ، فيحاسبهم على النقيير والقطمير ، ويثيبهم أو يعاقبهم بالجنة أو النار ، وفى هذا تهديد بليغ للمسيء ، وحث شديد للمحسن ، وتسليه لقلبه ﷺ ، كأنه يقول له : لا تحزن أيها الرسول ، فإن المنتهى إلى الله .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن عمرو بن ميمون الأودى قال : قام فينا معاذ بن جبل فقال : يا بنى أود إني رسول الله ﷺ إليكم تعلمون أن المعاد إلى الله إلى الجنة أو إلى النار .

(١) يس : آية ١٢ .

(٢) أخرجه : صحيح مسلم فى كتاب العلم باب من سند سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة ح ٤ ص ٢٠٦٠

رقم ٢٦٧٤/١٦ .

(٣) التوبة : آية ١٠٥ .

(٤) الطارق : الآيتان ٩ ، ١٠ .

(٥) الأنعام : آية ١٦٠ .

(٦) البقرة : آية ٢٦١ .

(٧) البقرة : آية ٢٤٥ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ أى خلق فى عباده الضحك والبكاء ، وسببهما وهما مختلفان ، والمراد أن سبحانه خلق ما يسر ، وما يحزن من الأعمال الصالحة .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ أى وأنه سبحانه خلق الموت والحياة كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ هُوَ يَحْيِى وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ ﴾ ذلك بأنه على كل شىء قدير ، وكل شىء إليه فقير ، وكل أمر عليه يسير ، لا يحتاج إلى شىء ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى مِنْ نَظْفَةٍ إِذَا تَمْنَى ﴾ أى وأنه خلق الذكر والأنثى ، من الإنسان وغيره من الحيوان ، من المنى الذى يُدْفَقُ فى الأرحام ، كقوله تعالى : ﴿ أَيْحَسِبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتْرَكَ سَدًى ؟ أَلَمْ يَكْ نَظْفَةٍ مِنْ مَنًى يَمْنَى ؟ ﴾ ثم كان علقه فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟ ﴿ وكقوله سبحانه : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ (١) . وقال ههنا سبحانه : ﴿ وَأَنْ عَلَيْهِ النُّشْأَةُ الْآخَرَى ﴾ أى كما خلق البداءة ، هو قادر سبحانه على الإعادة ، وهى النشأة الأخرى يوم القيامة ، كقوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ، قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يَنْشِئُ النُّشْأَةَ الْآخِرَةَ . إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، يَعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴾ أى وأنه تعالى يغنى من يشاء من عباده ، ويفقر من يشاء . قال بن زيد : أغنى من شاء وأفقر من شاء ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ (٣) . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٤) . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥) .

(١) الطارق : الآيات ٥ - ٨ .

(٢) العنكبوت : الآيات ١٩ - ٢٢ .

(٣) سبأ : آية ٣٩ .

(٤) العنكبوت : آية ٦٢ .

(٥) الروم : آية ٣٧ .

فسبحان الخالق . البارئ . المصور ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ،
الرافع ، المعز ، المذل ، ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز
من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . تُولج الليل في النهار وتُولج النهار في
الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ﴾^(١) .

قوله تعالى : ﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد وغيرهم :
هو هذا النجم الوقاد ، الذي يقال مرزم الجوزاء ، كانت طائفة من العرب يعبدونه ، وإنما ذكر أنه رب
الشعرى ، وإن كان ربا لغيره ؛ لأن العرب كانت تعبد ، فأعلمهم الله — جل وعز — أن الشعرى
مربوب وليس برب ، قال تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس
والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب ومن يهن
الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ وأنه أهلك عادا الأولى ﴾ وهى قوم هود عليه السلام ، وعاد الأخرى هى إرم
بن سام بن نوح ، كما قال تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق
مثلا فى البلاد ﴾^(٣) . وقد كانوا من أشد الأمم وأقواهم وأعنتهم على الله ورسوله ، فأهلكهم ﴿ بريح
صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ﴾^(٤) . أى متتابعة .

وقال المبرد : وعاد الأخرى هى ثمود ، وقيل عاد الأولى من ولد عاد الأولى .

وقوله تعالى : ﴿ وثمود فما أبقي ﴾ أى وأهلك ثمود فما أبقي عليهم ، بل أخذهم بذنوبهم ،
أخذ عزيز مقتدر ، قال تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة
العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾^(٥) .

وقوله ﴿ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ﴾ أى وأهلكنا قوم نوح من قبل عاد
وثمود ، وكانوا أظلم من هذين ، لأنهم بدعوا بالظلم ، ومن سن سنة سيئة ، فعليه وزرها ووزر من

(١) آل عمران : الآيتان ٢٦ — ٢٧ .

(٢) الحج : آية ١٨ .

(٣) الفجر : الآيات ٦ — ١١ .

(٤) الحاقة : الآيات ٦ ، ٧ .

(٥) فصلت : آية ١٧ .

عمل بها ، وكانت أطغى منهما ، وأكثر تجاوز للحد ، لأنهم سمعوا المواعظ ، وطال عليهم الأمد ، ولبث فيهم النبي نوح ألف سنة إلا خمسين عامًا ، ولم يرتدعوا ، حتى دعا عليهم نبيهم ، بقوله : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾^(١) .

وقد كان الرجل منهم يأخذ بيد ابنه ، ويمشى إلى نوح ، يحذره منه ، ويقول : يا بني إن أبى مشى بي إلى هذا ، وأنا مثلك يومئذ ، فأياك أن تصدقه ، فيموت الكبير على الكفر ، وينشأ الصغير على وصية أبيه ، ولا يتأثر من دعائه له ﴿ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾^(٢) .

قال تعالى : ﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ﴾^(٣) .
قوله تعالى : ﴿ والمؤتفة أهوى ، فغشاها ما غشى ﴾ أى وأهلك قوم لوط بانقلاب قريتهم عليهم ، وجعل عاليها سافلها ، ثم أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ، قال تعالى : ﴿ فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾^(٤) . وقوله : ﴿ فغشاها ما غشى ﴾ أى ألبسهما ما ألبسهما من الحجارة كما قال تعالى : ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين ﴾^(٥) .

وفى هذا الأسلوب تهويل للأمر الذى غشاها به ، وتعظيم له .

قوله تعالى : ﴿ فبأى آلاء ربك تتماهى ، هذا نذير من النذر الأولى أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون ، فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ .

قوله ﴿ فبأى آلاء ربك تتماهى ﴾ أى فبأى نعم ربك عليك أيها الإنسان ، تمترى وتشك ؟ كقوله تعالى : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾^(٦) . وكقوله تعالى : ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك ﴾^(٧) . وكقوله سبحانه : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾^(٨) .

(٥) النمل : آية ٥٨ .

(٦) الواقعة : آية ٨٣ .

(٧) الانفطار : الآيتان : ٦ ، ٧ .

(٨) الرحمن : آية ١٣ .

(١) نوح : آية ٢٦ .

(٢) نوح : الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) نوح : آية ٢٥ .

(٤) الحجر : آية ٧٤ .

وقوله تعالى : ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ يعنى محمداً ﷺ منذر من حاد عن طريق الهدى ، وسلك طريق الضلال والهوى ، يسىء العواقب ، فى العاجل والآجل ، وهو كمن قبله من الرسل بالذين أرسلهم ربهم لهداية خلقه ، فكذبوهم فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وحل بهم البوار والنكال ، جزاء تكذيبهم وجحودهم آلاء ربهم ، ونعمه التى ترى عليه . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ أزفت الآزفة ﴾ أى اقتربت القرية ، وهى القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ أى ليس هناك من يعرف وقت حلول الآزفة إلا هو ، فاستعدوا لهذا اليوم ، قبل أن تأخذكم الساعة بغتة وأنتم لا تشعرون ، فتندموا ولات ساعة مندم ، وجدوا للعمل قبل حلول الأجل .

وقد أشار سبحانه فى هذه الآيات إلى أصول الدين الثلاثة :

- (١) وحدانية الله بقوله : ﴿ فبأى آلاء ربك تتمارى ﴾ .
 - (٢) إثبات نبوة محمد ﷺ بقوله : ﴿ هذا نذير ﴾ .
 - (٣) إثبات الحشر والبعث بقوله : ﴿ أزفت الآزفة ﴾ .
- ثم أنكر المشركون تعجبهم من القرآن ، واستهزاءهم به وإعراضهم عنه ، فقال تعالى : ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون ، وتضحكون ولا تبكون ، وأنتم سامدون ﴾ .

أى أفينبغى لكم بعد ذلك أن تعجبوا من هذا القرآن ، وقد جاءكم بما فيه هدايتكم إلى سواء السبيل ، وإرشادكم إلى الطريق المستقيم ، وكيف تسخرون منه وتستهزئون به ، ولا تكونوا كالموقنين الذين وصفهم الله بقوله : ﴿ ويخرون للأذقان يكون ويزيدهم خشوعاً ﴾ (٣) . وكيف تلهون عن استماع خبره ، وتغفلون عن مواعظه ، وتتلقونها تلقى اللاهى الساهى المعرض عما يسمع ، غير المكترث بما يلقي إليه . . . ﴿ وأنتم سامدون ﴾ والسمود اللهو ، والسامد اللاهى ، يقال للقينة : أسمدنا ، أى ألهينا بالغناء قال الحسن ﴿ وأنتم سامدون ﴾ أى غافلون .

(١) سبأ : آية ٤٦ .

(٢) غافر : آية ١٨ .

(٣) الإسراء : آية ١٠٩ .

ثم قال تعالى آمراً لعباده بالسجود له ، والعبادة المتابعة لرسوله ﷺ ، والتوحيد والإخلاص : ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ أى فاخلعوا له وأخلصوا ووحده .

تحقيق علمى فى تحريم الغناء

قوله تعالى : ﴿ وأنتم سامدون ﴾ قال ابن عباس : هو الغناء بالجميرية ؛ اسمدى لنا ؛ أى غنى لنا ، وهى إحدى الآيات الثلاث التى استدلت بها العلماء على تحريم الغناء .

والآية الثانية : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله .. ﴾^(١) . سئل ابن مسعود عنها ، فأقسم والله الذى لا إله إلا هو ؛ يرددها ثلاث مرات إنه الغناء ، وعن ابن عمر إنه الغناء ، وكذلك قال عكرمة وميمون بن مهران ومكحول .

(٢)

والآية الثالثة : ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ قال مجاهد الغناء والمزامير صوت الشيطان . وروى عن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ قال : « لا تبيعوا المغنيات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير فى تجارة فيهن وثمنهن حرام فى مثل هذا أنزلت هذه الآية : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله .. ﴾ إلى آخر الآية^(٣) » .

وروى الترمذى وغيره من حديث أنس وغيره عن النبى ﷺ قال : « صوتان ملعونان فاجران أنهى عنهما ، صوت مزمارة ورنّة شيطان عند نغمه ، ومرح ورنّة عند مصيبة لطم خدود وشق جيوب^(٤) » .

(١) لقمان : آية ٦ .

(٢) الأيسراء : آية ٦٤ .

(٣) أخرجه الترمذى : ح ٥ ص ٢٥ ، تفسير سورة لقمان من رواية لأبى أمامة .

(٤) انظر سنن الترمذى « كتاب الجنائز » باب ما جاء فى الرخصة فى البكاء على الميت ، ح ٢ ص ٢٣٧ ، حديث رقم ١٠١١ من رواية الجابر بن عبد الله جاء فيها « ولكن نهيت عن صوتين أحمرين فاجرين : صوت عند مصيبة : خمخ وجوه ، وشق جيوب ورنّة شيطان » . وقال فى الحديث كلام أكثر من هذا . وانظر مجمع الزوائد « باب فى النوح » ح ٣ ص ١٣ ، فقد ورد الحديث من رواية لأنس ولفظه : « صوتان ملعونان فى الدنيا والآخرة : مزمارة عثم نغمة ورنّة عند مصيبة » رواه البزار ورجاله ثقات . وفى كشف الأستار عن زوائد البزار ح ١ ص ٣٧٦ — ٣٧٧ ، « باب ما جاء فى النوح » حديث ٧٩٥ ، لأنس بن مالك « نص رواية مجمع الزوائد » . وفى باب « جواز البكاء » للبزار ورد الحديث ٨٠٥ ص ٣٨٠ ، ٣٨١ ورد رواية لعبد الرحمن بن عوف جاء فيها « إنما نهيت عن النوح ، عن صوتين أحمرين صوت عند نغمة ، لعب وهو مزامير شيطان ، وصوت عند مصيبة خمخ وجوه ، وشق جيوب ورنّة شيطان ... » إلخ .

وروى ابن المبارك عن مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « من جلس إلى قينة يسمع منها صب في أذنه الآنك يوم القيامة »^(١) . (والأنك الرصاص المذاب) .

قال القرطبي . ولهذه الآثار وغيرها قال العلماء بتحريم الغناء ، وهو الغناء المعتاد عند المشتهرين به ، الذى يحرك النفوس ، ويبعثها على الهوى ، والغزل والمجون ، الذى يحرك الساكن ويبعث الكامن ؛ فهذا النوع إذا كان فى شعر يُشَبِّب فيه بذكر النساء ، ووصف محاسنهم وذكر الخمر والمحرمات لا يختلف فى تحريمه ؛ لأنه اللهو والغناء المذموم بالاتفاق ، فأما ما سلم من ذلك فيجوز القليل منه فى أوقات الفرح ؛ كالعرس والعيد ، وعند التنشيط على الأعمال الشاقة ، كما كان فى حفر الخندق وحِدْوِ أنجشة وسلمة بن الأكوع ، فأما ما ابتدعته الصوفية اليوم من الإدمان على سماع المغانى بالآلات المطربة من الشبابات والطار والمعارف والأوتار فحرام .

وقال العلامة ابن القيم : (فى كتابه إغاثة اللهفان من مكاييد الشيطان) :

« ومن مكاييد عدو الله ومصايد ، التى كاد بها من قل نصيبه من العلم والعقل والدين ، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين ؛ سماع المكاء والتصدية ، والغناء بالآلات المحرمة ، الذى يصد القلوب عن القرآن ، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان ، فهو قرآن الشيطان والحجاب الكثيف عن الرحمن ، وهو رقية اللواط والزنا ، وبه ينال العاشق الفاسق من معشوقه غاية المنى ، كادبه الشيطان النفوس المبطله ؛ وخسسه لها مكرًا منه وغرورًا ، وأوحى إليها الشبه الباطلة على حسنه ، فقبلت وحيه ، واتخذت لأجله القرآن مهجورًا ، فلو رأيته عند ذاك السماع ، وقد خشعت منهم الأصوات ، وهدأت منهم الحركات ، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه ، وانصبت واحدة إليه ، فتمايلوا له ولا كتمايل النشوان ، وتكسروا فى حركاتهم ورقصهم ، أرأيت تكسر الخانيث والنسوان ؟ ويحق لهم ذلك ؛ وقد خالط خمارة النفوس ، ففعل فيها أعظم ما يفعله حُمَيَّا الكؤوس ، فلغير الله بل للشيطان قلوب هناك تمزق وأثواب تشقق ، وأموال فى غير طاعة الله تنفق ، واستفزه بصوته رحيله ، وأجلب عليهم برجله وخيله ، ونَحَزَ فى صدورهم وخزًا ، وأزهم إلى ضرب الأرض بالأقدام أزا فطورًا يجعلهم كالحمير حول المدار ، وتارة كالذباب ترقص وُسيط الدار ، فيأرحمة للسقوف والأرض من دك تلك الأقدام ، وياسوأتنا من أشباه الحمير والأنعام ، وبإثماتة أعداء الإسلام بالذين يزعمون أنهم خواص الإسلام ، قضوا حياتهم لذة وطربًا ،

(١) انظر تفسير القرطبي « تفسير سورة لقمان » ج ١٤ ص ٥٣ فقد ورد الحديث بلفظة من رواية لأنس بن مالك .

واتخذوا دينهم لهواً ولعباً ، مزامير الشيطان أحب إليهم من استماع سور القرآن ، لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره ، لما حرك له ساكناً ، ولا أزعج له قاطئاً ، ولا أثار فيه وجداً ، ولا قدح فيه من لواعج الشوق إلى الله زنداً ، حتى إذا تلى عليه قرآن الشيطان ، وولج مزموره سمعه ، تفجرت ينابيع الوجد من قلبه على عينيه فجرت ، وعلى أقدامه فرققت ، وعلى يديه فصفقت ، وعلى سائر أعضائه فاهتزت وطربت ، وعلى أنفاسه فتصاعدت ، وعلى زفراته فتزايدت ، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت ، فيأبى الفاتن المفتون ، والبائع حظه من الله بنصيبه من الشيطان صفقة خاسر مغبون ؛ هلا كانت هذه الأشجان عن سماع القرآن ؟ وهذه الأذواق والمواجيد عند قراءة القرآن المجيد ؟ وهذه الأحوال السنيات عند تلاوة السور والآيات ؟ ولكن كل امرئ يصبوا إلى ما يناسبه ، ويميل إلى ما يشاكلة ، والجنسية علة الضم قدراً وشرعاً ، والمشاكله سبب الميل عقلاً وطبعاً ، فمن أين هذا الأخاء والنسب ؟ لولا التعلق من للشيطان بأقوى سبب ، ومن أين هذه المصالحة التي أوقعت في عقد الإيمان وعهد الرحمن خلا ؟ ﴿ أفستخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً ﴾^(١) .

ولقد أحسن القائل :

لكنه إطراق ساهٍ لاهى
والله ما رقصوا لأجل الله
فمتى رأيت عبادة بملاهى ؟
تقييده بأوامر ونواهى
زجراً وتخويفاً بفعل مناهى
شهواتها ، يابجها المتناهى
فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه
أسبابه ، عند المجهول الساهى ؟
خمر العقول مماثل ومضاهى
وانظر إلى النسوان عند ملاهى
من بعد تمزيق الفؤاد اللاهى
ـريم ، والتأثيم عند الله ؟

تلى الكتاب ، فأطرقوا ، لا خيفة
وأبى الغناء ، فكالحمير تناهقوا
دف ، ومزمار ، ونغمة شادين
ثقل الكتاب عليهم لما رأوا
سمعوا له رعداً وبرقاً ، إذ حوى
ورأوه أعظم قاطع للنفس عن
وأبى السماع موافقاً أغراضها
أبى المساعد للهوى من قاطع
إن لم يكن خمر الجسوم ، فإنه
فانظر إلى النسوان عند شرابه
وانظر إلى تمزيق ذا أثوابه
واحكم فأى الخمرتين أحق بالتحـ

ويقول ابن القيم :

ولم يزل أنصار الإسلام وأئمة الهدى تصيح بهؤلاء من أقطار الأرض وتحذر من سلوك سبيلهم ، واقتفاء آثارهم من جميع طوائف الملة .

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي في خطبه كتابه ، في تحريم السماع : الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، ونسأله أن يرينا الحق حقاً فنتبعه ، والباطل باطلاً فنجتنبه ، وقد كان الناس فيما مضى يتستر أحدهم بالمعصية إذا واقعها ، ثم يستغفر الله ويتوب إليه منها ، ثم كثر الجهل وقل العلم ، وتناقص الأمر ، حتى صار أحدهم يأتي المعصية جهاراً ، ثم ازداد الأمر إدباراً ، حتى بلغنا أن طائفة من إخواننا المسلمين ، وفقنا الله وإياهم ، استزلهم الشيطان واستغوى عقولهم في حب الأغاني واللهو ، وسماع الطقطقة والنقير ، واعتقدته من الدين الذي يقربهم إلى الله ، وجاهرت به جماعة المسلمين ، وشاقت سبيل المؤمنين ، وخالفت الفقهاء والعلماء وحملة الدين :

﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾^(١) .

فرايت أن أوضح الحق ، وأكشف عن شبه أهل الباطل بالحجج التي تضمنها كتاب الله وسنة رسوله ، وأبدأ بذكر أقاويل العلماء ، الذين تدور الفتيا عليهم في أقاصى الأرض ودانيتها ، حتى تعلم هذه الطائفة ، أنها قد خالفت علماء المسلمين في بدعتها ، والله ولى التوفيق .

فتاوى الأئمة الأربعة في الغناء

ثم قال : أما مالك فإنه نهى عن الغناء ، وعن استماعه ، وقال : إذا اشترى جارية فوجدتها مغنية ، كان له أن يردّها بالعيب .

وسئل مالك رحمه الله : عما يرخص فيه أهل المدينة من الغناء ؟ فقال : إنما يفعله عندنا الفساق .

قال : وأما أبو حنيفة : فإنه يكره الغناء ، ويجعله من الذنوب . قلت : مذهب أبي حنيفة في ذلك من أشد المذاهب ، وقوله فيه أغلظ الأقوال ، وقد صرح أصحابه بتحريم سماع الملاحى كلها ،

(١) النساء : آية ١١٥ .

كالزمار ، والدفع ، حتى الضرب بالقضيب ، وصرحوا بأنه معصية يوجب الفسق وترد به الشهادة ، وأبلغ من ذلك أنهم قالوا : إن السماع فسق ، والتلذذ به كفر ، هذا لفظهم ، ورووا في ذلك حديثًا لا يصح رفعه .

قالوا : ويجب عليه أن يجتهد في أن لا يسمعه إذا مر به أو كان في جواره .

وقال أبو يوسف في دار يسمع منها صوت المعازف والملاهي : أدخل عليه بغير إذنهم ، لأن النهي عن المنكر فرض ، فلو لم يجز الدخول بغير إذن لامتنع الناس من إقامة الفرض .

قالوا : ويتقدم إليه الإمام ، إذا سمع من داره ، فإن أصر حبسه أو ضربه سيأطأ ، وإن شاء أزعجه عن داره .

وأما الشافعي : فقال في كتاب أدب القضاء : إن الغناء هو مكروه ، يشبه الباطل والمحال ، ومن استكثر منه فهو سفيه ، ترد شهادته ، وصرح أصحابه العارفون بمذهبه بتحريمه ، وأنكروا على من نسب إليه حله ، كالقاضي أبي الطيب الطبري ، والشيخ أبي إسحاق ، وابن الصباغ .

قال الشيخ أبو إسحاق في التنبيه : ولا تصح ، يعنى الإجارة ، على منفعة محرمة ، كالغناء والزمر وحمل الخمر ، ولم يذكر فيه خلافاً . فقد تضمن كلام الشيخ أموراً :

أحدهما : أن منفعة الغناء بمجرد منفعة محرمة .

الثاني : أن الاستعجار عليها باطل .

الثالث : أن أكل المال به ، أكل مال بالباطل بمنزلة أكله عوضاً عن الميتة والدم .

الرابع : أنه لا يجوز للرجل بذل ماله للمغنى ، ويحرم عليه ذلك ، فإنه بذل ماله في مقابلة محرم ، وأن بذله في ذلك كبذله في مقابلة الدم والميتة .

الخامس : أن الزمر حرام ، وإذا كان الزمر ، الذى هو أخف آلات اللهو حراماً ، فكيف بما هو أشد منه ؟ كالعود ، والطنبور ، واليراع ، ولا ينبغي لمن شم رائحة العلم أن يتوقف في تحريم ذلك ، فأقل ما فيه : أنه من شعار الفساق وشاربى الخمر .

وكذلك قال أبو زكريا النووي في روضته :

القسم الثاني : أن يغنى ببعض آلات الغناء ، بما هو من شعار شاربي الخمر ، وهو مطرب كالطنبور والعود والعنبج ، وسائر المعازف والأوتار ، يحرم استعماله واستماعه . قال : وفي اليراع وجهان ، صحح البغوى التحريم .

ثم ذكر عن الغزالي الجواز . قال : والصحيح تحريم اليراع وهو الشبابة ، وقد حكى أبو عمرو ابن الصلاح الإجماع على تحريم السماع الذى جمع الدف والشبابة والغناء ، فقال في فتاويه :

وأما إباحة هذا السماع وتحليله ، فليعلم أن الدف والشبابة والغناء ، إذا اجتمعت فاستماع ذلك حرام عند أئمة المذاهب وغيرهم من علماء المسلمين ، ولم يثبت عن أحد ممن يعتد بقوله فى الإجماع والاختلاف ، أنه أباح هذا السماع ؛ والخلاف المنقول عن بعض أصحاب الشافعى ، إنما نقل فى الشبابة منفردة ، والدف منفرداً ، فمن لا يحصل أولاً يتأمل ربما اعتقد خلافاً بين الشافعيين فى هذا السماع الجامع لهذه الملاهى ، وذلك وهم بين الصائري إليه ؛ تنادى عليه أدلة الشرع والعقل ، مع أنه ليس كل خلاف يعتمد عليه ، ومن تتبع ما اختلف فيه العلماء ، وأخذ بالرخص فى أقاويلهم تزندق أو كاد .

قال : وقولهم فى السماع المذكور : أنه من القربات والطاعات ، قول مخالف لإجماع المسلمين ، ومن خالف إجماعهم فعليه ما فى قوله تعالى : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ ^(١) .

وقد تواتر عن الشافعى أنه قال : خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة ، يسمونه التغير ، يصدون به الناس عن القرآن .

فإذا كان هذا قوله فى التعبير ، وتعليقه أنه يصد عن القرآن ، وهو شعر يزهد فى الدنيا ، يغنى به مغن ، فيضرب بعض الحاضرين بقضيب على نطع أو مخدة على توقيع غنائه ، فليت شعري ما يقول فى سماع التغير عنده كنفلة فى بحر ، قد اشتمل على كل مفسدة ، وجمع كل حرام ، فالله بين دينه وبين كل متعلم مفتون وعابد جاهل .

قال سفيان بن عيينة : كان يقال : احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون .

(١) النساء : آية ١١٥ .

ومن تأمل الفساد الداخل على الأمة وجده من هذين المفتونين .

وأما مذهب الإمام أحمد فقال عبد الله ابنه : سألت أبا عن الغناء ؟ فقال : الغناء ينبت النفاق في القلب ، لا يعجبني . ثم ذكر قول مالك : إنما يفعله عندنا الفساق

ونص على كسر آلات اللهو كالطنبور وغيره ، إذا رآها مكشوفة وأمكنه كسرها ، وعنه في كسرها إذا كانت مغطاة تحت ثيابه وعلم بها روايتان منصوصتان .

ونص في أيتام ورثوا جارية مغنية ، وأرادوا بيعها فقال : لا تباع إلا على أنها ساذجة ، فقالوا : إذا بيعت مغنية ساوت عشرين ألفاً ونحوها ، وإذا بيعت ساذجة لا تساوي ألفين . فقال : لا تباع إلا على أنها ساذجة .

ولو كانت منفعة الغناء مباحة لما فوت هذا المال على الأيتام .

سماع الأغاني من المرأة من أعظم المحرمات

وأما سماعه من المرأة الأجنبية أو الأمرد ، فمن أعظم المحرمات وأشدّها فساداً للدين .

قال الشافعي رحمه الله : وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها ، فهو سفيه تردّ شهادته ، وأغلظ القول فيه ، وقال : هو دياثة ، فمن فعل ذلك كان ديوثاً .

قال القاضي أبو الطيب : وإنما جعل صاحبها سفيهاً ، لأنه دعا الناس إلى الباطل ، ومن دعا الناس إلى الباطل كان سفيهاً فاسقاً .

قال : وكان الشافعي يكره التغبير ، وهو الطقطقة بالقضيب ، ويقول : وضعته الزنادقة ليشغلوا به عن القرآن

شبهات والرد عليها

قال العلامة ابن القيم في كتابه (مدارج السالكين)

ومن أعجب العجائب : استدلال من استدل على أن هذا السماع من طريق القوم ، وأنه مبلح : بكونه مستلذاً طبعاً ، تلذه النفوس ، وتستروح إليه ، وأن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب ، والجمل يقاسى تعب السير ومشقة الحمولة ، فيهون عليه بالحُداء ، وبأن الصوت الطيب نعمة من الله على صاحبه ، وزيادة في خلقه ، وبأن الله ذم الصوت الفظيع ، فقال : ﴿ **إن أنكر الأصوات لصوت الحمير** ﴾^(١) . وبأن الله وصف نعيم أهل الجنة ، فقال فيه : ﴿ **فهم في روضة يحبرون** ﴾^(٢) . وإن ذلك هو السماع الطيب ، فكيف يكون حراماً ، وهو في الجنة ؟ وبأن الله تعالى ما أذن لشيء كأذنه — أى كاستماعه — لنبي حسن الصوت يتغنّى بالقرآن ، وبأن أبا موسى الأشعري استمع النبي ﷺ إلى صوته ، وأثنى عليه بحسن الصوت ، وقال : « **لقد أوتى مزماراً من مزامير آل داود** »^(٣) . أى زينته لك وحسنه . وبقوله ﷺ « **زينوا القرآن بأصواتكم** »^(٤) . وبقوله ﷺ « **ليس منا ما لم يتغن بالقرآن** »^(٥) . والصحيح : أنه من التغنّى بمعنى تحسين الصوت . وبذلك فسد الإمام أحمد رحمه الله ، فقال يحسنه بصوته ما استطاع . وبأن النبي ﷺ أقر عائشة على غناء القيتين يوم العيد . وقال لأبي بكر : « **دعهما . فإن لكل قوم عيداً . وهذا عيدنا أهل الإسلام** »^(٦) .

وبأنه ﷺ أذن في العرس في الغناء وسماه لهواً . وقد سمع رسول الله ﷺ الحُداء . وأذن فيه . وكان يسمع أنسا والصحابة وهم يرتجزون بين يديه في حفر الخندق :
نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً
ودخل مكة والمرتجز يرتجز بين يديه بشعر عبد الله بن رواحة . وحدا به الحادى في منصرفه من خبير . فجعل يقول :

والله لولا الله ما لفقدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكيناً علينا	وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الذين قد بغوا علينا	إذا أرادوا فتنة أبينا
ونحن إن صيح بنا أتينا	وبالصياح غولوا علينا

ونحن عن فضلك ما استغنيا

(١) لقمان : آية ١٩ .

(٢) الروم : آية ١٥ .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين » باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن ح ١ ص ٥٤٦ ، حديث رقم

٧٩٣/٢٣٦ .

(٤) انظر سند أبى داود كتاب الصلاة من باب استحباب الترتيل في القراءة ح ٢ ص ٥٥٥ رقم ١٤٦٨ .

(٥) انظر سنن أبى داود كتاب الصلاة من باب استحباب الترتيل في القراءة ح ٢ ص ١٥٦ رقم ١٤٦٩ .

(٦) انظر سند الإمام أحمد ح ٦ ص ١٨٦ — ١٨٧ .

فدعا لقائله :

وسمع قصيدة كعب بن زهير . وأجازه بيرده .

واستنشد الأسود بن سريع قصائده حمد بها ربه .

واستنشد من شعر أمية بن أبي الصلت مائة قافية .

وأنشده الأعشى شيئاً من شعره فسمعه .

وصدق لبدا في قوله : الاكل شيء ما خلا الله باطل .

ودعا لحسان « أن يؤيده الله بروح القدس ما دام ينافح عنه » وكان يعجبه شعره . وقال له

« اهجهم . وروح القدس معك »^(٥) .

وأنشدته عائشة قول أبي كبير الهذلي :

ومبرا من كل غبر حـيـضه	وفساد مرضعة وداء مُغـيـل
وإذا نظرت إلى أسيرة وجهه	برقت كبرق العارض المتهلل

وقالت « أنت أحق بهذا البيت » فسرّ بقولها .

وبأن ابن عمر رضی الله عنهما رخص فيه ، وعبد الله بن جعفر ، وأهل المدينة وبأن كذا وكذا وليا لله حضروه وسمعوه ، فمن حرمه فقد قدح في هؤلاء السادة القدوة الأعلام .

وبأن الإجماع منعقد على إباحة أصوات الطيور المطربة الشجية ، فلذة سماع صوت آدمي أولى بالإباحة ، أو مساوية .

وبأن السماع يحدد روح السامع وقلبه إلى نحو محبوبه ، فإن كان محبوبه حراماً كان السماع معيئاً له على الحرام ، وإن كان مباحاً كان السماع في حقه مباحاً ، وإن كانت محبته رحمانية كان السماع في حقه قرينة وطاعة ، لأنه يحرك المحبة الرحمانية ويقويها ويهيئها .

وبأن التذاذ الأذن بالصوت الطيب ، كالتذاذ العين بالمنظر الحسن ، والشم بالروائح الطيبة ، والفم بالطعوم الطيبة ، فإن كان هذا حراماً كانت جميع هذه اللذات والإدراكات محرمة .

فالجواب :

إن هذه حَيِّدة عن المقصود ، وروغان عن محل النزاع ، وتعلق بما لا متعلق به ، فإن جهة كون الشيء مستلذاً للحاسة ملائماً لها ، لا يدل على إباحته ولا تحريمه ، ولا كراهته ولا استحبابه ، فإن هذه اللذة تكون فيما فيه الأحكام الخمسة ، تكون في الحرام ، والواجب ، والمكروه ، والمستحب ، والمباح ، فكيف يستدل بها على الإباحة من يعرف شروط الدليل ، ومواقع الاستدلال ؟ .

وهل هذه إلا بمنزلة من استدل على إباحة الزنا بما يجده فاعله من اللذة ، وأن لذته لا ينكرها من له طبع سليم ، وهل يستدل بوجود اللذة والملازمة على حل اللذيذ الملائم أحد ؟ وهل خلت غالب المحرمات من اللذات ؟ وهل أصوات المعازف التي صح عن النبي ﷺ تحريمها ، وأن في أمته من سيستحلها بأصح إسناد ، وأجمع أهل العلم على تحريمها ، إلا لذية تلد السمع ؟ وهل في التذاذ الجمل والطفل بالصوت الطيب دليل على حكمه : من إباحة أو تحريم .

وأعجب من هذا : الاستدلال على الإباحة بأن الله خلق الصوت الطيب ، وهو زيادة نعمة منه لصاحبه .

فيقال : والصورة السنة الجميلة ، أليست زيادة في النعمة ، والله خالقها ومعطى حسناتها ؟ أفيدل ذلك على إباحة التمتع بها ، والالتذاذ على الإطلاق بها ؟

وهل هذا إلا مذهب أهل الإباحة الجارين مع رسوم الطبيعة ؟ وهل في ذم الله لصوت الحمار ، ما يدل على إباحة الأصوات المطربات بالنغمات الموزونات ، والألحان اللذيات ، من الصور المستحسنات ، بأنواع القصائد المنغمات ، بالدفوف والشبابات ؟!

وأعجب من هذا : الاستدلال على الإباحة بسماع أهل الجنة ، وما أجدر صاحبه أن يستدل على إباحة الخمر ، بأن في الجنة خمراً ، وعلى حل لباس الحرير ، بأن لباس أهلها حرير ، وعلى حل أواني الذهب والفضة والتحلي بهما للرجال ، بكون ذلك ثابتاً وجود النعيم به في الجنة .

فإن قال : قد قام الدليل على تحريم هذا ، ولم يقم على تحريم السماع ، قيل : هذا استدلال آخر غير الاستدلال بإباحته لأهل الجنة ، فعلم أن استدلالكم بإباحته لأهل الجنة استدلال باطل ، لا يرضى به محصل .

وأما قولكم : « لم يقم دليل على تحريم السماع »

فيقال لك : أى السماعات تغنى ؟ وأى المسموعات تريد ؟ . فالسماعات والمسموعات ، منها المحرم ، والمكروه ، والمباح ، والواجب والمستحب ، فعين نوعاً يقع الكلام فيه نفياً وإثباتاً .

فإن قلت : سماع القصائد ، قيل لك : أى القصائد تعنى ؟ ما مُدح به الله ورسوله ودينه وكتابه ، وهجى به أعداؤه ؟ . فهذه لم يزل المسلمون يروونها ويسمعونها ويتدرسونها ، وهى التى سمعها رسول الله ﷺ وأصحابه وأئاب عليها ، وحرص حسناً عليها ، وهى التى غرت أصحاب السماع الشيطاني فقالوا : تلك قصائد ، وسماعنا قصائد ، فنعم إذن ، والسنة كلام ، والبدعة كلام ، والتسبيح كلام ، والغنية كلام ، والدعاء كلام ، والقذف كلام ، ولكن هل سمع رسول الله ﷺ وأصحابه سماعكم هذا الشيطاني المشتمل على أكثر من مفسدة مذكورة فى غير هذا الموضع ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى بعضها ؟

ونظير هذا : ما غرهم من استحسانه ﷺ الصوت الحسن بالقرآن ، وأذنه له ، وإذنه فيه ، ومحبة الله له ، فنقلوا هذا الاستحسان إلى صوت النسوان والمردان وغيرهم ، بالغناء المقرون بالمعازف والشاهد ، وذكر القُد والنهد والخصر ، ووصف العيون وفعلها ، والشعر الأسود ، ومحاسن الشباب ، وتوريد الحدود ، وذكر الوصل والصد ، والتجنى والهجران ، والعتاب والاستعطاف ، والاشتياق ، والقلق والفراق ، وما جرى هذا المجرى ، مما هو أفسد للقلب من شرب الخمر ، بما لا نسبة بينهما ، وأى نسبة لمفسدة سكر يوم ونحوه ، إلى سكرة العشق التى لا يستفيق الدهر صاحبها ، إلا فى عسكر الهالكين ، سليماً حريماً ، أسيراً قتيلاً ؟ .

وهل تقاس سكرة الشراب بسكرة الأرواح بالسماع ؟ وهل يظن بحكيم أن يحرم أضعاف مفسدة الشراب ؟ حاشا أحكم الحاكمين .

فإن نازعوا فى سكر السماع ، وتأثيره فى العقول والأرواح : خرجوا عن الذوق والحس ، وظهرت مكابرة القوم ، فكيف يحمى الطبيب المريض عما يشوش عليه صحته ، ويسبب له ما فيه أعظم السقم ؟ والمنصف يعلم أن لا نسبة بين سقم الأرواح بسكر الشراب ، وسقمها بسكر السماع ، وكلامنا مع واجد لا فاقد ، فهو المقصود بالخطاب .

وأعجب من هذا : استدلالكم على إباحة السماع — المركب مما ذكرنا من الهيئة الاجتماعية — بغناء بنتين صغيرتين دون البلوغ ، عند امرأة صبية فى عيد وفرح ، وأبيات من أبيات العرب ، فى وصف الشجاعة والحروب ، ومكارم الأخلاق والشيم ، فأين هذا من هذا ؟

والعجب أن هذا الحديث من أكبر الحجج عليهم ، فإن الصديق رضى الله عنه سمي ذلك « مزموراً من مزامير الشيطان » وأقره رسول الله ﷺ على هذه التسمية ، ورخص فيه لجويرتين غير مكلفتين ، ولا مفسدة في إنشادهما ولا استماعهما ، أفيدل هذا على إباحة ما تعملونه وتعلمونه من السماع المشتمل على ما لا يخفى ؟ فياسبحان الله ! كيف ضلت العقول والأفهام ؟

وأعجب من هذا كله : الاستدلال على إباحته بما سمعه رسول الله ﷺ من الهداء المشتمل على الحق والتوحيد ؟ وهل حرم أحد مطلق الشعر ، وقوله واستماعه ؟ فكم في هذا التعلق ببيوت العنكبوت ؟

وأعجب من هذا : الاستدلال على إباحته بإباحة أصوات الطيور اللذيذة ، وهل هذا إلا من جنس قياس الذين قالوا : ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ ^(١) . وأين أصوات الطيور إلى نغمات الغيد الحسان والأوتار والعيدان ، وأصوات أشباه النساء من المردان والغناء ، بما يحدو الأرواح والقلوب ، إلى مواصلة كل محبوبة ومحبوب ؟ وأين الفتنة بهذا إلى الفتنة بصوت القمري والبلبل والحفراز ونحوها ؟ بل تقول : لو كانا سواء ، لكان اتخاذ هذا السماع قرينة وطاعة ، تستنزل به المعارف والأذواق والمواجيد ، وتحرك به الأحوال بمنزلة التقرب إلى الله بأصوات الطيور ومعاذ الله أن يكونا سواء .

والذى يفصل النزاع في حكم هذه المسألة : ثلاث قواعد ، من أهم قواعد الإيمان والسلوك ، فمن لم يين عليها فبناؤه على شفا جرف هار .

القاعدة الأولى :

إن الذوق والحال والوجد : هل هو حاكم أو محكوم عليه ، فيحكم عليه بحاكم آخر ، ويتحاكم إليه ؟

فهذا ينشأ ضلال من ضل من المفسدين لطريق القوم الصحيحة ، حيث جعلوه حاكماً ، فتحاكموا إليه فيما يسوغ ويمتنع ، وفيما هو صحيح وفاسد ، وجعلوه محكماً للحق والباطل ، فنبذوا لذلك موجب العلم والنصوص ، وحكموا فيها بالأذواق والأحوال والمواجيد ، فعظم الأمر ، وتفاقم الفساد والشر ، وطمست معالم الإيمان والسلوك المستقيم ، وانعكس السير ، وكان إلى الله ، فصيره إلى النفوس ، فالناس المحجوبون عن أذواقهم يعبدون الله ، وهؤلاء يعبدون أنفسهم ...

(١) البقرة : آية ٢٧٥ .

فليتدبر اللبيب هذا الموضع في نفسه وفي غيره ، فكل ما خالف مراد الله الديني من العبد ، فهو حظه وشهوته ، مالا كان ، أو رياسة ، أو صورة ، أو حالاً ، أو ذوقاً ، أو وجداً .

تحكيم الوحي :

وهذا سيد أهل الأذواق والمواجيد ، والكشوف والأحوال ، من هذه الأمة المحدث المكاشف — عمر رضى الله عنه — لا يلتفت إلى ذوقه ووجدته ومخاطباته في شيء من أمور الدين ، حتى ينشد عنه الرجال والنساء والأعراب ، فإذا أخبروه عن رسول الله ﷺ بشيء ولم يلتفت إلى ذوقه ، ولا إلى وجدته وخطابه ، بل يقول « لو لم نسمع بهذا لقضينا بغيره » ويقول : « يأبىها الناس ، رجل أخطأ وامرأة أصابت » فهذا فعل الناصح لنفسه وللأمة رضى الله عنه ، ليس كفعل من غش نفسه والدين والأمة .

القاعدة الثانية :

إنه إذا وقع النزاع في حكم من الأفعال ، أو حال من الأحوال ، أو ذوق من الأذواق ، هل هو صحيح أو فاسد ؟ وحق أو باطل ؟ وجب الرجوع فيه إلى الحجة المقبولة ، عند الله ، وعند عباده المؤمنين ، وهى وحىه الذى تتلقى أحكام النوازل والأحوال والواردات منه ، وتعرض عليه وتوزن به ، فما زكاه منها وقبله ورجحه وصححه فهو المقبول ، وما أبطله وردده فهو الباطل المردود ، ومن لم يبين على هذا الأصل علمه وسلوكه وعمله ؛ فليس على شيء من الدين ، وإن . وإن ، وإنما معه خدع وغرور ﴿ كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا . ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾ (١) .

القاعدة الثالثة :

إذا شكك على الناظر أو السالك حكم شيء ، هل هو الإباحة أو التحريم ؟ فلينظر إلى مفسدته وثمرته وغايته ، فإن كان مشتملاً على مفسدة راجحة ظاهرة ، فإنه يستحيل على الشارع الأمر به أو إباحته ، بل العلم بتحريمه من شرعه قطعى ، ولا سيما إذا كان طريقاً مفضياً إلى ما يغضب الله ورسوله ، موصلاً إليه عن قرب ، وهو رقية له ورائد وبريد ، فهذا لا يشك في تحريمه أولو البصائر .

فكيف يظن بالحكيم الخبير أن يحرم مثل رأس الإبرة من المسكر ، لأنه يسوق النفس إلى السكر ، الذى يسوقها إلى المحرمات ثم يبيح ما هو أعظم منه سوقاً للنفس إلى الحرام بكثير ؟ فإن الغناء — كما قال ابن مسعود رضى الله عنه : هو « رقية الزنا » وقد شاهد الناس أنه ما عاناه صبي إلا وفسد ، ولا امرأة إلا وبغت ، ولا شاب إلا وإلا ، ولا شيخ إلا وإلا ، والعيان من ذلك يغنى عن البرهان ، ولا سيما إذا جمع هيئة تحذو النفوس أعظم حدو إلى المعصية والفجور ، بأن يكون على الوجه الذى ينبغي لأهله ، من المكان والإمكان ، والعشراء والإخوان ، وآلات المعازف ، من البراع والدف والأوتار والعيدان ، وكان القوال شاذاً شجى الصوت ، لطيف الشمائل من المردان أو النسوان ، وكان القول فى العشق والوصال ، والصد والهجران .

ما جاء فى الشرع من أسماء السماع الشيطاني المضاد للسماع الرحمانى

قال ابن القيم : « هذا السماع الشيطاني المضاد للسماع الرحمانى له فى الشرع بضعة عشر اسماً :

اللهو ، واللغو ، والباطل ، والزور ، والمكاء ، والتصدية ، ورقية الزنا ، وقرآن الشيطان ، ومنبت النفاق فى القلب ، والصوت الأحق ، والصوت الفاجر ، وصوت الشيطان ، ومزمور الشيطان ، والسمود .

أسماءه دلت على أوصافه ————— تباً لذى الأسماء والأوصاف

فذكر مخازى هذه الأسماء ، ووقعها عليه فى كلام الله ، وكلام رسوله والصحابة ، ليعلم أصحابه وأهله بما به ظفروا ، وأى تجارة رابحة خسروا :

وما اختاره عن طاعة الله مذهباً
على تاتنا يحيا ويعت أشيئاً
إلى الجنة الحمراء ، يدعى مقرباً
أضاع ، وعند الوزن ما خف أو ربا
إذا حصلت أعماله كلها هباً
فقال لداعى الغنى : أهلاً ومرحباً
هواى إلى صوت المعازف قد صبا

فدع صاحب الزمار ، والدف ، والغنا
ودعه يعش فى غيّه وضلاله
وفى تتنا يوم المعاد نجاته
سيعلم . يوم العرض أى بضاعة
ويعلم ما قد كان فيه حياته
دعاه الهدى والغنى من ذا يجيبه ؟
وأعرض عن داعى الهدى ، قائلاً له :

فلاسم الأول : اللهو ، (هو الحديث)

قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يشتري هو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ، وإذا تلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ﴾^(١) .

.. قال الواحدى وغيره : أكثر المفسرين : على أن المراد بلهو الحديث : الغناء ..

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد : هو اشتراء المغنى والمغنية بالمال الكثير ، والاستماع إليه وإلى مثله من الباطل ، وهذا قول مكحول ، وهذا اختيار أبى إسحاق أيضا .

وقال : أكثر ما جاء فى التفسير : أن هو الحديث ههنا هو الغناء ، لأنه يلهى عن ذكر الله تعالى .

قال الواحدى : وهذه الآية على هذا التفسير تدل على تحريم الغناء — ثم ذكر كلام الشافعى فى رد الشهادة بإعلان الغناء ، قال : وأما غناء الفتيات ، فذلك أشد ما فى الباب ، وذلك لكثرة الوعيد الوارد فيه ، وهو ما روى أن النبى ﷺ قال : « من استمع إلى قينة صُب فى أذنيه الآنك يوم القيامة »^(٢) . والآنك : الرصاص المذاب .

وقد جاء تفسير هو الحديث بالغناء مرفوعا إلى النبى ﷺ فى سند الإمام أحمد ، وسند الحميدى ، وجامع الترمذى من حديث أبى أمامة والسياق للترمذى : أن النبى ﷺ قال : « لا تبيعوا المغنيات ، ولا تشتروهن ، ولا تعلموهن ولا خير فى تجارة فيهن وثمنهن حرام »^(٣) .

فى مثل هذا نزلت هذه الآية :

﴿ ومن الناس من يشتري هو الحديث ليضل عن سبيل الله ﴾ .

وهذا الحديث وإن كان مداره على عبيد الله بن زجر عن على بن يزيد الإهالى عن القاسم ،

(١) لقمان : الآيتان ٦ ، ٧ .

(٢) انظر تفسير القرطبى « تفسير سورة لقمان ح ١٤ ص ٥٣ فقد ورد الحديث بلفظه .

(٣) أخرجه أحمد ح ٥ ص ٢٦٤ .

فعبید الله بن زحر ثقة ، والقاسم ثقة ، وعلى ضعيف ، إلا أن للحديث شواهد ومتابعات سندكرها
إن شاء الله تعالى ، ويكفى تفسير الصحابة والتابعين للهو الحديث بأنه الغناء ، فقد صح ذلك عن ابن
عباس وابن مسعود .. وصح عن ابن عمر رضى الله عنهما أيضا أنه الغناء .

ولا تعارض بين تفسير « هو الحديث » بالغناء ، وتفسيره بأخبار الأعاجم وملوكها وملوك الروم ،
ونحو ذلك مما كان النضر بن الحارث يحدث به أهل مكة ، يشغلهم به عن القرآن ، فكلاهما هو الحديث ،
ولهذا قال ابن عباس : هو الحديث : الباطل والغناء . فمن الصحابة من ذكر هذا ، ومنهم من ذكر
الآخر ، ومنهم من جمعهما .

إذا عرف هذا ، فإهل الغناء ومستمعوه لهم نصيب من هذا الذم بحسب اشتغالهم بالغناء عن القرآن
وإن لم ينالوا جميعه . فإن الآيات تضمنت ذم من استبدل هو الحديث بالقرآن ، ليضل عن سبيل الله
بغير علم ويتخذها هزوا . وإذا يتلى عليه القرآن ولى مستكبرا كأن لم يسمعه ، كأن فى أذنيه وقرا ،
وهو الثقل والصمم ، وإذا علم منه شيئا استهزأ به ، فمجموع هذا لا يقع إلا من أعظم الناس كفرا ،
وإن وقع بعضه للمغنين ومستمعينهم فلهم حصه ونصيب من هذا الذم .

يوضحه أنك لا تجد أحدا عنى بالغناء وسماع آلاته ، إلا وفيه ضلال عن طريق الهدى علما
وعملا ، وفيه رغبة عن استماع القرآن إلى استماع الغناء ، بحيث إذا عرض له سماع الغناء وسماع القرآن ،
عدل عن هذا إلى ذاك ، وثقل عليه سماع القرآن وربما حمله الحال على أن يسكت القارئ ، ويستطيل
قراءته ، ويستزيد المغنى ، ويستقصر نوبته .

والكلام فى هذا مع من فى قلبه بعض حياة يحس بها ، فإما من مات قلبه ، وعظمت فتنته ،
فقد سد على نفسه طريق النصيحة . ﴿ ومن يرد الله فتنه فلن تملك له من الله شيئا ، أولئك الذين
لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزي ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾^(١) .

الاسم الثانى والثالث : الزور ، واللغو .

قال تعالى : ﴿ والذين لا يشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾^(٢) .

(١) المائدة : آية ٤١ .

(٢) الفرقان : آية ٧٢ .

قال محمد بن الحنفية : الزور ههنا الغناء ، وقاله ليث عن مجاهد : وقال الكلبي : لا يحضرون مجالس الباطل .

قال الزجاج : لا يجالسون أهل المعاصي ، ولا يماثلونهم عليها ، ومروا من الكرام ، الذين لا يرضون باللغو ، لأنهم يكرمون أنفسهم عن الدخول فيه ، والاختلاط بأهله .

وقد أثنى الله سبحانه على من أعرض عن اللغو إذا سمعه بقوله : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾^(١) .

وقال ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾^(٢) .

وتأمل كيف قال سبحانه ﴿ لَا يَشْهَدُونَ الزُّور ﴾ ولم يقل بالزور ، لأن (يشهدون) بمعنى يحضرون . فمدحهم على ترك حضور مجالس الزور ، فكيف بالشكلم به وفعله ؟ والغناء من أعظم الزور . والزور : يقال على الكلام الباطل ، وعلى العمل الباطل ، وعلى العين نفسها ، كما في حديث معاوية لما أخذ قصة من شعر يوصل به ، فقال « هذا الزور » فالزور : القول ، والفعل ، والمحل .

وأصل اللفظة من الميل ، ومنه الزور ، بالفتح ، ومنه : زرت فلاناً إذا ملت إليه ، وعدلت إليه ، فالزور : ميل عن الحق الثابت إلى الباطل ، الذي لا حقيقة له قولاً وفعلًا .

الاسم الرابع : الباطل .

والباطل : ضد الحق . قال ابن وهب : أخبرني سليمان بن بلال عن كثير بن زيد ، أنه سمع عبيد الله يقول للقاسم بن محمد كيف ترى في الغناء ؟ فقال له القاسم : هو باطل ، فقال : قد عرفت أنه باطل ، فكيف ترى فيه ؟ فقال القاسم : رأيت الباطل ، أين هو ؟ قال : في النار ، قال : فهو ذاك .

وقال رجل لابن عباس رضي الله عنهما : ما تقول في الغناء ، أحلال هو أم حرام ؟ فقال :

(١) القصص : آية ٥٥ .

(٢) المؤمنون : الآيات ١ - ٣ .

لا أقول ذلك . ثم قال له : أرأيت الحق والباطل ، إذا جاء يوم القيامة : فأين يكون الغناء ؟ فقال الرجل : يكون مع الباطل ، فقال له ابن عباس ، اذهب فقد افريت نفسك .

فهذا جواب ابن عباس رضي الله عنهما عن غناء الأعراب ، الذي ليس فيه مدح الخمر والزنا واللواط ، والتشبيب بالأجنبيات ، وأصوات المعازف ، والآلات المطربات ، فإن غناء القوم لم يكن فيه شيء من ذلك ، ولو شاهدوا هذا الغناء ، لقالوا فيه قول ، فإن مضرت وفتنته فوق مضرة شرب الخمر بكثير ، وأعظم من فتنته .

فمن أبطل الباطل أن تأتي شريعة بإباحته ، فمن قاس هذا على غناء القوم ، فقياسه من جنس قياس الربا على البيع والميتة على المذكاة ، والتحليل للملعون فاعله على النكاح ، الذي هو سنة رسول الله ﷺ .

وأما اسم المكاء والتصدية

فقال تعالى عن الكفار :

﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ﴾^(١) .

قال ابن عباس ، وابن عمر ، وعطية ، ومجاهد ، والضحاك ، والحسن وقتادة : المكاء : الصغير ، والتصدية : التصفيق .

قال ابن عباس : كانت قريش يطوفون بالبيت عراة ، ويصفرون ويصفقون .

قال ابن عرفة ، وابن الانباري : المكاء والتصدية ليسا من الصلاة ، ولكن الله تعالى أخبر أنهم جعلوا مكان الصلاة التي أمروا بها المكاء والتصدية ، فألزمهم ذلك عظيم الأوزار .

والمقصود : أن المصفقين والصفارين في يراع أو مزمار ونحوه ، فيهم شبه من هؤلاء ، ولو أنه مجرد الشبه الظاهر ، فلهم قسط من الذم بحسب تشبههم بهم ، وإن لم يتشبهوا بهم في جميع مكائهم وتصديتهم ، والله سبحانه لم يشرع التصفيق للرجال وقت الحاجة إليه في الصلاة إذا نابهم أمر ، بل

(١) الأنفال : آية ٣٥ .

أمروا بالعدل عنه إلى التسبيح ، لئلا يتشبهوا بالنساء ، فكيف إذا فعلوه لا حاجة ، وقرنوا به أنواعاً من المعاصي قولا وفعلًا ؟ .

وأما تسميته رقية الزنا

فهو اسم موافق لمسماه ، ولفظ مطابق لمعناه ، فليس في رقى الزنى أنجح منه ، وهذه التسمية ، معروفة عن الفضيل بن عياض . قال ابن أبي الدنيا : أخبرنا الحسين بن عبد الرحمن ، قال : قال الفضيل بن عياض : الغناء رقية الزنا .

قال : وأخبرني محمد بن الفضل الأزدي ، قال : نزل الخطيئة برجل من العرب ومعه ابنته مليكة ، فلما جنة الليل سمع غناء ، فقال لصاحب المنزل ، كف هذا عني ، فقال : وما تكره من ذلك ؟ فقال : إن الغناء رائد من رادة الفجور ، ولا أحب أن تسمعه هذه ، يعني ابنته ، فإن كفته وإلا خرجت عنك .

فإذا كان الشاعر المفتون اللسان ، الذي هابت العزب هجاءه ، خاف عاقبة الغناء ، فما الظن بغيره ؟ ولا ريب أن كل غيور يجنب أهله سماع الغناء ، كما يجنبهن أسباب الريب ، ومن طرق أهله إلى سماع رقية الزنى ، فهو أعلم بالأثم الذي يستحقه .

ومن المعلوم عند القوم أن المرأة إذا استصعبت على الرجل ، اجتهد أن يسمعها صوت الغناء ، فحينئذ تعطى الليان . وهذا لأن المرأة سريعة الانفعال للأصوات جدًا ، فإذا كان الصوت بالغناء ، صار انفعالها من وجهين ، من جهة الصوت ، ومن جهة معناه ؛ ولهذا قال النبي ﷺ لأنجشة حاديه : « يا أنجشة ، رويدك ، رفقًا بالقوارير »^(١) عني النساء .

فأما إذا اجتمع إلى هذه الرقية الدف والشبابة ، والرقص بالتخنق والتكسر ، فلو حبلت المرأة من غناء لحبلت من هذا الغناء .

فلعمر الله ، كم من حرة صارت بالغناء من البغايا ، وكم من حر أصبح به عبدًا للصبيان أو الصبايا ، وكم من غيور تبدل به اسماً قبيحاً بين البرايا ، وكم من ذى غنى وثروة أصبح بسببه على الأرض بعد المطاف والحشايا ، وكم من معافى تعرض له فأمسى وقد حلت به أنواع البلايا ، وكم أهدى للمشغوف

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل (باب رحمة النبي ﷺ بالنساء) ح ٤ ص ١٨١١ رقم ٢٣٢٣/٧٠ .

به من أشجان وأحزان ، فلم يجد بدا من قبول تلك الهدايا ، وكم جرّع من غصة وأزال من نعمة ، وجلب من نقمة وذلك منه من إحدى العطايا ، وكم خبأ لأهله من آلام ينتظره ، وغموم متوقعة ، وهموم مستقبلية .

وأما تسميته منبت النفاق

فقال علي بن الجعد ، عن ابن مسعود رضی الله عنه قال : « الغناء ينبت النفاق في القلب » .

وهو صحيح عن ابن مسعود من قوله . وقد روى عن ابن مسعود مرفوعاً ، رواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الملاحى .

قال بسنده عن عبد الله بن مسعود رضی الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الغناء ينبت النفاق في القلب ، كما ينبت الماء البقل »^(١) ... وفي رفعه نظر والموقوف أصح .

فإن قيل : فما وجه إنباته للنفاق في القلب من بين سائر المعاصي ؟

قيل : هذا من أول شيء على فقه الصحابة في أحوال القلوب وأعمالها ، ومعرفتهم بأدويتها وأدوائها ، وأنهم هم أطباء القلوب ، دون المنحرفين عن طريقهم ، الذين داووا أمراض القلوب بأعظم أدوائها ، فكانوا كالمداوى من السقم بالسقم القاتل ، وهكذا والله فعلوا بكثير من الأدوية التي ركبوها أو بأكثرها . فاتفق قلة الأطباء ، وكثرة المرضى ، وحدثت أمراض مزمنة لم تكن في السلف ، والعدول عن الدواء النافع الذي ركب الشارع ، وميل المريض إلى ما يقوى مادة المرضى ، فاشتد البلاء وتفاقم الأمر ، وامتألت الدور ، والطرق والأسواق ، من المرضى ، وقام كل جهول يطيب الناس ، فاعلم أن للغناء خواص لها تأثير في صبغ القلب بالنفاق ، ونباته فيه كنبات الزرع في الماء .

فمن خواصه : أنه يلهى القلب ويصده عن فهم القرآن وتدبره ، والعمل بما فيه ، فإن القرآن والغناء لا يجتمعان في القلب أبدا لما بينهما من التضاد ، فإن القرآن ينهى عن اتباع الهوى ويأمر بالعفة ، ومجانبة شهوات النفوس ، وأسباب الغى ، وينهى عن اتباع خطوات الشيطان ، والغناء يأمر بضد ذلك كله ، ويحسنه ، ويهيج النفوس إلى شهوات الغى ، فيثير كامنها ، ويزعج قاطنها ، ويحركها إلى كل قبيح

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى ، ح ١٠ ص ٢٢٣ كتاب الشهوات ، باب الرجل يغنى فيتخذ الغناء صناعة يؤتى عليه ويأقن له ويكون منسوباً إليه مشهوراً به معروفاً أو المرأة .

ويسوقها إلى وصل كل مليحة ومليح ، فهو والخمر رضيعاً لبان ، وفي تهيجهما على القبائح فرسا رهان ،
فإنه صنو الخمر ورضيعه ، ونائبه وحليفه ، وخدينه وصديقه ، عقد الشيطان بينهما عقد الإخاء الذي
لا يفسخ ، وأحكم بينهما الوفاء التي لا تنسخ ، وهواجس القلب ، وسارق المروءة ، وسوس العقل ،
يتغلغل في مكامن القلوب ، ويطلع على سرائر الأفئدة ، ويدب إلى محل التخيل ، فيثير ما فيه من الهوى
والشهوة ، والسخافة والرقاعة ، والرعوننة والحماقة ، فيبنا ترى الرجل وعليه سمة الوقار ، وبهاء العقل ،
وبهجة الإيمان ، ووقار الإسلام ، وحلاوة القرآن ، فإذا استمع إلى الغناء ومال إليه ، نقص عقله ، وقل
حياؤه ، وذهبت مروءته وفارقه بهأؤه ، وتخلّى عنه وقاره ، وفرح به شيطانه ، وشكا إلى الله تعالى إيمانه ،
وثقل عليه قرآنه ، وقال : يارب لا تجمع بيني وبين قرآن عدول في صدر واحد ، فاستحسن ما كان
قبل السماع يستقبحه ، وأبدى من سره ما كان يكتمه ، وانتقل من الوقار والسكينة إلى كثرة الكلام
والكذب ، والزهزة والفرقة بالأصابع ، فيميل برأسه ، ويهز منكبيه ويضرب الأرض برجليه ، ويدق
على أم رأسه بيديه ، ويثب وثبات الذباب ، ويدور دوران الحمار حول الدولاب ، ويصفق بيديه تصفيق
النسوان ، ويخور من الوجد ولا كخوار الثيران ، وتارة يتأوه تأوه الحزين ، وتارة يزعم زعقات المجانين ،
ولقد صدق الخبير به من أهله حيث يقول :

أتذكر ليلة وقد اجتمعنا	على طيب السماع إلى الصباح ؟
ودارت بيننا كأس الأغاني	فأسكرت النفوس بغير راح
فلم تـر فيهم إلا نشاوى	سروراً ، والرد هناك صاص
إذا نادى أخو اللذات فيه	أجاب اللهو : حى على السماع
ولم نملك سوى المهجات شيئاً	أرقناها ————— لألحاظ الملاح

وقال بعض العارفين : السماع يورث النفاق في قوم ، والعناد في قوم ، والكذب في قوم ،
والفجور في قوم ، والرعوننة في قوم .

وأكثر ما يورث عشق الصور ، واستحسان الفواحش ، وإدمانه يثقل القرآن على القلب ، ويكرهه
إلى سماعه بالخاصية ، وإن لم يكن هذا نفاقاً فما للنفاق حقيقة .

وسر المسألة : أنه قرآن الشيطان ، كما سيأتى ، فلا يجتمع هو وقرآن الرحمن في قلب أبداً .

وأيضاً فإن أساس النفاق ، أن يخالف الظاهر الباطن ، وصاحب الغناء بين أمرين :

أما أن يتهتك ، فيكون فاجراً ، أو يظهر النسك ، فيكون منافقاً ، فإنه يظهر الرغبة في الله ورسوله من أصوات المعازف وآلات اللهو ، وما يدعو إليه الغناء ويهيجه ، فقلبه بذلك معمور ، وهو من محبة ما يحبه الله ورسوله ، وكراهة ما يكرهه قفر ، وهذا محض النفاق .

وأيضاً : فإن الإيمان قول وعمل ، قول بالحق ، وعمل بالطاعة . وهذا ينبت على الذكر وتلاوة القرآن ، والنفاق قول بالباطل ، وعمل البغى ، وهذا ينبت على الغناء .

وأيضاً ، فمن علامات النفاق ، قلة ذكر الله ، والكسل عند القيام إلى الصلاة ، وفقر الصلاة ، وقل أن تجد مفتونا بالغناء إلا وهذا وصفه .

وأيضاً : فإن النفاق مؤسس على الكذب ، والغناء من أكذب الشعر ، فإنه يحسن القبيح ويزينه ويأمر به ، ويقبح الحسن ويزهد فيه ، وذلك عن النفاق .

وأيضاً ، فإن النفاق غش ومكر وخداع ، والغناء مؤسس على ذلك .
وأيضاً : فإن المنافق يفسد من حيث يظن أن يصلح ، كما أخبر الله سبحانه بذلك عن المنافقين ، وصاحب السماع يفسد قلبه وحاله من حيث يظن أن يصلحه . والمغنى يدعوا القلوب إلى فتنه الشهوات ، والمنافق يدعوها إلى فتنه الشبهات .

قال الضحاك : « الغناء مفسدة للقلب ، مسخطة للرب » .

فالغناء يفسد القلب ، وإذا فسد القلب هاج فيه النفاق . وبالجمله فإذا تأمل البصير حال أهل الغناء وحال أهل الذكر والقرآن ، تبين له حذق الصحابة ومعرفتهم بأدواء القلوب وأدويتها ، وبالله التوفيق .

وأما تسميته : قرآن الشيطان

فمأثور عن التابعين

ولما أراد عدو الله أن يجمع عليه نفوس المبطلين ، قرنه بما يزينه من الألحان المطربة ، وآلات الملاهي والمعازف ، وأن يكون من امرأة جميلة ، أو صبي جميل ، ليكون ذلك أدعى إلى قبول النفوس لقرآنه ، وتعوضها به عن القرآن المجيد .

وأما تسميته : بالصوت الأحق ، والصوت الفاجر .

فهى تسمية الصادق المصدق ، الذى لا ينطق عن الهوى .

فروى الترمذى من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال :

« خرج رسول الله ﷺ مع عبد الرحمن بن عوف إلى النخل ، فإذا ابنه إبراهيم يجود بنفسه فوضعه فى حجره ففاضت عيناه ، فقال عبد الرحمن : أتبكي وأنت تنهى الناس ؟ قال : إني لم أنه عن البكاء ، وإنما نهيت عن صوتين أحقق فاجرين : صوت عند نغمة لهو ولعب ، ومزامير شيطان ، وصوت عند مصيبة : خمش وجوه ، وشق جيوب ، ورنه ، وهذا هو رحمة ، ومن لا يرحم لا يُرحم ، لولا أنه حق ، ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحق أولنا لحزنا عليك حزناً هو أشد من هذا ، وإنا بك لمحزون ، تبكى العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب » قال الترمذى : هذا حديث حسن ^(١) .

فانظر إلى هذا النهى المؤكد ، بتسميته صوت الغناء صوتاً أحق ، ولم يقتصر على ذلك ، حتى وصفه بالفجور ، ولم يقتصر على ذلك ، حتى سماه من مزامير الشيطان ، وقد أقر النبي ﷺ أبا بكر الصديق على تسمية الغناء مزبور الشيطان ، فإن لم يستفد التحريم من هذا لم نستفده من نهى أبداً .

فكيف يستجيز العارف إباحة ما نهى عنه رسول الله ﷺ وسماه صوتاً أحق فاجراً ، ومزمور الشيطان ، وجعله والنياحة التى لعن فاعلها أخوين ؟ وأخرج النهى عنهما مخرجا واحداً ، ووصفهما بالحق والفجور وصفاً واحداً .

وقال الحسن : صوتان ملعونان : مزار عند نغمة ، ورنه عند مصيبة .

وأما تسميته صوت الشيطان .

فقد قال الله تعالى للشيطان وحزبه : ﴿ اذهب فمّن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً ، واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والأولاد ، وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ ^(٢) .

(١) أخرجه الترمذى ، أبواب الجنائز ، باب ما جاء فى الرخصة فى البكاء على الميت ح ٢ ص ٢٣٧ رقم ١٠١١ . هذا حديث حسن صحيح .

(٢) الإسراء : الإيتان ٦٣ - ٦٤ .

قال ابن أبي حاتم في تفسيره : عن ابن عباس : (واستفزز من استطعت منهم بصوتك) قال : كل داع إلى معصية .

ومن المعلوم أن الغناء من أعظم الدواعي إلى المعصية ، ولهذا فسر صوت الشيطان به ، قال ابن أبي حاتم : عن مجاهد (واستفزز من استطعت منهم بصوتك) قال : استزل منهم من استطعت .

قال : وصوته الغناء ، والباطل ...

وهذه الإضافة إضافة تشخيص ، كما أن إضافة الخيل والرجل إليه كذلك ، فكل مثلكم بغير طاعة الله ، ومصوت بيراع أو مزمار ، أو دف حرام ، أو طبل ، فذلك صوت الشيطان ، وكل ساع في معصية الله على قدميه ، فهو من رجليه ، وكل راكب في معصية الله فهو من خياليته ، كذلك قال السلف ، كما ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : (رجليه) : كل رجل مشى في معصية الله . وقال قتادة : إن له خيلا ورجلا من الجن والإنس .

وأما تسميته زمور الشيطان .

ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : « دخل علي النبي ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث ، فاضطجع على الفراش وحول وجهه ، ودخل أبو بكر رضي الله عنه فانتهرني . قال : مزمار الشيطان عند النبي ﷺ ؟ فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال : دعهما ، فلما غفل غمزتهما فخرجتا »^(١) .

فلم ينكر رسول الله ﷺ على أبي بكر تسمية الغناء زممار الشيطان ، وأقرهما لأنها جاريتان غير مكلفتين ، بغناء الأعراب الذي قيل في يوم حرب بعاث من الشجاعة والحرب ، وكان اليوم يوم عيد ، فتوسع حزب الشيطان في ذلك إلى صوت امرأة جميلة أجنبية ، أو صبي أمرد صوته فتنة ، صورته فتنة ، يغني بما يدعو إلى الزنى والفجور وشرب الخمر ، مع آلات اللهو التي حرسها رسول الله ﷺ في عدة أحاديث . ويحتجون بغناء جويريتين غير مكلفتين بنشيد الأعراب ونحوه في الشجاعة ونحوها في

(١) أخرجه اللؤلؤ والمرجان لأبو عبد الله النابورى كتاب صلاة العيدين رقم ٥١٣ ص ١٩٦ .

يوم عيد ، بغير شبابة ولا دف ، ولا رقص ولا تصفيق ، ويدعون المحكم الصريح لهذا المشابه ، وهذا شأن كل مبطل ، نعم ؛ نحن لا نحرم ولا نكره مثل ما كان في بيت رسول الله ﷺ على ذلك الوجه ، وإنما نحرم نحن وسائر أهل العلم والإيمان السماع المخالف لذلك ، وبالله التوفيق .

وأما تسميته بالسمود :

فقد قال الله تعالى ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون ﴾ .

قال عكرمة عن ابن عباس « السمود : الغناء في لغة حمير » . يقال : اسُمدى لنا ، أى غنى لنا ، وقال أبو زيد :

وكان العزيف فيها غناءً لنندامى من شارب مسمود

قال أبو عبيدة : المسمود : الذى غنى له ، وقال عكرمة : كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا فنزلت هذه الآية .

وهذا لا يناقض ما قيل في هذه الآية ، من أن السمود الغفلة والسهو عن الشيء ، قال المبرد : هو الاشتغال عن الشيء بهم أو فرح ، يتشاغل به ، وأنشد .

رمى الحدثان نسوة آل حرب بمقدار سمدن له سُمودا

وقال ابن الأنبارى : السامد اللاهى ، والسامد الساهى ، والسامد المتكبر ، والسامد القائم .

وقال ابن عباس في الآية : وأنتم مستكبرون . وقال الضحاک : أشرون بطرون . وقال غيره اللاهون غافلون معرضون ، فالغناء يجمع هذا كله ويوجبه .

فهذه أربعة عشر اسما سوى اسم الغناء .

أسماءه دلت على أوصافه تبلى لى الأسماء والأوصاف

تفسير سورة القمر

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

وعدد آياتها : خمس وخمسون ..

وكلماتها : ثلاثمائة واثنان وأربعون .

وحروفها : ألف واربعمئة وثلاثة وعشرون .

وفواصل آياتها كلها على حرف الراء .

وسميت سورة القمر : لاشتغالها على ذكر انشقاق القمر .

معظم مقصود السورة :

تخويف بهجوم القيامة ، والشكوى من عبادة أهل الضلالة ، وذلمهم في وقت البعث وقيام الساعة ،
 وخبر الطوفان ، وهلاك الأمم المختلفة ، وحديث العادين ونكبتهم بالنكباء ، وقصة ناقة صالح ، وإهلاك
 جبريل قومه بالصيحة ، وحديث قوم لوط وتماديهم في المعصية ، وحديث فرعون ، وتعديه في الجهالة ،
 وتقرير القضاء والقدر ، وإظهار علامة القيامة ، وبروز المتيقن في الجنة في مقعد صدق ، ومقام القرية
 في قوله تعالى : ﴿ مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ .

المتشابه من سورة القمر :

قصة نوح وعاد وثمود ولوط ، ذكر في كل واحد منها من التخويف والتحذير ما حل بهم ، ليتعظ
 به حامل القرآن وتاليه ، ويعظ غيره ، وأعاد في قصة عاد ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ مرتين ؛ لأن
 الأولى في الدنيا ، والثانية في العقبى ، كما قال في هذه القصة : ﴿ لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة
 الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى ﴾^(١) وقيل : الأولى لتحذيرهم قبل إهلاكهم ، والثانية لتحذير غيرهم
 بعد إهلاكهم .

(١) فصلت : آية ١٦ .

مناسبة السورة لما قبلها :

من وجوه

(١) مشاكلة آخر السورة لأول هذه ، فقد قال تعالى في آخر سورة النجم : ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴾ وقال تعالى هنا : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ .

(٢) حسن التناسق بين النجم والقمر .

(٣) إن هذه قد فصلت ما جاء في سابقتها ، ففيها إيضاح أحوال الأمم التي كذبت رسلها ، وتفصيل هلاكهم الذي أشار عليه في السابقة ، بقوله : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ فما أشبهها مع سابقتها بالأعراف بعد الأنعام ، والشعراء بعد الفرقان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۚ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۚ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۚ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۚ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكْرٍ ۚ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۚ مَّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۚ ﴾

معاني المفردات

(اقتربت) أى دنت وقربت .

انشق القمر : أى انفصل بعضه من بعض وصار فرقتين .

(آية) : أى دليلا على نبوتك .

(مستمر) : أى مطرد دائم .

- ﴿ أهواءهم ﴾ : أى مازينه لهم الشيطان من الوسوس والأوهام .
- ﴿ مستقر ﴾ : أى منته إلى غاية يستقر عليها لا محالة .
- ﴿ الأنباء ﴾ : أخبار القرون الماضية . وما حاق بهم من العذاب ، جزاء تكذيبهم للرسول ، واحداها نبأ .
- ﴿ بالغة ﴾ : أى واصله غاية الإحكام والإبداع ، ﴿ تغنى ﴾ أى تفيد وتنفع .
- ﴿ النذر ﴾ : واحدهم نذير بمعنى منذر .
- ﴿ فتول عنهم ﴾ : أى لا تجادلهم ولا تحاجهم .
- ﴿ نكر ﴾ : أى أمر تنكره النفوس إذ لا عهد له بمثله .
- ﴿ خشعا ﴾ : واحدهم خاشع : أى ذليل .
- ﴿ والأجداث ﴾ : القبور .
- ﴿ مهطعين ﴾ : أى مسرعين منقادين .
- ﴿ عسير ﴾ : أى صعب شديد الهول .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة ، وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغنى النذر ﴾^(١) .

قوله : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ هذا إخبار منه سبحانه عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها ، كما قال تعالى : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾^(٢) . وكقوله : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ﴾^(٣) . وكقوله : ﴿ أزفت الآزفة ﴾^(٤) . قال العلامة ابن كثير : وقد وردت الأحاديث بذلك .

(١) سورة القمر : آية ٥ .

(٢) النحل : آية ١ .

(٣) الأنبياء : آية ١ .

(٤) النجم : آية ٥٧ .

روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر قال : كنا جلوسا عند النبي ﷺ والشمس على قيعان بعد العصر فقال : « ما أعماركم في أعمار من مضى إلا كما بقى من النهار فيما مضى » (١) .

وروى أيضا عن سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بعثت أنا والساعة هكذا » وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى (٢) . أخرجاه من حديث أبي حازم مسلمة بن دينار وقال الإمام أحمد بسنده عن وهب السوائي قال : قال رسول الله ﷺ « بعثت أنا والساعة كهذه من هذه إن كادت لتسبقني » (٣) . وجمع الأعشى بين السبابة والوسطى .

وقال أبو جعفر بن جرير بسنده عن أبي عبد الرحمن السلمى قال نزلنا المدائن ، فكنا منها على فرسخ ، فجاءت الجمعة فحضر أبى وحضرت معه ، فخطبنا حذيفة فقال : ألا إن الله يقول : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق ، فقلت لأبى ايستبق الناس غدا ؟ فقال : يا بنى إنك لجاهل ، إنما هو السباق بالأعمال ، ثم جاءت الجمعة الأخرى ، فحضرنا فخطب حذيفة فقال : ألا إن الله يقول : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق ، ألا وإن الغاية النار والسابق من سبق إلى الجنة » (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وانشق القمر ﴾ أى وقد انشق القمر ، قال ابن كثير : وهذا أمر متفق عليه بين العلماء ، أى انشقاق القمر قد وقع فى زمان النبي ﷺ ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات .

وقال القرطبى : وعلى هذا الجمهور من العلماء ، ثبت ذلك فى الصحيح للبخارى وغيره ، من حديث ابن مسعود وابن عمر وأنس وجبير بن مطعم وابن عباس رضى الله عنهم .

وعن أنس قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ آية ، فانشق القمر بمكة مرتين فنزلت « اقتربت الساعة »

(١) أخرجه أحمد فى مسنده ح ٢ ص ١١٦ ، وأخرجه أيضا تفسير ابن كثير ح ٧ ص ٤٤٥ فى تفسير سورة القمر .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده ح ٣ ص ٢٢٢ ، وأخرجه مسلم فى كتاب الفتن وأشراط الساعة باب قرب الساعة ح ٤ ص ٢٢٦٨ ، رقم ٢٩٥٠/١٣٢ .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده ح ٤ ص ٣٠٩ .

(٤) أخرجه تفسير ابن كثير سورة القمر ح ٧ ص ٤٤٧ .

وانشق القمر» إلى قوله « سحر مستمر »^(١). قال أبو عيسى الترمذى هذا حديث حسن صحيح ، ولفظ البخارى عن أنس قال : انشق القمر فرقتين . وقال قوم : لم يقع انشقاق القمر بعد ، وهو منتظر ؛ أى اقترب قيام الساعة وانشقاق القمر وغيره .

قلت : قد ثبت بنقل الآحاد العدول ، أن القمر انشق بمكة وهو ظاهر التنزيل . قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا ﴾ هذا يدل على أنهم رأوا انشقاق القمر ، قال ابن عباس : اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ ، وقالوا : إن كنت صادقاً فاشقق لنا القمر فرقتين ، نصف على أبى قبيس ونصف على قعيقعان ؛ فقال لهم رسول الله ﷺ ، « إن فعلت تؤمنون » قالوا : نعم ، وكانت ليلة بدر ، فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يعطيه ما قالوا ، فانشق القمر فرقتين ، ورسول الله ﷺ ينادى المشركين : « يافلان يافلان اشهدوا »^(٢) .

وفى حديث ابن مسعود : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ ، فقالت قريش : هذا من سحر بن أبى كبشة سحرهم فاسئلوا السفار . فسألوهم فقالوا : قد رأينا القمر انشق فنزلت « اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا »^(٣) . أى أن يروا آية تدل على صدق محمد ﷺ أعرضوا عن الإيمان (ويقولوا سحر مستمر) أى ذاهب من قولهم مر الشيء واستمر إذا ذهب ، قاله أنس وقتادة ومجاهد وغيرهم . وقال أبو العالية والضحاك : ﴿ سحر مستمر ﴾ أى محكم قوى شديد ، وهى من المرة وهى القوة .

وقوله : ﴿ وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾ أى كذبوا الحق إذ جاءهم واتبعوا ما أمرتهم به آراءهم وأهوائهم ، من جهلهم وسخافة عقولهم . وقوله : ﴿ وكل أمر مستقر ﴾ قال قتادة : معناه أن الخير واقع بأهل الخير ، والشر واقع بأهل الشر ، وقال السدى : مستقر أى واقع .

وقوله تعالى : ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ﴾ أى ولقد جاءهم من الأخبار عن قصص الأمم المكذبة بالرسول ، وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب ؛ مما يتلى عليهم فى هذا القرآن ، ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادى على التكذيب .

(١) أخرجه البخارى ح ٦ ص ١٧٨ فى تفسير سورة القمر . وأخرجه أيضا تفسير الطبرى ح ٢٧ ص ٥٠ فى تفسير سورة القمر .

(٢) أخرجه تفسير الطبرى ح ٢٧ ص ٥٠ فى تفسير سورة القمر .

(٣) أخرجه تفسير الطبرى ح ٢٧ ص ٥١ فى تفسير سورة القمر .

وقوله تعالى : ﴿ حكمة بالغة ﴾ أى حكمة بالغة فى هدايته تعالى لمن هداه ، وإضلاله لمن أضله . (فما تغنى النذر) يعنى أى شئ تغنى النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة ، وختم على قلبه ؟ فمن الذى يهديه من بعد الله ؟ قال ابن كثير الآية كقوله تعالى : ﴿ قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ . وكذا قوله تعالى : ﴿ وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ (١) .

بحث فى معجزات الرسول ﷺ

إن قدرة الإنسان محدودة بما أحدها الله عز وجل به من عالم القوانين والأسباب ، فما كان ضمن هذه الدائرة استطاعة الإنسان وإلا فلا ، فالإنسان مثلا يستطيع إذا توافر لديه أكسجين وهيدروجين ، والأدوات اللازمة لإحداث التفاعل . بينهما ، أن يصنع منهما ماء ، فهذا مداخل ضمن قوانين الكون واستطاعة الإنسان ، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يوجد ماء من عدم مطلق ، ويستطيع الإنسان أن يتحكم بالكترونات وبروتونات النحاس ، فيصبح النحاس ذهباً ، إذا توافرت لذلك شروط وأدوات معينة ، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يوجد ذهباً من لا شئ ، إذن رغم ما أعطى الله الإنسان من إمكانات ، يستطيع بها تسخير هذا الكون لصالحه ، فإن قدرة الإنسان محدودة ضمن قوانين هذا الكون ، ويبقى الله وحده ذا السلطان المطلق ، والقدرة المطلقة التى يخلق بها ما شاء من الممكنات .

بعد هذا نقول : إن مما يعرف به الإنسان أن رسول الله ﷺ هو أن تظهر معه آثار قدرة الله ، فتظهر على يديه خوارق لعادات وقوانين وأسباب هذا الكون ، مما لا يمكن أن يكون للجهد البشرى فيه علاقة ، فيعرف الناس بذلك أن هذا الإنسان رسول الله ، بدليل أنها ظهرت معه آثار قدرة الله ، وتقوم بذلك حجة الله على خلقه ، بأنه أرسل رسولا ، وتقوم بذلك حجة الرسول على الخلق بأنه صادق فى دعوى الرسالة ، ولا يكون لأحد عذر فى عدم متابعة الرسول بعد ذلك .

وكما تقوم الحجة على من عاصر الرسول ﷺ — تقوم على من بعدهم بثبوت معجزاته تاريخيا ، إذ الثابت تاريخيا كالثابت مشاهدا فى إقامة الحجة .

(١) الأنعام : آية ١٤٩ .

(٢) يونس : آية ١٠١ .

ولم يوجد رسول أبداً في تاريخ العالم ، كانت له معجزات كثيرة ثابتة ثبوتاً تاريخياً ، يتحدى أدق معايير النقد التاريخي مثل ما كان لخاتم رسل الله محمد ﷺ — فإن معايير النقد التي وضعها علماء المسلمين ، لاستخلاص الوقائع الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ — ما وصل إليها العالم قط ، ولا يرقى إلى نتائجها شك .

والدارس لهذه المعجزات الثابتة تاريخياً ، يرى بوضوح لا مزيد عليه ، آثار قدرة الله المباشرة ، مؤيدة لرسول الله ﷺ بأشكال وصور ومظاهر ، تحيط بكل الأوضاع ، مما لا يبقى ريباً لمرتاب ، إلا إذا مات إنصافه مع قلبه فعمى بذلك عقله ، وهذه نماذج من هذه الوقائع ، التي لا تفسر إلا بالقدرة الإلهية المؤيدة لرسول الله ﷺ ، مع ملاحظة أن المعجزة الأساسية لرسول الله ، وبها قامت الحجة على خلق الله في كل العصور ، هي القرآن الكريم . (مستفاد من كتاب « الرسول » للشيخ سعيد حوى)

انشقاق القمر

قال القاضي أبي الفضل عياض اليحصبي في كتابه « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » ما ملخصه : قال الله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي ، وإعراض الكفرة عن آياته ، وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه : أخبرنا الحسين عن محمد الحافظ من كتابه حدثنا القاضي سراج بن عبد الله حدثنا الأصيلي حدثنا المروزي حدثنا الغريزي حدثنا البخاري حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن شعبة وسفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن أبي عمر عن ابن مسعود — رضى الله عنه — قال انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين ، فرقه فوق الجبل ، وفرقة دونه ، فقال رسول الله ﷺ ، اشهدوا وفي رواية مجاهد ونحن مع النبي ﷺ ؛ وفي بعض طرق الأعمش بمنى ، ورواه أيضا عن ابن مسعود الأسود وقال حتى رأيت الجبل بين فرجتى القمر ، ورواه عنه مسروق أنه كان بمكة ، وزاد فقال قريش : سحر كم ابن أبي كبشة ، فقال رجل منهم : إن محمداً إن كان سحر القمر ، فإنه لا يبلغ من سحره أن يسخر الأرض كلها ، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر ، هل رأوا هذا ؟ فأتوا فسألوهم ، فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك ^(١) .

وعن أنس سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يريهم آية ، فأراهم انشقاق القمر مرتين ، حتى رأوا

(١) أخرجه تفسير الطبري ج ٢٧ ص ٥٠ ، من تفسير سورة القمر .

حراء بينهما ؛ رواه عن أنس قتادة .. وأكثر طرق هذه الأحاديث صحيحة والآية مصرحة ، ولا يلتفت إلى اعتراض مخذول ، بأنه لو كان هذا لم يخف على أهل الأرض ، إذ هو شيء ظاهر لجميعهم ، إذ لم ينقل لنا عن أهل الأرض أنهم رصدوه تلك الليلة ، فلم يره انشق ، ولو نقل إلينا عمن لا يجوز تمالؤهم لكثرتهم على الكذب ، لما كانت علينا به حجة ، إذ ليس القمر في حد واحد لجميع أهل الأرض ، فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على الآخرين ، وقد يكون من قوم بضد ما هو من مقابلهم من أقطار الأرض ، أو يحول بين قوم وبيده سحاب أو جبال ، ولهذا نجد الكسوفات في بعض البلاد دون بعض ، وفي بعضها جزئية ، وفي بعضها كلية ، وفي بعضها لا يعرفها إلا المدعون لعلمها ؛ ذلك تقدير العزيز العليم ، وآية القمر كانت ليلاً ، والعادة من الناس بالليل الهدوء والسكون ، وإيجاف الأبواب ، وقطع العصرف ، ولا يكاد يعرف من أمور السماء شيئاً ، إلا من رصد ذلك واهبتل به ، ولذلك يكون الكسوف القمري كثيراً في الليل وأكثر الناس لا يعلم به حتى يخبر ، وكثيراً ما يحدث الثقات بعجائب يشاهدونها ، من أنوار ونجوم طوالع عظام ، تظهر في الأحيان بالليل في السماء ولا علم عند أحد منها .

نبح الماء بين أصابعه الشريفة وتكثيره ببركته

أما الأحاديث في هذا فكثيراً جداً ، روى حديث نبح الماء من أصابعه ﷺ جماعة من الصحابة منهم أنس وجابر وابن مسعود . فعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال رأيت رسول الله ﷺ ، وحانت صلاة العصر فالتمس الناس الوضوء ، فلم يجدوه ، فأتى رسول الله ﷺ بوضوء ، فوضع رسول الله ﷺ في ذلك الإناء يده ، وأمر الناس أن يتوضأوا منه ، قال : فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه ، فتوضأ الناس ، حتى آخرهم ، ورواه أيضاً عن أنس قتادة وقال بإناء فيه ماء يغمر أصابعه ، أو لا يكاد يغمر ، قال : كم كنتم ؟ قال : زهاء ثلاثمائة ، وفي رواية وهم بالزوراء عند السوق ، ورواه أيضاً حميد وثابت والحسن عن أنس وفي رواية حميد قلت لكم كانوا ثمانين رجلاً ونحوه عن ثابت وعنه أيضاً وهم نحو من سبعين رجلاً ، وأما ابن مسعود ففي الصحيح من رواية علقمة عنه ، بينما نحن مع رسول الله ﷺ : اطلبوا من معه فضل ماء ، فأتى بماء فصبه في إناء ، ثم وضع كفه فيه ، فجعل الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ . (أخرجه الشيخان)^(١) .

وفي الصحيح عن جابر رضى الله عنه عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة

فتوضاً منها وأقبل الناس نحوه وقالوا ليس عندنا ماء إلا ما في ركوتك فوضع النبي ﷺ يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون وفيه قلت : كم كنتم : قال : لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشر مائة^(١) ، وفي رواية الوليد بن عباد بن الصامت في حديث مسلم الطويل في ذكر غزوة بواط قال : قال لي رسول الله ﷺ : يا جابر ناد الوضوء وذكر الحديث بطوله ، وأنه لم يجد إلا قطرة في عزلاء شجب . (فم المزايدة الأسفل) فأقنى به النبي ﷺ فغمزه ، وتكلم بشيء لا أدري ما هو ، وقال ناد بجفنة الركب فأتيت ، فوضعتها بين يديه ، وذكر أن النبي ﷺ ، بسط يده في الجفنة وفرق أصابعه وصب جابر عليه ، وقال بسم الله قال : فرأيت الماء يفور من بين أصابعه ، ثم فارت الجفنة واستدارت ، حتى امتلأت وأمر الناس بالاستقاء ، فاستقوا حتى رووا ، فقلت : هلى بقي أحد له حاجة ، فرفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهى مملأى^(٢) .

ومما يشبه هذا من معجزاته تفجير الماء ببركته وابتعائه بمسه ودعوته .

فيما روى مالك في الموطأ عن معاذ بن جبل في قصة غزوة تبوك ، وأنهم وردوا العين وهى تبض (أى : تسيل قليلا) بشيء من ماء مثل الشراك ، فغرفوا من العين بأيديهم ، حتى اجتمع في شيء ، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه ، وأعادها فيها ، فجرت بماء كثير ، فاستقى الناس ، قال في حديث ابن إسحاق فانخرق من الماء ما له حس كحس الصواعق ثم قال : يوشك يامعاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملئ جنانا^(٣) .

وأخرج مسلم عن أبي قتادة ، أن النبي ﷺ ، كان في سفر فأسرى ، ثم نام فما استيقظ إلا والشمس في ظهره ، فدعا بمىضة (إناء يوضع فيه الماء) كانت معى فيها شيء من ماء فتوضأ منها ثم قال : احفظ علينا ميضاتك ، فسيكون لها نبأ ، فسار حتى امتد النهار ، فقال الناس : اهلكنا وعطشنا فقال لا هلك عليكم ، ثم قال : انطلقوا إلى عمرى يعنى القدح الصغير ، فدعا بالمىضة ، فجعل النبي ﷺ ، يصب وأبو قتادة يسقيهم ، فقال النبي ﷺ : أحسنوا الملء كلكم سيروى .. حتى ما بقي أحد^(٤) .

(١) أخرجه صحيح مسلم ح ٤ ص ٢٣٠٨ رقم ٧٤ / ٣٠١٣ كتاب الزهد والرقائق باب حديث جابر الطويل .

(٢) رواه مسلم ح ٤ ص ٢٣٠٧ كتاب الزهد والرقائق باب حديث جابر رقم ٣٠١٣ .

(٣) أخرجه مالك في موطأه كتاب قصر الصلاة في السفر ح ١ ص ١٤٣ ، ١٤٤ رقم ٢ .

(٤) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضاها .

١ ص ٤٧٢ ، ٤٧٣ رقم ١٣٣ / ٦٨١ . مطولا .

ومن معجزاته ﷺ تكثير الطعام ببركته ودعائه

روى مسلم عن جابر ، أن رجلا أتى النبي — ﷺ — يستطعمه ، فأطعمه شطر وسق شعير (الوسق مقدار ستين صاعا) فما زال يأكل منه وامرأته وضيغه حتى كاله ، فأتى النبي — ﷺ — فأخبره ، فقال : « لو لم تكله لأكلتم منه ولقام بكم » .

(فلقد استمر أكلهم منه من غير نقص شيء منه إلى أن كاله ، فظهر نقصه بعد الكيل مما يأخذ منه ، فكانت البركة في ترك كيله ، حتى لو لم يكله لم ينفد مدة حياتهم)^(١) .

ومن ذلك حديث أبي طلحة المشهور — القصة في صحيح البخارى — وإطعامه ﷺ ثمانين أو سبعين رجلا من أقراص من شعير جاء بها أنس تحت يده ؛ أى إبطه ؛ فأمر بها ففتت ، وقال فيها ما شاء الله أن يقول^(٢) .

وحديث جابر في إطعامه ﷺ يوم الخندق ألف رجل من صاع شعير وعناق (العناق الأثني من أولاد المعز ، لم يتم لها سنة) .

وقال جابر : فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا (أى انصرفوا) وإن برمتنا لتغط كما هي (أى تغلى غليانا شديدا) وإن عجينا ليخبز . (أى أنهم استمروا على خبز العجين وإيصاله شيئا فشيئا لمن يأكل منه ، ولم ينقص ببركة النبي ﷺ)^(٣) . رواه البخارى .

وحديث أبى أيوب (رواه عنه الطبرانى ، والبيهقى) أنه صنع لرسول الله — ﷺ — ولأبى بكر الطعام زهاء (أى مقدار) ما يكفيهما ؛ فقال له النبي — ﷺ — : ادع ثلاثين من أشرف الأنصار ؛ فدعاهم فأكلوا حتى تركوا ؛ ثم قال : ادع ستين ؛ فكان مثل ذلك ؛ ثم قال : ادع سبعين فأكلوا حتى تركوا ، وما خرج منهم أحد حتى أسلم ، وبأيع .

(١) أخرجه مسلم ح ٤ ص ١٧٨٤ كتاب الفضائل ، باب في معجزات النبي ﷺ ٩ / ٢٢٨١ .

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه . كتاب الفضائل . باب علامات النبوة ح ٤ ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ . ط الشعب . وكذلك في كتاب الأطعمة .

(٣) انظر صحيح البخارى ، باب غزوة الخندق ، ح ٥ ص ١٣٩ فقد ورد الحديث من رواية جابر ، وانظر ص ١٣٨ فقد ورد عن جابر برواية أخرى .

قال أبو أيوب : فأكل من طعامي مائة وثما نون رجلا^(١) .

ومن ذلك حديث عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري ، عن أبيه ، ومثله لسلمة بن الأكوع ، وأبي هريرة ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فذكروا مخمصة (الجوع ، والمجاعة) أصابت الناس مع النبي ﷺ — في بعض مغازيه ، فدعا ببقية الأزواد (أى : طلب من كل رجل منهم أن يأتي بما بقي عنده من زاده) ، فجاء الرجل بالحثية من الطعام ، (أى : ما يملأ اليدين معاً) ، وفوق ذلك ، وأعلاهم الذي أتى بالصاع من التمر ، فجمعه على نطع ، (وهو بساط من جلد) .

قال سلمة : فحزرتة كربضة العنز (أى قدرته كمقدار جثة عنز باركة على الأرض) ؛ ثم دعا الناس بأوعيتهم ، فما بقي في الحبش وعاء إلا ملئوه وبقي منه . (رواه ابن سعد ، والبيهقي ، وصحاحه)^(٢) .

وعن أبي هريرة : أمرني النبي ﷺ أن أدعو له أهل الصفة . (وهم فقراء الصحابة الأغراب وغيرهم) فتبعتهم حتى جمعتهم ، فوضعت بين أيدينا صفحة ، (إناء بين الصغير والكبير يعد للطعام) فأكلنا ما شئنا ، وفرغنا وهي مثلها حين وضعت إلا أن فيها أثر الأصابع . (رواه ابن أبي شيبة والطبراني بسند صحيح)^(٣) .

ومنه حديث أبي هريرة حين أصابه الجوع ، فاستتبعه النبي ﷺ ، فوجد لبنا في قدح قد أهدى إليه ، وأمره أن يدعو أهل الصفة . قال : فقلت : ما هذا اللبن فيهم ؟ (أى ما مقداره القليل كاف لهم) .

كنت أحق أن أصيب منه شربة ، أتقوى بها . عند دعوتهم . وذكر أمر النبي ﷺ — له أن يسقيهم ، فجعلت أعطي الرجل فيشرب حتى يروى ، ثم يأخذه الآخر ، حتى روى جميعهم ، قال : فأخذ النبي ﷺ — القدح ، وقال : بقيت أنا وأنت أقعد فاشرب ، فشربت ، ثم قال : اشرب ، وما زال يقولها وأشرب حتى قلت : لا والذي بعثك بالحق ، ما أجد له مسلكا (أى لم يبق في جوف محلا خاليا يدخله) ، فأخذ القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة .^(٤)

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد . ح ٨ ص ٣٠٣ . باب معجزته — ﷺ — في الطعام وبركته فيه . وقال الهيثمي . رواه الطبراني وفي إسناده من لم أعرفه .

(٢) أخرجه صحيح مسلم في كتاب اللقطة باب استحباب خلط الأزواد إذا قلت ح ٣ ص ١٣٥٤ رقم ١٩ / ١٧٢٩ .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ح ١١ ص ٤٦٩ — ٤٧٠ ، رقم ١١٧٥٧ كتاب الفضائل باب ما أعطى الله تعالى محمد ﷺ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ح ٨ ص ١٢٠ كتاب الزقاق باب كيف كان عيش النبي ﷺ .

وفي حديث أنس : تزوج رسول الله ﷺ ، فصنعت أمى أم سليم حيساً ، فجعلته في تور (الحيس : طعام من لبن وأقط وتمر وسمن يحاس ، أى يخلط بعضه ببعض ، والتور : إناء من حجارة واسع) . فذهبت به إلى رسول الله ﷺ ؛ فقال : ضعه ، وادع لى فلاناً وفلاناً ، ومن لقيت . فدعوتهم ، ولم أدع أحداً لقيته إلا دعوته ، وذكر أنهم كانوا زهاء ثلاثمائة حتى ملئوا الصفة والحجرة ، فقال لهم النبي ﷺ تحلقوا عشرة عشرة ، ووضع النبي ﷺ يده على الطعام فدعا فيه ، وقال ما شاء الله أن يقول ، فأكلوا حتى شبعوا كلهم ، فقال لى : ارفع ، فما أدرى حين وضعت كانت أكثر أم حين رفعت^(١) » (سنن الترمذى) .

وأكثر أحاديث هذه الفصول الثلاثة في الصحيح ، وقد اجتمع على معنى حديث هذا الفصل ، بضعة عشر من الصحابة ، رواه عنهم أضعافهم من التابعين ، ثم ممن لا ينعد بعدهم .

كلام الشجرة وشهادتها له بالنبوة وإجابتها دعوته

عن ابن عمر ، كنا مع رسول الله ﷺ في سفرة ، فدنا منه أعرابى ، فقال : يا أعرابى ، أين تريد ؟ قال : إلى أهلى قال : هل لك إلى خير ؟ قال : وما هو ؟ قال : تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمد عبده ورسوله . قال : من يشهد لك على ما تقول ؟ قال : هذه الشجرة السمرة (السمرة : شجرة عظيمة ذات شوك) . وهى بشاطيء الوادى وادعها فإنها تجيبك فأقبلت تحد الأرض (أى تشقها) حتى قامت بين يديه ، فاستشهدها ثلاثاً ، فشهدت أنه كما قال ، ثم رجعت إلى مكانها^(٢) . (رواه البيهقى ، والبزار ، والدرامى مسنداً عن ابن عمر) .

وفي صحيح مسلم في حديث جابر بن عبد الله الطويل : ذهب رسول الله ﷺ يقضى حاجته ، فلم ير شيئاً يستتر به ، فإذا بشجرتين فى شاطيء الوادى ، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما ، فأخذ بغصن من أغصانها ، فقال : انقادى علىّ بإذن الله ؛ فانقادت معه كالبعير المحشوش الذى يصانع قائده . وذكر أنه فعل بالأخرى مثل ذلك ، حتى إذا كان بالمنصف بينهما ، قال : التما علىّ بإذن الله ؛ فالتأمتا .

(١) أخرجه الترمذى ح ٥ ص ٢٥٥ ، أبواب المناقب . باب ٣٠ ، أنظر صحيح البخارى . كتاب النكاح . باب الهدية للعروس .

ح ٧ ص ٢٨ ، ٢٩ ، ط الشعب .

(ومعنى انقادى على : أى طاو عيني وميل على ، ومعنى كالبعير المخشوش : المخشوش : الذى يوضع فى أنفه خشاش يذل به ، ومعنى يصانع قائده : المراد به الملاينة وسهولة الانقياد . والمنصف : أى وسط المكان ^(١) .

وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ مثله فى غزاة حنين .

وروى مسلم عن ابن مسعود : أن الجن قالوا : من يشهد لك ؟ قال : هذه الشجرة . تعالى يا شجرة ؛ فجاءت تجر عروقها لها قعاقع . (حكاية صوت الحركة من الأجرام الصلبة) ^(٢) .

وبعد أن أورد القاضى أبو الفضل روايات أخرى قال : فهذا ابن عمر وبريدة وجابر وابن مسعود ، ويعلى بن مرة ، وأسامة بن يزيد وأنس بن مالك وعلى بن أبى طالب وابن عباس وغيرهم — قد اتفقوا على هذه القصة نفسها أو معناها .

وقد رواها عنهم من التابعين أضعافهم ؛ فصارت فى انتشارها من القوة حيث هى ، أى صارت فى مرتبة قوية لا يشك فيها أحد من العقلاء .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه ﷺ ، قال لأعرابى : أرأيت إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتشهد أنى رسول الله ؟ قال : نعم ، فدعاه فجعل ينقر حتى أتاه (أى يشب صعدا) فقال ارجع ، فعاد إلى مكانه ^(٣) (رواه البخارى فى تاريخه ، والدرامى والبيهقى مسندا . وأخرجه الترمذى وقال حديث صحيح) .

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الزهد والرفائق . باب حدث جابر الطويل ، وقصة أبى البشر ح ٤ ص ٢٣٠٦ ، ٢٣٠٧ . رقم

٣٠١٢ / ٧٤ .

(٢) أخرجه تفسير القرطبى فى كتاب الجامع لأحكام القرآن ح ١٩ ص ٤ — ٥ ، من تفسير سورة الجن آية ٣ .

(٣) أخرجه الترمذى . حديث رقم ٣٧٠٧ . ح ٥ ص ٢٥٤ أبواب المناقب . باب ٢٨ .

فصل في قصة حنين الجذع

ويعضد هذه الأخبار أحاديث أنين الجذع ، وهو في نفسه مشهور منتشر ، والخبرية متواتر ، قد خرجه أهل الصحيح — كالبخارى ومسلم — ورواه من الصحابة بضعة عشر ، وابن عباس ، وسهل بن سعد ، وأبو سعيد الخدرى ، وبريد ، وأم سلمة ، والمطلب بن أبى وداعة ، كلهم يحدث بمعنى هذا الحديث .

قال جابر بن عبد الله كان المسجد مسقوفا على جذوع نخل ؛ فكان النبي ﷺ ، إذا خطب يقوم إلى جذع منها (أى يقوم مستنداً) فلما صنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار . (العشار الناقة التى أتى على حملها عشرة أشهر ، والمراد خوارها حين وضعها أو عقبه ، نزاعها لولدها إذا لم تره) .

وفي رواية أنس حتى ارتج المسجد بخواره .

وفي رواية سهل : وكثر بكاء الناس لما رأوا به .

وفي رواية المطلب وأبى : حتى تصدع وانشق ، حتى جاء النبي ﷺ ، فوضع يده عليه فسكت .

زاد غيره : فقال النبي ﷺ : إن هذا بكى لما فقد من الذكر .

وزاد غيره : والذي نفسى بيده ، لو لم ألتممه (أى أضمه) لم يزل هكذا إلى يوم القيامة ؛ تحزنا على رسول الله ﷺ ؛ فأمر به رسول الله ﷺ فدفن تحت المنبر^(١) .

فكان الحسن البصرى ، إذا حدث بهذا بكى ، وقال : يا عباد الله الخشبة (يريد هنا الجذع) تحن إلى رسول الله ﷺ شوقاً إليه لمكانه ؛ فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ، فى كتاب الفضائل باب علامات النبوة ح ٤ ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ . ط الشعب .

انظر سنن الترمذى . ح ٥ ص ٢٥٤ . أبواب المناقب . باب ٢٨ .

قال القاضي : ومثل هذا في سائر الجمادات .

عن ابن مسعود قال : لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل وفي رواية أخرى له : كنا نأكل مع رسول الله ﷺ الطعام ونحن نسمع تسبيحه^(١) . (رواه البخاري) (والرواية الأخرى رواها الترمذي) .

وقال أنس : أخذ النبي ﷺ كفا من حصي ، فسبحن في يد رسول الله ﷺ ، حتى سمعنا التسبيح ثم صبهن في يد أبي بكر — رضي الله عنه — فسبحن ، ثم في أيدينا فما سبحن . (أخرجه ابن عساكر في تاريخه) .

وروى مثله أبو ذر ، وذكر أنهم سبحن في كف عمر وعثمان . (رواه الطبراني والبيهقي والبزار)^(٢) .

وقال علي كنا بمكة مع رسول الله ﷺ ، فخرج إلى بعض نواحيها ، فما استقبله شجرة ولا جبل ، إلا قال له : السلام عليك يا رسول الله . (رواه الترمذي ، بسند صحيح)^(٣) .

وعن جابر بن سمرة عن النبي ﷺ « إني لأعرف حجراً بمكة ، كان يسلم عليّ ، قيل : إنه الحجر الأسود »^(٤) . (رواه مسلم والترمذي) .

وعن عائشة رضي الله عنها : لما استقبلني جبريل عليه السلام بالرسالة ، جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله . (في حديث صحيح رواه البزار في مسنده) .

وعن جابر بن عبد الله : لم يكن النبي ﷺ يمر بحجر ولا شجر إلا سجد له . (رواه البيهقي)^(٥) .

(١) أخرجه البخاري ح ٤ ص ٢٣٥ . باب علامات النبوة .

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ح ٨ ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ . باب تسبيح الحصى وقال الهيثمي : رواه البزار والطبراني في الأوسط .

(٣) أخرجه الترمذي : ح ٥ ص ٢٥٣ . أبواب المناقب . باب ٢٧ . وقال هذا حديث حسن غريب .

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل باب فضل نسب النبي وتسليمه الحجر عليه قبل النبوة ح ٤ ص ١٧٨٢ رقم ٢ / ٢٧٧ . انظر سنن الترمذي . ح ٥ ص ٢٥٣ . أبواب المناقب . باب ٦ ط .

(٥) أخرجه مجمع الزوائد ح ٨ ص ٢٦٠ كتاب علامات النبوة . باب تسليم الحجر والشجر عليه .

وعن ابن عباس : كان حول البيت ستون وثلاثمائة صنم مثبتة الأرجل بالرصاص في الحجارة ؛ فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد عام الفتح جعل يشير بقضيب في يده إليها ولا يمسه ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، فما أشار إلى وجه صنم إلا وقع لقفاه ، ولا لقفاه إلا وقع لوجهه ، حتى ما بقي منها صنم ، (أخرجه الشيخان ، والبزار ، والطبراني أبو يعلى عن جابر وابن مسعود والحديث في مسند الطيالسي ^(١)) .

فصل

في الآيات في ضروب الحيوانات

قال القاضي عياض بسنده عن مجاهد عن عائشة : رضى الله عنها ؛ قالت : كان عندى داجن ، فإذا كان عندنا رسول الله ﷺ ، قر وثبت مكانه ؛ فلم يجيء ولم يذهب ؛ وإذا خرج رسول الله ﷺ جاء وذهب ^(٢) .

(ومعنى داجن : شاة تألف البيوت وتعلق فيها ، وتطلق على غيرها من الحيوانات التى تربى فى البيوت ، ومعنى قر وثبت مكانه : وقف فى مكانه لا يتحرك) .

روى عن عمر أن رسول الله ﷺ كان فى محفل من أصحابه إذ جاء أعرابى قد صاد ضبا ؛ فقال : من هذا ؟ قالوا : نبي الله . فقال : واللوات والعزى ، لا آمنت بك أو يؤمن هذا الضب ، وطرحه بين يدى النبي ﷺ ؛ فقال النبي ﷺ : يا ضب ؛ فأجابه بلسان مبین يسمعه القوم جميعا : لبيك وسعديك يازين من وفى القيامة . قال : من تعبد ؟ قال : الذى فى السماء عرشه ، وفى الأرض سلطانه وفى البحر سبيله ، وفى الجنة رحمته ، وفى النار عقابه . قال : فمن أنا ؟ قال : رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين ، وقد أفلح من صدقك ، وخاب من كذبك . فأسلم الأعرابى ^(٣) . (رواه الطبراني ، والبيهقى) .

(١) أخرجه اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ح ٢ ص ٩٤ رقم الحديث ١١٦٦ باب إزالة الأصنام من حول الكعبة . وذكره تفسير ابن كثير تفسير سورة الإسراء آية ٨١ ح ٥ ص ١٠٩ .

(٢) انظر الشفاء للقاضي عياض . الباب الرابع ، فيما أظهره الله على يديه من المعجزات . فصل فى الآيات فى ضروب الحيوانات . ح ١ ص ٣٠٩ . ط دار الفكر .

(٣) رواه مجمع الزوائد ح ٨ ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، باب شهادة الضب بنبوته ﷺ .

ومن ذلك قصة كلام الذئب المشهورة عن أبي سعيد الخدري : بينا راع يرعى غنماً له ، عرض الذئب لشاة منها ، فأخذها الراعى منه ، فأقعى الذئب وقال للراعى : ألا تتقى الله ! حُلّت بينى وبين رزقى ! قال الراعى : العجب من ذئب يتكلم بكلام الإنس ! فقال الذئب : ألا أخبرك بأعجب من ذلك ؟ رسول الله بين الحرتين يحدث الناس بأنباء ما قد سبق . فأتى الراعى النبي ﷺ ، فأخبره فقال النبي : قم فحدثهم ، ثم قال : صدق ، والحديث فيه قصة وفي بعضه طول . (رواها أحمد ، والبزار ، والبيهقى)^(١) .

(ومعنى رسول الله بين الحرتين المقصود بالمدينة فالحرة : ثنية مرتفعة ذات حجارة سود والحرتان بالمدينة) .

ومن هذا الباب ما روى من تسخير الأسد لسفينة مولى رسول الله ﷺ ، ومعه كتابه ، فهمهم وتنحى عن الطريق ، وذكر في منصرفه مثل ذلك .

(أخرجه البيهقى أنه وقع لسفينة حين ضل عن الجيش بأرض الروم ، وذكره البخارى فى تاريخه) .

وفى رواية أخرى عنه — أن سفينة تكسرت به ، فخرج إلى جزيرة فإذا الأسد ؛ فقلت له : أنا مولى رسول الله ﷺ ؛ فجعل يغمزنى بمنكبه حتى أقامنى على الطريق .

(هذه الرواية هى التى رواها البيهقى والبزار وصححها السيوطى فى تخريجه) .

ثم قال القاضى : والحديث فى هذا الباب كثير ، وقد جئنا منه بالمشهور ، وما وقع فى كتب الأئمة .

(١) أخرجه الإمام أحمد ح ٣ ص ٨٣ — ٨٤ ، مقدور الحديث من رواية لأبى سعيد .

انظر مجمع الزوائد ح ٨ ص ٢٩١ . باب إخبار الذئب بنبوته ﷺ .

ومن معجزاته إحياء الموتى وكلامهم ، وكلام الصبيان والمرضع وشهادتهم له بالنبوة ﷺ

عن أبي هريرة رضى الله عنه ، أن يهودية أهدت للنبي ﷺ شاة مصلية سمّتها ، فأكل رسول الله ﷺ — منها ، وأكل القوم ، فقال ﷺ : ارفعوا أيديكم ، فإنما أخبرتنى أنها مسمومة . فمات يشرين البراء . وقال لليهودية : ما حملك على ما صنعت ؛ قالت : إن كنت نبيا لم يضرك الذى صنعت ، وإن كنت ملكا أرحت الناس منك . قال : فأمر بها فقتلت . (رواه أبو داود مسندا إلى أبي هريرة) . (ومعنى مصلية : أى مشوية ، سمّتها : وضعت فيها السم) .

وقد روى هذا الحديث أنس ، وفيه : قالت : أردت قتلك . فقال ما كان الله ليسلطك على ذلك ، فقالوا : نقتلها ؟ قال : لا .

ورواه أيضا جابر بن عبد الله وفيه : أخبرتنى هذه الذراع ، قال : ولم يعاقبها . وفي حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ — قال : فى وجعه الذى مات فيه : مازالت أكلة خبير تعادنى ؛ فالآن أوان قطعت أبهرى . (رواه ابن سعد بسند صحيح) .

وحكى ابن إسحاق : إن كان المسلمون ليرون أن رسول الله ﷺ مات شهيدا مع ما أكرمه الله به من النبوة .

ومعنى تعادنى : تعود إلّى مرة بعد مرة فى أوقات معلومة . والأبهر : عرق كبير متصل بالقلب ، وقيل : العرق الذى فى وسط الظهر ، إذا انقطع لا يتصور معه حياة ، ومات شهيدا : أى بسم الشاة .

وقال ابن محنون : أجمع أهل الحديث أن رسول الله ﷺ قتل اليهودية التى سمّته (وحديث الشاة المسمومة فى سنن أبى داود ، وصحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، وطبقات ابن سعد)^(١) .

(١) أخرجه أبو داود ح ٤ ص ٦٥٠ رقم ٤٥١٢ « كتاب الديان » باب م سقى رجلا سما أو أطعمه فمات . وانظر صحيح البخارى « كتاب فضل الجهاد والسير » باب إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم ، ح ٤ ص ١٢١ فقد ورد حديث لأبى هريرة فى هذا .

قال القاضي عياض : وقد خرج حديث الشاة المسمومة أهل الصحيح وخرجه الأئمة ، وهو حديث مشهور .

وروى عن سمر بن عطية أن النبي ﷺ أتى بصبي قد شب لم يتكلم قط ؛ فقال : من أنا : فقال رسول الله . (رواه البيهقي في دلائل النبوة) .

وهو حديث مبارك الإمامة ، ويعرف بحديث شاصونة ، اسم روايه ، وفيه فقال له النبي ﷺ : صدقت ، بارك الله فيك ، ثم إن الغلام لم يتكلم بعدها حتى شب ، فكان يسمى مبارك الإمامة .. وكانت هذه القصة بمكة في حجة الوداع .

ومن معجزاته ﷺ إبراء المرضى وذوى العاهات

عن محمد بن إسحاق ، حدثنا ابن شهاب ، وعاصم بن عمر بن قتادة وجماعة ذكرهم بغزوة أحد بطولها ؛ قال وقالوا : قال سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ ليناولنى السهم لا نصل له ، فيقول أرم به ؛ وقد رمى رسول الله ﷺ يومئذ عن قوسه حتى اندقت ، واصيب يومئذ عين قتادة — يعنى ابن النعمان — حتى وقعت على وجنتيه ، فردها رسول الله ﷺ ؛ فكانت أحسن عينه^(١) . (هذا الجزء فى سيرة ابن هشام ورواه البيهقي) .

وروى النسائي والترمذى والحاكم والبيهقى وصححوه أن أعمى قال يا رسول الله ؛ ادع الله أن يكشف لى عن بصرى . قال : فانطلق فتوضأ ؛ ثم صل ركعتين ؛ ثم قال : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبي محمد نبي الرحمة ؛ يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك أن يكشف عن بصرى ، اللهم شفعه فى . قال : فرجع وقد كشف الله عن بصره^(٢) . (ومعنى أتوجه بك إلى ربك : أى بدعائك لى فكان توسله بدعاء النبي له ﷺ) .

(١) أخرجه مجمع الزوائد ح ٨ ص ٢٩٧ . باب رده البصر ﷺ .

(٢) أخرجه الحاكم ح ١ ص ٥٢٦ كتاب الدعاء — باب دعاء رد البصر ، وأخرجه أيضا ابن ماجه فى كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب ما جاء فى صلاة الحاجة ح ١ ص ٤٤١ رقم ١٣٨٥ عن عثمان بن حنيف .

وتقل في عيني على ابن أبي طالب يوم خير ، وكان رمدا فأصبح بارئاً^(١) . (رواه البخاري ومسلم) .

ونفث على ضربة بساق سلمة بن الأكوع يوم خير فبرئت . (رواه البخاري) .

ونفث في رجل زيد بن معاذ حين أصابها السيف إلى الكعب ، حين قتل ابن الأشرف ، فبرئت . وعلى ساق علي بن الحكم يوم الخندق إذ انكسرت ، فبريء مكانه ، وما نزل عن فرسه . (أخرجه البنوي في معجمه كما قال السيوطي في نسيم الرياض ٣ - ١١٨) .

وعن ابن عباس : جاءت امرأة بابن لها به جنون ، فمسح صدره ، فثع ثعة فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود ؛ فشفي .

(فثع : أي قاء ، والجرو : ولد الكلب والسبع) والحديث رواه أحمد في سنده بسند متصل بابن عباس وكذلك رواه البيهقي وابن أبي شيبة^(٣) .

وانكفأت القدر على ذراع محمد بن حاطب وهو طفل ، فمسح عليه ودعا له وتقل فيه فبرأ حينه . (رواه البيهقي ، والنسائي والطيالسي ، مسنداً مصححاً فيه) .

ومن معجزاته ﷺ (إجابة دعائه ﷺ)

وهذا باب واسع جداً ، وإجابة دعوة النبي ﷺ لجماعة بما دعا لهم وعليهم متواتر على الجملة ، معلوم ضرورة . وقد جاء في حديث حذيفة رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ إذا دعا لرجل أدركت الدعوة ولده وولد ولده . (رواه أحمد في مسنده) .

(١) أخرجه البخاري في « أبواب الغزوات » غزوة خيبر ح ٥ ص ١٧١ فقد ورد الحديث من رواية لسهل بن سعد .
(٢) أخرجه البخاري في « أبواب الغزوات » باب غزوة خيبر ح ٥ ص ١٧٠ فقد ورد الحديث عن يزيد بن أبي عبيد .
(٣) انظر مجمع الزوائد باب طاعة الجن لرسول الله ﷺ ح ٨ ص ٢ . وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني . وفيه فرقه السبخي وثقة ابن معين والعجلي وضعفه غيرها .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال قالت أمى : يا رسول الله ، خادمك أنس ، ادع الله له . قال : اللهم أكثر ماله وولده ، وبارك له فيما آتيته (رواه البخارى)^(١) .

ومن رواية عكرمة : قال أنس : فو الله ، إن مالى لكثير ، وإن ولدى وولد ولدى ليعادون اليوم . على نحو المائة .^(٢) (اخرجه مسلم) .

ومنه دعاؤه لعبد الرحمن بن عوف بالبركة . قال عبد الرحمن فلو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب تحته ذهباً (رواه البيهقى) .

ودعا بعز الاسلام بعمر رضى الله عنه ، أو بأبى جهل ، فاستجيب له فى عمر . قال ابن مسعود رضى الله عنه : مازلنا أعزة منذ أسلم عمر .

وأصاب الناس فى بعض مغازية عطش ، فسأله عمر الدعاء ، فدعا فجاءت سحابة ، فسقتهم حاجتهم ، ثم أقلعت (رواه البيهقى والحاكم وصححه عن عمر) .

ودعا فى الاستسقاء ، فسقوا ، ثم شكوا إليه المطر ، فدعا فصحوا (أى صحت السماء وانكشف غيمها ، والحديث فى صحيح البخارى ومسلم)^(٣) .

ودعا لابن عباس : اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل . فسُئى بعد الخبر وترجمان القرآن . (والحديث رواه الشيخان)^(٤) .

ودعا لعبد الله بن جعفر بالبركة فى صفقة يمنية (أى : فى بيعه وشرائه) فما اشترى شيئاً إلا ربح فيه (رواه البيهقى) .

ودعا بمثله لعروة بن أبى الجعد ، فقال : لقد كنت أقوم بالكناسة ، (أى القمامة) فما أرجع حتى أربح أربعين ألفاً (رواه البخارى) .

(١) اخرجه الامام البخارى فى صحيحه ج ٨ ص ٩٣ كتاب الدعوات باب دعوة النبى ﷺ لخادمه بطول العمر وبكثرة ماله . واخرجه الامام مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ١٩٢٨ كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أنس بن مالك رقم ١٤١ / ٢٤٨٠ .
(٢) اخرجه الامام مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ١٩٢٨ كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أنس بن مالك رقم ١٤٣ / ٢٤٨٠ .
٣ — اخرجه اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان البخارى ومسلم كتاب صلاة الاستسقاء ص ١٩٧ — ١٩٨ رقم ٥١٧ .
٤ — رواه الامام مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ١٩٢٧ كتاب فضائل الصحابة باب فضائل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما رقم ٢٤٧٧ / ١٣٨ .

وقال البخارى فى حديثه : فكان لو اشترى التراب ربح فيه .
ودعا على مضر فأقحطوا ، حتى استعطفته قريش ، فدعا لهم فسقوا .^(١) (والحديث فى صحيح البخارى ومسلم) .

ودعا على كسرى حين مزق كتابه أن يمزق الله ملكه ، فلم تبق له باقية ، ولا بقيت لفارس رياسة فى أقطار الدنيا . (والحديث رواه الشيخان عن ابن عباس) .^(٢)

وهذا الباب أكثر من أن يحاط به .

ومن معجزاته ﷺ ما أطلع عليه من الغيوب وما يكون فى المستقبل

والأحاديث فى هذا الباب بحر لا يدرك قعره ، ولا ينزف غمره .
وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومه على القطع الواصل إلينا خبرها على التواتر ، لكثرة روايتها ، واتفاق معانيها على الاطلاع على الغيب :

عن حذيفة قال : قام فىنا رسول الله ﷺ ، مقاماً فما ترك شيئاً يكون فى مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدثه ، حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه ، قد علمه أصحابى هؤلاء ، وإنه ليكون منه الشئ فأعرفه فأذكره ، كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ، ثم إذا رآه عرفه . (رواه مسلم)^(٣) .

(وفى رواية أبى داود)

ثم قال حذيفة ما أدرى ، أنسى أصحابى أم تناسوه ، والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فتنة ، إلى أن تنقضى الدنيا ، يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً ، إلا قد سماه لنا باسمه ، واسم أبيه ، وقبيلته .

(١) أخرجه الامام البخارى فى صحيحه فى كتاب المناقب باب علامات النبوة ج ٤ ص ٢٥٢ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب الفتن وأشراط الساعة باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل ج ٤ ص ٢٢٣٦ ،

٢٢٣٧ رقم ٧٥ / ٧٦ — ٢٩١٨ .

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه ج ٤ ص ٤٤١ رقم ٤٢٤٠ كتاب الفتن والملاحم باب ذكر الفتن وولاتها .

وأخرجه مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ٢٢١٧ رقم ٢٣ / ٢٨٩١ كتاب الفتن وأشراط الساعة باب اخبار النبى ﷺ .

وقال أبو ذر : لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء ، إلا ذكرنا منه علماً . (رواه أحمد والطبراني وغيرهما بسند صحيح)^(١) .

(ومعنى إلا ذكرنا منه علماً : أى تذكرنا وفهمنا من طيرانه ، علماً يتعلق به ، فكيف بغيره مما يهمننا في الأرض) .

وقد خرج أهل الصحيح والأئمة ما أعلم به أصحابه ﷺ ، مما وعدهم به من الظهور على أعدائه ، وفتح مكة ، وبيت المقدس ، واليمن ، والشام ، والعراق ، وظهور الأمن ، حتى تظعن المرأة من الحيرة إلى مكة لا تخاف إلا الله ، وأن المدينة ستغزى وتفتح خير على يدى على في غد يومه ، وما يفتح الله على أمته من الدنيا ، ويؤتون من زهرتها ، وقسمتهم كنوز كسرى ، وقصر ، وما يحدث بينهم من الفنون والاختلاف والأهواء ، وسلوك سبيل من قبلهم ، واقتراحهم على ثلاث وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة ، وأنها ستكون لهم أنماط (جمع نمط وهو البساط والمراد التوسع في الدنيا) يغدو أحدهم في حلة ، ويروح في أخرى ، وتوضع بين يديه صحيفة ، وترفع أخرى ، ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة .

ثم قال آخر الحديث (الذى رواه الترمذى وغيره وحسنه) : وأنتم اليوم خير منكم يومئذ ، وأنهم إذا مشوا المطيطاء (مشيه فيها مد اليدين ، والمراد به التبخر) وخدمتهم بنات فارس والروم ، رد الله بأسهم بينهم ، وسلط شرارهم على خيارهم .

وبذهاب الأمثل فالأمثل من الناس ، وتقارب الزمان ، وقبض العلم ، وظهور الفتن والتهرج . (رواه مسلم) .

وقال : ويل للعرب من شر قد اقترب . (رواه الشيخان)^(٢) .

وأنه زويت له الأرض فأرى مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمته ما زوى له منها (والحديث في صحيح مسلم) .

وكذلك كان ، امتدت في المشارق والمغارب مما بين أرض الهند أقصى المشرق إلى بحر طنجه حيث لا عمارة ورواءه ، وذلك ما لم تملكه أمة من الأمم ولم تمتد في الجنوب ولا في الشمال مثل ذلك .

(١) أخرجه الامام أحمد في مسنده ج ٥ ص ١٥٣ ، ص ١٦٢ .

(٢) أخرجه الامام البخارى في صحيحه في كتاب بدء الخلق باب قصة يأجوج ومأجوج ج ٤ ص ١٦٨ ، ص ٢٤١ باب علامات

وقال : يكون في ثقيف كذاب ومثبير ، فأوهما : الحجاج ، والمختار وأن مسيلمة يعقره الله^(١) .
(والحديث في الصحيح البخارى ومسلم) .

وان فاطمة أول أهله لحوقاً به .^(٢) (الحديث في صحيح مسلم) .

وأندر بالردة ، وبأن الخلافة بعده ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً ، فكانت كذه بمدة الحسن بن علي^(٣) (والحديث مما رواه الشيخان عن ابن عمر) ، وقال : لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه^(٤) (الحديث في البخارى) .

.... إلى ما أخبر به من الحوادث التي تكون ولم يأت بعد ، منها ما ظهرت مقدماتها ، كقوله ، عمران بيت المقدس خراب يثرب ، وخراب يثرب خروج الملحمة ، وخروج الملحمة ، فتح القسطنطينية (وبقية الحديث — كما في سنن أبي داود) ، وفتح القسطنطينية خروج الدجال ، ثم ضرب بيده على فخذ الذي حدث أو منكبه ، ثم قال : إن هذا لحق كما أنك ها هنا ، أو كما أنك قاعد — يعنى معاذ بن جبل) إلى ما أخبر به من أشراط الساعة وآيات حلولها ، وذكر النشْر والحشر ، وأخبار الأبرار والفجار ، والجنة والنار وعرصات القيامة .

وبحسب هذا الفصل أن يكون ديواناً مفرداً يشمل على أجزاء وحده ، وفيما أشرنا إليه من نكت الأحاديث التي ذكرنا كفاية ، وأكثرها في الصحيح وعند الأئمة . انتهى البحث . (من كتاب الشفا للقاضى عياض) .

إرشاد وتحذير

قوله تعالى : ﴿ فتول عنهم يوم يدعو الداع إلى شيء نكر ، خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجدات كأنهم جراد منتشر ، مهطعين إلى الداع ، يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ .

(١) أخرجه الامام مسلم في صحيحه في كتاب الفتن باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ج ٤ ص ٢٢١٥ رقم ١٩ / ٢٨٨٩ .

(٢) أخرجه الامام مسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة باب فضائل فاطمة بنت النبي ج ٤ ص ١٩٠٥ رقم ٩٧ —

٩٨ — ٩٩ / ٢٢٤٥٠ .

(٣) أبى داود في سننه في كتاب السنة باب في الخلفاء ج ٥ ص ٣٦ رقم ٤٦٤٦ ورواه مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٢٢٠ .

(٤) أخرجه الامام أحمد في مسنده ج ٣ ص ١٣٢ .

يقول تعالى : فقل يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضوا ويقولوا هذا سحر مستمر ،
أعرض عنهم وانتظرهم انهم منتظرون قال تعالى : ﴿ فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون ،
أفبعذابنا يستعجلون ، فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين ، وتول عنهم حتى حين ، وأبصر
فسوف يبصرون سبحانه ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب
العالمين ﴾^(١)

قوله تعالى : ﴿ يوم يدع الداع إلى شيء نكر ﴾ أى إلى شيء منكر فظيع ، وهو موقف الحساب
وما فيه من البلاء والزلازل والأهوال . ﴿ خشعاً أبصارهم ﴾ الخشوع فى البصر الخضوع والذلة ،
وأضاف الخشوع إلى الأبصار ، لأن أثر العز والذل يتبين فى ناظر الإنسان ، قال تعالى : ﴿ خاشعين
من الذل ينظرون من طرف خفى ﴾^(٢) ، وقال تعالى : ﴿ خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ﴾^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ﴾ الأجداث القبور يخرجون منها
كأنهم جراد منتشر ، أى كأنهم فى انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعى ، جراد
منتشر فى الآفاق ، كقوله تعالى : ﴿ يوم يكون الناس كالفرash المبثوث ﴾^(٤) . وقوله تعالى :
﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ أى مسرعين إلى الداعى لا يخالفون ولا يتأخرون . ﴿ يقول الكافرون هذا
يوم عسر ﴾ أى يوم شديد الهول سىء المنقلب . كقوله تعالى : ﴿ فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ
يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾^(٥) . وفى هذا إيماء إلى أنه هين على المؤمن لا عسر فيه
ولا مشقة .

(١) الصافات الآيات : ١٧٤ — ١٨٢

(٢) الشورى الآية ٤٥

(٣) القلم الآية ٤٣

(٤) القارعة الآية ٣

(٥) المدثر الآيات ٨ — ١٠

الرسل وأقوامهم

* كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ ۖ وَازْدُجِرَ ۖ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ
فَانْتَصِرْ ۖ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۖ ﴿١١﴾ وَجَلَّلْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ
عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۖ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِرَ ۖ ﴿١٣﴾ تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ
﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۖ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۖ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۖ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۖ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ۖ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ۖ ﴿٢٠﴾
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۖ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۖ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ
بِالنُّذْرِ ۖ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشِرَا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ ۖ إِنَّا إِذًا لَنِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۖ ﴿٢٤﴾ أَلُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ
بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ۖ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ۖ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً
لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ۖ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلٌّ شَرْبٌ مَحْتَضَرٌّ ۖ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا
صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ۖ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۖ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَبْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا
كَهَشِيمٍ الْمُحْتَظِرِ ۖ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۖ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ
بِالنُّذْرِ ۖ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا عَالَ لُوطٌ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ۖ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا
كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ۖ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذْرِ ۖ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ

ضَيْفِهِ، فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا
عَذَابِي وَنَذِرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ﴿٤١﴾
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴿

معاني المفردات

(وازدجر) أى وزجر عن التبليغ بأنواع الأذى والتخويف .
(فانتصر) أى فانتقم لى منهم . (منهم) كثير . . (فالتقى الماء) أى ماء السماء وماء الأرض .
(على أمر) أى على حال . (قد قدر) أى قد قدره الله فى الأزل (ذات ألواح) أى ذات خشب
عريضة ، (دسر) أى مسامير ، (بأعيننا) المراد بحراستنا وحفظنا ، (تركناها) أى أبقينا السفينة .
(آية) أى علامة ودليلا ، (مذكر) أى متذكر ومعتبر ، (نذر) واحدها نذير بمعنى إنذار . (يسرنا)
أى سهلنا ، (للذكر) أى للعظة والاعتبار ، (مذكر) أى متعظ بمواعظة .
(الريح الصرصر) الباردة أشد البرد ، (النحس) الشؤم ، (منقعر) أى مقتلع من أصوله ،
يقال قعرت النخلة : أى قلعتها من أصلها فانقعرت .
(سعر) أى جنون . (الأشر) شديد البطر والبطر : دهش يعترى الإنسان من سوء احتمال النعمة ،
وقلة القيام بحقها ، (فتنة) أى اختباراً ، (فارتقبهم) أى فانتظرهم (واصطبر) أى واصبر على أذاهم .
(والشرب) النصيب ، (محتضر) أى يحضره صاحبه فى نوبته ، فتحضر الناقة مرة ويحضرون أخرى ،
(صاحبهم) هو قدار بن سالف الشقى ، (فتعاطى) أى فاجترأ على تعاطى الأمر العظيم غير مكترث
به ، (فعقر) أى فضرب قوائم الناقة بالسيف ، (صيحة واحدة) هى صيحة صاحبها جبريل عليه
السلام ، (والهشيم) ما تهشم وتفتت من الشجر ، (والمحتظر) الذى يعمل الحظيرة فتتساقط منه بعض
أجزاء وتتفتت حال العمل . (حاصباً) أى ريحاً ترميهم بالحصباء ، وهى الحصا ، (والسحر) السدس
الأخير من الليل ، (فتأروا بالنذر) أى فشكوا فى الإنذارات ولم يصدقوها ، (راودوه) عن ضيفه)
أى صرفوه عن رأيه فيهم ، فطلبوا منه أن يسلم إليهم أضيافه ليفجروا بهم ، (فطمسنا أعينهم) أى
فحجبناها عن الأبصار ، فلم تر شيئاً ، (بكرة) أى أول النهار ، (مستقر) أى دائب بهم إلى أن
يهلكوا ، (النذر) واحدها نذير بمعنى انذار ، وهى الآيات التسع التى أنذرهم بها موسى صلوات الله
عليه ، (عزيز) أى لا يغالب ولا يغلب ، (مقتدر) أى لا يعجزه شيء .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أنه جاءهم من الأخبار ما فيه مزدجر لو تذكروا لكن لم تغنهم تلك الزواجر شيئاً — أردف هذا ذكر قصص من قبلهم من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود ، ليبين لرسوله أنهم ليسوا ببدع من الأمم ، بل كثير منهم فعلوا فعلهم ، بل كانوا أشد منهم عتوا واستكباراً ، وأن الأنبياء قبله قد لاقوا منهم من البلاء ما لاقيت ، فلا تأس على ما فرط منهم ولا تتبئس بما كانوا يفعلون ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾^(١) ، وفي هذا وعيد للمشركين من أهل مكة وغيرهم على تكذيبهم رسولهم ، وإنهم إن لم ينيبوا إلى ربهم ، فسيحل بهم من العذاب ، مثل ما حل بمن قبلهم ، وينجي نبيه والمؤمنين ، كما نجى من قبله من الرسل وأتباعهم من نقمه التي أحلها بأمتهم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ﴾ ، يقول تعالى : كذبت قبل قومك يا محمد قوم نوح ، ﴿ فكذبوا عبدنا ﴾ أى صرحوا له بالتكذيب واتهموه بالجنون والضلal ، وقالوا له كما حكى الله عنهم ، ﴿ قال الملاء من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين ﴾^(٢) ، وقالوا : ﴿ إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين ﴾^(٣) وقالوا هنا ﴿ وقالوا مجنون وازدجر ﴾ وازدجر ، أى انتهروه وزجروه وتواعدوه ﴿ لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾^(٤) .

قوله تعالى : ﴿ فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ﴾ أى إلى ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم ، فانتصر أنت لدينك كقوله تعالى : ﴿ قال رب انصرنى بما كذبون ، فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني فى الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾^(٥) ، وكقوله تعالى : ﴿ قال رب إن قومى كاذبون ، فافتح بينى وبينهم فتحاً ونجى ومن معى من المؤمنين ﴾^(٦) ، وقوله تعالى : ﴿ وقال نوح

(١) الأحقاف آية ٣٥

(٢) الأعراف آية ٦٠

(٣) المؤمنون آية ٢٥

(٤) الشعراء آية ١١٦

(٥) المؤمنون الآيتان ٢٦ ، ٢٧

(٦) الشعراء الآيتان ١١٧ ، ١١٨

رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً^(١) ، قال الله تعالى : ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴾ أى فأجبنا دعاءه ، وأمرناه باتخاذ السفينة ، وفتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، أى كثير . قال ابن عباس : ففتحنا أبواب السماء بماء من غير سحب لم يقلع أربعين عاماً . ﴿ وفجرنا الأرض عيونا ﴾ أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها ، فتفجرت بالعيون ، ونبتت جميع أرجاء الأرض ، حتى التناير التى هى محال النيران ، نبتت عيونا ، ﴿ فالتقى الماء ﴾ أى من السماء والأرض ، ﴿ على أمر قد قدر ﴾ أى أمر مقدر ، قال قتادة : قدر لهم إذا كفروا ان يغرقوا ، وقال محمد بن كعب كانت الأموات قبل الأجساد ، وكان القدر قبل البلاء وتلا هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر ﴾ أى حملناه على سفينة ذات ألواح ، ﴿ ودسر ﴾ قال قتادة : يعنى المسامير التى دُسرت بها السفينة أى شدت ، وقال الحسن وعكرمة : هى صدر السفينة التى تضرب بها الموج ، سميت بذلك ، لأنها تدر الماء أى تدفعه ، والدر الدفع والمخر .

وقوله تعالى : ﴿ تجرى بأعيننا ﴾ أى برأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ، وقوله تعالى : ﴿ جزاء لمن كان كفر ﴾ أى جزاء لهم على كفرهم بالله ، وانتصاراً لنوح ومن معه من المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ ولقد تركناها آية ﴾ أى ولقد جعلنا السفينة التى حملنا فيها نوحاً ومن معه — عبرة لمن بعده من الأمم ، ليتدبروا ويتعظوا ، ويرعوا أن يسلكوا مسلكهم ، وينهجوا نهجهم فى الكفر بالله وتكذيب رسله ، فيصيبهم مثل ما أصابهم من العقوبة ، كما قال تعالى : ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية ، لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴾^(٢) ، وكقوله تعالى : ﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾^(٣) .

وقوله : ﴿ فهل من مدكر ؟ ﴾ أى فهل من معتبر بتلك الآية ، الجديرة بطويل التفكير ، والتأمل فى عواقب المكذبين برسل الله ، الجاحدين بوحدانيته ، المتخذين له الأنداد والأوثان .

(١) نوح ٢٦ ، ٢٧

(٢) الحاقة الآيتان ١١ ، ١٢

(٣) الشعراء الآيتان ١٢١ ، ١٢٢

ثم بين سبحانه شديد نكاله وعقابه فقال تعالى : ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ؟ ﴾ أى ما أشد ما أنزلته بهم من البوار والهلاك ، وما أقطع إنذارى لهم ، بما أحلته بهم من النعمة بعد النعمة ، وهكذا عاقبة كل مكذب جبار ، كقوله تعالى : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما تؤخره إلا لآجل معدود ﴾ (١) .

ثم ذكر سبحانه ، أن هذا القصص وأمثاله ، إنما ذكر فى القرآن للعبرة ، لا ليكون قصصاً تاريخياً يتلى ، فقال تعالى : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ أى سهلناه للحفظ ، وأعنا عليه من أراد حفظه ، فهل من طالب لحفظه فيعان عليه ؟ قال سعيد بن جبيرة : ليس من كتب الله كتاب يقرأ كله ظاهراً إلا القرآن ، فيسر الله تعالى على هذه الأمة حفظ كتابه ، ليذكروا ما فيه ﴿ فهل من مدكر ﴾ قال أبو بكر الوراق : فهل من طالب خير وعلم ، فيعان عليه ، قال القرطبي : وكرر فى هذه السورة للتنبيه والإفهام ، وقيل : إن الله تعالى قص فى هذه السورة على هذه الأمة أنباء الأمم وقصص المرسلين ، وما عاملتهم به الأمم ، وما كان من عقبى أمورهم وأمور المسلمين ، وما عاملتهم به الأمم ، وما كان من عقبى أمورهم وأمور المسلمين ، فكان فى كل قصة ونبأ ذكر لمستمع أن لو أذكر ، وإنما كرر هذه الآية عند ذكر كل قصة بقوله : ﴿ فهل من مدكر ﴾ لأن « هل » كلمة استفهام تستدعى أفهامهم التى ركبت فى أجوافهم ، وجعلها حجة عليهم ، « فاللام » من « هل » للاستعراض و « الهاء » للاستخراج .

قوله تعالى : ﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر ، إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ، فكيف كان عذابي ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

قوله : ﴿ كذبت عاد ﴾ هم قوم هود ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ أى فانظروا معشر قريش ، كيف كان عذابي إياهم وعقابي لهم على كفرهم بالله وتكذيبهم رسوله هوداً ، وإنذارى من سلك سبيلهم وتمادى فى الغى والضلال بخلول مثل ذلك العقاب به .

وفى هذا توجيه لقلوب السامعين إلى الإصغاء ، لما يلقى عليهم قبل ذكره ، وتعجيب من حالهم بعد بيانه ، كأنه قيل : كذبت عاد فانظروا كيف كان عذابي وإنذارى لهم به قبل نزوله .

ثم فصل ما أجمله أولاً فقال تعالى :

﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر ﴾ أى أرسلنا عليهم ريحاً شديدة البرد ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعات ، ﴿ في يوم نحس مستمر ﴾ أى دائم الشؤم استمر عليهم بنحوه ، واستمر عليهم فيه العذاب إلى الهلاك .

قوله تعالى : ﴿ تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ أى تقلعهم من مواضعهم ، قال مجاهد : كانت تقلعهم من الأرض ، فرمى بهم على رؤوسهم ، فتندق أعناقهم ، وتبين رؤوسهم عن أجسادهم ، والمنقعر المنقطع من أصله ، قعرت الشجرة قعراً قلعتها من أصلها فانقعرت ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ﴾ (١) .

ثم هوّل من أمر العذاب والإنذار بعد بيانها فقال :

﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ أى فانظروا كيف كان عذابي وإنذاري وقد كرره تعظيماً لشأنه ، وهذه سنة في بليغ الكلام ، في باب إشارة إلى عذاب الدنيا ، والثاني إلى عذاب الآخرة ، كما جاء في قصصهم في آية أخرى ، ﴿ لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾ (٢) .

﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ كذبت ثمود بالنذر ، فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر ، ألقى الذكر عليه من بينا بل هو كذاب أشر ، سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ، إنا مرسلوا الناقة فتنه لهم فارتقبهم واضطرب ونبتهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ، فنادوا صاحبهم فتعاضى فعقر ، فكيف كان عذابي ونذر ، إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

(١) الحاقة الآيات ٦ — ٨

(٢) فصلت آية ١٦

قوله تعالى : ﴿ كَذِبْتَ ثُمَّ دُنِيَ بِالْأَنْدَرِ ﴾ أى كذبت ثمود بنذر الله ورسله الذين بعثهم لخلقهم ، وهم وإن كذبوا صالحاً فحسب ، فإن تكذبه تكذيب لهم جميعاً ، لا تفاقمهم على الأصول العامة للتشريع ، وهى التوحيد ومجيء الرسل واليوم الآخر .

ثم فصل تكذيبهم وحكى عنهم مقامهم فقال تعالى : ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ ﴾ أى أتتبع واحداً من الدهماء ، لا من عِلْيَةِ الْقَوْمِ ولا من أشرافهم ، وليس له ميزة عن امرئ منا بعلم ظاهر ، ولا ثروة وغنى ، تجعله يدعى أن يكون الزعيم لنا ، ثم ذكروا وجه إصرارهم على تكذبه بقولهم : ﴿ إِنَّا إِذَا لَفَى ضَلَالٌ وَسَعَرٌ ﴾ أى إنا لو اتبعناه نكون قد ضللنا الصراط السوى وجانبنا الصواب ، وصرنا لا محالة إلى الجنون الذى لا يرضى به عاقل لنفسه .

ثم بالغوا فى العتو والإنكار ، وتعجبوا من أمره ، ونسبوه إلى الاختلاق والكذب فقالوا : ﴿ أَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا ، بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشَرٌ ﴾ أى أنزل عليه الوحى من بيننا ، وأوقى النبوة ، وهو واحد منا ؟ ولم يختصه الله بإنزال الشرائع عليه ، وهو ليس بملك مكرم ؟ الحق إنه لكذاب متجبر ، يريد أن تكون له السيطرة والسلطان علينا ، ويود أن يكون الرئيس المطاع ، وما ذاك إلا بما زينته له نفسه ، وأغواه به الشيطان ، ولا يستند إلى وحى سماوى ، ولا أمر إلهى .

ثم حكى سبحانه ما قاله لصالح وعدا له ووعدا لقومه فقال : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْأَشْرَ ﴾ أى سيعلمون عن قريب حين يحل بهم الهلاك الدنيوى — من الكذاب البطر الذى حملة بطره على ما فعل ، أصالح فى دعواه الرسالة من ربه ، وأنه أمره بالتبليغ لهداية قومه إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، أم هم فى تكذيبهم إياه ودعواهم عليه الاختلاق والكذب ، ثم ذكر مقدمات العذاب الموعود به فقال تعالى : ﴿ إِنَّا مَرْسَلُوا النَّاقَةَ فَتَنَةً لَهُمْ ﴾ أى إنا مخرجو الناقة من الهضبة التى طلبوا من نبهم بعثها منها ، لتكون آية لهم ، وحجة على صدقه فى ادعائه النبوة ، وتكون فتنة واختباراً لهم ، أيؤمنون بالله ويتبعونه فيما أمرهم به من توحيد ، أم يكذبونه . ويكفرون به ؟ .

﴿ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴾ أى فانتظر ماذا يفعلون ؟ وأبصر ماذا يصنعون ؟ واصبر على أذاهم ولا تعجل حتى يأتى أمر الله ، فإن الله ناصرك ، ومهلك عدوك .

﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴾ أى وأخبرهم أن ماء بشرهم مقسوم بينهم وبين الناقة ، لها يوم ولهم يوم ، وكل حصة منه يحضر صاحبها ليأخذها فى نوبته ، فتحضر الناقة تارة ، ويحضرون هم أخرى .

وقد جعلت القسمة على هذا الوجه لمنع الضرر ، لأن حيوان القوم كانت تنفر منها ، ولا ترد الماء وهى عليه ، فصعب ذلك عليهم . ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾ أى فملت ثمود هذه القسمة ، وأرادوا الخلاص منها ، فنادوا قدار بن سالف وكان أشقاهم ليعقرها وحضوه على ذلك ، فلبى طلبهم ، وتناولها بيده ، وأهوى بالسيف ضرباً على قوائمها ، فخرت صريعة ، ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفياً فففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾^(١) . قال تعالى : ﴿ فكيف كان عذابى ونذر ﴾ ثم فصل هذا العذاب بقوله : ﴿ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴾ أى إنا أرسلنا جبريل ، فضاح بهم صيحة ، فصاروا كالخشيش البالى ، الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته ، وكأنهم هلكوا من أمر بعيد . قال ابن عباس : انهم كانوا مثل القمح الذى ديس وهشم ، كما قال سبحانه : ﴿ وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ، فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين ﴾^(٢) ، ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ أى فهل من متذكر بهذا القرآن ، الذى قد يسر الله حفظه ومعناه ؟ وقال محمد بن كعب القرطبي فهل من منزجر عن المعاصي ؟

قوله تعالى : ﴿ كذبت قوم لوط بالنذر ، إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر ، نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر ، ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر ، ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر ، ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ، فذوقوا عذابى ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

قال العلامة ابن كثير :

يقول تعالى مخبراً عن قوم لوط ، كيف كذبوا رسولهم وخالفوه ، وارتكبوا المكروه من إيتان الذكور ، وهى الفاحشة ، التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، ولهذا أهلكهم الله هلاكاً لم يهلكه أمة من الأمم ، فإنه تعالى أمر جبريل عليه السلام فحمل مدائنهم ، حتى وصل بها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم وأرسلها واتبعت بحجارة من سجيل منضود ، ولهذا قال هنا : ﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصباً ﴾ وهى الحجارة ، ﴿ إلا آل لوط نجيناهم بسحر ﴾ أى خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم ، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد ، حتى ولا امرأته ، أصابها ما أصاب قومها ، وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالماً ، لم يمسه سوء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كذلك نجزي من شكر ﴾ أى أنعمنا عليهم بالنجاة كرامة لهم منا وهكذا نجزي من شكرنا على نعمتنا وأطاعتنا فائتمر بأمرنا ، وانتهى عما نهينا عنه .

(١) الإسراء آية ١٦

(٢) الذاريات الآيات ٤٣ — ٤٥

ثم ذكر أنه ما أهلك من أهلك ، إلا بعد أن أنذرهم عذابه ، وخوفهم بأسه فقال :

﴿ ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر ﴾ أى ولقد أنذرهم نبهم بأس الله وعذابه ، قبل حلوله بهم ، فما التفتوا إلى ذلك ، ولا أصغوا إليه ، بل شكوا فيه وتماروا به ، كما قال الله سبحانه : ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ، إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ، وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾^(١) ، وقال تعالى : ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ، قال رب انصرني على القوم المفسدين ﴾^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه ﴾ وذلك ليلة ورد عليه الملائكة جبريل وميكائيل وإسرافيل ، في صور شباب مرد حسان ، محنة من الله بهم ، فأضافهم لوط عليه السلام ، وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها ، فأعلمتهم بأضياف لوط ، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان ، فأغلق لوط دونهم الباب ، فجعلوا يحاولون كسر الباب ، وذلك عشية ، ولوط عليه السلام يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه ، ويقول لهم ، كما قال الله سبحانه : ﴿ وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات . قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزوني في ضيفي ، أليس منكم رجل رشيد ، قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ، قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾^(٣) فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدخول ، خرج عليهم جبريل عليه السلام ، فضرب أعينهم بطرف جناحه فانطمست أعينهم ، يقال إنها غارت من وجوههم ، وقيل : إنه لم تبق لهم عيون بالكلية ، فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالحيطان ، ويتوعدون لوطاً عليه السلام إلى الصباح ، قال الله تعالى : ﴿ ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ﴾ أى لا يحيد لهم عنه ولا انفكاك لهم منه ﴿ فذوقوا عذابي ونذر ﴾ ، قال تعالى : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك ، وما هي من الظالمين ببعيد ﴾^(٤) ثم ختم سبحانه القصة

(١) الأعراف الآيات ٨٠ — ٨٢

(٢) العنكبوت الآيات ٢٨ — ٢٩

(٣) هود الآيات ٧٨ — ٨٠

(٤) هود الآيات ٨٢ — ٨٣

بقوله : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ وهذه الجملة القسمية ، وردت في آخر كل قصة من القصص الأربع ، تقريراً لمضمون ما سبق من قوله : ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ﴾ وتنبهاً إلى أن كل قصة منها مستقلة بإيجاب الاذكار ، كافية في الازدجار ، ولم يحصل بها مع هذا عظة واعتبار ، وقد جاء هذا التكرير في سورة الشعراء ، من قوله : ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾^(١) ، وفيما سيأتى في سورة الرحمن — إن شاء الله — من قوله : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾^(٢) وقوله في سورة المرسلات : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾^(٣) وهذا كثير في كلام العرب إذا أرادوا العناية بما فيه من هام الأمور .

قوله تعالى : ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر ، كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وقومه : أنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون ، بالبشارة إن آمنوا ، والندارة إن كفروا ، وأيدهما بمعجزات عظيمة ، وآيات متعددة ، فكذبوا بها كلها ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، أى فأبادهم الله ولم يبق منهم مخبر ، ولا عين ولا أثر ، كما قال جل في علاه : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فسل بني اسرائيل ، إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا ، قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورا ، فأراد أن يستفزه من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً ﴾^(٤) ، وقال سبحانه : ﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ، ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾^(٥) .

(١) الشعراء الآيات ٨ — ٩

(٢) الرحمن ١٣

(٣) المرسلات ١٥

(٤) الاسراء الآيات ١٠١ — ١٠٣

(٥) النمل الآيات ١٣ — ١٤

وعد ووعد

﴿ أَكْفَرُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ (٤٣) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنتَصِرُونَ ﴾ (٤٤) ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (٤٥) ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذًى وَأَمْرٌ ﴾ (٤٦) ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ (٤٧) ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ (٤٨) ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (٤٩) ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ (٥٠) ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَدَّكِرٍ ﴾ (٥١) ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ (٥٢) ﴿ وَكُلٌّ صَغِيرٌ مُسْتَطَرٌّ ﴾ (٥٣) ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ (٥٤) ﴿ فِي مَقْعَدٍ صَدِيقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ (٥٥) ﴿

معاني المفردات

﴿ براءة ﴾ أى صك مكتوب بالنجاة من العذاب ، ﴿ والزبور ﴾ الكتب السماوية واحداها زبور ، ﴿ يولون ﴾ أى يرجعون ، ﴿ الدبر ﴾ أى الأدبار هارين منهزمين ، ﴿ والساعة ﴾ هى القيامة ، ﴿ موعدهم ﴾ أى موعد عذابهم ، ﴿ أدهى ﴾ أى أعظم داهية ، وهى الأمر الفظيع ، الذى لا يهتدى للخلاص منه ، يقال دهاه أمر كذا : أى أصابه ، ﴿ وأمر ﴾ أى أشد مرارة فى الذوق ، والمراد الشدة والهول . ﴿ إن المجرمين فى ضلال ﴾ أى فى الدنيا عن الحق ، ﴿ وسعر ﴾ أى نيران واحداها سكير ، ﴿ يسحبون ﴾ أى يجرون ، ﴿ سقر ﴾ اسم لجهنم ، ﴿ ومسها ﴾ حرها ، ﴿ بقدر ﴾ أى مقدر مكتوب فى اللوح المحفوظ ، ﴿ أمرنا ﴾ أى شأننا ، ﴿ واحدة ﴾ أى كلمة واحدة وهى قوله : ﴿ كن ﴾ ﴿ كلمح بالبصر ﴾ أى فى اليسر والسرعة ، ﴿ أشياكم ﴾ أى أشباهكم فى الكفر من الأمم السالفة ، واحدهم شيعة ، وهم من يتقوى بهم المرء من الأتباع ، ﴿ مذكر ﴾ أى متعظ ، ﴿ فى الزبور ﴾ أى فى كتب الحفظ ، ﴿ مستطر ﴾ أى سطور مكتوب فى اللوح بتفاصيله . ﴿ نهر ﴾ أى أنهار ، ﴿ فى مقعد صدق ﴾ أى فى مكان مرضى ، ﴿ عند ملك مقتدر ﴾ أى عند ملك عظيم القدرة واسع السلطان .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه قصص قوم نوح ، وعاد وthumb ، وقوم لوط ، وقوم فرعون ، وفصل ما اجبوا به من عذاب الله ، الذى لا مرد له ، بسبب كفرهم بآياته وتكذيبهم لرسله — أعقب هذا بتنبيه كفار قريش ، إلى أنهم إن لم يتوبوا إلى رشدهم ، ويرجعوا عن غيهم ، فستحل بهم سنتنا ، ويحق بهم من البلاء ، مثل ما حل بأحزابهم من المكذبين من قبلهم ، ثم خاطبهم خطاب إنكار وتوبيخ فقال لهم : على ما تتكلمون ، وماذا تظنون ؟ أنتم خير ممن سبقكم عدداً وكثرة مال وبطشاً وقوة ، أم لديكم صك من ربكم بأنه لن يعذبكم مهما أشركتم واجترحتن من السيئات ؟ أم أنكم تظنون انكم جمع كثير ، لا يمكن أن ينال بسوء ، كلا إن شيئاً من هذا ليس بكائن ، وإنكم ستهزمون ، وسيحل بكم قضاء الله الذى لا مفر منه ، وما سترونه فى الآخرة أشد نكالا ، وأعظم وبالاً ، ثم بين سبحانه أن كل شيء بقضاء الله وقدره ، وإذا أراد الله أمراً ، فإنما يقول له كن فيكون ، ثم نبههم إلى ما كان يجب عليهم أن يتنبهوا له ، من هلاك أمثالهم من الأمم التى كذبت رسلها من قبل ، وفعلت فعلها فأخذها أخذ عزيز مقتدر ، ثم ختم السورة بذكر ما يتمتع به المتقون فى جنات النعيم ، من إجلال وتعظيم ، ويرون ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزَّبْرِ ﴾ ^(١) أى أكفاركم يا معشر قريش خير من أولئكم ، الذين أحللت بهم نقي من قوم نوح وعاد وthumb ؟ فيأملوا أن ينجوا من عذابي ونقمتي ، على كفرهم بى وتكذيبهم رسولى . ﴿ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزَّبْرِ ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : أى أم لكم فى اللوح المحفوظ براءة من العذاب .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ أى يعتقدون أنهم يتناصرون بعضهم بعضاً ، وأن جمعهم يغنى عنهم من أرادهم بسوء ، قال تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ أى سيتفرق شملهم ويغلبون .

قال البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال وهو فى قبة له يوم بدر : « أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم فى الأرض أبداً » فأخذ أبو بكر رضى الله عنه بيده

وقال حسبك يا رسول الله ألححت على ربك ، فخرج وهو يشب في الدرع وهو يقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴾^(١) .

وقال ابن أبي حاتم عن عكرمة قال لما نزلت : (سيهزم الجمع ويولون الدبر) ، قال عمر أى جمع يهزم ؟ أى أتى جمع يغلب ؟ قال عمر فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يشب في الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر ، يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ﴾ .

يخبر تعالى عن المجرمين ، أنهم في ضلال وسعر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء ، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق ، ثم قال تعالى : ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ﴾ أى كما كانوا في سعر وشك وتردد أورثهم النار ، وكما كانوا ضلالاً يسحبون فيها على وجوههم ولا يدرون أين يذهبون ، ويقال لهم تقرعاً وتوبيخاً ذوقوا مس سقر ، أخرج سليم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر ، فنزلت ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ، إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ وأخرجه الترمذى أيضاً وقال حديث حسن صحيح^(٣) .

قوله تعالى : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ، وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ إلى إن كل كائن في هذه الحياة ، فهو بتقدير الله وتكوينه على مقتضى الحكمة البالغة ، والنظام الشامل ، وبحسب السنن التى وضعها فى الخليقة كقوله تعالى : ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾^(٤) ، وقوله : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ﴾^(٥) ، وكقوله سبحانه ﴿ وكان أمر الله قدراً مقدوراً ﴾^(٦) .

قال القرطبى رحمه الله : (عقيدة أهل السنة فى القضاء والقدر) .
الذى عليه أهل السنة ، أن الله سبحانه قدر الأشياء ، أى علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها ، ثم أوجد منها ما سبق فى علمه أنه يوجده ، على نحو ما سبق فى علمه ، فلا يحدث حدث فى العالم العلوى والسفلى ، إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته دون خلقه ، وأن الخلق ليس لهم فيها إلا نوع اكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة ، وأن ذلك كله إنما حصل لهم بتيسير الله تعالى وبقدرته

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه فى تفسير سورة اقتربت الساعة ج ٦ ص ١٧٩ — ١٨٠ .

(٢) أخرجه تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٤٥٧ فى تفسير سورة القمر آية ٤٣ .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى سننه فى المقدمة باب فى القدر ج ١ ص ٣٢ رقم ٨٣ .

(٤) الفرقان آية ٢

(٥) الأعلى الآيات ١ — ٣ .

(٦) الأحزاب آية ٣٨ .

وتوفيقه وإلهامه ، سبحانه لا إله إلا هو ، ولا خالق غيره ، كما نص عليه القرآن والسنة ، لا كما قالت القدرية وغيرهم من أن الأعمال إلينا ، والآجال بيد غيرنا . قال أبو ذر رضى الله عنه : قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ فقالوا : الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا ، فنزلت هذه الآيات إلى قوله : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ فقالوا : يا محمد يكتب علينا الذنب ويعذبنا ؟ فقال « أنتم خصماء الله يوم القيامة » .

روى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن مجوس هذه الأمة المكذبون بأقدار الله إن مرضوا فلا تعودوهم ، وأن ماتوا فلا تشهدوهم ، وإن لقيتموهم فلا تسلموا عليهم » رواه ابن ماجه في سننه (١) .

وفي صحيح مسلم أن ابن عمر تبرأ منهم ، ولا يتبرأ إلا من كافر ، ثم أكد هذا بقوله : والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ، ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر .

وقال الإمام الطحاوى رحمه الله : « وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه ، ولم يطلع على ذلك ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان ، وسلم الحرمان ، ودرجة الطغيان ، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة ، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ، ونهاهم عن مرامه ، كما قال تعالى في كتابه : ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ (٢) ، فمن سأل : لم فعل ؟ فقد رد حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب ، كان من الكافرين .

فهذا جملة ما يحتاج إليه من هو منور قلبه من أولياء الله تعالى ، وهى درجة الراسخين في العلم ، لأن العلم علمان : علم في الخلق موجود ، وعلم في الخلق مفقود ، فإنكار العلم الموجود كفر ، وادعاء العلم المفقود كفر ، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود ، وترك طلب العلم المفقود ، ونؤمن باللوح والقلم ، وبجميع ما فيه قد رقم ، فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه كائن ، ليجعلوه غير كائن ، لم يقدروا عليه ، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه ، ليجعلوه كائناً — لم يقدروا عليه ، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ، وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه ، وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه ، فقدر ذلك تقديراً محكماً مبرماً ، ليس فيه ناقض ، ولا معقب ، ولا مزيل ، ولا مغير ، ولا ناقض ولا زائد من خلقه في سماواته وأرضه ، وذلك من عقد الإيمان ، وأصول المعرفة ، والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته ، كما قال تعالى في كتابه : ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ وكان أمر الله قدراً مقدوراً ﴾ (٤) .

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه في المقدمة باب في القدر ج ١ ص ٣٥ رقم ٩٢ .

(٢) الأنبياء آية ٢٣ .

(٣) الفرقان آية ٢ .

(٤) الأحزاب آية ٣٨ .

فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيماً ، وأحضر للنظر فيه قلباً سقيماً ، لقد التمس بوجهه في فحص الغيب سرّاً كتيماً ، وعاد بما قال فيه أفاكاً أثيماً : (من كتاب العقيدة الطحاوية) .

قوله تعالى : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ أي إنما نأمر بالشئ مرة واحدة ، لا نحتاج إلى تأكيد بثنائية ، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلاً موجوداً كلمح البصر لا يتأخر طرفة عين ، كما قال جل في علاه : ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ ^(١) ، وكقوله تعالى : ﴿ والله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب . إن الله على كل شيء قدير ﴾ ^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مذكر ﴾ أي ولقد أهلكنا أشباهكم يا معشر قريش ، من المكذبين لأنبيائهم من الأمم الخالية ، واستأصلنا شأفتهم بحسب سنتنا في أمثالهم ، بشتى العقوبات كما قال سبحانه : ﴿ وإنكم تمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ ^(٣) ، وقوله : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾ ^(٤) ، وقوله : ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾ ^(٥) ثم بين لهم سبحانه ، أن كل أعمالهم محصاة عليهم ، وسيحاسبون على النقيير والقطمير فقال تعالى : ﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر ، وكل صغير وكبير مستطر ﴾ أي وكل شيء فعلوه مقيد لدى الكرام الكاتبين ، كما قال تعالى : ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ ^(٦) فما من صغيرة ولا كبيرة إلا هي مسطورة في دواوينهم ، وصحائف أعمالهم ، ويوم القيامة يقولون : ﴿ ياويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾ ^(٧) .

روى الامام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً » ^(٨) .

وقيل :

لا تحقرن من الذنوب صغيراً	إن الصغير غدا يعود كبيراً
إن الصغير وإن تقادم عهده	عند الإله مسطر تسطيراً
فأسأل هدايتك إله فتشد	فكفى بربك هادياً ونصيراً

قوله تعالى : ﴿ إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ أي إن الذين اتقوا عقاب ربهم فأطاعوه ، وأدوا فرائضه واجتنبوا معاصيه ، وأخلصوا له العمل في السر والعلن ،

(٥) الأحقاف آية ٢٧

(٦) ق آية ١٨

(٧) الكهف آية ٤٩

(٨) أخرجه أحمد في مسنده ج ٦ ص ٧٠

(١) يس آية ٨٢

(٢) النحل آية ٧٧

(٣) الصافات آية ١٠

(٤) القتال الآيات ١٣٧ - ١٣٨

وقاموا الليل واستغفروا بالأسحار ، لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، يحلون فيها من أساور من ذهب ، ويجلسون على فرش بطائنها من استبرق ، ويجدون فيها من النعيم ما لا يخطر على قلب بشر ، كفاء ما بذلوا من الصبر على مشاق الطاعات ، وحرّموا منه أنفسهم من اللذات كما قيل للربيع بن خيثم ، وقد صلى حتى ورمت قدماه ، وتهجد حتى غارت عيناه ، أتعبت نفسك ، فقال : راحتها أطلب ، كما ينالون الزلفى عند ربهم ، القادر على جزائهم بإحسانه وجوده ، وفضله ومنته ، فكل شيء تحت قبضته وسلطانه ، لا يمانع ولا يغالب وهو العزيز الحكيم .

اللهم احشرنا في زمرة من يسمعون القول ، فيتبعون أحسنه ، إنك أنت السميع المجيب ، ذو الطول العظيم .

تفسير سورة الرحمن

مقدمة

قال صاحب كتاب « بصائر ذوى التمييز »

السورة مكية بالاتفاق

عدد آياتها : ثمان وسبعون

وكلماتها : ثلاثمائة وإحدى وخمسون

وحروفها : ألف وثلاثمائة وست وثلاثون

وسميت سورة الرحمن لمفتتحها

مقصود السورة

معظم مقصود السورة : المنّة على الخلق بتعليم القرآن ، وتلقين البيان ، وأمر الخلائق بالعدل فى الميزان ، والمنّة عليهم بالعصف والريحان ، وبيان عجائب القدرة فى طينة الإنسان وبدائع البحر ، وعجائبها : من استخراج اللؤلؤ والمرجان ، واجراء الفلك على وجه الماء ، أبدع جريان ، وفناء الخلق وبقاء الرحمن ، وقضاء حاجات المحتاجين ، وأن لا نجاة للعبد من الله ، إلا بحجة وبرهان ، وقهره الخلائق فى القيامة بلهيب النار والدخان ، وسؤال أهل الطاعة (وكذا) أهل العصيان وطوف الكفار فى الجحيم ، ودلال المؤمنين فى نعيم الجنان ، ومكافأة أهل الإحسان بالإحسان ، (وسدور) المؤمنين بأزواجهم من الحور الحسان ، وتقليبهم ورودهم فى رياض الرضوان ، على بساط الشاذروان ، وخطبة جلال الحق ، على لسان أهل التوحيد والإيمان ، بقوله تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام .

المتشابهات

قوله ﴿ ووضع الميزان ﴾ أعاده ثلاث مرات ، فصرح ولم يضمّر ، ليكون كل واحد قائماً بنفسه غير محتاج إلى الأول ، وقيل : لأن كل واحد غير الآخر . الأول ميزان الدنيا ، والثانى ميزان الآخرة ، والثالث ميزان العقل : نزلت متفرقة ، فاقتضى الاظهار .

قوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ كرر الآية احدى وثلاثين مرة ، ثمانية منها ذكرت عقيب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وبدائع صنعه ، ومبدأ الخلق ومعادهم ، ثم سبعة منها عقيب آيات فيها ذكر النار وشدائدها ، على عدد أبواب جهنم ، وحسن ذكر الآلاء عقيبها ، لأن في حرفها ودفعها نعما توازي النعم المذكورة ، أو لأنها حلت بالأعداد وذلك يعد من أكثر النعماء ، وبعد هذه السبعة ، ثمانية في وصف الجنان وأهلها ، على عدد أبواب الجنة ، وثمانية أخرى بعدها للجنات اللتين دونها ، فمن أعتقد الثمانية الأولى ، وعمل بموجبها ، استحق كلتا الثمانيتين من الله ، ووقاه السبعة السابقة ، والله أعلم .

مناسبتها لما قبلها

لما قال سبحانه في آخر سورة القمر (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) ثم وصف حال المجرمين في سقر ، وحال المتقين في جنات ونهر ، فصل هذا الإجمال في هذه السورة أتم تفصيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا ۝ فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ ﴾

معاني المفردات

﴿ الرحمن ﴾ اسم من أسماء الله الحسنى ، ﴿ الإنسان ﴾ هو هذا النوع ، ﴿ البيان ﴾ تعبير الإنسان عما في ضميره ، وإفهامه لغيره ، ﴿ بحسبان ﴾ أى بحساب دقيق منظم فالحُسبان يضم الحاء مصدر مثل الغفران ومعناه الحساب .

﴿ يسجدان ﴾ أى ينقادان لله طبعاً كما ينقاد المكلفون اختياراً ، ﴿ رفعها ﴾ أى خلقها مرفوعة المحل والمرتبة ، ﴿ الميزان ﴾ العدل والنظام ، ﴿ أقيموا الوزن بالقسط ﴾ أى قوموا وزنكم بالعدل ، ﴿ ولا تحسروا الميزان ﴾ أى لا تنقصوه ، ﴿ للأنام ﴾ أى للخلق ، ﴿ والأكام ﴾ واحدها (كِم) بالكسر : وعاء الثمر ، ﴿ والعصف ﴾ ورق النبات الذى على السنبلة ، ﴿ والريحان ﴾ كل مشموم طيب الرائحة من النبات ، والآلاء : النعم واحدها ألى (بفتح الهمزة وكسرهما) .. ﴿ الصلصال ﴾ الطين اليابس الذى له صلصلة وصوت إذا نقر ، ﴿ الفخار ﴾ الخزف وهو الطين المطبوخ ، ﴿ الجان ﴾ نوع من الجن ، ﴿ والمارج ﴾ اللهب الخالص الذى لا دخان فيه ، ﴿ رب المشرقين ﴾ أى مشرق الشمس صيفاً وشتاءً ، ﴿ ورب المغربين ﴾ أى مغربيهما كذلك (مرج البحرين) أى أرسلهما وأجراهما من قولك مرجت الدابة فى المرعى : أى أرسلتها فيه (يلتقيان) أى يتجاوران وتتماس سطوحهما لا فصل بينهما فى رأى العين ، ﴿ بروزخ ﴾ أى حاجز ، ﴿ لا يبغيان ﴾ أى لا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة وإبطال خاصته . ﴿ واللؤلؤ ﴾ الدر المخلوق فى الأصداف ، ﴿ والمرجان ﴾ الخرز الأحمر ، ﴿ الجوارى ﴾ السفن الكبار ، ﴿ المنشئات ﴾ أى المصنوعات . ﴿ والأعلام ﴾ الجبال واحدها علم وهو الجبل العالى ، ﴿ فان ﴾ أى هالك ، ﴿ ذو الجلال والاکرام ﴾ أى ذو العظمة والكبرياء .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ﴾ .
 ﴿ الرحمن ﴾ من الأسماء الحسنى مختص بالله تعالى لا يجوز أن يسمى به غيره ، قال تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾^(١) ، وهو يجرى غالباً مجرى الصفة له تعالى ، نحو : (بسم الله الرحمن الرحيم) وقد يذكر موصوفاً ، كما قال تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾^(٢) .

(١) الاسراء آية ١١٠

(٢) طه آية ٥

قال الخطابي : ذهب الجمهور من الناس ، إلى أنه اسم مشتق من الرحمة ، مبنى على المبالغة ، ومعناه ذو الرحمة ، الذى لا نظير له فيها ، ولذلك لا يثنى ولا يجمع ، وذكر اسم الرحمن سبعا وخمسين مرة ، فى كتاب الله الكريم ، وأكثر سورة ذكر فيها اسم الرحمن « سورة مريم » إذ ذكر « الرحمن » ستة عشر مرة ، ولم أر اسماً من أسماء الله الحسنى حل محل اسم الجلالة فى القرآن الكريم ، أكثر من هذا الاسم ، وكثير من العلماء يفسر ﴿ الرحمن ﴾ بأنه المنعم بعظائم النعم ، وجلائل الآلاء ، ويفسر ﴿ الرحيم ﴾ بأنه المنعم بدقائق النعم ، ولطائفها ، وإننا لنسير مع اللغة العربية فى تفهم صيغة ﴿ الرحمن ﴾ ، وصيغة ﴿ الرحيم ﴾ إذ لابد لكل صيغة من مدلول لغوى ، مقصود المعنى ، باهر الدلالة ، وقد نزل القرآن بلسان عربى مبين (فالرحمن) صيغة جاءت بها اللغة للدلالة على التكثير والتكبير ، وللدلالة على ما يصدر عن تلك الصفة ، من رحمت متجددات ، وتعطفات مستمرات ، وأما (الرحيم) فصيغة تدل على الوصف الملازم الثابت ، فتكون دلالة الوصفين أن الله سبحانه وتعالى (رحيم) فى ذاته ، قد ثبتت له تلك الصفة ثبوتاً ذاتياً سرمدياً أبدياً ، ثم هو (رحمن) كثير الرحمة بعباده ، لا تنقطع عنهم آثار الرحمة ، ولا تستغنى عنها الحياة لحظة من لحظاتها (فالرحمن) الذى تتجدد رحمته ، ويتتابع إحسانه ..

إن آثار رحمة الله دلت عليها صيغة (رحمن) لتبدو فى كل لحظة ، بل فى كل برهة ، بل فى كل نفس يتنفسه الكائن الحى ، فى كل لحظة تسبح فيها الأفلاك رحمة من الله ، وفى كل حركة تجرى فى الأرض ، أو فى السماء رحمة من الله ، ولو تخلت هذه الرحمة عن العوالم برهة ، لكان الفساد الشامل ، بل العدم المطلق ، فهذه الرحمة المتجددة ، ذات الآثار السرمدية ، هى التى لا تنتهى آثارها ، ولا ينقطع مددها ، يقول تعالى : ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لحى الموتى ، وهو على كل شئ قدير ﴾ (١) ، ويقول تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ، ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ (٢) .

فإن عظمة قدرته ، وعمت رحمته ، يصون هذا الإنسان ، ويحرسه ويرعاه فى كل طور من أطوار تربيته ، ثم يتعهدده بالرزق والعون والميدد ، فى قلل الجبال ، وفى سارب البحار ، وفى مرامى

(١) الروم آية ٥٠

(٢) الروم الآيات ٢٠ - ٢٥

الفلوات ، وإن جن الليل ، وإن انبثق النهار ﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾^(١) . ويقول تعالى : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير ، له ما في السموات وما في الأرض وإن الله هو الغنى الحميد ، ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجرى في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾^(٢) ، ومن أعطى اسم « الرحمن » حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل ، وإنزال الكتب أعظم من تضمينه علم إنزال الغيث وإنبات الكلاء ، وإخراج الحب ، فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح ، أعظم من اقتضاؤها لما تحصل به حياة الأبدان والاشباح ، يقول تعالى : ﴿ هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وإن الله بكم لرءوف رحيم ﴾^(٣) ، ويقول جل وعلا : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾^(٤) ، لذا ذكره المولى سبحانه وتعالى في أول النعم ، فقال تعالى : ﴿ علم القرآن ﴾ أى سهله لأن يذكر ويقرأ ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ﴾^(٥) ، وقال الخازن : إن الله عز وجل عدد نعمه على عباده ، فقدم أعظمها نعمة ، وأعلاها رتبة ، وهو القرآن العظيم ، لأنه أعظم وحى الله إلى أنبيائه ، وأشرفه منزلة عند أوليائه وأصفيائه ، وأكثره ذكراً ، وأحسنه في أبواب الدين أثراً ، وهو سنام الكتب السماوية المنزلة على أفضل البرية .

وقوله تعالى : ﴿ خلق الإنسان ﴾ أى خلق الإنسان السميع البصير الناطق ، والمراد بالإنسان

الجنس .

وقوله : ﴿ علمه البيان ﴾ أى ألهمه النطق ، الذى يستطيع به أن يبين عن مقاصده ورغباته ، وهو مما فضل به الإنسان على سائر الحيوان . وقال السدى : علم كل قوم لسانهم الذى يتكلمون به ، وقال يمان : البيان : الكتابة والخط بالقلم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾^(٦) ، قال البيضاوى : والمقصود تعداد ما أنعم الله به على نوع الإنسان ، حثا على شكره ، وتنبيهاً على تقصيرهم فيه ، وإنما قدم تعليم القرآن على خلق الإنسان ، لأنه أصل النعم الدينية ، فقدم الأهم .

(١) الأنبياء آية ٤٢

(٢) الحج الآيات ٦٣ - ٦٥

(٣) الحديد آية ٩

(٤) العنكبوت آية ٥١

(٥) القمر آية ١٧

(٦) العلق الآيات ١ - ٥

ويقول الإمام ابن القيم قوله تعالى : ﴿ الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ﴾ دلت هذه الكلمات ، على إعطائه سبحانه مراتب الوجود بأسرها ، فقوله خلق الإنسان : إخبار عن الإيجاد الخارجى العينى ، وخص الإنسان بالخلق ، لأنه موضع العبرة ، والآية فيه عظيمة ، ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم ، وقوله : ﴿ علم القرآن ﴾ إخبار عن إعطائه الوجود العلمى الذهنى ، فإنما تعلم الإنسان القرآن بتعليمه ، كما أنه إنما صار إنساناً بخلقه ، فهو الذى خلقه وعلمه ، ثم قال : ﴿ علمه البيان ﴾ والبيان هنا يتناول مراتب ثلاثة ، كل منها يسمى بياناً ، أحدها البيان الذهنى ، الذى يميز فيه بين المعلومات ، الثانى : البيان اللفظى ، الذى يعبر به عن تلك المعلومات ، ويترجم عنها فيه لغيره . الثالث : البيان الرسمى الخطى ، الذى يرسم به تلك الألفاظ ، فيتبين الناظر معانيها ، كما تبين للسامع معانى الألفاظ ، فهذا بيان للعين ، وذاك بيان للسمع ، والأول بيان للقلب ، وكثيراً ما يجمع سبحانه بين هذه الثلاثة ، كقوله تعالى : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئلاً ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ (٢) ، ويذم من عدم الانتفاع بها فى اكتساب الهدى والعلم النافع كقوله : ﴿ صم بكم عمى ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ (٤) ..

ويقول : فاشتملت هذه الكلمات على مراتب الوجود كلها ، وأنه سبحانه هو معطيها بخلقه وتعليمه ، فهو الخالق المعلم ، وكل شئ فى الخارج ، فبخلقه وجد ، وكل علم فى الذهن ، فتعليمه حصل ، وكل لفظ فى اللسان أو خط فى البنان ، فبأقداره وخلقته وتعليمه ، وهذا من آيات قدرته وبراهين حكمته ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، فكان العلم أحد الأدلة الدالة عليه ، بل من أعظمها وأظهرها ، وكفى بهذا شرفاً وفضلاً له (أى للعلم) .

اقوله تعالى : ﴿ الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطفؤا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان فبأى آلاء ربكم تكذبان ﴾ .

انتقل النص القرآنى بعد ذلك لصفحة الكون المنظور ، الناطقة بآلاء الله الجليلة ، وآثاره العظيمة ، التى لا تعد ولا تحصى ، قال تعالى : ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ أى إن الشمس والقمر ، وهما من

(١) الاسراء آية ٣٦

(٢) النحل آية ٧٨

(٣) البقرة آية ١٨

(٤) البقرة آية ٧

أعظم الأجرام ، يجريان في بروجهما ومنازلهما ، بحساب مقدر معلوم ، وبهما تنتظم أمور المخلوقات الأرضية ، وتختلف الفصول ، وبهذا الحسبان ، انتفع بهما الناس في شئون الزراعة ، كمواعيد البذر والحصاد ، وما ينفع منها في كل فصل من الفصول ، وفي الأمور المالية ، من بيع وشراء ، لآجال محدودة ، من شهور وسنين ، وفي تقدير الأعمار والآجال التي تقدمت ، وجاءت في أخبار الماضيين ، والتي ستكون للحاضرين كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً ﴾ (١) ، وكقوله تعالى : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ (٢) وكقوله : ﴿ فالفق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ (٣) ، وبعد أن ذكر سبحانه ، أن الشمس والقمر طوع قدرته ، وقد جعل لهما النظم الدقيقة في الحسبان ، أردفه انقياد العوالم الأرضية له ، فقال تعالى : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ أي والنجم والشجر ، يسجدان للكبير المتعال ، كما قال تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾ (٤) .

قال النحاس أصل السجود في اللغة : الاستسلام والانقياد لله عز وجل ، فهو من الموات كلها استسلامها ، لأن الله عز وجل ، وانقيادها له ، ومن الحيوان كذلك ، ويكون من سجود الصلاة .

قوله تعالى : ﴿ والسماء رفعها ﴾ كقوله : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾ (٥) ، وكقوله : ﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ﴾ (٦) . وقوله تعالى : ﴿ ووضع الميزان ﴾ أي العدل كما قال تعالى : ﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾ (٧) ، وكقوله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ (٨) ، قال مجاهد وقتادة والسدي : أي وضع في الأرض العدل ، الذي أمر به ، وقال

(١) الإسراء الآية ١٢

(٢) يونس الآية ٥

(٣) الأنعام الآية ٩٦

(٤) الحج الآية ١٨

(٥) ق الآية ٦

(٦) الرعد الآية ٢

(٧) الشورى الآية ١٧

(٨) الحديد الآية ٢٥

الحسن وقتادة — أيضاً — والضحاك: هو الميزان ذو اللسان الذى يوزن به ، لينتصف به الناس بعضهم من بعض ، وهو خبر بمعنى الأمر بالعدل ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الزُّنْنَ بِالْقِسْطِ ﴾ والقسط العدل ، ﴿ وَلَا تَخْسَرُوا الْمِيزَانَ ﴾ أى لا تبخسوا الوزن بل وزنوا بالحق والقسط كما قال تعالى : ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾^(١) ، وقال تعالى : ﴿ وَيَلِ الْمَظْفَفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ . وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٢) ، وأهلك الله قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس فى الميزان والمكيال .

قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ، فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرِّيحَانُ فَبَأَى آلَاءُ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴾ .

أى كما رفع السماء وضع الأرض ومهدا وأرساها بالجبال الراسيات الشاخات ، لتستقر لما على وجهها من الأنام ، وهم الخلائق ، المختلفة أنواعهم وأشكالهم والوانهم وألستهم فى سائر أقطارها وأرجائها ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تُمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سَبِيلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾^(٣) ، وكقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴾ أى فيها ما يتفكه به من ألوان الثمار ، طازجة ومطبوخة ومجففة ، على شتى الأشكال ، وجذوب الألوان ، والنخل ذات الأوعية لثمرها حين ظهوره ، وأفردا بالذكر لكثرتها بالبلاد العربية ، وكثرة فوائدها ، لأنه ينتفع بثمارها رطبة ويابسة ، وينتفع بجميع أجزائها ، فيتخذ من خوصها السلال والزنايل ، ومن ليفها الحبال ، ومن جريدتها سقف البيوت ، ويؤكل جُمارها ، ومن ثم ذكرها باسمها ، وذكر الفاكهة دون أشجارها .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرِّيحَانُ ﴾ أى وجميع الحبوب ، التى يقتات بها كالحنطة والشعير ، ولها عصف من الورق على سنابلها ، وكل مشموم من النبات تطيب رائحته ، وذكر أولاً الفاكهة ، لأنها للتفكهة فحسب ، ثم النخل لأن ثمرها فاكهة وغذاء ، ثم الحب الذى عليه المعول فى

(١) الإسراء الآية ٣٥

(٢) المطففين الآيات ١ — ٥

(٣) الأنبياء الآية ٣١

(٤) الملك الآية ١٥

الغذاء في جميع البلاد ، فهو أتم نعمة لموافقة لمزاج الإنسان ، ومن ثم خلقه الله في سائر البلاد ، وجعل النخل في البلاد الحارة دون غيرها . وقوله تعالى : ﴿ فَبَأَى آلاء ربكما تكذبان ﴾ أى فبأى النعم المتقدمة يا معشر الثقيلين من الجن والإنس تكذبان ؟ والمراد من تكذيب آلائه كفرهم بربهم ، لأن إشراكهم آلهتهم به في العبادة ، دليل على كفرانهم بها ، إذ من حق النعم أن تشكر ، والشكر إنما يكون بعبادة من أسداها إليهم ، قال ابن كثير في تفسيره :

قال أبو عيسى الترمذى بسنده عن جابر ، قال خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ، فقرأ عليهم سورة الرحمن ، من أولها إلى آخرها ، فسكتوا فقال : (لقد قرأتها على الجن ليلة الجن ، فكانوا أحسن مردوداً منكم) كنت كلما أتيت على قوله : ﴿ فَبَأَى آلاء ربكما تكذبان ﴾ قال لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد .. فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون به ، اللهم ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد وكان ابن عباس يقول لا بأىها يارب أى لا نكذب بشيء منها^(١) .

وقد كررت هذه الآية ، في واحدة وثلاثين موضعاً من السورة تقريراً للنعمة ، وتأكيذاً للتذكير بها ، فتراه سبحانه عدد نعمه على الخلق ، وفصل بين كل نعمتين بما يذكرهم ويقررهم بها .

وقال القرطبى رحمه الله : قال الترمذى محمد بن على : هذه السورة من بين السور عَلم القرآن ، والعلم إمام الجند ، والجند تتبعه ، وإنما صارت علماً ، لأنها سورة صفة الملك والقدرة ، فقال : ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ فافتتح السورة باسم الرحمن من بين الأسماء ، ليعلم العباد أن جميع ما يصفه بعد هذا من أفعاله ومن ملكه وقدرته ، خرج إليهم من الرحمة العظمى من رحمانيته فقال : ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ ثم ذكر الإنسان فقال : ﴿ خلق الإنسان ﴾ ثم ذكر ما صنع به ، وما من عليه به ، ثم ذكر حساب الشمس والقمر ، وسجود الأشياء من نجم وشجر ، وذكر رفع السماء ووضع الميزان وهو العدل ، ووضع الأرض للأنام ، فخاطب هذين الثقيلين الجن والإنس ، حين رأوا ما خرج من القدرة والملك برحمانيته ، التى رحمهم بها من غير منفعة ولا حاجة إلى ذلك ، فأشركوا به الأوثان وكل معبود اتخذوه من دونه وجحدوا الرحمة ، التى خرجت هذه الأشياء بها إليهم ، فقال سائلاً لهم : ﴿ فَبَأَى آلاء ربكما تكذبان ﴾ أى بأى قدرة ربكما تكذبان ، فإنما كان تكذيبهم ، أنهم جعلوا في هذه الأشياء التى خرجت من ملكه وقدرته ، شريكاً يملك معه ويقدر معه ، فذلك تكذيبهم ، ثم ذكر خلق الإنسان من صلصال ، وذكر خلق الجنان من مارج من نار ، ثم سألهم فقال : ﴿ فَبَأَى آلاء ربكما تكذبان ﴾ أى بأى قدرة ربكما تكذبان ، فإن له في كل خلق بعد خلق ، قدرة بعد قدرة ، فالتكرير في هذه الآيات للتأكيد والمبالغة في التقرير ، واتخاذ الحجة عليهم بما وقفهم على خلق خلق .. أهـ .

قوله تعالى : خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، رب المشرقين ورب المغربين فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴿١﴾ .

يذكر تعالى خلقة الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ، قال الامام أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » أى من طين . ورواه أيضاً مسلم . (١) .

وقد جاء فى الكتاب الكريم ، عبارات مختلفة فى خلق الإنسان ، باعتبار مراتب الخلق ، فمرة قال : انه خلق من تراب ، وأخرى قال : إنه من طين ، وثالثة قال : إنه من طين لازب ، أى لاصق باليد لما اختلط به من الماء ، وهنا قال من صلصال ، وهى مادة الأصل ، وأحياناً يذكر مادة الفرع ، وهو الماء المهيّن .

﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ مما أفاض عليكم فى تضاعيف خلقكما من سوابغ النعم .

ولما فرغ من إيضاح خلق الإنسان ، شرع يوضح خلق الشمس والقمر بحسبان ، فقال تعالى : ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ أى رب مشرق الصيف والشتاء ، ومغربيهما ، اللذين يترتب عليهما تقلب الفصول الأربعة ، وتقلب الهواء وتنوعه ، وما يلى ذلك من الأمطار والشجر والنبات والأنهار الجاريات ، ولما كان فى اختلاف هذه المشارق والمغارب ، مصالح للخلق من الجن والإنس ، قال : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان فبأى آلاء ربكما تكذبان ، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فبأى آلاء ربكما تكذبان وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

ولما ذكر نعمه التى ترى على عباده فى البر ، أعقبها بنعمه عليهم فى البحر فقال تعالى : ﴿ مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ أى أرسل البحر الملح والبحر العذب ، متجاورين متلاقين ، لا يبغي أحدهما على الآخر ، فلا الملح يطغى على العذب فيجعله ملحاً ، ولا العذب يجعل البحر الملح مثله ، فقد حجز بينهما ربهما بحاجز من قدرته ، فترى نهر النيل بمصر يخرج من جبال الحبشة ويجرى

شمالاً ، حتى يصب في البحر الأبيض المتوسط ولا ينفى أحدهما على الآخر ، كما قال سبحانه : ﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً ﴾ (١) . ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ وقد ثبت في الكشف الحديث ، أن اللؤلؤ كما يستخرج من البحر الملح ، يستخرج من البحر العذب ، وكذلك المرجان ، وإن كان الغالب ، أنه لا يستخرج إلا من الماء الملح . ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ أى فبأى هذه النعم تكذبان ؟ .

وقوله تعالى : ﴿ وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام ﴾ أى وله السفن الكبار ، التى رفعت شرعها في الهواء كالجبال الشاهقة تجرى في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ، فهى كالجبال فى كبرها ، وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة ، من قطر إلى قطر ، واقليم إلى اقليم ، بما فيه صلاح للناس فى جلب ما يحتاجون إليه ، من سائر أنواع البضائع ولهذا قال تعالى : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

والبر والبحر فيض من عطاياه	والشمس والبدر من أنوار حكمته
والموج كبره والحوت ناجياه	الطير سبحه والسوحش مجده
والنحل يهتف حمداً في خلاليه	والثمل تحت الصخور الصم قدسه
والعبد ينسى وربى ليس ينساه	والناس يعصونه جهراً فيسترهم

قوله تعالى : ﴿ كل من عليها فإن ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض ، سيذهبون ويموتون أجمعون ، وكذلك أهل السموات ، إلا من شاء الله ، ولا يبقى سوى وجهه الكريم ، فإن الرب تعالى وتقدس لا يموت ، بل هو الحى الذى لا يموت أبداً .

قال قتادة : أنبأ بما خلق ، ثم أنبأ أن ذلك كله فان ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ (٢) ووجه النعمة فى فناء الخلق ، أن الموت سبب النقل إلى دار الجزاء والثواب .

(١) الفرقان الآية ٥٣

(٢) القصص الآية ٨٨

وقوله تعالى : ﴿ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ الجلال عظمة الله وكبرياؤه واستحقاقه صفات المدح ،
﴿ وَالْإِكْرَامِ ﴾ أى هو أهل لأن يكرم عما لا يليق به من الشرك ، قال ابن عباس ذو الجلال والإكرام
ذو العظمة والكبرياء .

وعن أنس رضى الله عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ جالساً ورجل يصلى ثم دعا فقال « اللهم
إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حى
يا قيوم » فقال النبي ﷺ : « لقد دعا الله باسمه العظيم . الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به
أعطى » (١) .

(أخرجه أهل السنن الأربعة والأمام أحمد فى مسنده) .

وفى مسند الامام أحمد وصحيح الحاكم عن حديث أبى هريرة وأنس بن مالك وربيعة بن عامر
عن النبي ﷺ أنه قال : « أَلْظُّوا بِيَاذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » (٢) (أَلْظُّوا) (بفتح الألف وكسر اللام
وتشديد الظاء) قال أبو عبيدة : الإلظاظ : لزوم الشيء والمثابرة عليه ، ويقال : الإلظاظ الإلحاح .
والمعنى : تعلقوا بها والزموا وداوموا عليها . وعن سعيد المقبرى أن رجلاً ألح فجعل يقول : اللهم يا
ذا الجلال والإكرام ! اللهم يا ذا الجلال والإكرام ! فنودى أنى قد سمعت فما حاجتك ؟

ولما أخبر سبحانه عن تساوى أهل الأرض كلهم فى الوفاة ، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة ،
فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام ، بحكمه العدل قال : ﴿ فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

البقاء لله وحده

أخوانى ، تفكروا فى مصارع الذين سبقوا ، وتدبروا مصيرهم أين انطلقوا ، واعلموا أن القوم
انقسموا وافترقوا ، قوم منهم سعدوا ، ومنهم قوم شقوا .
شعر :

عجبت والدمر لا تفنى عجائبه	للاكنين إلى الدنيا وقد صدقوا
وطال ما نغصوا بالفجع ضاحية	وطال بالفجع والتنغيص ما طرقوا
دار تفر بها الآمال مهلكة	وذو التجارب فيها خائف فرق
يا للرجال لخدوع بزخرفها	بعد البيان ومغرور بها يثق

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه كتاب الدعاء باب اسم الله الأعظم ج ٢ ص ١٢٦٨ رقم ٨٣٥٨ .

(٢) أخرجه الامام أحمد فى سننه ج ٤ ص ١٧٧ .

أقول والنفس تدعوني لباطلها
أين الذين إلى لذاتها ركنوا
أمت مساكنهم قفراً معطلة
يا أهل لذات دار لا بقاء لها
أين المملوك ملوك الناس والسوق
قد كان فيها لهم عيش ومرتفق
كأنهم لم يكونوا قبلها خلقوا
إن اغتراراً بظل زایل حمق

وقال الحسن : إن الله تبارك وتعالى ، قد كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء ، فلا فناء لما كتب عليه البقاء ، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء ، فلا يغرنكم مشاهد الدنيا على غائب الآخرة ، واقهروا طول الأمل بقصر الأجل .

شعر :

ألا كل حى هالك وابن هالك
فقل لغريب الدار انك راحل
وما تعدم الدنيا الدنية أهلها
تجرع فيها هالكاً فقد هالك
فلا تحسب الدنيا إذا ما سكنتها
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له
عليك بدار لا يزال ظلالها
فما يبلغ الراضى رضاه يبلغه
وذو نسب فى الهالكين عريق
إلى منزل فأى المحل سحيق
شواظ حريق أو دخان حريق
وتشجى فريقاً منهم بفريق
قراراً فما دنياءك غير طريق
عن عدو فى ثياب صديق
ولا يتأذى أهلها بمضيّق
ولا ينفع الصادى صده بريق

قال الحسن البصرى : ما عجبت من شيء ، كعجبي من رجل لا يحسب حب الدنيا من الكبائر ، وأيم الله إن حبها لمن أكبر الكبائر ، وهل تشعبت الكبائر إلا من أجلها ؟ وهل عبدت الأصنام وعصى الرحمن ، إلا لحب الدنيا وإيثارها ؟ .

وكان يقول : من عرف ربه أحبه ، وآثر ما عنده ، ومن عرف الدنيا وغرورها ، زهد فيها .
وقيل له : يا أبا سعيد هل يرى الله عز وجل فى دار الدنيا ؟

فقال : لا ! قيل : فهل نراه فى الدار الآخرة ؟ فقال : نعم !

قيل : وما الفرق بين ذلك ؟ فقال : لأن الدنيا فانية ، وفان كل ما فيها ، ولأن الآخرة باقية ، وباق كل ما فيها ، ومحال أن يرى الباقي بالفانى ، والقديم الأزلى بالحدث ، وإذا كان يوم القيامة خلق الله لعباده أبصاراً باقية ، يرون بها ربهم تفضلاً عليهم وإكراماً لهم .

وكان يقول : روى أن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، دخل على رسول الله ﷺ ، وهو راقد على سرير موصول بالشريط وقد أثر في جنبه أثر الحبل فدمعت عيناه : فقال النبي ﷺ « مالك يا ابن الخطاب ؟ فقال : ذكرت كسرى وقىصر وما هما فيه من الملك والتنعيم ، ورأيتك وأنت رسول الله وصفيه ومصطفاه وحببيه تنام على سرير موصول بالشريط ، فقال : ﷺ : أما ترضى يا عمر أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ فقال : رضيت يا رسول الله ، فقال ﷺ : إنما مثلى ومثل الدنيا كراكب سافر في يوم صائف فرفعت له شجرة ذات ظل ظليل ، فنزل إليها فقال (أى نام) تحتها هنية ، ثم راح وتركها » (١) .

وكان يقول : وجد في حجر مكتوب : ابن آدم ، لو أنك رأيت قليل ما بقى من أجلك ، لزهدت فيما ترجوه من أملك ، ولرغبت في الزيادة من عملك ، ولقصرت في حرصك وحيلك ، وإنما يلقاك غداً ندمك ، لقد زلت بك قدمك ، وأسلمك أهلك وحشمك ، وتبرأ منك القريب وانصرف عنك الحبيب ، وصرت تدعى ولا تجيب .
شعر :

يا غادياً في غفلة ورائحاً	إلى متى تستحسن القبائح
وكم إلى كم لا تخاف موقفاً	يستنطق الله به الجوارح
يا عجباً منك وأنت مبصر	كيف تجنبت الطريق الواضحا
كيف تكون حين تقرأ في غد	صحيفة قد حوت الفضائح
وكيف ترضى ان تكون خاسراً	يوم يفوز من يكون راجحاً

ذم رجل الدنيا عند علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، فقال على الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار نجاة لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها ، مهبط وحى الله ، ومُصلى ملائكته ، ومسجد أنبيائه ، ومتجر أوليائه ، ربخوا منها الرحمة ، واحتسبوا فيها الجنة ، فمن ذا يذمها وقد آذنت بيئها ، ونادت بفراقها ، وشبهت بسرورها السرور ، وببلائها البلاء ترغيباً وترهيباً .

فيأياها الذام للدنيا المعلن نفسه ، متى خدعتك الدنيا ، أم ي استذمت إليك ، أم صارع آباءك في البلى ، أم بمضاجع أمهاتك في الثرى ، كما مرضت بيديك ، وعملت بكفيك ، تطلب له الشفاء ، وتستوصف له الأطباء ، غداة لا يغنى عنه دواؤك ، ولا ينفعك بكاؤك .

وقيل لبكر بن عبد الله المزني : صف لنا الدنيا ، فقال : ما مضى منها فحلم ، وما بقى فأمانى

وقيل : الدنيا عرض حاضر ، يأكل منه البر والفاجر ، والآخرة وعد صدق ، يحكم فيها ملك قادر ، يفصل الحق من الباطل .

وقال ابن مسعود : ليس من الناس أحد إلا وهو ضيف على الدنيا ، وماله عارية ، فالضيف مرتحل ، والعارية مردودة .
شعر :

يا خاطب الدنيا إلى نفسه تنحّ عن خطبها تسلم
إن التى تخطب غرارة قريّة العرس من المأتم

وقال لقمان لابنه : إن الدنيا بحر عريض ، قد هلك فيه الأولون والآخرون ، فإن استطعت فاجعل سفينتك تقوى الله ، وعدتك التوكل على الله ، وزادك العمل الصالح ، فإن نجوت فبرحمة الله ، وإن هلكت فبذنوبك .

وقال بعض الحكماء : السعيد من اعتبر بأمه ، واستظهر لنفسه ، والشقى من جمع لغيره ، وبخل على نفسه .

وقال بعض الشعراء :

من كان يعلم أن الموت مدركه والقبر سكنه والبعث مخرجه
وأنه بين جنات ستهجه يوم القيامة أو نار ستنضجه
فكل شيء سوى التقوى به سميح وما أقام عليه منه أسمى
ترى الذى أتخذ الدنيا له وطنا لم يدر أن المنايا سوف تزعجه

روى جعفر بن محمد ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، عن النبي ﷺ : أنه قال فى بعض خطبه .

« أيها الناس ، إن لكم نهاية فانتهاوا إلى نهايتكم ، وإن لكم معالم فانتهاوا إلى معالمكم ، وإن المؤمن بين مخافتين ، أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه ، وأجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه ، فليتزود العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الحياة قبل الموت ، فإن الدنيا خلقت لكم ،

وأنتم خلقتُمْ للآخرة ، فو الذى نفس محمد بيده : ما بعد الموت من مستعقب ، ولا بعد الدنيا دار ، إلا الجنة أو النار ^(١) .

من مشاهد القيامة

﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ ^(٢٩) ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾
 ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّةَ الثَّقَلَانِ ﴾ ^(٣٠) ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ^(٣١) ﴿ بِمَعْشَرٍ ابْنِ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَنِ ﴾ ^(٣٢)
 ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ^(٣٣) ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّنْ نَّارٍ وَنَحَّاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴾ ^(٣٤) ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ^(٣٥) ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ ^(٣٦) ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ^(٣٧)
 ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ^(٣٨) ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ^(٣٩) ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ^(٤٠)
 ﴿ يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأُقْدَامِ ﴾ ^(٤١) ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ^(٤٢)
 ﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ ^(٤٣) ﴿ يَطُوفُونَ فِيهَا بَيْنَ ذَيْنِ جَمِيمٍ ﴾ ^(٤٤) ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ^(٤٥) ﴿

معانى المفردات

﴿ يسأله من في السموات والأرض ﴾ أى يطلبون منه ما يحتاجون إليه ، ﴿ هو في شأن ﴾ أى في أمر من الأمور ، فيحدث أشخاصاً ، ويجدد أحوالاً ، ﴿ سنفرغ لكم ﴾ أى سنقصد لمحاسبتكم بعد الإمهال ، ﴿ أيما الثقلان ﴾ الإنس والجن ، ﴿ أن تنفذوا ﴾ أى تخرجوا ، ﴿ والأقطار ﴾

(١) - أخرجه الجامع لأحكام القرآن لابی عبد الله القرطبي ج ١٨ ص ١١٦ تفسير سورة الجمعة آية ٤٠ .

الجوانب ، واحدها قطر ، ﴿ والسلطان ﴾ إلا بأمر الله ، ﴿ الشواظ ﴾ اللهب الخالص ، ﴿ النحاس ﴾ الدخان الذى لا خب فيه ، ﴿ فلا تتصران ﴾ أى فلا تمتنعان من الله ، ولا يكون لكما منه ناصر ، ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ أى فإذا جاء يوم القيامة ، تصدعت السموات ، واختلت نظمها ، واحمر لونها ، وأذيت حتى صارت كأنها الزيت ونحوه ، مما يدهن به ، ﴿ والسيما ﴾ العلامة ، ﴿ والنواصى ﴾ واحدها ناصية ، وهى مقدم الرأس ، ﴿ الأقدام ﴾ واحدها قدم ، وهى قدم الرجل المعروفة ، ﴿ والحميم ﴾ الماء الحار ، ﴿ آن ﴾ أى متناهٍ فى الحرارة ، لا يستطيع شربه من شدة حرارته .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن عدد — عزت قدرته — نعماءه على عباده ، وما يجب من شكرهم عليها ، ثم أرشدهم إلى أن هذه النعم لا بقاء لها ولا ثبات ، فكل شيء يفنى إلا ذاته تعالى ، ذكر أن كل من فى الوجود مفتقر إليه ، فهو المدبر أمره ، والمتصرف فيه ، فهو يحى قوماً ويميت آخرين ، ويرفع قوماً ويخفض آخرين ، ثم نبههم إلى أنه فى يوم القيامة ، سيلقى كل عامل جزاء ما عمل ، وثواب ما اكتسب ، ولا مهرب حينئذ من العقاب ، ولا سبيل إلى الامتناع منه ، فاستعدوا لهذا اليوم قبل ان تندموا ، ولات ساعة مندم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

هذا إخبار عن غناه عما سواه ، وافتقار الخلائق إليه فى جميع الآئات ، وأنهم يسألونه بلسان حالهم ومآلهم ، وأنه سبحانه كل يوم هو فى شأن .

قال ابن جرير بسنده ، عن منيب بن عبد الله بن منيب الأزدي عن أبيه قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ كل يوم هو فى شأن ﴾ فقلنا يا رسول الله وما ذاك الشأن ؟ قال « أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ويضع آخرين »^(١) .

قال المفسرون : هي شئون يديها ولا يبتديها ، أى يظهرها للخلق ، ولا ينشئها من جديد ، لأن القلم جف على ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة ، فهو تعالى يرفع من يشاء ، ويضع من يشاء ، ويشفى سقيماً ، ويمرض سليماً ، ويعز ذليلاً ، ويذل عزيزاً ، ويفقر غنياً ، ويغنى فقيراً ، في قوله تعالى : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ، توج الليل في النهار وتوج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ﴾^(١) ، ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ أى فبأى هذه النعم تكذبان ؟ .

قوله تعالى : ﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما : ﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾ قال وعيد من الله تعالى للعباد ، وليس بالله شغل وهو فارغ سبحانه .

وقال البخارى : سنحاسبكم ، لا يشغله شيء عن شيء ، وهو معروف في كلام العرب ، يقال : لأتفرغن لك وما به شغل ، يقول لأخذنك على غرتك ، وقوله تعالى : ﴿ أيها الثقلان ﴾ أى الإنس والجن ، كما جاء في الحديث الصحيح « يسمعه كل شيء إلا الثقلين »^(٢) ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ ، قال ابن كثير : أى لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره ، بل هو محيط بكم لا تقدرُونَ على التخلص من حكمه ، ولا النفوذ عن حكمه فيكم ، أينما ذهبتم أحيط بكم ، وهذا في مقام الحشر ، الملائكة محدقة بالخلائق ، سبع صفوف ، من كل جانب ، فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿ إلا بسلطان ﴾ أى إلا بأمر الله ، ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر ﴾ وهذا إنما يكون في القيامة لا في الدنيا ، بدليل قوله تعالى بعده : ﴿ يرسل عليكم شواظ من نار ﴾ . (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) . قوله تعالى : ﴿ يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : الشواظ هو لهب النار ، وقبل الشواظ الدخان ، وقال الضحاك : ﴿ شواظ من نار ﴾ أى سيل من نار . ﴿ ونحاس ﴾ قال ابن عباس النحاس دخان النار . قال ابن جرير : والعرب تسمى الدخان نحاساً (بضم النون) .

(١) آل عمران الآيتان : ٢٦ - ٢٧

(٢) أخرجه الامام أحمد في مسنده ج ٣ ص ٤ ، وكذا البخارى في كتاب الجنائز باب الميت يسمع خفق النعال ج ٢ ص ١٣ وكذلك جاء في نفس الكتاب باب ما جاء في عذاب القبر ج ٢ ص ١٢٣ .

وقال مجاهد : النحاس الصفر المذاب ، فيصب على رؤوسهم وكذا قال قتادة ، وقال الضحاك ﴿ ونحاس ﴾ سيل من نحاس .
قال ابن كثير : والمعنى على كل قول : لو ذهبتم هاربين يوم القيامة ، لردتكم الملائكة والزبانية ، بإرسال اللهب من النار ، والنحاس المذاب عليكم ، لترجعوا ولهذا قال تعالى : ﴿ فلا تتصران ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فإذا انشقت السماء ﴾ أى يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ﴾ (١) وكقوله جل في علاه : ﴿ إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ فكانت وردة كالدهان ﴾ أى تذوب كما يذوب الفضة في السبك ، وتتلون كما تتلون الأصباغ ، التى يدهن بها ، فتارة حمراء ، وتارة صفراء وزرقاء وخضراء ، وذلك من شدة الأمر ، وهول يوم القيامة العظيم .

وقوله تعالى : ﴿ فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ لأنهم يعرفون بسيماهم حينما يخرجون من القبور ، ويحشرون إلى الموقف كقوله تعالى : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ (٤) ثم يسألون بعد ذلك ، كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ فو ربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ (٥) . ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ ، قال الحسن وقاتدة : يعرفونهم باسوداد الوجوه وزرقة العيون ، كما قال تعالى : ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (٦) ، وكما قال سبحانه : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ (٧) ، وكما قال جل في علاه : ﴿ ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً ﴾ (٨) . وقوله تعالى : ﴿ فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ أى تأخذ الملائكة بنواصيهم أى بشعور مقدم رؤوسهم وأقدامهم ، فيقذفون في النار . وقال الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره ، وعنه : يؤخذ برجلي الرجل فيجمع بينهما وبين ناصيته حتى يندق ظهره ، ثم يلقي في النار ، وقيل تسحبهم الملائكة إلى النار ، تارة تأخذ بناصريته ،

(٥) الحجر الآيتان ٩٢ — ٩٣

(٦) يونس الآية ٢٧

(٧) آل عمران الآية ١٠٦

(٨) طه الآية ١٠٢

(١) الحاقة الآية ١٦

(٢) الانشقاق الآيتان ١ ، ٢

(٣) الفرقان الآية ٢٥

(٤) المرسلات الآيتان ٣٥ ، ٣٦

وتجره على وجهه ، وتارة تأخذ بقدميه وتسحبه على رأسه ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ، فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾^(١) . وكما قال جل في علاه : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴾^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ فَبَأَى آلَاءِ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ ﴾ تقدم تفسيره .

قوله تعالى : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ، يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ فَبَأَى آلَاءِ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ ﴾ .

أى هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها ، ها هي حاضرة تشاهدونها عياناً ، يقال لهم ذلك : تقريباً وتوبيخاً ، وتصغيراً وتحقيراً ، كما قال سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ، هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ، أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ أَصْلُوهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾^(٣) .

قوله تعالى : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ ﴾ أى تارة يعذبون في الحميم ، وتارة يسقون في الحميم ، وهو الشراب الذي هو كالنحاس المذاب ، يقطع أمعاءهم . وقوله تعالى : ﴿ آتٍ ﴾ أى حار ، قد بلغ الغاية في الحرارة ، لا يستطيع من شدة ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ خَذَوْهُ فَأَعِثُّوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴾^(٤) ، وكقوله تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُرِقُوا عَذَابِ الْحَرِيقِ ﴾^(٥) .

ولما كان معاقبة العصاة المجرمين ، وتنعيم المتقين ، من فضله ورحمته ، وعدله ولطفه بخلقه ، وكان إنذاره لهم من عذابه وبأسه مما يزرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك ، قال ممتناً بذلك على بريته : ﴿ فَبَأَى آلَاءِ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ ﴾ .

(١) غافر الآيات ٧١ — ٧٢

(٢) : الإسراء الآية ٢٩

(٣) الطور الآيات ١٣ — ١٦

(٤) الدخان الآيات ٤٣ — ٤٨

(٥) الحج الآيات ١٩ — ٢٢

السابقون وأصحاب اليمين

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ ٤٦ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٤٧ ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ ٤٨ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٤٩ ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ ٥٠ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٥١ ﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ ﴾ ٥٢ ﴿ زَوْجَانِ ﴾ ٥٣ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٥٤ ﴿ مُتَكِعِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ ٥٥ ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ ٥٦ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٥٧ ﴿ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْغُرُفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴾ ٥٨ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٥٩ ﴿ كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ ٦٠ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٦١ ﴿ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٦٢ ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ ٦٣ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٦٤ ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ ﴾ ٦٥ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٦٦ ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ ٦٧ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٦٨ ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ﴾ ٦٩ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٧٠ ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ ٧١ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٧٢ ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنٌ ﴾ ٧٣ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٧٤ ﴿ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْبُحَايِمِ ﴾ ٧٥ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٧٦ ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴾ ٧٧ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٧٨ ﴿ مُتَكِعِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرٍ حَسَنٍ ﴾ ٧٩ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٨٠ ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ ٨١ ﴿

معاني المفردات

﴿ مقام ربه ﴾ أى قيامه عليه واطلاعه على أعماله ، ﴿ ذواتا ﴾ مثنى ذات بمعنى صاحبة ، ﴿ والأفنان ﴾ الأنواع واحدها فن : أى ذواتا أنواع من الأشجار والثمار ، ﴿ زوجان ﴾ أى صنفان ، ﴿ والفرش ﴾ واحدها فراش ، ﴿ والبطائن ﴾ ، واحدها بطانة ، ﴿ والإستبرق ﴾ الديباج أى الحرير الثخين ، ﴿ والجنى ﴾ الثمر ، ﴿ دان ﴾ أى قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع .

﴿ قاصرات الطرف ﴾ أى نساء يقصرن أبصارهن على أزواجهن ، لا ينظرن إلى غيرهم ، ﴿ لم يطمثهن ﴾ أى لم يمسهن ، وأصل الطمث قروح الدم ، ويراد به قربان النساء ، ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ فى الصفاء والبياض .

﴿ ومن دونهما ﴾ أى من ورائهما ، ﴿ مدها متان ﴾ أى خضراوان بسواد ، لأن الخضرة إذا اشتدت ، ضربت إلى السواد من كثرة الرى بالماء ونحوه . ﴿ نضاختان ﴾ أى فوارتان بالماء ، ﴿ حور ﴾ واحدته حوراء : أى بيضاء . ﴿ مقصورات فى الخيام ﴾ أى مخدرات يقال : امرأة قصيرة ومقصورة : أى مخدرة ملازمة بيتها لا تطوف فى الطرق ، ﴿ والخيام ﴾ واحدها خيمة ، وهى أربعة أعواد تنصب وتسقف بشئ من نبات الأرض .

﴿ الرفرف ﴾ واحدها رفرقة : وهى الوسادة - المخدة - أو ما تدلى من الأسرة من غالى الثياب ، ﴿ والعبرى ﴾ منسوب إلى عبقر ، تزعم العرب انه بلد يسكنه الجن ، ويسندون إليه كل شئ عجيب ، والمراد العجيب النادر الموشى من البسط .

﴿ تبارك اسم ربك ﴾ أى تقدس وتنزه ربنا الذى أفاض على عباده نعمه .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه ما يراه المشركون بربهم ، والعصاة لأوامره ونواهيه ، من الأهوال يوم القيامة - ذكر هنا ما أعدّه من النعيم المقيم ، لمن خشى ربه ، وراقبه فى السر والعلن ، فمن جنات متشابهة الثمار والفواكه ، تجرى من تحتها الأنهار ، جناها دان لمن طلبه ، وأحب نيله ، يجلس فيها على فرش بطائنها من الدياح ، ومن نساء حسان لم يقرب منهن أحد ، لا من الإنس ولا من الجن ، وهن كالياقوت صفاء واللؤلؤ بيضا ، وذلك كفاء ما قدموا من صالح العمل ، وما أسلفوا فى الأيام الخالية ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ثم ذكر سبحانه جنتين آخرين ، دون اللتين قبلهما فى المرتبة والفضيلة فالأوليان للمقرين ، والآخريان لأصحاب اليمين .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

يقول تعالى : ولمن خاف مقام ربه بين يدى الله عز وجل يوم القيامة ، ونهى النفس عن الهوى ، وعلم أن الآخرة خير وأبقى ، فأدى فرائض الله ، واجتنب محارمه ، فله يوم القيامة عند ربه جنتان ،

كما قال عز وجل : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ (١) ،
وكقوله سبحانه : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية جزاؤهم عند ربهم جنات
عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه ﴾ (٢) ،
وكما قال البخارى بسنده عن أبى بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه : أن رسول الله ﷺ قال : « جنتان
من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم
إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » (٣) .

قال ابن كثير : وهذه الآية عامة في الإنس والجن ، فهي من أول دليل على أن الجن يدخلون
الجنة ، إذا آمنوا واتقوا ، ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء ، فقال : ﴿ ولئن خاف مقام ربه
جنتان فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

الخوف وحقيقته وبيان درجاته

قال الشيخ ابن قدامة المقدسى فى كتابه « منهاج القاصدين » بتصرف .
أعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحترقاء ، بسبب توقع مكروه فى الاستقبال .
مثال ذلك ، من جنى على ملك جناية ، تم وقع فى يده ، فهو يخاف القتل ، ويجوز العفو ، ولكن
يكون تألم قلبه ، بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله ، وتفاحش جنايته ، وتأثيرها عند الملك ،
وبحسب ضعف الأسباب بضعف الخوف ، وقد يكون الخوف لا عن سبب جنائية ، بل عن صفة الخوف
وعظمته وجلاله ، إذ قد علم أن الله سبحانه ، لو أهلك العالمين لم يبال ، ولم يمنعه مانع ، فبحسب
معرفة الإنسان بعيوب نفسه ، وبجلال الله تعالى واستغنائه ، وأنه لا يسأل عما يفعل ، يكون خوفه ،
وأخوف الناس أعرفهم بنفسه وبدينه ، ولذلك قال النبى ﷺ : « أنا أعرفكم بالله ، وأشدكم له خشية »
(جزء من حديث فى البخارى) (٤) .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط ، فقال :
« لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم
خنين » (٥) متفق عليه .

(والخنين بالخاء المعجمة : هو البكاء مع غنة وانتشاق الصوت من الأنف) .

(٢) البينة الآيتان ٧ — ٨ .

(١) النازعات الآيتان ٤٠ — ٤١ .

(٣) أخرجه البخارى : فى كتاب التوحيد باب ما يذكر فى الذات والنوع وأسماى الله ج ٩ ص ١٦٢ .

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب ما يكره من التعمق والتنازع فى العلم والغلو فى الدين والبدوع

لقوله تعالى ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ﴾ ج ٩ ص ١٢٠ .

(٥) أخرجه الترمذى فى باب الزهد ج ٣ ص ٣٨١ رقم ٢٤١٤ — دار الفكر بيروت .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ^(١) وإذا كملت المعرفة ، أثرت الخوف ، ففاض أثره على القلب ، ثم ظهر على الجوارح والصفات ، بالنحول والاصفرار والبكاء .. وأما ظهور أثره على الجوارح ، فبكفها عن المعاصي ، وإلزامها الطاعات ، تلافياً لما فرط ، واستعداداً للمستقبل .

عن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ « من خاف أدلج ، ومن أدلج ، بلغ المنزل . ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » ^(٢) رواه الترمذى وقال حسن (وأدلج : معناه سار من أول الليل ، والمراد : التشمير في الطاعة) ومن ثمرات الخوف ، أنه يقمع الشهوات ، ويكره اللذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة ، كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيها ، إذا علم أن فيه سماً ، فتحترق الشهوات بالخوف ، وتتأدب الجوارح ، ويذل القلب ويستكين ، ويفارقه الكبر والحقد والحسد ، ويصير مستوعب الهم لحوفه ، والنظر في خطر عاقبته ، فلا يتفرع لغيره ، ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة ، والمجاهدة والضئنة بالأنفاس واللحظات ، ومؤاخذه النفس في الخطرات والخطوات والكلمات ، ويكون حاله كحال من وقع في مخالب سبع ضار ، لا يدرى أيغفل عنه فيفلت ، أو يهجم عليه فيهلكه ، ولا شغل له إلا ما وقع فيه ، فقوة المراقبة والمحاسبة ، بحسب قوة الخوف ، وقوة الخوف ، بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى ، وبعيوب النفس ، وما بين يديها من الأخطار والأهوال ، وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال ، أن يمنع المحظورات ، فإن منع ما يتطرق إليه إمكان التحريم ، سمى ورعاً ، وإن انضم إليه التجرد والاشتغال بذلك عن فضول العيش ، فهو الصدق .

بيان أقسام الخوف

أعلم : أن مقامات الخائفين تختلف ، فمنهم من يغلب على قلبه خوف الموت قبل التوبة ، ومنهم من يغلب عليه خوف الاستدراج بالنعم ، أو خوف الميل عن الاستقامة ، ومنهم من يغلب عليه خوف سوء الخاتمة ، وأعلى من هذا خوف السابقة ، لأن الخاتمة فرع السابقة ، والله تعالى يرفع من يشاء من غير وسيلة ، ويضع من يشاء من غير وسيلة لا يسأل عما يفعل .
وقد قال : « هؤلاء في الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء في النار ولا أبالي » ومن أقسام الخائفين ، من يخاف سكرات الموت وشدته ، أو سؤال منكر ونكير ، أو عذاب القبر .
ومنهم من يخاف هيبة الوقوف بين يدي الله تعالى ، والخوف من المناقشة ، والعبور على الصراط ، والخوف من النار وأهوالها ، أو حرمان الجنة ، أو الحجاب عن الله سبحانه وتعالى ، وكل هذه الأسباب مكروهة في أنفسها ، مخوفة .

(١) فاطر الآية ٢٨

(٢) أخرجه الترمذى في أبواب صفة القيامة ج ٤ ص ٥١ رقم ٢٥٦٧ .

فأعلاها رتبة خوف الحجاب عن الله تعالى ، وهو خوف العارفين ، وما قبل ذلك خوف الزاهدين والعابدين .

ذكر خوف نبينا ﷺ

قال صاحب كتاب « الشفا » القاضي عياض :

« وأما خوفه ربه ، وطاعته له ، وشدة عبادته ، فعلى قدر علمه بربه ، ولذلك قال : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » وفي رواية الترمذى عن أبى ذر رضى الله عنه « إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون ، أظن السماء وحق لها أن تئط » ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات ، تجأورن إلى الله »^(١) ، قال أبو ذر : وددت أنى شجرة تعضد .

وفي حديث المغيرة : صلى رسول الله ﷺ حتى انتفخت قدماه . ف قيل له : « أتكلف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً »^(٢) .

وقال عوف بن مالك : كنت مع رسول الله ﷺ فاستاك ثم توضأ ثم قام يصلى ، فقامت معه فبدأ فاستفتح البقرة ، فلا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل ، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول : سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة ، ثم سجد وقال مثل ذلك ، ثم قرأ آل عمران ، ثم سورة ، يفعل مثل ذلك »^(٣) . وعن حذيفة مثله .. وعن عبد الله بن الشخير أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل .

قال ابن أبى هالة : كان رسول الله ﷺ متواصلاً بالأحزان ، دائم الفكرة ليست له راحة . وقال ﷺ « إني لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة »^(٤) وفى رواية « سبعين مرة » .

(١) أخرجه ابن عساكر ج ٥ ص ٢٩٢ وكذلك اتخاف السادة المتقين بشرح علوم الدين ج ٧ ص ٣٠٨ .

(٢) أخرجه الترمذى فى باب الزهد ج ٣ ص ٣٨١ رقم ٢٤١٤ ضبعة دار الفكر بيروت .

(٣) أخرجه صحيح مسلم فى كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب أكثر الأعمال والاجتهاد فى العبادة ج ٤ ص ٢١٧١ رقم

٢٨١٩ / ٧٩ .

(٤) أخرجه النسائى فى كتاب الافتتاح باب الذكر فى الركوع ج ٢ ص ١٩١ .

(٥) أخرجه البيهقى فى سننه ج ٧ ص ٥٢ كتاب النكاح باب كان يغان على قلبه فيستغفر الله ويتوب إليه فى اليوم مائة مرة .

وأخرجه صحيح مسلم فى كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ج ٤ ص ٢٠٧٥ رقم

٢٧٠٢ / ٤١ .

ذكر خوف الصحابة رضوان الله عليهم

كان أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — يمسك لسانه ويقول : هذا الذى أوردنى الموارد ، وقال : يا ليتنى كنت شجرة تعضد ثم تؤكل ، وكذلك قال طلحة وأبو الدرداء وأبو ذر — رضى الله عنهم —

وكان عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — يسمع آية ، فيمرض فيعاد أياماً ، وكان فى وجهه خيطان أسودان من البكاء .

قال على بن أبى طالب : والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ ، فما أرى اليوم شيئاً يشبههم ، لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً ، بين أعينهم أمثال ركب المعزى ، قد باتوا لله سجداً وقياماً ، يتلون كتاب الله ، يراوون بين جباهم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا فذكروا الله عز وجل ، مادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح ، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم ، والله لكأن القوم باتوا غافلين .

ولقد صدق من قال فيهم :

بتلاوة ، وتضرع وسؤال
لعدوهم من أشجع الأبطال
يتسابقون بصالح الأعمال
وبها أشعة نوره المتلالي
فى سورة الفتح المبين العالى
قوم يحبهم ذوو إدلال
وبهل أتى ، وبسورة الأنفال

يحيون ليلهم بطاعة ربهم
فى الليل رهبان ، وعند جهادهم
وإذا بدأ علم الرهان رأيهم
بوجوههم أثر السجود لربهم
ولقد أبان لك الكتاب صفاتهم
وبرابع السبع الطوال صفاتهم
وبراءة ، والحشر فيها وصفهم

وكان الحسن يقول : إن لله عباداً ، كمن رأى أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النار فى النار ، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى .

وكان سُميط يقول : أتاهم من الله وعيد وقدهم ، فناموا على خوف ، وأكلوا على تنغيص .

وقال أحمد بن حنبل — رضى الله عنه — : الخوف يمنعنى من أكل الطعام والشراب فما أشتهيه .

وكان بشر الحافى لا ينام الليل ، ويقول : أخاف أن يأتى أمر الله وأنا نائم .

وكلماء هم بذرق الكرى صاح به الهجران قم لا تنم

قال عمر بن ذر : لما رأى العابدون الليل قد هجم عليهم ، ونظروا إلى أهل الغفلة ، قد سكنوا إلى فرشهم ، ورجعوا إلى ملاذهم ، قاموا إلى الله سبحانه وتعالى فرحين مستبشرين ، بما قد وهب الله

لهم من السهر وطول التهجد ، فاستقبلوا الليل بأبدانهم ، وبأشروا ظلمته بصفاح وجوههم ، فانقضى عنهم الليل ، وما انقضت لذتهم من التلاوة ، ولا ملّت أبدانهم من طول العبادة ، فأصبح الفريقان وقد ولى الليل بربح وغبن ، فاعملوا لأنفسكم في هذا الليل وسواده ، فإن الخبون من غبن خير الدنيا والآخرة ، كم من قائم لله تعالى في هذا الليل ، قد اغتبط بقيامه في ظلمة حضرته ، وكم من نائم قد ندم على طول نومه ، عندما يرى من كرامة الله تعالى للعابدين غداً .

﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً وما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾^(١) .

في فضيلة الخوف والرجاء وما ينبغي أن يكون الغالب منهما

قال ابن قدامة : فضيلة كل شيء بقدر إعانته على طلب السعادة ، وهى لقاء الله تعالى ، والقرب منه ، فكل ما أعان على ذلك فهو فضيلة ، قال الله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾^(٢) ، وقال تعالى : ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه ﴾^(٣) .

قال النبي ﷺ : قال الله عز وجل : « وعزتي وجلالى ، لا أجمع على عبدى خوفين ، ولا أجمع له أمنين إن أمننى فى الدنيا ، أخفته يوم القيامة ، وإن خافنى فى الدنيا أمنتته يوم القيامة »^(٤) (أخرجه ابن حبان عن أبى هريرة ، وسنده حسن) .

وعن ابن عباس رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « عينان لا تمسهما النار أبداً : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله »^(٥) .

واعلم : أن قول القاتل : أيهما أفضل الخوف ، أو الرجاء ؟ كقوله : أيهما أفضل الخبز أو الماء ؟

(١) السجدة الآيتان ١٦ — ١٧

(٢) الرحمن الآية ٤٦

(٣) البنية الآية ٨

(٤) أخرجه اتحاف السادة المتقين بشرح أحياء علوم الدين للزبيدي ج ٩ ص ٢١١ .

(٥) أخرجه تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٧٥ فى تفسير سورة آل عمران آية رقم ٢٠٠ .

وجوابه : أن يقال الخبز للجائع أفضل ، والماء للعطشان أفضل ، فإن اجتماعاً ، نظر إلى الأغلب ، فإن استويا ، فهما متساويان ، والخوف والرجاء ، دواءان يداوى بهما القلوب ، ففضلهما بحسب الداء الموجود ، فإن كان الغالب على القلب الأمن من مكر الله ، فالخوف أفضل ، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية ، وإن كان الغالب عليه اليأس والقنوط ، فالرجاء أفضل ، ويجوز أن يقال مطلقاً : الخوف أفضل — لأن المعاصي والاعتزاز من الخلق أغلب .

وهذا عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — يسأل حذيفة رضى الله عنه : هل أنا من المنافقين ؟ وإنما خاف أن تلبس حاله عليه ، ويستتر عيبه عنه ، فالخوف المحمود هو الذى يبعث على العمل ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا .

وأما عند نزول الموت ، فالأصلح للإنسان الرجاء ، لأن الخوف كالسوط الباعث على العمل ، وليس ثمة عمل ، فلا يستفيد الخائف حينئذ إلا تقطيع نياط قلبه ، والرجاء فى هذه الحال يقوى قلبه ، ويحبب إليه ربه ، فلا ينبغي لأحد أن يفارق الدنيا إلا محباً لله تعالى ، محباً للقاءه ، حسن الظن به ، قوله تعالى : ﴿ ذواتا أفنان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان تجريان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما من كل فاكهة زوجان فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

ثم نعت سبحانه وتعالى هاتين الجنتين فقال : ﴿ ذواتا أفنان ﴾ أى أغصان نضرة حسنة تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) .

﴿ فيهما عينان تجريان ﴾ أى فيهما عينان تسرحان وتسقيان تلك الأشجار والأغصان ، إحداهما يقال لها التسنيم ، والأخرى السلسيل ، قاله الحسن البصرى (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) .
﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾ أى فيهما من كل فاكهة صنفان من جميع أنواع الثمار ، مما يعلمون وخير مما يعلمون ، ومما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، قال إبراهيم بن الحكم بن أبان عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس ما فى الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهى فى الجنة حتى الحنظل ، وقال ابن عباس : ليس فى الدنيا مما فى الآخرة ، إلا الأسماء ، يعنى أن بين ذلك بوناً عظيماً ، وفرقاً بينا فى التفاضل . (فبأى آلاء ربكما تكذبان و) (فبأى الآلاء يا معشر الثقيلين من الإنس والجن تكذبان ؟)

قوله تعالى : ﴿ متكئين على فرش بطائنها من إستبرق ، وجنى الجنتين دان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان فبأى آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

بعد أن ذكر سبحانه طعام وشراب أهل الجنة ، ذكر فراشهم ، فقال ﴿ متكئين على فرش بطائنها من استبرق ﴾ أى مضطجعين على فرش بطائنها من الديباج الغليظ ، وإذا كانت هذه حال البطائن فما ظنكم بالظواهر ؟ ومن ثم روى عن ابن مسعود أنه قال : أخبرتم بالبطائن ، فكيف لو أخبرتم بالظواهر ؟ .

وقيل لسعيد بن جبير : البطائن من استبرق فما الظواهر ؟

قال : هذا ما قال الله فيه ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾^(١) . وفى هذا دليل على شرف هذه الفرش ، وتمتع أهلها بالثواب العظيم ، والنعيم المقيم ، وإنما ذكر الاتكاء ، لأنه هيئة تدل على صحة الجسم ، وفراغ القلب وراحة البال .

قوله تعالى : ﴿ وجنى الجنتين دان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ أى وثمرها قريب منهم متى شاءوا كقوله تعالى : ﴿ قطوفها دانية ﴾^(٢) ، وكقوله : ﴿ ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً ﴾^(٣) فهي لا تمتنع ممن أرادها ، بل تنحط إليه من أغصانها ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ . ثم ذكر سبحانه وتعالى النساء اللواتي يتمتعون بهن ، فقال تعالى :

﴿ فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

أى فى تلك الجنات ، نساء غضيضات الطرف عن غير أزواجهن ، فلا يرين شيئاً فيها أحسن منهم ، وهن أبكار لم يمسهن أحد قبل أزواجهن ، لا من الجن ولا من الإنس . قال ابن القيم : ظاهر القرآن . أن هؤلاء النسوة لسن من نساء الدنيا ، وإنما هن من الحور العين . وأما نساء الدنيا فنساء الإنس قد طمثن الإنس ، ونساء الجن قد طمثن الجن ، والآية تدل على ذلك ، ويدل على أنهن الحور اللاتي خلقهن فى الجنة : أنه سبحانه جعلهن ، مما أعده الله فى الجنة لأهلها ، من الفواكه والثمار ، والأنهار والملابس وغيرها ، ويدل عليه أيضاً الآية التى بعدها ، وهى قوله تعالى : ﴿ حور مقصورات فى الخيام ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ أى كأنهن الياقوت صفاء وصغار اللؤلؤ بياضاً ، وقال الامام أحمد مسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين على كل واحدة سبعون حلة يرى مخ ساقها من وراء الثياب »^(٤) .

وقال الامام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « لغدوة فى سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها ، ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدمه — يعنى سوطه — من الجنة خير من الدنيا وما

(٣) الانسان الآية ١٤

(٤) أخرجه الامام أحمد ج ٢ ص ٣٤٥ .

(١) السجدة الآية ١٧

(٢) الحاقة الآية ٢٣

فيها ، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لمألت ما بينهما ريحاً ولطاب ما بينهما ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها » ورواه البخارى عن أنس بن حوّه^(١) .

﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾

قوله تعالى : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ أى ما جزاء الإحسان فى العمل إلا الإحسان فى المثوبة ، كما قال سبحانه : ﴿ للذين استجابوا لربهم الحسنى ﴾^(٢) ، وكقوله : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾^(٣) .

روى عن ابن عباس أنه قال « هل جزاء من قال : لا إله إلا الله فى الدنيا إلا الجنة فى الآخرة » .

﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ اللهم ولا يشىء من آلائك ربنا تكذب ، فلك الحمد .

قوله تعالى : ﴿ ومن دونهما جنتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

قال ابن كثير : هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما فى الرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ ، وقد تقدم فى الحديث الذى أخرجه البخارى جنتان من ذهب وجنتان من فضة ، فالأوليان للمقربين ، والآخران لأصحاب اليمين ، قال أبو موسى : جنتان من ذهب للمقربين ، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين ، والدليل على شرف الأولين على الآخرين وجوه (أحدها) أنه نعت الأولتين قبل هاتين ، والتقديم يدل على الاعتناء ، ثم قال : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ وهذا ظاهر فى شرف التقدم وعلوه على الثانى ، وقال هناك : ﴿ ذواتا أفنان ﴾ وهى الأغصان أو الفنون فى الملاذ ، وقال ههنا : ﴿ مدهامتان ﴾ أى سوداوان من شدة الرى من الماء .. ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ مدهامتان ﴾ عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : قد اسودتا من الخضرة ، من شدة الرى من الماء .

(١) أخرجه الامام أحمد ج ٣ — ص ١٣٢ ، ١٤١ ، ١٥٣ ، ٢٠٧ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٤٣٣ .

(٢) الرعد الآية ١٨

(٣) يونس الآية ٢٦

وقال محمد بن كعب القرطبي ﴿ مدها متان ﴾ أى ممتلئتان من الخضرة . ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

وقوله : ﴿ فيهما عينان نضاختان ﴾ وقال هناك : ﴿ فيهما عينان تجريان ﴾ وههنا ﴿ نضاختان ﴾ قال ابن عباس : أى فياضتان والجري أقوى من النضخ . ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ وقال هناك ﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾ ولا شك ان الأولى أعم وأكثر في الأفراد والتنويع على فاكهة وهى نكرة في سياق الإثبات لا تعم ولهذا فسر قوله ﴿ ونخل ورمان ﴾ من باب عطف الخاص على العام كما قرره البخارى وغيره وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما . ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ أى فى تلك الجنات نساء خيرات الأخلاق ، حسان الوجوه ، وقال الرازى : فى باطنهن الخير ، وفى ظاهرهن الحسن ، ورد أن الحور يغنين : نحن الخيرات الحسان ، خلقن لأزواج كرام . ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

وقوله : ﴿ حور مقصورات فى الخيام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ أى وهؤلاء الخيرات الحسان ، واسعات العيون ، مع صفاء البياض حول السواد ، محبوسات فى الحجال ، فلسن بطوافات فى الطرقات ، والعرب يمدحون النساء الملازمات للبيوت ، للدلالة على شدة الصيانة ، قال البخارى عن عبد الله بن قيس ان رسول الله ﷺ قال : « إن فى الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً فى كل زاوية منها أهل ما يرون الآخريين يطوف عليهم المؤمن »^(١) واخرجه أيضاً مسلم فى صحيحه . ﴿ فبأى آلاء ربكم تكذبان ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ تقدم تفسيره ، وقوله : ﴿ متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان ﴾ أى وهم يتكئون على ثياب ناعمة ، وفرش رقيقة النسج من الديباج ، ووسائد عظيمة ، وبسط لها أطراف فاخرة ، غاية فى كمال الصنعة وحسن المنظر . ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ اللهم ولا بشيء من آلائنا . بنا نكذب ، فلك الحمد ، وكما

بدأ سبحانه السورة باسم من أسمائه الحسنی وصفاته العلی ، ختمها كذلك ، فقال تعالى : ﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ﴾ قال ابن عباس ﴿ ذي الجلال والإكرام ﴾ ذي العظمة والكبرياء ، وفي الدعاء الماثورة « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام » .
دعاء :

« اللهم أنت الملك ، لا إله إلا أنت ، سبحانه وبحمده ، أنت ربي ، وأنا عبدك ، ظلمت نفسي ، واعترفت بذنبي ، فاغفر لي ذنبي جميعاً ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدني لأحسن الأخلاق ، لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها ، لا يصرف عني سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك ، والخير كله في يديك ، والشر ليس إليك أنابك وإليك ، تباركت وتعاليت ، استغفرك وأتوب إليك » .
(رواه مسلم وأبو داود والنسائي وأحمد) .

تفسير سورة الواقعة

مقدمة : قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق .

عدد آياتها : ست وتسعون

وكلماتها : ثلاثمائة وثمان وسبعون .

وحروفها : ألف وسبعمئة وثلاث .

مجموعة فواصل آياتها (لابد من) على الباء منها آية واحدة : (وماء مسكوب) .

سميت بسورة الواقعة ، لمفتتحها .

مقصود السورة

معظم مقصود السورة : ظهور واقعة القيامة ، وأصناف الخلق بالاضافة إلى العذاب والعقوبة ، وبيان حال السابقين بالطاعة ، وبيان حال قوم يكونون متوسطين بين أهل الطاعة وأهل المعصية ، وذكر حال أصحاب الشمال ، والغرقى في بحار الهلاك ، وبرهان البعث من ابتداء الخلقة ، ودليل الحشر والنشر من الحرث والزرع ، وحديث الماء والنار ، وما في ضمهما . من النعمة والمنة ، ومس المصحف ، وقراءته في حال الطهارة ، وحال المتوفى في ساعة السكره ، وذكر قوم بالبشارة ، وقوم بالخسارة والخطبة على جلال الحق تعالى بالكبرياء والعظمة بقوله : ﴿ فسيح باسم ربك العظيم ﴾ .

المتشابهات

قوله : ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ﴾ أعاد ذكرها . وكذلك ﴿ أصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة ﴾ ، ثم قال ﴿ السابقون ﴾ لأن التقدير عند بعضهم . والسابقون ما السابقون فحذف (ما) لدلالة ما قبله عليه . وقيل تقديره : أزواجاً ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ، وأصحاب المشئمة ، والسابقون ، ثم ذكر عقيب كل واحد منهم تعظيماً أو تهويلاً ، فقال : ما أصحاب الميمنة ، ما أصحاب المشئمة ، والسابقون أى هم السابقون ، والكلام فيه يطول .

قوله : ﴿ أفرايتم ما تمنون ﴾ ﴿ أفرايتم ما تحرثون ﴾ ، ﴿ أفرايتم الماء الذى تشربون ﴾ ﴿ أفرايتم النار التى تورون ﴾ بدأ بذكر خلق الإنسان ، ثم بما لا غنى له عنه ، وهو الحب الذى منه قوته ، ثم الماء الذى منه سوغه وعجنه ، ثم النار التى منها نضجه وصلاحه ، وذكر عقيب كل واحد ما يأتى عليه ويفسده ، فقال فى الأولى : ﴿ نحن قدرنا بينكم ﴾ وفى الثانية : ﴿ لو نشاء لجعلناه حطاماً ﴾ وفى الثالثة : ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجاً ﴾ ولم يقل فى الرابعة ما يفسدها ، بل قال : نحن جعلناها تذكرة ، يتعظون بها ومتاعاً للمقوين : أى للمسافرين ينتفعون بها .

وجه مناسبتها لما قبلها :

(١) أن فى كل منهما وصف القيامة والجنة والنار .

(٢) أنه ذكر فى السورة السابقة عذاب المجرمين ، ونعيم المتقين ، وفاضل بين جنتى بعض المؤمنين ، وجنتى بعض آخر منهم ، وبين هنا انقسام المكلفين إذ ذاك إلى أصحاب ميمنة ، وأصحاب مشئمة وسابقين .

(٣) انه ذكر فى سورة الرحمن انشقاق السماء ، وذكر هنا رج الأرض ، فكأن السورتين لتلازمهما واتحادهما موضوعاً سورة واحدة مع عكس فى الترتيب ، فقد ذكر فى أول هذه ما فى آخر تلك ، وفى آخر هذه ما فى أول تلك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَبِيسَ لَوْقَعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿٦﴾ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَمْنَةِ مَأْصَحَبُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَأْصَحَبُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِعِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفِي كَهْفَةٍ ثَمَرَاتٌ يَتَخَبَّروْنَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ الثُّلُوفِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾

معاني المفردات

﴿ وقعت ﴾ أى حدثت ، ﴿ والواقعة ﴾ القيامة ، ﴿ لوقعتها ﴾ أى لوقعوها ، ﴿ كاذبة ﴾ أى كذب ، ﴿ رجت ﴾ زلزلت وحركت تحريكاً شديداً ، ﴿ بست ﴾ أى فتت وصارت كالسويق الملتوت ، ﴿ هباء ﴾ أى غباراً ، ﴿ منبثاً ﴾ أى متفرقاً ، ﴿ أزواجاً ﴾ أى أصنافاً ، ﴿ الميمنة ﴾ ناحية اليمين ، والمشأمة ناحية الشمال ، ﴿ والسابقون ﴾ هم الذين سبقوا إلى الخيرات في الدنيا ، ﴿ والمقربون ﴾ هم أرباب الحظوة والكرامة عند ربهم ، ﴿ والثلة ﴾ الجماعة ، قلت أو كثرت ، وقيل : الجماعة الكثيرة من الناس ، ﴿ موضونة ﴾ من الوضن وهو النسج ، ﴿ أكواب ﴾ أى آنية لا عرا لها ولا خراطيم ، ﴿ أباريق ﴾ واحداها إبريق وهو إناء له خرطوم . ﴿ كأس من معين ﴾ أى خمر جارية من العيون ، والمراد أنها لم تعصر كخمر الدنيا ، ﴿ لا يصدعون عنها ﴾ أى لا يلحقهم صداد بسببها ، كما يحدث ذلك في خمر الدنيا المحرمة ، ﴿ ولا ينزفون ﴾ أى ولا تذهب عقولهم بالسكر منها ، ﴿ يتخبرون ﴾ أى يختارون ، ﴿ حور ﴾ واحدته حوراء : أى بيضاء ، ﴿ عين ﴾ واحدته عينا ، أى واسعة العينين ، ﴿ المكنون ﴾ المصون الذى لم تمسه الأيدي ، وهى أصفى وأبعد من التغير .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ، لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ، إِذَا رَجَتِ الْأَرْضُ رَجاً وَبَسَتْ الْجِبَالُ بَساً فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً ﴾ .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله أراك قد شئت ! قال : « شيبتنى هود ، والواقعة ، والمرسلات وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت »^(١) (رواه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه ووافقه الذهبى) .

قال العلماء : لعل ذلك لما فيهن من التخويف الفظيع ، والوعيد انشديد ، لاشتغالهن مع قصرهن على حكاية أهوال الآخرة وعجائبها وفضائعهما ، وأحوال الهالكين والمعذبين ، مع ما فى بعضهن من الأمر بالاستقامة .

قوله تعالى : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ أى قامت القيامة ، والمراد النفخة الأخيرة ، وسميت واقعة ، لأنها تقع عن قرب ، وقيل : لكثرة ما يقع فيها من الشدائد ، وفيه إضممار ، أى اذكروا إذا وقعت الواقعة .

وقوله : ﴿ لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ قال الثورى : ليس لوقعتها أحد يكذب بها ، وقال الكسائى أيضا : ليس لها تكذيب ، أى ينبغى ألا يكذب بها أحد ، وقال قتادة : لا يردّها شيء كما قال سبحانه : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾ قال قتادة : خفضت أقواماً فى عذاب الله ، ورفعت أقواماً إلى طاعة الله .

وقال عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — خفضت أعداء الله فى النار ، ورفعت أولياء الله فى الجنة .

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب التفسير فى تفسير سورة الواقعة ج ٥ ص ٧١ رقم ٣٣٥١ ، أخرجه الحاكم ج ٢ ص ٣٤٣

كتاب التفسير .

(٢) المعارج الآيتان ١ ، ٢

وقال محمد بن كعب القرطبي : خفضت أقواماً كانوا في الدنيا مرفوعين ، ورفعت أقواماً كانوا في الدنيا مخفوضين ، والخفض والرفع يستعملان — عند العرب — في المكانة والمكان ، والعز والمهانة ، ونسب سبحانه الخفض والرفع للقيامة ، توسعاً على عادة العرب في اضافتها الفعل إلى المحل والزمان وغيرهما ، مما لم يكن منه الفعل ، والخفض والرافع على الحقيقة ، إنما هو الله وحده ، فرفع أوليائه في أعلى الدرجات ، وخفض أعدائه في أسفل الدرجات . (قاله القرطبي) .

قوله تعالى : ﴿ إذا رجت الأرض رجاً ﴾ أى زلزلت وحركت ، كما قال تعالى : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان ما لها ﴾^(١) ، وكما قال سبحانه : ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً ﴾^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وبست الجبال بساً ﴾ أى فتت ، قال مجاهد : كما يُبس الدقيق ، أى يُلت ، كما قال جل وعلا : ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾^(٣) ، لذا قال سبحانه : ﴿ فكانت هباء منبثاً ﴾ قال عكرمة : المنبث الذى قد ذرته الريح وبثته ، أى ونشرته ، وقال قتادة (هباء منبثاً) كيبس الشجر الذى تذروه الرياح ، وهذه الآية كأخواتها الدالة على زوال الجبال الرواسي عن أماكنها يوم القيامة ، وذهابها وتسييرها ونسفها ، أى قلعها وصيرورتها كالعهن المنفوش .

قوله تعالى : ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ، فأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون ﴾ قال العلامة ابن كثير :

أى وينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف : قوم عن يمين العرش ، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن ، ويؤتون كتبهم بأيمانهم ، ويؤخذ بهم ذات اليمين ، قال السدى : وهم جمهور أهل الجنة وآخرون عن يسار العرش ، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر ، ويؤتون كتبهم بشمالهم ، ويأخذ بهم ذات الشمال ، وهم عامة أهل النار — عياذ بالله من صنيعهم — وطائفة سابقون بالخيرات ، بين يديه عز وجل ، وهم أخص وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين الذين هم سادتهم ، فيهم الرسل والأنبياء ،

(١) لزلزلة الآيات ١ — ٣

(٢) الفجر آية ٢١

(٣) طه الآيات ١٠٥ — ١٠٧

والصديقون والشهداء ، وهم أقل عدداً من أصحاب اليمين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ، والسابقون السابقون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴾ .

قال الحسن وقتادة : هم السابقون إلى الإيمان من كل أمة ، وقال مجاهد وغيره : هم السابقون إلى الجهاد ، وأول الناس رواحاً إلى الصلاة ، وقال سعيد بن جبير : السابقون إلى التوبة وأعمال البر ، قال الله تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ﴾^(١) . قال ابن كثير : وهذه الأقوال كلها صحيحة ، فإن المراد بالسابقين ، هم المبادرون إلى فعل الخيرات ، كما أمروا ، كما قال تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾^(٢) ، وقال تعالى : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ﴾^(٣) ، فمن سابق في هذه الدنيا ، وسبق إلى فعل الخير ، كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة ، فإن الجزاء من جنس العمل ، لذا قال تعالى : ﴿ أولئك المقربون في جنات النعيم ﴾ أى أولئك المتصفون بذلك الوصف الجليل (السبق) هم الذين نالوا خطوة عند ربهم ، وهم في جنات النعيم ، يتمتعون فيها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

قوله تعالى : ﴿ ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين ﴾ .

قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء السابقين أنهم (ثلة) أى جماعة من الأولين وقليل من الآخرين ، وقد اختلفوا في المراد بقوله الأولين والآخرين ، فقليل المراد بالأولين : الأمم الماضية ، وبالأخرين هذه الأمة ، هذا رواية عن مجاهد والحسن البصرى ، وهو اختيار ابن جرير ، واستأنس بقوله عليه السلام : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة »^(٤) ولم يحك غيره ، ولا عزاه إلى أحد ، ومما يستأنس به لهذا القول ، ما رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما نزلت : ﴿ ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ﴾ شق ذلك على أصحاب النبى ﷺ فنزلت : ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ فقال النبى ﷺ « انى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، ثلث أهل الجنة ، بل أنتم نصف أهل الجنة أو شطر أهل الجنة وتقاسمونها النصف الثانى »^(٥) ورواه أحمد بسنده عن أبى هريرة . وهذا الذى اختاره ابن جرير ههنا ، فيه نظر بل هو قول ضعيف ، لأن هذه الأمة ، هى خير الأمم بنص القرآن ، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها ، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة ،

(١) ، (٢) ال عمران الآية ١٣٣

(٣) الحديد الآية ٢١

(٤) أخرجه ابن جرير الطبرى في تفسيره ج ٢٧ ص ٩٩ وكذلك تفسير ابن كثير في تفسير سورة الواقعة ج ٧ ص ٤٩٢ الآية

رقم ١٣ ، ١٤ .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده ج ٢ ص ٥٠٤ .

والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم ، والله أعلم . فالقول الثاني في هذا المقام ، هو الراجح ، وهو أن يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ ثلثة من الأولين ﴾ أى من صهور هذه الأمة ، ﴿ وقليل من الآخرين ﴾ أى من هذه الأمة . ثم قال ابن كثير : ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها ، فيحتمل أن تعم الآية جميع الأمم ، كل أمة بحسبها ، ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » (١) الحديث بتمامه .

قوله تعالى : ﴿ على سرر موضونة ، متكئين عليها متقابلين ﴾ أى السابقون في الجنة ، مجالسهم على سرر ، جمع سرير منسوجة بالذهب ، وقال عكرمة : مشبكة بالدر والياقوت ، قال مجاهد : (على سرر موضونه) : مرمولة بالذهب ، أى منسوجة بالذهب . ﴿ متكئين عليها ﴾ أى على السرر متقابلين ﴿ أى لا يرى بعضهم قفا بعض ، بل تدور بهم الأسرة ، وهذا فى المؤمن وزوجته وأهله ، أى يتكئون متقابلين ، قاله مجاهد وغيره .

قال الكلبي : طول كل سرير ثلاثمائة ذراع ، فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت ، فإذا جلس عليها ارتفعت ، قال تعالى فى موضع آخر : ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ﴾ .

قوله : ﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾ قال مجاهد : أى غلمان لا يموتون ، وقال الحسن : لا يهرمون ولا يتغيرون ، وقد وصف الله حسنهم فى قوله تعالى : ﴿ ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ بأكواب وأباريق وكأس من معين ﴾ أما الأكواب ، فهى الكيزان ، التى لا خراطيم لها ولا آذان ، والأباريق التى جمعت الوصفين ، والكؤس الهنابات ، والجميع من خمر من عين جارية ، معين ليس من أوعية تنقطع وتفرغ ، بل من عيون سارحة .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ رقم ٢١٠ ، ٢١١ / ٢٥٣٣ كتاب فضائل الصحابة باب فضل الصحابة

ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم .

(٢) الواقعة الآية ٣٤

(٣) الطور الآية ٢٤

(٤) الإنسان الآية ١٩

وقوله تعالى : ﴿ لا يصدعون عنها ولا ينزفون ﴾ أى لا تصدع رؤوسهم ، ولا تنزف عقولهم ، بل هى ثابتة مع الشدة المطربة ، واللذة الحاصلة ، روى الضحاك عن ابن عباس أنه قال : فى الخمر أربع خصال السكر ، والصداع ، والقىء ، والبول فذكر الله تعالى خمر الجنة ونزهها عن هذه الخصال .

قوله تعالى : ﴿ وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ﴾ أى ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار ، كما قال تعالى : متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب ^(١) .

وقوله : ﴿ ولحم طير مما يشتهون ﴾ قال الامام أحمد بسنده عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن طير الجنة كأمثال البخت يرعى فى شجر الجنة » فقال أبو بكر يا رسول الله إن هذه لطيور ناعمة فقال : ﴿ آكلها أنعم منها — قالها ثلاثاً — وإنى لأرجو أن تكون ممن يأكل منها » ^(٢) . وقال الحسن بن عرفة بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً » ^(٣) .

قوله تعالى : ﴿ وحوور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ أى وحوور عين ، كأنهن الرطب فى بياضه وصفائه ، كما وصفهن سبحانه فى أكثر من موضع بقوله : ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ ^(٤) وبقوله : ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ ^(٥) .

قوله تعالى : ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ أى هذا الذى اتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل ، كقوله تعالى : ﴿ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً ﴾ ^(٦) .

ثم قال تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيماً إلا قليلاً سلاماً سلاماً ﴾ أى لا يسمعون فى الجنة كلاماً لاغياً ، أى عبثاً خالياً عن المعنى ، أو مشتملاً على شئ حقير ، أو ضعيف ﴿ إلا قليلاً سلاماً سلاماً ﴾ أى إلا التسليم منهم بعضهم على بعض ، كما قال تعالى : ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾ ^(٧) . اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام ، اللهم انا نسألك الجنة ، وما قرب إليها من قول وعمل ، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل .

(١) ص الآية ٥١

(٢) أخرجه الامام أحمد فى سنده ج ٣ ص ٢٢١ .

(٣) أخرجه تفسير بن كثير فى تفسير سورة الواقعة الآية ٢١ ج ص ٤٩٨ وأخرجه الترغيب والترهيب للمندرى ج ٤ ص ٥٢٧

رقم ٧٣ .

(٤) الصافات الآية ٤٩

(٥) الرحمن الآية ٥٨

(٦) الإنسان الآية ٢٢

(٧) يونس الآية ١٠

أصحاب اليمين

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلِّ
مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَنَكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾
إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنْسَاءً ﴿٣٥﴾ فَعَلَنْتَهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾
ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾

معاني المفردات

﴿السدر﴾ شجر النبق ، ﴿مخضود﴾ أى خضد شوكة ، أى قطع ، ﴿الطلح﴾ شجر الموز ، ﴿منضود﴾ أى نضد حمله من أسفله إلى أعلاه ، فليست له سوق بارزة ، ﴿ممدودة﴾ أى منبسط ممتد لا يتقلص ولا يتفاوت ، ﴿مسكوب﴾ أى مصبوب يسكب لهم كما يشاءون بلا نصب ولا تعب ، ﴿فرش﴾ واحدها فراش كسّرح وسراج ، ﴿مرفوعة﴾ أى عالية منضدة ، ﴿عرباً﴾ أى متحبات إلى أزواجهن ، ﴿أتراباً﴾ : أى متساويات فى السن واحدتهم ترب .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه حال السابقين ، وبين ما لهم من نعيم مقيم فى جنات النعيم — أردف ذلك ذكر حال أصحاب اليمين ، فبين أنهم فى جنات ، يتخللها السدر المخضود ، والموز المنضد بعضه فوق بعض ، والفاكهة الكثيرة ، التى لا تنقطع أبداً ، ولا تمتنع عنهم متى شاءوا ، وفيها فرش وثيرة مرتفعة عالية ونساء حسان أبكار فى سن واحدة .

التفسير

قوله تعالى : ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ إلى أى شىء أصحاب اليمين ، وما حالهم وكيف مآلهم ، ثم فسر ذلك فقال تعالى : ﴿فى سدر مخضود﴾ قال الحافظ أبو بكر أحمد بن سلمان النجلر بسنده عن سليم بن عامر قال كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن الله لينفعنا بالأعراب

ومسائلهم ، قال : أقبل أعرابي يوماً فقال يا رسول الله : ذكر الله في الجنة شجرة تؤذى صاحبها ، فقال رسول الله ﷺ : « وما هي ؟ » قال : السدر فإن له شوكة مؤذياً ، فقال رسول الله ﷺ : « أليس الله تعالى يقول : ﴿ في سدر مخضود ﴾ خضد الله شوكه ، فجعل مكان كل شوكة ثمرة ، ففتور الثمرة منها عن اثنين وسبعين لوناً من طعام ما فيها لون يشبه الآخر »^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وطلح منضود ﴾ قال مجاهد : أى متراكم الثمر ، وقال ابن عباس يشبه طلح الدنيا ، ولكن له ثمر أحلى من العسل .

قال العلامة ابن كثير : فعلى هذا يكون من صفة السدر ، فكأنه وصفه بأنه مخضود ، وهو الذى لا شوك له ، وأن طلعه منضود ، وهو كثرة ثمره ، والله أعلم . وقال ابن أبى حاتم بسنده عن أبى سعيد أنه قال (وطلح منضود) قال : الموز^(٢) قال وروى عن ابن عباس وأبى هريرة والحسن وعكرمة وأبى قتادة مثل ذلك وبه قال مجاهد وابن زيد وزاد فقال أهل اليمن يسمون الموز الطلح ولم يحك ابن جرير غير هذا القول .

قوله تعالى : ﴿ وظل ممدود ﴾ أخرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها . اقرءوا إن شئتم ﴾ وظل ممدود ﴾ . وكذا رواه مسلم وأحمد^(٣) وفي رواية أحمد « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين أو مائة سنة هي شجرة الخلد » . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وندخلهم ظلاً ظليلاً ﴾^(٤) ، وقوله : ﴿ أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا ﴾^(٥) ، وقوله : ﴿ إن المتقين في ظلال وعيون ﴾^(٦) ، قوله تعالى : ﴿ وماء مسكوب ﴾ أى مصبوب لا يحتاج أهلها إلى تعب ونصب للحصول عليه .

(١) أخرجه تفسيران كثير في تفسير سورة الواقعة الآية ٢٨ ج ٨ ص ٣ . وأخرجه أيضاً الترغيب والترهيب للمنذرى ج ٤ ص ٥٢٧ — ٥٢٨ باب نعيم أهل الجنة .

(٢) أخرجه تفسيران كثير في تفسير سورة الواقعة الآية ٢٩ ج ٨ ص ٤ .

(٣) أخرجه البخارى كتاب بدء الخلق باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ج ٤ ص ١٤٤ ، أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجنة وصفة نعيمها باب إن في الجنة شجرة ج ٤ ص ٢١٧٥ ، أخرجه أحمد في مسنده ج ٣ ص ١٣٥ رقم ٦ / ٢٨٢٦ . وأخرجه الترغيب والترغيب ج ٤ ص ٥١٩ فصل في شجر الجنة وثمارها رقم ٥١ .

(٤) النساء الآية ٥٧

(٥) الرعد الآية ٣٥

(٦) المرسلات الآية ٤١

وقوله : ﴿ وفاكهة كثيرة لامقطوعة ولا ممنوعة ﴾ أى وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة فى الألوان والطعوم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، كما قال تعالى : ﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ﴾ (١) ، أى يشبه الشكل الشكل ، ولكن الطعم غير الطعم ، وفى الصحيحين فى ذكر سدره المنتهى فإذا ورقها كأذان الفيلة ونبقها مثل قلال هجر (٢) ، وفيهما أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما قال خسفت الشمس فصلى رسول الله ﷺ والناس معه فذكر الصلاة ، وفيه قالوا يا رسول الله رأيناك تناولت شيئا فى مقامك هذا ثم رأيناك تكعكت ، قال : « إني رأيت الجنة فتناولت منها عنقودا ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا . الحديث (٣) . وقوله تعالى : ﴿ لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ أى لا تنقطع شتاء ولا صيفاً ، بل أكلها دائم مستمر أبداً ، مهما طلبوا وجدوا ، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شىء ، وقال قتادة لا يمنعهم من تناولها عود ولا شوك ولا بعد ، وقد تقدم فى الحديث : إذا تناول الرجل الثمرة عادت مكانها الأخرى .

وقوله تعالى : ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ أى وفرش عالية وطيدة ناعمة ، وقوله تعالى : ﴿ انا أنشأناهن إنشاء ، فجعلناهن أبكاراً عرباً أتراباً لأصحاب اليمين ﴾ . قال ابن القيم فى تفسير هذه الآيات :

أعاد الضمير إلى النساء ، ولم يجر هن ذكر ، لأن الفرش دلت عليهن ، إذهى محلهن ، وقيل : الفرش فى قوله : ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ كناية عن النساء ، كما يكنى عنهن بالقوارير والأزر وغيرها ، ولكن قوله : ﴿ مرفوعة ﴾ يأبى هذا إلا أن يقال : المراد رفعة القدر ، وقد تقدم تفسير النبى ﷺ للفرش وارتفاعها .

فالصواب : أنها الفرش نفسها ، ودلت على النساء ، لأنها محلهن غالباً .

قال قتادة وسعيد بن جبير : خلقناهن خلقاً جديداً ، وقال ابن عباس : يريد نساء آدميات .

وقال الكلبي ومقاتل : يعنى نساء أهل الدنيا العجز والشمط ، يقول الله تعالى : خلقناهن بعد الكبر والهرم بعد الخلق الأول فى الدنيا . ويؤيده ما رواه يحيى الحماني بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها ، وعندها عجوز ، فقال : من هذه ؟ فقالت : إحدى خالتي ، فقال :

(١) البقرة الآية ٢٥

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب الايمان باب الاسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وقرض الصلوات ج ١ ص ١٤٥ رقم ٢٥٩ / ١٦٢ .

(٣) أخرجه سند النسائي لسيوطى فى كتاب الكسوف باب قدر القراءة فى صلاة الكسوف ج ٣ ص ١٤٦ - ١٤٧ .

أما إنه لا يدخل الجنة عجوز ، فدخل على العجوز من ذلك ما شاء الله ، فقال النبي ﷺ : « إنا أنشأناهن إنشاء » خلقاً آخر ، يحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلا ، وأول من يكسى إبراهيم خليل الله ، ثم قرأ النبي ﷺ « إنا أنشأناهن إنشاء » (١) .

وقال آدم بسنده عن سلمة بن يزيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول في قوله تعالى : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ﴾ « يعنى الثيبات والأبكار اللاتي كن في الدنيا » (٢) .

وقال آدم بسنده عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة العجز » فبكت عجوز ، فقال رسول الله ﷺ : أخبروها أنها يومئذ ليست بعجوز ، إنها يومئذ شابة ، إن الله تعالى يقول : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ﴾ (٣) وذكر مقاتل قولاً آخر ، وهو اختيار الزجاج : « انهن الحور العين اللاتي ذكرهن قبل ، أنشأهن الله عز وجل لأوليائه ، لم يقع عليهن ولادة .

والظاهر : أن المراد أنشأهن الله في الجنة إنشاء ، ويدل عليه وجوه أحدها : أنه قد قال في حق السابقين : ﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب — إلى قوله — كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ فذكر سدرهم وآنيتهم وشرابهم وفاكهتهم وطعامهم ، وأزواجهم من الحور العين ، ثم ذكر أصحاب الميمنة وطعامهم وشرابهم ، وفرشهم ونساءهم ، والظاهر أنهم مثل نساء من قبلهم خلقهن في الجنة .

الثاني : أنه سبحانه قال : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ﴾ وهذا ظاهر أنه إنشاء أول لا ثان ، لأنه سبحانه حيث يريد الإنشاء الثاني يقيده بذلك ، كقوله : ﴿ وأن عليه النشأة الأخرى ﴾ (٤) .

الثالث : أن الخطاب بقوله : ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ إلى آخره : للذكور والإناث ، والنشأة الثانية أيضاً عامة للنوعين ، وقوله : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ﴾ ظاهره اختصاصهن بهذا الإنشاء . وتأمل تأكيده بالمصدر ، والحديث لا يدل على اختصاص العجائز المذكورات بهذا الوصف ، بل يدل على مشاركتهن للحور العين في هذه الصفات المذكورة ، فلا يتوهم انفراد الحور العين عنهن بما ذكر من الصفات ، بل هن أحق به منهن فالإنشاء واقع على الصنفين والله أعلم .

(١) أخرجه الدرر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي ج ٨ تفسير سورة الواقعة ج ٨ ص ١٥ طبعة دار الفكر .
(٢) أخرجه تفسير بن كثير في تفسير سورة الواقعة ج ٨ ص ٩ . وأخرجه أبو داد الطيالسي ج ٦ ص ١٨٥ رقم ١٣٠٧ .
(٣) أخرجه تفسير بن كثير في تفسير سورة الواقعة ج ٨ ص ٩ الآية رقم ٣٥ .
(٤) النجم الآية ٤٧ .

وقوله ﴿عرباً﴾ جمع عروب ، وهن المتحبيات إلى أزواجهن ، قال ابن الأعرابي : العروب من النساء : المطيعة لزوجها ، المتحبة إليه . قلت : يريد حسن موافقتها وملاطفتها لزوجها عند الجماع .. وذكر المفسرون في تفسير العُرب . أنهم العواشق المتحبيات .. قلت : فجمع سبحانه بين حسن صورتها ، وحسن عشرتها . وهذا غاية ما يطلب من النساء ، وبه تكمل لذة الرجل بهن . وقوله : ﴿أتراباً﴾ أي كلهن في سن واحدة ، لا تمتاز واحدة عن أخرى .

اخراج الترمذی فی الشماثل بسنده عن الحسن عن أمه عن أم سلمة قالت قلت يا رسول الله أخبرني عن قوله تعالى : ﴿حور عين﴾ قال « حور بيض عين ضخام العيون شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر » قلت أخبرني عن قوله تعالى : ﴿كأَمْثال اللؤلؤ المكنون﴾ قال : « صفاؤهن صفاء الدر الذي في الأصداف الذي لم تمسه الأيدي . قلت أخبرني عن قوله تعالى : ﴿فيهن خيرات حسان﴾ قال بخيرات الأخلاق حسان الوجوه . قلت أخبرني عن قوله : ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ قال « رقتين كرقعة الجلد الذي رأيت في داخل البيضة مما يلي القشر وهو الغرقى » قلت يا رسول الله أخبرني عن قوله : ﴿عرباً أتراباً﴾ قال : « هن اللواتي قبضن في الدار الدنيا عجائز رمصاً شمطاً خلقهن الله بعد الكبر فجعلهن عذارى عرباً متعشقات محبيات أتراباً على ميلاد واحد » قلت يا رسول الله نساء الدنيا أفضل أم الحور العين . قال : بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة . قلت يا رسول الله وبم ذاك ؟ قال : « بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله عز وجل ، ألبس الله وجوههن النور وأجسادهن الحرير ، بيض الألوان خضر الثياب صفر الحلى ، مجامرهن الدر وأمشاطهن الذهب ، يقلن نحن الخالدات ، فلا نموت أبداً ، ونحن الناعمات فلا نياس أبداً ، ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً ، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً ، طوبى لمن كنا له ، وكان لنا ، قلت يا رسول الله : المرأة منا تتزوج زوجين والثلاثة والأربعة ثم تموت ، فتدخل الجنة ، ويدخلون معها من يكون زوجها ؟ » قال : « يا أم سلمة إنها تخير فتختار أحسنهم خلقاً ، فتقول يارب إن هذا كان أحسن خلقاً معي فزوجنيه ، يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة »^(١) وقال الطبراني بسنده عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكاراً »^(٢) . وقال أبو داود الطيالسي عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا في النساء قلت يا رسول الله ويطلق ذلك ؟ قال يعطى قوة مائة »^(٣) .

(١) أخرجه تفسیر بن کثیر تفسیر سورة الواقعة ج ٨ ص ١٠ .

(٢) أخرجه الطبرانی فی المعجم الصغير ج ١ ص ٩١ ، وأخرجه أيضاً تفسیر بن کثیر فی تفسیر سورة الواقعة ج ٨ ص ١١ .

(٣) أخرجه تفسیر بن کثیر فی تفسیر سورة الواقعة ج ٨ ص ١١ وأخرجه أبو داود الطيالسي فی مسنده ج ٨ ص ٢٦٩ رقم

وقوله تعالى : ﴿ لأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أى خلقهن لأصحاب اليمين وقوله : ﴿ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ أى جماعة من الأولين ، وجماعة من الآخرين ، اللهم اجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الراحمين ، قال ابن جرير بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال ﴿ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ، ثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ قال رسول الله ﷺ « هما جميعاً من أمتي » (١) .

أصحاب الشمال

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مِمَّا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ (٤١) فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ (٤٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ لَمُكْذِبُونَ (٥١) لَا تَكُلُونَ مِنَ الشَّجَرِ مِن زُقُومٍ (٥٢) فَتَالِعُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْهَمِيمِ (٥٥) هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) ﴿

معاني المفردات

﴿ السموم ﴾ حر نار ينفذ في المسام ، ﴿ والحميم ﴾ الماء الشديد الحرارة ، ﴿ واليحموم ﴾ دخان أسود ، كما قال ابن عباس : ﴿ لا بارد ولا كريم ﴾ أى لا هو بارد كسائر الظلال ، ولا دافع أذى الحر لمن يأوى إليه ، ﴿ مترفين ﴾ أى منعمين مقبلين على لذات أنفسهم لا يلوون على شيء مما جاء به الرسل ، ﴿ يصرون ﴾ أى يقيمون ولا يقلعون ، ﴿ الحنث العظيم ﴾ أى الذنب العظيم ، وهو الشرك بالله ، وجعل الأوثان والأنداد أرباباً من دون الله ، ﴿ والميقات ﴾ ما وقت به الشيء ، والمراد به يوم القيامة ، وسمى به ، لأنه وقت به الدنيا .

(١) أخرجه الامام أحمد في مسنده ج ٢ ص ٣٩١ .

وأخرجه أيضاً تفسير ابن كثير في تفسير سورة الواقعة الآية رقم ١٣ ، ١٤ ج ٧ ص ٤٩٢ ، ج ٨ ص ١٥ .

﴿ وشجر الزقوم ﴾ شجر ينبت في أصل الجحيم . ﴿ والهيم ﴾ واحدها أهيم وهو الجمل الذي يصيبه الهيام — بالضم — وهو داء يشبه الاستسقاء ، يصيب الأبل فتشرب حتى تموت ، أو تسقم سقماً شديداً . ﴿ النزول ﴾ ما يقدم للضيف إذا نزل تكرمة له . ﴿ ويوم الدين ﴾ يوم الجزاء .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه زوجين من الأزواج الثلاثة ، وبين ما يلقاه كل منهم من عز مقيم وشرف عظيم ، في جنات ونعيم ، في جملة شئونهم ، في مآكلهم ومشاربهم وفرشهم ، وأزواجهم — أردف ذلك ذكر الزوج الثالث ، وبين ما يلقاه من النكال والوبال وسوء الحال ، ثم أعقبه بذكر السبب في هذا ، بأنهم كانوا في دنياهم مترفين غارقين في ذنوبهم ، منكرين هذا اليوم يوم الجزاء ، ثم أمره أن يخبرهم بأن هذا اليوم واقع حتماً ، وأن مآكلهم سيكون من شجر الزقوم يملئون منه بطونهم ، ثم يشربون ولا يرتوون كالإبل الهيم ، وهذا ما أعد لهم من كرم وحسن وفادة في هذا اليوم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم ﴾ .

أى وأصحاب الشمال في حال لا يستطيع وصفها ، ولا يقدر قدرها من نكال ووبال وسوء منقلب .

ثم فسر هذا المهم بقوله تعالى : ﴿ في سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ﴾ أى هم في حر ينفذ في المسام ، وماء متناه في الحرارة ، وظل من دخان أسود ، ليس بطيب الهبوب ، ولا حسن المنظر ، لأنه دخان من سعير جهنم ، يؤلم من يستظل به ، وذكر السموم والحميم ولم يذكر النار ، إشارة بالأدنى إلى الأعلى ، فإن هواءهم إذا كان سموماً ، وماءهم الذي يستغيثون به حميماً ، مع أن الهواء والماء من أببرد الأشياء وأنفعها ، فما ظنك بنارهم ، فكأنه قال : إن أبرد الأشياء لديهم أحرها ، فما بالك بمحاهم مع حرها ؟

كقوله تعالى : ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ، انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغنى من اللهب ، إنها ترمى بشرر كالقصر ، كأنه جملة صفر ويل يومئذ للمكذبين ﴾^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ لا بارد ولا كريم ﴾ أى ليس طيب الهبوب ولا حسن المنظر كما قاله الحسن وقتادة ، ﴿ ولا كريم ﴾ أى ولا كريم المنظر ، وقال الضحاك : كل شراب ليس بعذب فليس بكريم .

وقال ابن جرير : العرب تتبع هذه اللفظة فى النفى ، فيقولون هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم ، وهذه الدار ليست بنظيفة ولا كريمة ..

ثم ذكر سبحانه السبب فى تعذيبهم ، فقال تعالى : ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاماً أئنا لمبعوثون . أو آباؤنا الأولون ﴾ .

أى كانوا فى الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذات أنفسهم لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل ﴿ وكانوا يصرون ﴾ أى يقيمون ولا يتوبون توبة ﴿ على الحنث العظيم ﴾ وهو الكفر بالله ، وجعل الأوثان والأنداد أرباباً من دون الله ، قال ابن عباس : الحنث العظيم الشرك ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ إنا كذلك نفعل بالمجرمين ، إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ، ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين إنكم لذائقوا العذاب الأليم وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون ﴾ يعنى أنهم يقولون ذلك مكذبين به مستبعدين لوقوعه . قال الله تعالى : ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ أى أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين من بنى آدم ، سيجمعون عرصات إلى عرصات القيامة ، لا يغادر منهم أحداً ، كما قال تعالى : ﴿ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدهم عدداً وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴾^(٣) ، وكقوله تعالى : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ، وما تؤخره إلا لأجل معدود ، يوم يأت لا تكلم

(١) المرسلات الآيات ٢٩ — ٣٤

(٢) الصافات الآيات ٣٤ — ٣٩

(٣) مريم الآيات ٩٣ — ٩٥

نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ﴿١﴾ ، ولهذا قال ههنا ﴿مجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾ أى هو موقت بوقت محدود ، لا يتقدم ولا يتأخر ، ولا يزيد ولا ينقص ، قوله تعالى : ﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لا تكون من شجر من زقوم فمالتون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم هذا نزلهم يوم الدين﴾ .

أى أيها الذين ضللتهم فأصررتهم على الذنب العظيم ، إذ لم توحيدوا الله ولم تفعلوا ما يوجب تعظيمه ، ثم كذبتهم رسله ، فأنكرتم البعث والجزاء فى هذا اليوم — إنكم لا تكون من شجر الزقوم ، فمالتون منها بطونكم ، فشاربون بعد ذلك ماء حار لغلبة العطش عليكم ، ولكنه شرب لا يشفى الغليل ، ومن ثم تشربون ولا ترتون ، فكأنكم الإبل التى أصيبت بداء الهيام ، فلا يروى لها الماء غليلاً .

كما قال تعالى : ﴿أذلك خير نزلًا ، أم شجرة الزقوم ، إنا جعلناها فتنة للظالمين ، إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعتها كأنه رءوس الشياطين ، فإنهم لا يكون منها فمالتون منها البطون ، ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم ، ثم إن مرجعهم لالى الجحيم﴾ ﴿٢﴾ ، وكما قال تعالى : ﴿إن شجرت الزقوم ، طعام الأثيم ، كالمهل يغلى فى البطون ، كغلى الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق إنك أنت العزيز الكريم إن هذا ما كنتم به تمترون﴾ ﴿٣﴾ .

أخرج الامام أحمد بسنده عن مجاهد : إن الناس كانوا يطوفون بالبيت وإن ابن عباس جالس معه محجن فقال : قال رسول الله ﷺ : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، ولو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم فكيف بمن ليس له طعام إلا من الزقوم » ﴿٤﴾ وكذلك رواه الترمذى وقال حسن صحيح .

قوله تعالى : ﴿هذا نزلهم يوم الدين﴾ أى هذا الزقوم المأكول والحميم المشروب ، أول الضيافة التى تقدم لهم ، كما يقدم للنازل مما حضر ، فما بالك بهم بعد ما يستقر بهم المقام فى النار ؟ ولا يخفى ما فى هذا من التهكم بهم ، والتوبيخ لهم ، كما قال تعالى : ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم ، إن هذا ما كنتم به تمترون﴾ ﴿٥﴾ .

(١) هود الآيات ١٠٣ — ١٠٥

(٢) الصافات الآيات ٦٢ — ٦٨

(٣) الدخان الآيات ٤٣ — ٥٠

(٤) أخرجه الامام أحمد فى مسنده ج ١ ص ٣٠١

(٥) الدخان الآيات ٤٩ — ٥٠

من دلائل التوحيد

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ ٥٧ ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ ٥٨ ﴿ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ ٥٩ ﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ ٦٠ ﴿ عَلَىٰ أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ٦١ ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ٦٢ ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ ٦٣ ﴿ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ ٦٤ ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ ٦٥ ﴿ إِنَّا لَمَغْرُمُونَ ﴾ ٦٦ ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ ٦٧ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ ٦٨ ﴿ أَنْتُمْ أَتْرَلْتُمُوهُ مِنْ الْمَزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ ٦٩ ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ ٧٠ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ ٧١ ﴿ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِعُونَ ﴾ ٧٢ ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴾ ٧٣ ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ ٧٤

معاني المفردات

! تمنون ﴿ أى تقذفون فى الأرحام من النطف ، ﴿ تخلقونه ﴿ أى تقدرونه وتصورونه بشراً
سويّاً تام الخلق ، ﴿ قدرنا ﴿ أى قسمنا ووقتنا موت كل أحد بوقت ، ﴿ نبدل أمثالكم ﴿ أى نمتكم
دفعه واحدة ونخلق أشباهكم ، ﴿ فيما لا تعلمون ﴿ أى من الخلق والأطوار التى لا تعهدونها ، ﴿ فلو
لا تذكرون ﴿ أى فهلا تذكرون ذلك ، ﴿ تحرثون ﴿ أى تبتدون حبه وتعملون فى أرضه ،
﴿ تزرعون ﴿ أى تبتونه وتجعلونه نباتاً يرف ، ﴿ حطاماً ﴿ أى هشيماً متكسراً متفتتاً لشدة يسه
بعد ما أنبتناه ، ﴿ تفكّهون ﴿ أى تتعجبون من سوء حاله ، ﴿ مغرمون ﴿ أى معذبون مهلكون من
الغرام وهو الهلاك ، ﴿ محرومون ﴿ أى غير مجدودين ، فليس لنا جد وحظ ، ﴿ المزن ﴿ السحاب
واحدته مزنه ، ﴿ أجاجا ﴿ أى ملحاً زعاقاً ، لا يصلح لشرب ولا فى زرع ، ﴿ لولا ﴿ بمعنى هلا ،
وهى كلمة تفيد الحث على فعل ما بعدها ، ﴿ تورون ﴿ أى تقدحونها وتستخرجونها من الزناد

﴿ تذكرة ﴾ تذكيراً بالبعث ، ﴿ ومتاعاً ﴾ أى منفعة ، ﴿ للمقوين ﴾ أى للمسافرين الذين يسكنون القواء : أى القفز والمفاوز ، ﴿ فسبح ﴾ أى تعجب من أمرهم وقل : سبحان الله العظيم .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر الأزواج الثلاثة ، وبين مآل كل منها ، وفصل ما يلقاه السابقون ، وأصحاب الميمنة من نعيم مقيم ، وذكر ما يلقاه أصحاب المشأمة من عذاب لا زب فى حميم وعشاق ، وذكر أن ذلك إنما نالهم ، لأنهم أشركوا بربهم ، وعبدوا معه غيره ، وكذبوا رسله ، وأنكروا البعث والجزاء — أردف ذلك إقامة الأدلة على الأوهية من خلق ورزق لطعام وشراب ، وأقام الدليل على البعث والجزاء ، ثم أثبت الأصل الثالث ، وهو النبوة فيما بعد .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون ، أفأرأيتم ما تمنون أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾ .

قال ابن كثير :

يقول تعالى مقررراً للمعاد ، وراداً على المكذبين به من أهل الزيغ والإلحاد ، من الذين قالوا : ﴿ أئذامتنا وكنا تراباً وعظاماً أننا لمبعوثون ﴾^(١) ، وقولهم ذلك صدر منهم على وجه التكذيب والاستبعاد ، فقال تعالى : ﴿ نحن خلقناكم ﴾ أى نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، أفليس الذى قدر على البداءة ، بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأخرى ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ فلولا تصدقون ﴾ أى فهلا تصدقون بالبعث ، ثم قال تعالى مستدلاً عليهم بقوله : ﴿ أفأرأيتم ما تمنون ؟ أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ أى أنتم تقرونه فى الأرحام ، وتخلقونه فيها ، أم الله الخالق لذلك ؟ ثم قال تعالى : ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ أى صرفناه بينكم ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ أى وما نحن بعاجزين ﴿ على أن نبدل أمثالكم ﴾ أى نغير خلقكم يوم القيامة ، ﴿ وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ أى من الصفات والأحوال ، ثم قال تعالى : ﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾ أى قد علمتم ان الله أنشأكم ، بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، فهلا تذكرون ، وتعرفون أن الذى قدر على هذه النشأة ، وهى البداءة ، قادر على النشأة الأخرى ، وهى الإعادة بطريق الأولى والأخرى ، كما قال تعالى : ﴿ أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن

ذلك على الله يسير قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير ، يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تفلبون ، وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴿١﴾ .

وكقوله تعالى : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ (١) . وكقوله جل شأنه : ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ (٢) ، وكقوله جل وعلا : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر ﴾ (٣) ، وكقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفةعلقة فخلقنا العلقه مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ (٤) .

فلينظر الإنسان مم خلق

خلق الإنسان من نطفة ، قذيفة منوية تشتمل على أكثر من ٨٠ مليون كائن منوى فى السنتيمتر الواحد ، هذه القذيفة ، إذا صبت فى الأرحام لا يصلح منها للإنباج ، إلا كائن منوى واحد . هذا الكائن المنوى لا تراه إلا بالمجهر المكبر حجمه ١٠٠٠٠ / ٥٢ من المليمتر ، مفلطح الرأس طويل الذنب يسبح فى ظلمات بسرعة ١/٢ مليمتر فى الثانية الواحدة ، خلق منه الإنسان فى كل مرة يجتمع فيها الذكر والأنثى ، تنساب ملايين الحيوانات المنوية ، لكى تسبح بذيوها حول بويضة صغيرة .. تراها بالميكروسكوب تضرب بذويلها ، وكأنها ترقص ومن بين هذه الملايين ، يخترق حيوان واحد جدار البويضة ، ترى هو أقوى هذه الحيوانات المنوية ؟ أبداً .. هل هو أضعفها ؟ أبداً .. هل هو ؟ .. هل هو ؟! أبداً قد يكون الحيوان العليل الذى يحمل المرض الوراثى ، هو الذى يخترق جدار البويضة ، وتبقى ملايين الحيوانات المملوءة صحة خارجها ، قد يكون أضعفها ، قد يكون وقد يكون . العلماء يقولون نحن نعرف أن هذه العملية لا تخضع لأى قانون مدون ، ونحن نقول إنها تخضع لإرادة الله لمشيئة الله .

(٤) الطارق الآيات : ٦ — ١٠

(٥) المؤمنون الآيات ١٢ — ١٧

(١) العنكبوت الآيات ١٩ — ٢٢

(٢) الروم الآية ٢٧

(٣) يس الآيات ٧٧ — ٧٩

وفي الثانية التي يخترق الحيوان المنوى جدار البويضة يتحدد كل شيء أليس عجباً!! يتحدد نوع الجنين هل هو ذكر أو أنثى — لون بشرته ، لون شعره — تصميم هيكله الجسدى — طويل أم قصير ، بدين أم رفيع — تناسق الأطراف — الأمراض الوراثية التي يحملها ، كل شيء .. كل شيء ؟ .

والآن هل تعرف ما هو وزن الخلية التي حددت كل هذه الصفات ؟ وزنها ٦ من مليون من الجرام ، أى : أنك إذا جئت بجرام ثم قسمته إلى مليون جزء يكون وزن الخلية ستة أجزاء منه أترى الإعجاز ؟ ! وتنمو الخلية الملقحة هذه داخل الرحم .

رحم طوله ٧ سم وعرضه ٥ سم وسمكه ٢ ١/٢ سم . هل فيه ضوء يضيء له حتى يخلق ؟ لا بل ظلمات ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ (١) ، هل صورك فى الأشعة تحت الحمراء ؟ هل صورك فى الأشعة فوق البنفسجية ؟ هل صورك فى ضوء الشمس أو ضوء القمر ؟ لا .

إذاً فى أى شيء صورك ؟! فى ظلمات ثلاث ﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث . ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون ﴾ (٢) .

يا من يرى مد البعوض جناحه	فى ظلمة الليل الهم لأيل
ويرى نياط عروقها فى نحرها	والمخ فى تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما دونها	فى قاع بحر ذاخر متجندل

آلهى

يا من له عنت الوجوه بأسرها	رهباً وكل الكائنات توحـد
أنت الإله الواحد الحق الذى	كل القلوب له تقرر وتشهد

— (مستفاد من كتاب القرآن والإعجاز فى خلق الإنسان للدكتور طاهر توفيق) .

قوله تعالى : ﴿ أفأرى ما تحرثون . أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلمت تفكهون . إنا لمغرمون . بل نحن محرومون . ﴾ .

هذه حجة أخرى على وحدانية الله وقدرته ، أى : أخبروني عن البذر الذى تلقونه فى الطين ﴿ أنتم

(١) سورة آل عمران الآية ٦

(٢) سورة الزمر الآية ٦

تزرعونه أم نحن الزارعون ﴿١﴾ أى : أنتم تبتونه وتنشئونه حتى يكون فيه السنبل والحب ، أم نحن الفاعلون لذلك ؟ فإذا أقررتم أن الله هو الذى يخرج الحب وينبت الزرع فكيف تنكرون إخراج الأموات من الأرض ؟ .

قال تعالى : ﴿٢﴾ وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴿٣﴾ .

وقال جل شأنه : ﴿٤﴾ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ، حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴿٥﴾ .

وقال سبحانه : ﴿٦﴾ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴿٧﴾ . وقال جل ذكره : ﴿٨﴾ آمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبثنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ألله مع الله بل هم قوم يعدلون ﴿٩﴾ وقال سبحانه وتعالى : ﴿١٠﴾ فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صباً . ثم شققنا الأرض شقاً . فأنبتنا فيها حباً . وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلاً . وحدائق غلباً . وفاكهة وأباً . متاعاً لكم ولأنعامكم ﴿١١﴾ .

وقال سبحانه : ﴿١٢﴾ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه ياكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون . سبحانه الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴿١٣﴾ .

(١) سورة الأنعام الآية ٩٩

(٢) سورة الأعراف الآية ٥٧

(٣) سورة الحج الآيات ٥ - ٧

(٤) سورة النمل الآية ٦

(٥) سورة عبس الآيات ٢٤ - ٢٢

(٦) سورة يس الآيات ٣٣ - ٣٦

إلى آثار ما صنع الملوك
بأبصارهن الذهب السبيك
بأن الله ليس له شريك

ذات الغصون المنصورة
وكيف صارت شجرة
يخرج منها الثمرة
أنعمه منهمرة
وقدرة مقتدرة
وزانه بانجم كالدرر المنتثرة
أوجد فيه قمره
كالدرر المنتثرة
أنعمه منهمرة
وقدرة مقتدرة
جذوتها مستعرة
حرارة من تشرة
في الجو مثل الشررة
أنعمه منهمرة
وقدرة مقتدرة
من شق فيه بصره
بقدره مفتككه
أنعمه منهمرة
وقدرة مقتدرة

تأمل في نبات الأرض وانظر
عيون من لجين شاخصات
على قضب الزبرجد شاهدات

انظر لتلك الشجرة
كيف نمت من حبة
فانظر وقل من ذا الذي
ذاك هو الله الذي
ذو حكمة بالغة
انظر إلى الليل فمن أوجد فيه قمره
انظر إلى الليل فمن
وزانه بانجم
ذاك هو الله الذي
ذو حكمة بالغة
انظر إلى الشمس التي
فيها ضياء وبها
من ذا الذي أوجدها
ذاك هو الله الذي
ذو حكمة بالغة
انظر إلى المرء وقل
من الذي جهزه
ذاك هو الله الذي
ذو حكمة بالغة

قوله تعالى : ﴿ لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلمتم تفكهون . إنا لمغرمون بل نحن محرومون ﴾ أي :
نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا وأبقيناه لكم رحمة بكم ، ﴿ ولو نشاء لجعلناه حطاماً ﴾ أي : لأيسناه قبل
استوائه واستحضاره ، ﴿ فظلمتم تفكهون ﴾ أي : فظلمتم وبقيتم تتفجعون وتحزنون على الزرع مما حلّ
به وتقولون : ﴿ إنا لمغرمون ﴾ قال قتادة : أي : لا يثبت لنا مال ولا ينتج لنا ربح ، ﴿ بل نحن
محرومون ﴾ أي : بل نحن محرمون الرزق ، غرماً قيمة البذر ، وحرماً خروج الزرع .

نظرة في حياة النبات

يقول الأستاذ الدكتور / محمد أحمد الغمراوي — رحمه الله — في كتابه « الاسلام في عصر العلم »

ما نصه :

« إن النبات يتغذى بمواد بسيطة من الهواء ومن الأرض ، فمن الهواء يؤخذ الأكسجين وثاني أكسيد الكربون وأحياناً الأزوت ، ومن الأرض يؤخذ الماء وبعض الأملاح ، خصوصاً الأزوتات ، ولخلايا النبات كلها دخل طبعاً في كل هذا ، لكن محور هذا التغذى ، وهو تمثيل ثاني أكسيد الكربون ، لا يحدث إلا في الأجزاء الخضراء من النبات ، سواء كانت الخضرة في الساق ، أو الفروع ، أو الأوراق . لكن ما يحدث في غير الأوراق ضئيل بالنسبة لما يحدث في الأوراق لكثرتها ورقتها واتساع سطحها ، وإذن فمن الممكن أن يقال : إن حياة النبات ، وحياة الحيوان المرتبطة بحياة النبات ، متوقفة كلها على تمثيل ثاني أكسيد الكربون في الأوراق الخضراء . »

إن النبات يبدأ حياته في الغالب بذرة أو نواة توضع في الأرض وتسقى بالماء فتنبت ، أى : تنفلق ويخرج منها جذير يمتد إلى أسفل وسويق يمتد إلى أعلى تنشق عنه الأرض حاملاً ورقتين صغيرتين خضراوتين .

هذا هو الدور الأول من حياة النبات ويصح أن يسمى بذور الإنبات : لا تأخذ فيه الحبة أو النواة من الخارج إلا الماء والأكسجين ، أما ما عدا ذلك من الغذاء اللازم لتكوين الجذير والسويق والورقتين فيستمد مما أودع الله الحب والنوى من مواد عضوية كالنشا قدرها الله بحيث تكفى لتكوين تلك الأعضاء ، وعلى الجذير والوريقتين يتوقف تغذى النبات بعد ذلك . فالجذير يمتص الماء وما فيه من أملاح ذائبة من الأرض ، والوريقات الخضراء تعمل عملين :

١ — تمتص الأكسجين من الهواء لإحراق الغذاء داخل خلايا النبات حرقاً بطيئاً . وتطرد فضلات التغذى من ثاني أكسيد الكربون وبخار الماء ، هذه العملية تنفسية ، وتجري ليلاً ونهاراً ، وهى وإن كانت غير مقصورة على الورق إلا أنها في الورق أفعل وأكثر .

٢ — تمتص ثاني أكسيد الكربون من الهواء فيتغير داخلها تغيراً كيمياوياً باتحاده مع الماء بواسطة الخضر اتحاداً ينشأ عنه من ناحية مواد غذائية للنبات مثل السكريات والنشا ، تدور بصورة ما في العصارة النباتية على الخلايا لتمثلها مع ما يكون في العصارة من أملاح ، وينشأ عنها من ناحية أخرى أكسجين بقدر ما كان في ثاني أكسيد الكربون ، وهذا هو المقصود من قولهم : إن النبات في التمثيل الخضرى

يحلل ثاني أكسيد الكربون فيأخذ الكربون ويطرد الأوكسجين ، والواقع انه لا يحلله ابتداء ولكن يركبه مع الماء تركيباً تنتج عنه مواد عضوية وأوكسجين بقدر ما كان في ثاني أكسيد الكربون ، وهذا هو التمثيل الخضرى .

فمن هذا ترى أن جميع النباتات من شجر وزرع بعد دور الإنبات انما يخلقها الله من بين الوريقات الخضراء والجذير ، فالجذير يمتص الماء والأملاح ، والوريقات تمتص الأوكسجين وثاني أكسيد الكربون وتمضم ذلك كله ، أى : تحوله إلى مواد معقدة نسبياً إلا أنها صالحة لتمثيل خلايا النبات إياها ، وتحويلها إلى الأجزاء النباتية التى يقتضيها نمو الجذير إلى جذر ، والسويق إلى ساق ، والوريقات إلى أوراق كثيرة ، ثم إذا جاء دور الإثمار إلى أزهار وحب وثمار .

لكن هذا التركيب والنمو والبناء عمل عظيم لابد لإتمامه من طاقة ، فمن أين يأتى النبات بالطاقة اللازمة ؟ هو لا يأخذها من الغذاء كما يفعل الحيوان ، ولكن الله سبحانه وتعالى — يرسلها له مسخرة فى ضوء الشمس : يقع الضوء على المادة الخضراء فتمتص بعضه لتستعين بطاقته على تمثيل ثاني أكسيد الكربون والماء ، أى : أنه تحول ما تمتصه إلى طاقة كيماوية كامنة فى نواتج التمثيل الخضرى التى يتغذى بها النبات بعد ، كما يتغذى الحيوان بنواتج هضم طعامه ، لذلك كان التمثيل الخضرى لا يجرى إلا نهاراً فى حين ان التنفس يجرى نهاراً وليلاً ، وكان التمثيل الخضرى أقوى كثيراً فى الشمس منه فى الظل ، على أن للتمثيل الخضرى فى الضوء حداً أقصى يقف عنده قلما يبلغه النبات ولو فى الشمس ، لأنه متوقف — أيضاً — على مقدار ثاني أكسيد الكربون فى الهواء ، وهذا بالطبع ينقص بالتمثيل .

فالتمثيل الخضرى يتوقف بعد المادة الخضراء على ثلاثة أشياء : الضوء من ناحية ، وثاني أكسيد الكربون ، والماء من ناحية أخرى أما الضوء فأنت من غير شك تنتظر أن يكون أفعال أجزاء الضوء فى التمثيل الخضرى هو البنفسجى وما فوقه ، لكن الأشعة البنفسجية وما فوقها ، التى هى أفعال أجزاء الضوء فى التصوير الشمسى وفى قتل الجراثيم ومسح الأصباغ ، ليس لها فى التمثيل الخضرى إلا نصيب ضئيل . أما أفعال أجزاء الضوء فى التمثيل الخضرى فهو الضوء الأصفر . وأما ثاني أكسيد الكربون فإن نسبته فى الهواء ضئيلة متغيرة حسب الأمكنة والفصول ، فقريباً من وجه الأرض مثلاً تبلغ نسبته بالحجم من ١٢ إلى ١٣ فى كل ١٠٠٠٠ ، وفى يوليو مثلاً تبلغ نسبته من ٢,٧ إلى ٢٢٩ ، وفى الشتاء من ٣ إلى ٣,٦ فى كل ١٠٠٠٠ ، وتزداد النسبة طبعاً وانتشار الغازات كفيلاً بمزج الهواء وتوزيع أجزائه على السواء . ومتوسط نسبة ثاني أكسيد الكربون فى الهواء هى بالحجم نحو من ٢,٣ إلى ٣,٥ فى كل ١٠٠٠٠ حجم من الهواء . هذه نسبة ضئيلة ، لكنها تقابل فى مجموع الهواء الجوى مقدار هائلاً

من ثانى أوكسيد الكربون قدره بنحو ٢١٠٠ بليون كيلو جرام تحتوى على نحو ٥٦٠ بليون كيلو جرام من الكربون كلها مسخرة للنبات بالعوامل الدائبة على نشر الغاز فى الهواء .

على أن هذا المقدار الهائل لا يكفى حياة النباتات الأرضية إلا نحو ثلاثين عاماً ، إن سرعة التمثيل الخضرى تختلف طبعاً باختلاف النباتات ، واختلاف الظروف ، لكنهم قدروا أن المتر المربع من الورق الأخضر فى الظروف المسعدة ينتج بالتمثيل الخضرى من نصف جرام إلى جرام من المواد العضوية الجافة فى الساعة ، فتصور المساحات الهائلة للورق الأخضر فى أشجار الأرض وزروعها وساعات عملها فى فصول نشاطها فى العام ، تدرك هول مقدار المواد العضوية التى يخلقها الله بالتمثيل الخضرى فى درجة الحرارة العادية كل عام ، صحيح أن هذه المواد تداخل فى عناصرها الأوكسيجين والأيدروجين وما إليهما بجانب الكربون . لكن مقدار الكربون اللازم لهذا المحصول قد قدره بنحو ١٤ إلى ٢٢ بليون كيلو جرام آتية من نحو ٥٠ إلى ٨٠ بليون كيلو جرام من ثانى أوكسيد الكربون . فلو لم يتجدد ثانى أوكسيد الكربون فى الهواء بعمليات التنفس والتعفن والاحتراق لوقفت حياة النبات فى نحو ثلث قرن ، ووقفت بوقوفها الحياة .

فانظر إلى عجيب صنع الله كيف جعل الموت ضرورياً للحياة ، وكيف خلق الحياة من نواتج التعفن والتحلل بعد الموت . إن الله يخلق الأحياء من عناصر قليلة . لكن هذه العناصر محدودة المقدار فى الأرض ، يكفى أن يستنفد عنصر واحد منها فى جيل أو أجيال قليلة لتقف الحياة قاطبة على وجه الأرض ، فلم يكن بد لوجود مطلق الحياة على سطح الأرض من تعاقب الحياة والموت جيلاً بعد جيل ، فى النبات والحيوان لتتجدد بموت جيل المادة التى يخلق الله منها الجيل الذى بعده . فالأوكسيجين يستمدّه الأحياء من الهواء ، فإذا ماتوا وتحولوا بالتعفن إلى ثانى أوكسيد الكربون رده الله إلى الهواء مرة أخرى يفعل التمثيل الخضرى ، والكربون يستمدّه النبات من ثانى أوكسيد الكربون من الجو ، ويتغذى الحيوان بالنبات ، ثم يموت النبات ، فيحرق أو يتعفن ويتحول إلى ثانى أوكسيد الكربون ، فيما يتحول إليه ، ويموت الحيوان فيدفن ويتعفن ويتحول إلى ثانى أوكسيد الكربون فيما يتحول إليه ، ويصعد ثانى أوكسيد الكربون فى الحالين إلى الجو فيتغذى به النبات مرة أخرى ، بالتمثيل الخضرى وهكذا دواليك .

والأزوت يأخذه النبات من أزوتات الأرض ، وأحياناً من أزوت الجو فيحوّله إلى جزء منه ، ويتغذى الحيوان بالنبات وتحلل فضلاتهما وأجسامهما فى الأرض بعد الموت ، وتتحوّل إلى رماد أو تراب أو أزوت يصعد فى الجو ، وفى الحالين يتغذى النبات بأزوت التراب أو الجو مرة أخرى ، وهكذا دواليك .

طبعاً هذه الدورات دائبة متدرجة لا يحس الجيل الحى فيها بفتور أو انقطاع لدوام تجدد كل عنصر من تلك العناصر كلما استنفد منه جزء من حلقة من حلقات الدورة يتجدد بدله جزء فى حلقة أخرى . وقد وزن الله — سبحانه — بين قوى الاستهلاك وقوى التجديد حتى ليبدو كل عنصر أنه ثابت المقدار ، وهذا هو سر خفاء تلك الدورات عن ملاحظة الإنسان ، فلم ينتبه إليها ولم يفقه ما فقه منها إلا بعد أن أوتى حظاً من العلم فى هذا العصر الحديث .

تلك أمثلة من دورة المادة فى حياة النبات والحيوان ، أو بين الحياة والموت ، وللتمثيل الخضرى أثر عظيم فيها . أما الطاقة التى تقوم عليها حياة الكائن الحى ، كما تقوم على المادة ، فليس لها دورة ، أو ليس يعرف الإنسان لها دورة ، إنما الطاقة على سطح الأرض مستمدة كلها من الشمس ، وللتمثيل الخضرى فى ذلك أعظم الأثر .

إن الإنسان والحيوان ينتفع طبعاً بما يصله من حرارة الشمس وضوئها المباشر وكذلك النبات ينتفع باعتدال الجو حوله ، لكن هذا على عظمه لا يكاد يذكر بجانب انتفاع النبات بما يمثله ويخترنه من ضوء الشمس ، أو بجانب انتفاع الحيوان بالطاقة المخزونة فى النبات . فالطاقة التى يخترنها النبات من الشمس هى جزء من صميم كيانه كالمادة التى يأخذها من الهواء أو من الأرض . والإنسان والحيوان يستمد مادته وطاقته من النبات ، فهو حين يتغذى بالنبات ليس يأخذ مادة الثمر فقط ، ولكن يأخذ طاقة للعمل . وكل طاقة له خارجية مردها فى النهاية إلى النبات ، ومصدرها الأول هو الشمس .

فالنار التى يستدفئ بها الإنسان ، أو التى يستوقدها فى قطاراته أو سفنه التجارية أو آلاته الصناعية ، كلها نباتى الأصل ، سواء أكانت نار خشب ، أم نار فحم ، أو نار زيت أم نار كحول ، أو نار بنزين ، حتى نار البترول الذى يختلفون فى مصدره أحيوانى هوأم نباتى أو معدنى مردها — أيضاً — إلى النبات فى النهاية .

فعلى الثبات مدار حياة الحيوان وحياة الإنسان ، لا من حيث المادة فحسب ، ولكن من حيث الطاقة التى هى بالفعل وبالحرارة أهم من المادة .

ومدار النبات فى مادته وطاقته على التمثيل الخضرى المتوقف على الضوء من ناحية وعلى نواتج التحلل والتعفن والاحتراق من ناحية أخرى ..

لكننا نريد مع ذلك إلا نترك هذا الفصل حتى ننظر معك فى آيتين اثنتين لن تجد صعوبة فى فهم

اشارتهما الواضحة إذا استحضرت ما قدمناه لك من الحقائق . الأولى : آية سورة الأنعام ، والثانية آية سورة يس ، كلاهما تنبه إلى أثر التمثيل الخضرى فى الحياة ، إلا أن آية سورة يس تؤكد فيه ناحية الطاقة ، وآية سورة الأنعام تؤكد فيه ناحية النمو .

أما آية سورة يس ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم توقدون ﴾^(١) .

فمفتاح معناها وصف الشجر بالأخضر ، وترتيب النار على خضرة الشجر . ومن يعرف أثر الخضرة فى نمو الشجر ، وفى بناء كيانه الخشبى على الأخضر ، وفى اختزانه ما فى ذلك الكيان من طاقة تبدو ناراً عند الاستيقاد ، لا يجد صعوبة فى إدراك سر ترتيب النار على الخضرة ، أو فى تبين عظمة الآية وبلاغتها وإعجازها . ومن لم يعرف هذا تحير أمام هذا الترتيب الغريب ، وراح يتلمس للآية توجيهها يذهب بها فى غير وجهها ، كما فعل من تلمس تفسير الآية فى سهولة اتقاد المرح والعقار .

على أن هناك قرينة قرآنية قوية تعين أن تفهم الآية الكريمة على هذا الوجه الذى ذكرناه ، ألا وهى قرينة السياق .

إن تلك الآية الكريمة إنما سقت رداً على مفكرى البعث . بعث الإنسان بعد أن يصير عظماً رميماً ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه . قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم توقدون ﴾^(١) . فلا بد أن يكون هناك صلة بين معناها وبين مسألة البعث ، كما لا بد أن يكون هناك حجة فيها على مفكرى البعث . أما الصلة فظاهرة من أن الآية متصل موضوعها اتصالاً وثيقاً بحياة النبات وإنشائه حياً نامياً قوياً ، بعد أن كان بذرة أو نواة لانماء بها ولا حياة ، وتزداد الصلة بأمر البعث وضوحاً باتضاح الحجة التى فى الآية على مفكر البعث ، والتى تقوم على أن جميع نماء الشجر ومادته وطاقته ، بعد خروج أول ورقتين خضراوتين من البذرة أو النواة ، إنما هو آتٍ من مواد أولية هى نواتج تعفن الشجر بعد موته أو احتراقه ، أى : من مواد تشبه من كل الوجوه ذلك العظم الرميم الذى استبعد المفكر الجاحد أن يحييه الله مرة أخرى .

هذا وقد أشارت الآية الكريمة إشارة واضحة يفهمها العالمون إلى ظاهرة تشبه ظاهرة البعث تمام الشبه ، لأنها بالفعل ظاهرة بعث للنبات بعد أن صار بالتعفن أو الإحراق بخار ماء وثانى أكسيد الكربون

(١) سورة يس الآية ٨٠

(١) سورة يس الآيات ٧٨ — ٨٠

ورمادا أو أملاحاً ، هي في الحقيقة التي تقابل العظم الرميم الذي ذكره الجاحد . فكأن الآية تقول لذلك المفكر : إن الذي يبعث الشجرة بعد أن فئت ويخلقها مرة أخرى بواسطة المادة الخضراء من نواتج تعفنها أو احتراقها ، قادر على أن يبعث الإنسان بعد موته ويخلقه مرة أخرى من نواتج تعفنه ، وتحوله إلى عظم رميم وغير عظم رميم إلا أنه لما لم يكن مأموناً على العقل حين نزلت الآية التصريح بهذه المعاني اكتفى في الآية بإيداعها مفاتيح إلى هذه المعاني ، لينتفع بها الإنسان إذا اتسع علمه ، ألا وهي وصف الشجر بالخضرة عند جعله أصلاً للنار ، مع السياق على أنه إذا كانت آية سورة يس قد عبرت عن خلق الشجر من الخضرة بلازمة ، وهو خلق النار من الخضرة ، فإن ما أشارت إليه آية سورة يس قد صرحت به آية سورة الأنعام ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ﴾^(١) هذه الآية إذا أخذت حرفياً فقد صرحت بما ألمنا به من حياة النبات في التفسير السابق . فهناك دور الإنبات ينتهي بخروج الوريقات الخضراء . وكلمة نبات في الآية يصح أن تكون — أيضاً — اسم مصدر بمعنى (الإنبات) . فالماء ينبت الله به كل بذر وكل نوى . ومن ناتج هذا الإنبات يخرج الله الخضر ، ومن هذا الخضر يخرج الله الحب المتراكب الذي هو ثمرة النبات ، وإذن فالله يخرج — أيضاً — من الخضر ما بين الخضر والحب من ساق وفروع وأوراق وأزهار .

على أن بقية آية سورة الأنعام صريحة — أيضاً — في أن ما يخرج الله — سبحانه — من الخضر ليس مقصوراً على الزرع ذي الحب ولكن يتناول الأعناب ، والزيتون ، والرمان ، وأشباهاها من النباتات طبعاً ﴿ ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾^(٢) .

ألا إننا كنا بئس	وأى بنى آدم خالـد
وبدؤهم كان من رهم	وكل إلى بابـه عائد
فواعجباً : كيف يعصى الإله	بل كيف يجحده الجاحـد؟
وفي كل شيء له آية	تدل على أنه الواحد !

قوله تعالى : ﴿ أفرايتم الماء الذي تشربون . أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ﴾ .

(١) سورة الأنعام من الآية ٩٩

(٢) سورة الأنعام من الآية ٩٩

أى : أفرايتم أيها الناس الماء العذب الذى تشربونه ﴿ أنتم أنزلتموه من المزن ﴾ أى : من السحاب الذى فوقكم إلى قرار الأرض أم نحن منزلوه لكم ؟ ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ﴾ أى : لو نشاء جعلناه ملحاً زعاقاً لا تنتفعون به فى شرب ولا غرس ولا زرع ، فهلا تشكرون ربكم على انزاله المطر عذباً زلالاً ؟

قال تعالى : ﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسمون ﴾ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ^(١) .

قال جل ذكره : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾ ^(٢) .

وقال جلا وعلا : ﴿ وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً لنحى به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً ﴾ ^(٣) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياء وأمواتاً وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتاً ويل يومئذ للمكذبين ﴾ ^(٤) .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن أبى جعفر عن النبى — ﷺ : إنه كان إذا شرب الماء قال : « الحمد لله الذى سقانا عذباً فراتاً برحمته ، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا » ^(٥) .

واخرج الامام مسلم عن أنس — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — : « إن

(١) سورة النحل الآيتان ١٠ — ١١

(٢) سورة الحجر الآية ٢٢

(٣) سورة الفرقان الآيتان ٤٨ — ٤٩

(٤) سورة المرسلات الآيات ٢٥ — ٢٨

(٥) انظر تفسير ابن كثير .. « تفسير سورة الواقعة » ج ٨ ص ١٨ ط دار الشعب فقد ورد الحديث بلفظه لابن أبى حاتم عن جعفر .

الله — تعالى — ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها»^(١).

وأخرج أبو داود والترمذى فى الشمائل عن أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — أن النبى — صلى الله عليه وسلم — كان إذا فرغ من طعامه قال : « الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين »^(٢).

واخرج أبو داود والنسائى بالإسناد الصحيح عن أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى — رضى الله عنه — قال : كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا أكل أو شرب قال : « الحمد لله أطعم وسقى وسوَّغَه وجعل له مخرجاً »^(٣).

آية الله فى إيجاد الماء العذب

قال الدكتور محمد أحمد الغمراوى فى كتابه « الاسلام فى عصر العلم » ما نصه :

فى قوله تعالى : ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ﴾ . الناس طبعاً يسلمون بالقدرة الالهية على قلب العذب أجاجاً ويظنون أن هذا يكون عن طريق الخوارق ولا يتساءلون هل فى سنن الله ما يسمح بهذا ؟ ولو تساءلوا وتطلبوا الجواب فى العلم لوجدوه قريباً ، ولعرفوا أن عذوبة الماء الذى يسقيهم الله إياه من السحاب هى بمحض رحمة الله . إن الماء طبعاً عذب بطبيعته ، وماء المطر معروف أنه أعذب المياه ولكن طبيعة تكونه تعرضه لأن ينقلب أجاجاً لا ينتفع به الإنسان .

إن الهواء كما تعرف أربعة أخماسه أزوت ، والأزوت كما تعرف — أيضاً — لا يكاد يتحد فى العادة بشيء ولا بالأوكسيجين الذى يكاد يتحد بكل شيء ، لكن الكيماويين وجدوا أنهم يستطيعون بالكهربائية أن يحولوا الأزوت غير الفعال إلى أزوت فعال يتحد بأشياء كثيرة فى درجة الحرارة العادية ، كما وجدوا أنهم يستطيعون أن يحملوا الأزوت على الاتحاد بالأوكسيجين بإمرار الشرر الكهربائى فى مخلوط منهما ، ومن هذا الاتحاد ينشأ بعض أكاسيد للأزوت قابل للذوبان فى الماء ، وإذا ذاب فيه اتحد به وكون حمضين أزوتين أحدهما حمض الأزوتيك ، أو ماء النار كما كان يسميه القدماء ، وإليه يصير الحمض الثانى .

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار » باب « استحباب حمد الله تعالى — بعد الأكل والشرب ج ٤ ص ٢٠٩٥ حديث رقم ٨٩ / ٢٧٣٤ من رواية لأنس بن مالك .

(٢) انظر سنن الترمذى « أبواب الدعوات » باب ما يقول إذا فرغ من الطعام ج ٥ ص ١٧٠ — ١٧١ حديث رقم ٣٥٢٢ فقد ورد الحديث من رواية لأبى سعيد .

(٣) انظر سنن أبى داود « كتاب الأطعمة » باب ما يقول الرجل إذا طعم ج ٤ ص ١٨٧ ، ١٨٨ حديث رقم ٣٨٥١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى أيوب الأنصار .

وقليل من حمض الأزوتيك في الماء كاف لإفساد طعمه وأظنك الآن بدأت تدرك الطريق الذى يمكن أن ينقلب به ماء المطر ماء أجاجاً من غير خرق لأى سنة من سنن الله الكونية ، فهو نفس الطريق الكهربائى الذى يتكون به المطر ، وكل الذى يلزم هو أن يتعدل أو يتكيف التفريغ الكهربائى ويتكرر في الهواء ، وما يتكون من الأكاسيد الأزوتية يذوب في ماء السحاب ، ويحوله حمضياً لا يسيغه الناس .

وهذا هو موضع المن من الله على الناس ، أنه يكيف التفريغ بالصورة التى ينزل بها المطر ولا يؤج بها الماء . إن شيئاً من ذينك الحمضين لابد أن ينزل في ماء العواصف ، وهذا ضرورى للحياة لأنه يتحول في الأرض إلى الأزوتات الضرورية لحياة النبات . لكن الله برحمته يقدر تكونه بحيث لا يتأذى به إنسان ولا حيوان .. ولو شاء الله لكثره في ماء المطر فأفسده على الناس .

سواء شكر الناس هذه النعمة أم كفروها فإن قوله تعالى : ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجاً ﴾ إشارة إلى تلك العوامل الكهربائية التى يتكون بها المطر ، يفهمها من يفقه تلك الحقائق السابقة . ومن يعرف أن الطريق الكهربائى هو أحد الطرق العملية التى يمكن بها تحويل الأزوت الجوى إلى حمض .

إن نعمة الله على الناس في الماء العذب أكبر من أن يقوموا بشكرها ، لأن كل ماء عذب في الأرض كان أجاجاً في الأصل إذ هو آت من ماء البحار . إنك تعرف أن الأرض ربعها يابس وثلاثة أرباعها ماء ، هذا الماء كله ماء ملح ومنه يقطر الله للإنسان والحيوان والنبات ما لا غنى لهم عنه من الماء العذب . أما جهاز التقطير فليس كمثله جهاز : البحار كلها في ذلك الجهاز دست لا يسخن من تحت كما يفعل الإنسان في تقطيراته النافهة ، ولكن يسخن من فوق بنار قدر تفوق نار الأرض آلاف المرات ، فإذا ما تبخر الماء بحرارة الشمس تكثف في مكثف ناهيك من مكثف : الجو العلوى كله والجبال ، والرياح مسخرة تحمل البخار من الأرض إلى الجو ، وتحمل السحاب في الجو إلى حيث يشاء الله أن تنزل الأمطار ، فإذا سالت الأودية وفاضت الأنهار وحملت الخصب والتماء إلى الأقطار تبخر بعض الماء وامتصت الأرض منه بعضاً ، وصار باقية إلى البحر الذى كان منه مصعده .

لكن ليس شئ من هذا الماء بضائع . فما تمتصه الأرض تتفجر به بعد عيوناً حيث يشاء الله ، وما يتبخر من الماء العذب ، أو يصير إلى البحر فهو في حرز حرز من الضياع ، إذ ماله أن يصير مرة أخرى ماء يحيا به الناس والأنعام ، وتحيا به الأرض الموات . وهذا فرق آخر بين صنع الله وصنع الإنسان .

فما يفلت إلى الجو من الإنسان أثناء تقطيراته فهو ضائع لا يملك الإنسان له استرداداً ، لكن

ليس شيء من الماء أو غير الماء الصاعد إلى الجو ضائعاً في ملك الله ، فالماء بين البحر والجو واليابسة في دورة مقدرة متصلة لا انقطاع فيها ولا توقف ولا تعثر ، عليها مدار الحياة في الأرض ، ولا تنتهي أبداً إلا ان يشاء الله الذي أذن لها بالابتداء .. أ هـ .

قوله تعالى : ﴿ أفرايتم النار التي تورون ﴾ أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم ﴿

أى : أفرايتم النار التي تقدحونها وتستخرجونها من الزناد ، أنتم أنشأتم شجرتها التي منها الزناد أم نحن المنشئون لها بقدرتنا ؟

وكانت العرب توقد النار بطريق احتكاك المُرْخ بالعَفَار (نوعان من الشجر) فيأتون بعود من العفار وبقطعة عريضة من المُرْخ يحفرون في وسطها حفرة ثم يضعون عود العفار في هذه الفجوة ، ويأتى فتى من فتيان القبيلة ويحرك عود العفار فيها بالتوالى ، ويأتى بعده آخر ويصنع صنيع سابقه . ولا يزالون يفعلون هكذا حتى تشتعل النار من كثرة الاحتكاك .

وهذه عملية شاقة عسرة ، ومن ثم كان البيت في القبيلة إذا رأى النار موقدة استعار جذوة منها ، وإلى هذا أشار في قوله تعالى في قصص موسى : ﴿ إني آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ .

ثم بين منافع هذه النار في قوله تعالى : ﴿ نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين ﴾ قال مجاهد . وقتادة في قوله تعالى : ﴿ نحن جعلناها تذكرة ﴾ أى : تذكر النار الكبرى وقال قتادة : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ — قال : « يا قوم ناركم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » قالوا : يا رسول الله ، إن كانت لكافية ؟ قال انها قد ضربت بالبحر ضربتين أو مرتين حتى يستنفع بها بنو آدم ويدنو منها . وهذا الذى حكاه قتادة اخرج به الإمام أحمد في سنده موصولاً عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى ﷺ — قال : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم وضربت بالبحر مرتين ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد » (١) .

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٢٤٤ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

ورواه البخارى ومسلم — أيضا — وفي رواية : « والذى نفسى بيده لقد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها »^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَتاعاً لِلْمُقْوِينَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم يعنى بالمقوين المسافرين . وقال مجاهد ﴿ وَمَتاعاً لِلْمُقْوِينَ ﴾ للحاضر والمسافر لكل طعام لا يصلحه إلا النار .

قال ابن كثير وهذا التفسير أعم من غيره فإن الحاضر والبادى من غنى وفقير الجميع محتاجون إليها للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع ، ثم من لطف الله — تعالى — أودعها في الأحجار وخالص الحديد بحيث يتمكن المسافرين من حمل ذلك في متاعه وبين ثيابه ، فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده وأورى وأوقد ناراً فأطبخ بها واصطلى بها واشتوى واستأنس بها وانتفع بها سائر الانتفاعات ، فلهذا أفرد المسافرون وان كان ذلك عاماً في حق الناس . كلهم .

وفي الحديث « المسلمون شركاء في ثلاثة .. النار والكلا والماء »^(٢) .

الحكمة في خلق النار وبيان ما فيها من الأسرار

قال العلامة ابن القيم في كتابه « مفتاح دار السعادة » ما نصه :

ثم تأمل الحكمة في خلق النار على ما هي عليه من الكمون والظهور فإنها لو كانت ظاهرة أبداً كالماء والهواء كانت تحرق العالم وتنتشر ويعظم الضرر بها والمفسدة ، ولو كانت كامنة لا تظهر أبداً لفاتت المصالح المترتبة على وجودها ، فاقتضت حكمة العزيز العليم أن جعلها مخزونة في الأجسام يخرجها

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب بدء الخلق » باب « صفة النار وأنها مخلوقة » ج ٢ ص ٢١٩ فقد ورد الحديث عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة بلفظ « ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم قيل : يا رسول الله ، ان كانت لكافية ، قال : فضلت عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها » .

وفي صحيح مسلم « كتاب الجنة صفة نعيمها وأهلها » باب « في شدة حر نار جهنم .. الخ ج ٤ ص ٢١٨٤ حديث ٢٨٤٣ / ٣٠ بلفظه « ناركم هذه التى يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم » قالوا والله إن كانت لكافية يا رسول الله ! قال « فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها » وفي رواية أبى الزناد « .. كلهن مثل حرها » .

(٢) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الرهون » باب المسلمون شركاء في ثلاث فقد ورد الحديث ٢٤٧٢ عن رواية لابن عباس بلفظ : « المسلمون شركاء في ثلاث : في الماء والكلا والنار وثمنه حرام » قال أبو سعيد : يعنى الماء الجارى .
في الزوائد : عبد الله بن خراش (ورد في سند الحديث) قد ضعفه أبو زرعة والبخارى وغيرهما . وقال محمد بن عمار الموصلى : كذاب .

ويقيها الرجل عند حاجته إليها ، فيمسكها ويحبسها بمادة يجعلها فيها من الحطب ونحوه فلا يزال حابسها ما احتاج إلى بقائها ، فإذا استغنى عنها وترك حبسها بالمادة على تقدير محكم عجيب اجتمع فيه الاستمتاع والانتفاع والسلامة والضرر . قال تعالى : ﴿ أفرايتم النار التي تورون ﴾ إلى قوله : ﴿ فسيح باسم ربك العظيم ﴾ فسبحان ربنا العظيم لقد تعرف إلينا بآياته وشفانا ببيناته وأغنانا بها عن دلالات العالمين فأخبر سبحانه أنه جعلها تذكرة بنار الآخرة فنستجير منها ونهرب إليه منها ومتاعاً للمقوين ، وهم المسافرون النازلون بالقواء والقواء هي الأرض الخالية وهم أحوج إلى الانتفاع بالنار للإضاءة والطبخ والخبز والتدفئ والأنس وغير ذلك .

ثم تأمل حكمته في كونه خص بها الإنسان دون غيره من الحيوانات فلا حاجة بالحيوان إليها بخلاف الإنسان فإنه لو فقدها لعظم الداخل عليه في معاشه ومصالحه ، وغيره من الحيوانات لا يستعملها ولا يتمتع بها ، وننبه من مصالح النار على خلة صغيرة القدر عظيمة المنفعة وهي هذا المصباح الذي يتخذونه الناس فيقضون به من حوائجهم ما شأوا من ليلهم ، ولولا هذه الخلة لكان الناس نصف أعمارهم بمنزلة أصحاب القبور ، فمن كان يستطيع كتابة أو خياطة أو صناعة أو تصرفاً في ظلمة الليل الداجي وكيف تكون حال من عرض له وجع في وقت من الليل فاحتاج إلى ضياء أو دواء أو استخراج دم أو غير ذلك . ثم انظر إلى ذلك النور المحمول في ذبالة المصباح على صغر جوهره كيف يضيء ما حوله كله فتري به القريب والبعيد ، ثم انظر إلى أنه لو اقتبس منه كل من يفرض أو يقدر من خلق الله كيف لا يفي ولا ينفد ولا يضعف ، وأما منافع النار في إنضاج الأطعمة والأدوية وتجفيف ما لا ينتفع إلا بجفافه ، وتحليل ما لا ينتفع إلا بتحليله ، وعقد ما لا ينتفع إلا بعقده وتركيبه فأكثر من أن يحصى ، ثم تأمل ما أعطيته النار من الحركة الصاعدة بطبعها إلى العلو ، فلولا المادة تمسكها لذهبت صاعدة ، كما أن الجسم الثقيل لولا الممسك يمسكه لذهب نازلاً ، فمن أعطى هذه القوة التي يطلب بها الهبوط إلى مستقره ، وأعطى هذه القوة التي تطلب بها الصعود إلى مستقرها وهل ذلك إلا بتقدير العزيز العليم . أ . هـ .

ويقول الشيخ نديم الجسر في كتابه « قصة الإيمان » (عن طريق الحوار بين الشيخ وتلميذه) .

يقول القرآن العظيم : ﴿ أفرايتم النار التي تورون ﴾ أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم ﴿ ، ويقول تعالى : ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم توقدون ﴾ .

أما العلم فيقول : إن النار هي عبارة عن ظاهرة لتزايد الحرارة الناتج من احتراق بعض الأجسام

وأن (الاحتراق) بمعناه العام ، هو عبارة عن ظواهر كيميائية تحصل عند اتحاد جسم من الأجسام مع الأوكسجين . ولكن الاحتراق الذي يولد الحرارة إنما يحصل من اتحاد (الأوكسجين مع الكربون) وهذا الكربون موجود في الطبيعة في أجسام مختلفة من الجمادات والأحياء ، ولكن أعظم وجوده وأيسره في النباتات ، فأنسجة النبات ، كما تعلم ، كلها من الكربون . بل يكاد يكون الكربون العنصر الوحيد في تركيب جسم النبات وغذائه وثماره . فهل أدركت الآن ، يا حيران ، ما تنطوي عليه هذه الآيات ، وما أعظمها وأوضحها (تذكرة) . في بيان القدرة والحكمة !! فالنار من أعظم الضروريات لحياة الإنسان ، في دفعه وطعامه وصناعته . ولوجدت مكونة كالماء والهواء لأهلكت الحياة ، أو كانت خطراً دائماً عليها . فانظر كيف أعد الخالق لها نوااميسها ، وعناصرها ، وجعلها (كامنة) في الشجر الأخضر كموناً بالقوة ، وسلطنا على توريثها ، عند الحاجة ، وبقدر اللزوم ، وجعلها لنا متاعاً وتذكرة فتذكر بها (حينما نستخرجها من مكنها في الشجر الأخضر الطرىء المائى الذى لا نتوقع كمون النار فيه) ، تلك القدرة العظيمة والحكمة الباهرة التى أنشأت لنا شجرة النار . فإن هذا التذكير مما يثير عجب البدوى الساذج ، ويدله على قدرة الخالق ، كما يثير عجب العالم ، فيدرك ما وراءه من أسرار القدرة والحكمة والنظام والمقصد والتصميم .

فهل كانت هذه النار ، يا حيران ، هذه النار (غير المتكونة بالفعل ، ليقال إنها تكونت بالمصادفة العمياء ، بل مُعدة ومهيأة للتكوين بالقوة ، وموقفة على عمل ينتجها ويخرجها عن كمونها ، عند الحاجة ، وفق نوااميس دقيقة) .

هل كانت هذه النار التى من الله علينا بها ليزكرنا بوجوده ، أثراً من آثار المصادفة العمياء ، يا حيران ؟

قال التلميذ (حيران) — سبحان الله العظيم .. أ . ه .

ما فى الوجود سواك رب يعبد	كلا ، ولا مولى سواك فيقصد
يا من له عنت الوجوه بأسرها	ذلا ، وكل الكائنات توحده
أنا الإله الواحد الفرد الذى	كل القلوب له تقرر وتشهد

قسم ومشاهد

﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ ٧٥ ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَتَّعِلُّونَ عَظِيمٌ ﴾ ٧٦ ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ ٧٧ ﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ ٧٨ ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ ٧٩ ﴿ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ٨٠ ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهَبُونَ ﴾ ٨١ ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ ٨٢ ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴾ ٨٣ ﴿ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴾ ٨٤ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ ٨٥ ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ ٨٦ ﴿ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ٨٧ ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ٨٨ ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ ٨٩ ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ ٩٠ ﴿ فَسَلَمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ ٩١ ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴾ ٩٢ ﴿ فَنَزْلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ ٩٣ ﴿ وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ ﴾ ٩٤ ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ ٩٥ ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ ٩٦ ﴿

معانى المفردات

﴿ لا أقسم بمواقع النجوم ﴾ أى : أقسم بمواقع النجوم . وهذا قسم تستعمله العرب فى كلامها ومعنى (مواقع النجوم) أى : مساقط كواكب السماء ومغاربها ، ﴿ مكنون ﴾ أى : مصون عن التغير والتبدل . ﴿ المطهرون ﴾ أى : المنزهون من دنس الحظوظ النفسية ، ﴿ مذهنون ﴾ أى : متهاونون كمن يدهن فى الأمر : أى : يلين جانبه ولا يتصلب فيه . ﴿ لولا ﴾ حرف يفيد الحث على حصول ما بعده على سبيل الاستحسان أو الوجوب . ﴿ الحلقوم ﴾ مجرى الطعام . ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ﴾ أى : علماً وقدره ﴿ مدينين ﴾ أى : محاسبين مجزيين ، أو مملوكين مقهورين ، من قولهم : دان السلطان الرعية إذا استذلهم ، واستعبدهم ، ﴿ فروح ﴾ الروح : الراحة . ﴿ وريحان ﴾ رزق حسن . ﴿ والمكذبن الضالين ﴾ هم أصحاب الشمال ، ﴿ فنزل ﴾ أى : فجزأؤه نزل ، ﴿ وتصلية جهيم ﴾ أى : ادخال فى النار ، ﴿ حق اليقين ﴾ أى : حق الخبر اليقين الذى لا شك فيه .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه الأدلة على الألوهية والبعث والجزاء — أعقب هذا بذكر الأدلة على النبوة وصدق القرآن الكريم ، وأقسم على هذا بما يروونه في مشاهداتهم من مساقط النجوم ، انه لكتاب كريم ، لا يمسه إلا المطهرون ، وأنه نزل من لدن حضرة القدس على يد جبريل — عليه السلام — أمين الوحي ، فكيف تتهاونون في اتباع أوامره ، والانتفاء عن نواهيه ، وتجعلون شكركم على هذا تكذيبكم بنعم الله وجزيل فضله عليكم ؟ ثم أردف ذلك توبيخهم على ما يعتقدون ، فإنه إذا كان لا بد للفعل من فاعل ، وقد جحدتم الله وكذبتم رسوله فالفاعل لهذا كله أنتم ، وإذا فلماذا لا ترجعون الروح لميتكم وهو يعالج سكرات الموت ، فإن كنتم صادقين فارجعوها ، الحق انكم لا تعقلون الدليل والبرهان ، بل لا تفهمون إلا المحسوسات ، فلما لم تروا الفاعل كذبتم به ، وهذا من شيمة الجهال ، إذ للعلم وسائل عديدة . فليس عدم رؤية الشيء دليلاً على عدم وجوده .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ، إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين ﴾ .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : ذكر سبحانه هذا القسم عقيب ذكر القيامة الكبرى ، وأقسام الخلق فيها ، ثم ذكر الأدلة القاطعة على قدرته وعلى المعاد بالنشأة الأولى ، وإخراج النبات من الأرض ، وإنزال الماء من السماء ، وخلق النار ، ثم ذكر بعد ذلك أحوال الناس في القيامة الصغرى عند مفارقة الروح للبدن ، وأقسم بمواقع النجوم على ثبوت القرآن ، وأنه تنزيله .

وقد اختلف في النجوم التي أقسم بمواقعها ، ف قيل : هي آيات القرآن « ومواقعها » نزولها شيئاً بعد شيء وهذا قول ابن عباس — رضى الله عنه — في رواية عطاء ، وقيل : النجوم هي الكواكب ومواقعها مساقطها عند غروبها .. ومن حجة قول من قال هي مساقطها عند الغروب : أن الرب — تعالى —

يقسم بالنجوم وطلوعها وجريانها وغروبها ، إذ فيها وفي أحوالها الثلاث آية وعبرة ودلالة كما في قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ﴾ ^(١) ، وكقوله : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ ^(٢) ، وقوله : ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب ﴾ ^(٣) . ويرجح هذا القول أيضاً أن النجوم حيث وقعت في القرآن فالمراد منها الكواكب كقوله — تعالى — : ﴿ وإدبار النجوم ﴾ وقوله ﴿ والشمس والقمر والنجوم ﴾ .

وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم في القسم : وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجوه :

﴿ أحدها ﴾ : أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والغى فتلك هداية في الظلمات الحسية ، وآيات القرآن في الظلمات المعنوية . فجمع بين الهديتين ، مع ما في النجوم من الرجوع للشياطين ، وفي آيات القرآن من رجوع شياطين الإنس والجن ، والنجوم آياته المشهودة المعانية . والقرآن آياته المتلوه السمعية ، مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول .

قوله تعالى : ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ أى : وإن هذا القسم عظيم لو تعلمون ذلك . وفي هذا تفخم للمقسم به ، لما فيه من الدلالة على عظيم القدرة ، وكمال الحكمة ، وفرط الرحمة ومن مقتضيات رحمته ، إلا يترك عباده سدى .

ويحدثنا عن عدد النجوم العالم الفلكي « جيمس جينز » في كتابه « الكون الغامض » فيقول : « ربما كان مجموع عدد النجوم التي في الكون قريباً من مجموع عدد حبيبات الرمل التي تغطي شواطئ البحار في العالم كله .. ويقول كذلك في كتابه « النجوم ومالكها » « يكاد يكون من المؤكد أن هناك أكثر من ٦٠ نجماً مقابل كل رجل وامرأة وطفل على وجه الأرض ، وقد يصل العدد إلى ضعف هذا ، بل ربما إلى ثلاثة أضعافه أو خمسة أمثاله » .

ثم يضرب لذلك مثلاً فيقول : « يجب أن نتصور مكتبة ضخمة تحوى على الأقل نصف مليون كتاب من الحجم المتوسط ، فجميع حروف الطبع التي في هذه الكتب عددها مساو تقريباً لعدد نجوم السماء . وإذا كنا نطالع بسرعة صفحة في الدقيقة مدة ثمانى ساعات في كل يوم ، فلا بد لنا من سبعمائة

(١) ١٥ ، ١٦ سورة التكوين

(٢) ١ سورة النجم

(٣) ٤٠ سورة المعارج

سنة لقراءة هذه المكتبة ، كذلك لو كنا نعد النجوم بسرعة ألف وخمسمائة نجم في الدقيقة لاستغرقتنا في ذلك سبعمائة سنة . أما الأرض التي نعيش عليها ، فهي أقل من نقطة على حرف في مكتبتنا ذات النصف مليون مجلد ، أو على الأصح ، يجب أن نشبهها بهباءة من التراب بين صفحتين في أى كتاب من هذه الكتب في هذه المكتبة .

فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للنجوم — وهى شمس تبلغ درجة حرارتها عشرات الملايين من الدرجات التى يقيسها الإنسان بأجهزته — فكيف يكون الحال بالنسبة لعدد الكواكب إذا ما عرفنا أن شمسنا هى واحدة من هذه النجوم ، وأرضنا أحد الكواكب التى تكون المجموعة الشمسية ؟ فإذا كان كل نجم ليس له سوى تسعة كواكب ، كما للشمس فقط ، فيا ترى : كم يكون عدد الكواكب ؟ وكم يكون عدد الكواكب والنجوم ؟ إن دراسة إشعاعات النجوم قد ألقت بعض الضوء على بعض وحدات هذا الكون ومركزها فى الوجود ، فقد توصل العلم إلى معرفة أن الضوء يسير بسرعة ١٨٦ ألف ميل فى الثانية ، وقد اختار الفلكيون السنة الضوئية — التى تتكون من ٣٥٦ يوماً ، فى كل يوم ٢٤ ساعة ، وفى كل ساعة ٦٠ دقيقة ، وفى الدقيقة ٦٠ ثانية — لقياس أبعاد النجوم ، فإذا وصل إلينا ضوء نجم بعد ثانية واحدة كان بعده عنا ١٨٦ ألف ميل ... ولذلك كان الكلام للعرب الأميين (انه لقسم لو تعلمون عظيم) وكيف يعلمون ؟ وهم يومئذ لا يعرفون المراصد ولا يعرفون الأبعاد الشاسعة التى تنتقل الكواكب فيها ولكن لفت نظرهم إن هذه الكواكب وما فيها من أملاك وهذه الأرض وما عليها من جن وإنس الجميع يجب أن يسلم لله وجهه ، وان ينحنى له صلبه ، وأن يخضع لأمر ربه ، وأن يستكين لحكمه فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين ، وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال تعالى : ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾

فوصفه — سبحانه وتعالى — بما يقتضى حسنه ، وكثرة خيره ، ومنافعه وجلالته ، فإن الكريم هو البهى الكثير الخير العظيم النفع ، وهو من كل شئ أحسنه وأفضله ، والله — سبحانه وتعالى — وصف نفسه بالكرم . ووصف به كلامه . ووصف به عرشه . ووصف به ما كثر خيره ، وحسن منظره من النبات ، وغيره ولذلك فسر السلف الكريم بالحسن قال الكلبي : ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ أى : حسن كريم على الله ، وقال مقاتل : كرمه الله وأعزه ، لأنه كلامه . وقال الأزهرى : الكريم اسم جامع لما يحمد ، والله كريم جميل الفعال ، وانه لقرآن كريم يحمد ، لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة .

وبالجملة فالكريم الذى من شأنه أن يعطى الخير الكثير بسهولة ويسر . وضده اللئيم الذى لا يخرج خيره إلا النزر إلا بعسر وصعوبة . وكذلك الكريم فى الناس واللئيم . قوله تعالى : ﴿ فى كتاب مكنون ﴾ .

قال ابن القيم : اختلف المفسرون فى هذا : فقيل هو اللوح المحفوظ . والصحيح أنه الكتاب الذى بأيدي الملائكة ، وهو المذكور فى قوله تعالى : ﴿ فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة ﴾^(١) ، ويدل على أنه الكتاب الذى بأيدي الملائكة قوله : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ فهذا يدل أنه بأيديهم يمسونه . وهذا هو الصحيح فى معنى الآية ، ومن المفسرين من قال : ان المراد به أن المصحف لا يمسه إلا طاهر .

والأول أرجح لوجوه :

(الوجه الأول) أن الآية سبقت تنزيهاً للقرآن أن تنزل به الشياطين وأن محله لا يصل إليه فيمسه إلا المطهرون . فيستحيل على أخابث خلق الله وأنجسهم أن يصلوا إليه أو يمسه ، كما قال تعالى : ﴿ وما تنزل به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون ﴾^(٢) ، فنفى الفعل وتأتيه منهم وقدرتهم عليه ، فما فعلوا ذلك ولا يليق بهم ، ولا يقدرُونَ عليه . وكذلك قوله فى سورة عبس : ﴿ فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة ﴾ فوصف محله بهذه الصفات بياناً أن الشيطان لا يمكنه أن يتنزل به ، وتقرير هذا المعنى أهم وأجل وأنفع من بيان كون المصحف لا يمسه إلا طاهر .

(الوجه الثانى) أن السورة مكية ، والاعتناء فى السور المكية إنما هو بأصول الدين من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة . وأما تقرير الأحكام والشرائع فمظنة السور المدنية .

(الوجه الثالث) إن القرآن لم يكن فى مصحف عند نزول هذه الآية ، ولا فى حياة رسول الله ﷺ — وإنما جمع فى المصحف فى خلافة أبى بكر . وهذا وإن جاز أن يكون باعتبار ما يأتى فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الإخبار ، يوضحه .

(١) سورة عبس الآيات ١٤ — ١٧

(٢) سورة الشعراء الآيتان ٢١٠ — ٢١١

(٣) سورة الصافات الآية ٤٩

(الوجه الرابع) وهو قوله : ﴿ في كتاب مكنون ﴾ والمكنون المصون المستور عن الأعين الذى لا تناله أيدى البشر ، كما قال تعالى : ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾^(١) وهكذا قال السلف . قال الكلبي : مكنون من الشياطين . وقال مقاتل : مستور . وقال مجاهد : لا يصيبه تراب ولا غبار وقال أبو اسحق : مصون في السماء . يوضحه .

(الوجه الخامس) أن وصفه بكونه مكنوناً نظير وصفه بكونه محفوظاً فقوله : ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ في كتاب مكنون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ في لوح محفوظ ﴾^(٢) . يوضحه .

(الوجه السادس) أن هذا أبلغ في الرد على المكذبين ، وأبلغ في تعظيم القرآن من كون المصحف لا يمسه محدث .

(الوجه السابع) قوله : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ بالرفع فهذا خبر لفظاً ومعنى . ولو كان نهياً لكان مفتوحاً . ومن حمل الآية على النهي احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره . إلى معنى النهي والأصل في الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته وليس ههنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهي .

(الوجه الثامن) أنه قال : ﴿ إلا المطهرون ﴾ ولم يقل إلا المتطهرون . ولو أراد به منع المحدث من مسه لقال إلا المتطهرون . كما قال تعالى : ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾^(٣) وفي الحديث « اللهم اجعلني من التوابين ، واجعلني من المتطهرين » فالمتطهر فاعل التطهر والمطهر الذى طهره غيره ، فالمتوضئ متطهر ، والملائكة مطهرون .

(الوجه التاسع) انه لو أريد به المصحف الذى بأيدينا لم يكن في الاخبار عن كونه مكنوناً كبير فائدة ، إذ مجرد الكلام مكنوناً في كتاب ، لا يستلزم ثبوته فكيف يمدح القرآن بكونه مكنوناً في كتاب ، وهذا أمر مشترك ، والآية إنما سيقّت ببيان مدحه وتشريفه ، وما اختص به من الخصائص ، التى تدل على انه منزل من عند الله ، وانه محفوظ مصون ، لا يصل إليه شيطان بوجه ما ، ولا يمسه محله إلا المطهرون وهم السفرة الكرام البررة .

١ - الصافات الآية ٤٩

٢ - سورة ابروج آيتان ٢٢ - ٢٣

٣ - سورة البقرة من الآية ٢٢٢

(الوجه العاشر) ما رواه سعيد بن منصور في سننه بسنده عن أنس بن مالك في قوله ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ قال : المطهرون : الملائكة . وهذا عند طائفة من أهل الحديث في حكم المرفوع . وقال الحاكم : تفسير الصحابة عندنا في حكم المرفوع ، ومن لم يجعله مرفوعاً فلا ريب أنه عنده أصح من تفسير من بعد الصحابة . والصحابة أعلم الأمة بتفسير القرآن ، ويجب الرجوع إلى تفسيرهم وقال حرب في سائله : سمعت اسحق في قوله : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ ، قال : النسخة التي في السماء لا يمسه إلا المطهرون . قال الملائكة :

وسمعت شيخ الاسلام يقرر الاستدلال بالآية على أن المصحف لا يمسه المحدث بوجه آخر . فقال : هذا من باب التنبيه والإشارة ، إذا كانت الصحف التي في السماء لا يمسه إلا المطهرون ، فكذلك الصحف التي بأيدينا من القرآن لا ينبغي أن يمسه إلا طاهر . والحديث مشتق من هذه الآية . وقوله « لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر » رواه أهل السنن من حديث الزهري عن بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده : أنه في الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ — إلى أهل اليمن في السنن ، والفرائض والديات (ان لا يمسه القرآن إلا طاهر)^(١) قال أحمد : أرجو أن يكون صحيحاً . وقال أيضاً : لا أشك أن رسول الله ﷺ — كتبه . وقال أبو عمر بن عبد البر : هو كتاب مشهور عند أهل السير ، معروف عند أهل العلم . معرفة يستغنى شهرتها عن الإسناد . لأنه أشبه التواتر في مجيئه ، لتلقى الناس له بالقبول والمعرفة ثم قال : وهو كتاب معروف عند العلماء وما فيه فمتفق عليه إلا قليلاً . وقد رواه ابن حبان في صحيحه ، ومالك في موطئه . وفي المسألة آثار أخرى مذكورة في غير هذا الموضع .

لا يفهم القرآن إلا القلوب الطاهرة

ويقول ابن القيم : ودلت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة ، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغي . قال البخاري في صحيحه في هذه الآية : لا يجد طعمه إلا من آمن به . وهذا — أيضاً — من إشارة الآية وتنبيهها ، وهو أنه لا يلتذ به وبقرائه ، وفهمه وتدبره إلا من شهد أنه كلام الله ، تكلم به حقاً ، وأنزله على رسوله وحياً ، ولا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه . فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله ففي قلبه منه خرج ومن لم يؤمن بأن الله — سبحانه وتعالى — يكلم

(١) انظر موطأ الامام مالك « كتاب القرآن » باب الأمر بالوضوء لمن مس القرآن ط / دار الشعب / ١٤١ حديث ١ عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم .

به وحيًا وليس مخلوقاً من جملة مخلوقاته ، ففي قلبه منه حرج . ومن قال : إن له باطنًا يخالف ظاهره ، وأن له تأويلاً يخالف ما يفهم منه ، ففي قلبه منه حرج .. ومن سلط عليه آل الآرائين ، وهذيان المتكلمين ، وسفسطة المسفسطين ، وخيالات المتصوفين ، ففي قلبه منه حرج ، ومن جعله تابعا لنحلته ومذهبه وقول من قلده دينه ، ينزله على أقواله ، ويتكلف حمله عليها ، ففي قلبه منه حرج ، ومن لم يحكمه ظاهراً وباطناً في أصول الدين وفروعه ويسلم وينقاد لحكمه أين كان ، ففي قلبه منه حرج ، ومن لم يَأْتَمِر بأوامره ، وينزجر عن زواجره ، ويصدق جميع أخباره ، ويحكم أمره ونهيه وخبره ، ويرد له كل أمر ونهى وخبر خالفه ، ففي قلبه منه حرج . وكل هؤلاء لم تمس قلوبهم معانيه ، ولا يفهمونه كما ينبغي أن يفهم ، ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ما وجده الصحابة ومن تبعهم بإحسان . وأنت إذا تأملت قوله : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ وأعطيت الآية حقها من دلالة اللفظ وإيمائه وإشارته ، وتنبيهه وقياس الشيء على نظيره ، واعتباره بمشاكله ، وتأملت المشابهة التي عقدها الله — سبحانه وتعالى — وربطها بين الظاهر والباطن — فهمت هذه المعاني كلها من الآية . وبالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ أى : هذا القرآن العظيم منزل من الله رب العالمين وليس هو كما يقولون إنه سحر أو كهانة أو شعر بل هو الحق الذى لا مرية فيه وليس وراءه حق نافع .

قال ابن القيم : وأفاد كونه تنزيلاً من رب العالمين مطلوبين عظيمين من أجل مطالب الدين

(أحدهما) أنه المتكلم ، وأنه منه نزل ، ومنه بدأ وهو الذى تكلم به . ومن هنا قال السلف : منه بدأ ونظيره ﴿ ولكن حق القول منى ﴾^(١) ، وقوله : ﴿ قل نزله روح القدس من ربك ﴾^(٢) .

(والثانى) علو الله — سبحانه — فوق خلقه ، فإن النزول والتنزيل الذى تعقله العقول ، وتعرفه الفطر — هو وصول الشيء من أعلا إلى أسفل . والرب — تعالى — إنما يخاطب عباده بما تعرفه فطرهم ، وتشهد به عقولهم . وذكر التنزيل مضافاً إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة تملكه لهم ، وتصرفه فيهم وحكمه عليهم ، وإحسانه وإنعامه عليهم ، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى ، ويدعهم هملاً ، ويخلقهم عبثاً ، لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم . فمن أقر بأنه رب

(١) سورة السجدة من الآية ١٣

(٢) سورة النحل من الآية ١٠٢

العالمين ، أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله ، وصحة ما جاء به وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الإستدلال بالمعجزات والخوارق ، وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس ، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء .

قوله تعالى : ﴿ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ .

ثم وبخهم — سبحانه — على وضعهم الأذهان في غير موضعه ، وأنهم يداهنون بما حقه أن يصدع به ويفرق به ويعض عليه بالنواجز ، وتثنى عليه الخناصر ، وتعقد عليه القلوب والأفئدة ، ويخارب ويسالم لأجله ، ولا يلتوى عنه لا يمين ولا يسرة ، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره ، ولا محاكمة إلا إليه ، ولا مخاصمة إلا به ، ولا اهتداء في طرق المطالب العالية ، إلا بنوره ، ولا شفاء إلا به ، فهو روح الوجود وحياة العالم ، ومدار السعادة ، وقائد الفلاح ، وطريق النجاة ، وسبيل الرشاد ، ونور البصائر ، فكيف تطلب المداينة بما هذا شأنه ، ولم ينزل للمداينة ؟ وإنما أنزل بالحق وللحق . والمداينة إنما تكون في باطل قوى لا يمكن إزالته ، أو في حق ضعيف لا يمكن إقامته ، فيحتاج المداين إلى أن يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل ، فأما الحق الذي قام به كل حق فكيف يدهن به ؟

ثم قال تعالى : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ لما كان قوام كل واحد من البدن والقلب إنما هو بالرزق ، فرزق البدن الطعام والشراب ورزق القلب الإيمان والمعرفة بربه وفاضره ، وكان لا حياة له إلا بذلك ، كما أن البدن لا حياة له إلا بالطعام والشراب — أنعم — سبحانه — على عباده بهذين النوعين من الرزق . وجعل قيام أبدانهم وقلوبهم بهما . ثم فاوت — سبحانه — بينهم في قسمة هذين الرزقين ، بحسب ما اقتضاه علمه وحكمته . فمنهم من وفر حظه من الرزقين ووسع عليه فيهما . ومنهم من قتر عليه في الرزقين . ومنهم من وسع عليه رزق البدن وقتر عليه رزق القلب . وبالعكس . وهذا الرزق إنما يتم ويكمل بالشكر . والشكر مادة زيادته وسبب حفظه وبقائه . وترك الشكر سبب زواله وانقطاعه عن العبد فإن الله — تعالى — تأذن أنه لا بد أن يزيد الشكور من نعمه ، ولا بد أن يسلبها من لم يشكرها ، فلما وضعوا الكفر والتكذيب موضع الشكر والإيمان جعلوا رزقهم نفسه تكديباً ، فإن التصديق والشكر لما كان سبب زيادة الرزق وهما رزق القلب حقيقة . فهؤلاء جعلوا مكان هذا الرزق التكذيب والكفر ، فجعلوا رزقهم التكذيب ، وهذا المعنى هو الذي حام حوله من قال : التقدير وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون . ومن بعض معاني الآية قولهم : مطرنا بنوء كذا وكذا فهذا لا يصح أن تدل عليه الآية ويراد بها ، وإلا فمعناها أوسع منه وأعم وأعلى والله أعلم (حكاه ابن القيم) .

قوله تعالى : ﴿ فلولاً إذا بلغت الحلقوم ﴾ وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . فلولاً إن كنتم غير مدنيين . ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فلولاً إذا بلغت ﴾ أى : الروح ، ﴿ الحلقوم ﴾ أى : الحلق وذلك حين الاحتضار كما قال تعالى : ﴿ كلا إذا بلغت التراقي . وقيل من راق . وظن أنه الفراق . والتفت الساق بالساق . إلى ربك يومئذ المساق ﴾ (١) . ولهذا قال ههنا : ﴿ وأنتم حينئذ تنظرون ﴾ أى : إلى المحتضر وما يكابده من سُكرات الموت ، ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ﴾ أى : بملائكتنا ، ﴿ ولكن لا تبصرون ﴾ أى : ولكن لا ترونهم كما قال تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فلولاً إن كنتم غير مدنيين ﴾ قال سعيد بن حبير والحسن البصرى : غير مصدقين أنكم تدانون وتبعثون وتحزون فردوا هذه النفس ، ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ وقال ميمون بن مهران فى قوله : (فلولاً إن كنتم غير مدنيين) أى : غير معذيين مقهورين .
وقال العلامة ابن القيم فى هذه الآيات المباركات :

« ثم ختم — سبحانه — السورة بأحوالهم عند القيامة الصغرى ، كما ذكر فى أولها أحوالهم فى القيامة الكبرى ، وقسمهم إلى ثلاثة أقسام كما قسمهم هناك إلى ثلاثة . وذكر بين يدي هذا التقسيم الاستدلال على صحته وثبوته ، بأنهم مربوبون مدبرون مملوكون ، فوقهم رب قاهر مالك يتصرف فيهم بحسب مشيئته وإرادته ، وقرّرهم على ذلك بما لا سبيل لهم إلى دفعه ولا إنكاره فقال : ﴿ فلولاً إذا بلغت الحلقوم ﴾ أى : وصلت الروح إلى هذا الموضع . بحيث فارقت ولم تفارق ، فهى برزخ بين الموت والحياة ، كما أنها إذا فارقت صارت فى برزخ بين الدنيا والآخرة ، ملائكة الرب — تعالى — أقرب إلى المحتضر من حاضريه من الإنس ، ولكنهم لا يبصرون بهم ، فلولاً تردونها إلى مكانها من البدن أيها الحاضرون ، إن كان الأمر كما تزعمون أنكم غير مجزيين ولا مدنيين ، ولا مستوعبين ليوم الحساب .
فإن قيل : أى الارتباط بين هذين الأمرين حتى يلزم بينهما ؟ قيل : هذا من أحسن الاستدلال وأبلغه ، فإنهم إما أن يقرّوا بأنهم مربوبون مملوكون ، عبيد لملك قادر متصرف فيهم ، قاهر أمر ، ناه ،

(١) سورة القيامة الآيات ٢٦ — ٣٠

(٢) سورة الأنعام الآيات ٦١ — ٦٢

أو لا يقرون بذلك : فإن أقروا به لزمهم القيام بحقه عليهم وشكره وتعظيمه وإجلاله . وأن لا يجعلوا له نداً ، ولا شريكاً ، وهذا هو الذى جاءهم به رسوله ، ونزل عليه به كتابه . وإن أنكروا ذلك وقالوا : إنهم ليسوا بعبيد ولا مملوكين ولا مربوبين ، وإن الأمر إليهم يردون الأرواح إلى مقارها إذا بلغت الروح الحلقوم . فإن المتصرف في نفسه ، الحاكم على روحه لا يمتنع منه ذلك ، بخلاف المحكوم عليه المتصرف فيه غير المدبر له ، سواء الذى هو عبد مملوك من جميع الجهات وهذا الاستدلال لا محيد عنه ولا مدافع له . وإن أعطاه حقه من التقرير والبيان انتفع به غاية النفع ، وانقاد لأجله للعبودية وأذعن ، ولم يسعه غير التسليم للربوبية والإلهية والإقرار بالعبودية ، والله ما أحسن جزالة هذه الألفاظ وفصاحتها وبلوغها أقصى مراتب البلاغة والفصاحة ، والاختصار التام ، وندائها إلى معناها من أقرب مكان ، واشتمالها على التوبيخ والتقرير والإلزام ، ودلائل الربوبية والتوحيد ، والبعث ، وفصل النزاع في معرفة الروح وأنها تصعد وتنزل ، وتنتقل من مكان إلى مكان ، وما أحسن إعادة « لولا » ثانياً قبل ذكر الفعل الذى يقتضيه الأول . وجعل الحرفين يقتضيان اقتضاء واحداً وذكر الشرطين بين لولا الأولى والثانية وما تقتضيه من الفعل ثم الموالاة بين الشرط الأول والثاني ، مع الفصل بينهما بكلمة واحدة هي الرابط بين لولا الأولى والثانية ، والشرط الأول والثاني ، وهذا تركيب يستحد العقل والسمع لمعناه ولفظه . فتضمنت الآيتان تقريراً وتوبيخاً ، واستدلالاً على أصول الإيمان : من وجود الخالق — سبحانه — ، وكمال قدرته ، ونفوذ مشيئته ، وربوبيته ، وتصرفه في أرواح عباده ، حيث لا يقدر على التصرف فيها بشيء ، وأن أرواحهم بيده ، يذهب بها إذا شاء ويردها إليهم إذا شاء ، ويخلى أبدانهم منها تارة ويجمع بينها وبينها تارة ، وإثبات المعاد ، وصدق رسوله فيما أخبر به عنه ، وإثبات ملائكته ، وتقرير عبودية الخلق ، وأتى بهذا في صورة تحضيضين ، وتوبيخين ، وتقريرين ، وجوابين ، وشرطين ، وجزأين — منتظمة أحسن الانتظام . ومتداخلة أحسن التداخل متعلقاً بعضها ببعض .

وهذا كلام لا يقدر البشر على مثل نظمه ومعناه . قال الغراء : وأجيت (فلولا إذا بلغت) و (فلولا إن كنتم غير مدينين) بجواب واحد وهو (ترجعونها إن كنتم صادقين) .

وقال الجرجاني : قوله ﴿ ترجعونها ﴾ جواب قوله ﴿ فلولا ﴾ المتقدمة والمتأخرة ، على تأويل : فلولا إذا بلغت النفس الحلقوم تردونها إلى موضعها ، إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين كما تزعمون ؟ .

يقول تعالى : إن كان الأمر كما تزعمون انه لا بعث ، ولا حساب ولا جزاء ، ولا إله ، ولا رب يقوم بذلك ، فهلا تردون نفس من يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم ؟ فإذا لم يمكنكم في ذلك حيلة بوجه

من الوجوه . فهل ذلك على أن الأمر إلى ملك قادر قاهر ، متصرف فيكم ، وهو الله الذى لا إله إلا هو ؟ .

قلت : وكان هذا يلتفت إلى قوله تعالى : ﴿ قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم ﴾^(١) ، أى : إن كنتم كما تزعمون لا تبعثون بعد الموت خلقاً جديداً ، فكونوا خلقاً لا يفنى ولا يبلى ، إما من حجارة أو من حديد أو أكبر من ذلك ، ووجه الملازمة ما تقدم ذكره ، وهو إما أن تقرّوا بأن لكم رباً متصرفاً فيكم ، ومالكاً لكم ، تنفذ فيكم مشيئته وقدرته ، يميّتكم إذا شاء ، ويحييكم إذا شاء . فكيف تنكرون قدرته على إعادتكم خلقاً جديداً بعد ما أماتكم . وإما أن تنكروا أن يكون لكم رب قادر قاهر مالك ، نافذ المشيئة فيكم ، والقدرة فيكم . فكونوا خلقاً لا يقبل الفناء والموت فإذا لم تستطيعوا أن تكونوا كذلك فما تنكرون من قدرة من جعلكم خلقاً يموت ، ويحيا ، أن يحييكم بعد ما أماتكم ؟ فهذا استدلال يعجزهم عن كونهم خلقاً لا يموت . والذى فى الواقعة استدلال يعجزهم عن رد الروح إلى مكانها إذا قاربت الموت . وليس بعد هذا الاستدلال إلا الإذعان والانقياد .

قوله تعالى : ﴿ فأما إن كان من المقربين - فروح وريحان وجنة نعيم - وأما إن كان من أصحاب اليمين - فسلام لك من أصحاب اليمين - وأما إن كان من المكذبين الضالين - فنزل من حميم - وتصلية حميم - إن هذا هو حق اليقين - فسبح باسم ربك العظيم ﴾ .

فلما قام الدليل ، ووضح السبيل ، وتم البرهان على أنهم مملوكون مربوبون مجزيون محاسبون — ذكر — سبحانه — طبقاتهم عند الحشر الأول ، والقيامة الصغرى ، وهى ثلاثة طبقات : طبقة المقربين ، وطبقة أصحاب اليمين ، وطبقة المكذبين . فجعل تحية طبقة المقربين عند الوفاة : الروح ، والريحان ، والجنة . وهذه الكرامات الثلاثة التى يعطونها بعد الموت نظير الثلاث التى يعطونها يوم القيامة : ﴿ فالروح ﴾ الفرح والسرور ، والسرور والابتهاج ولذة الروح ، فهى كلمة جامعة لنعيم الروح ولذتها وذلك قوتها وغذاؤها ، ﴿ والريحان ﴾ الرزق وهو الأكل والشرب (والجنة) المسكن الجامع لذلك كله . فيعطون هذه الثلاث فى البرزخ وفى المعاد الثانى .

ثم ذكر الطبقة الثانية ، وهى طبقة أصحاب اليمين ، ولما كانوا دون المقربين فى المرتبة جعل تحيتهم عند القدوم عليه السلام من الآفات والشرور التى تحصل للمكذبتين الضالين فقال : (وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين) . والسلام مصدر من مسلم . أى : فلك السلامة . والخطاب له نفسه . أى : يقال لك السلامة . كما يقال للقادم : لك البشرى فهذه تحية عند اللقاء .

قال مقاتل : يسلم الله لهم أمرهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم ، ويتقبل حسناتهم . كما قال تعالى : ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾^(١) ، وقال الكلبي : يسلم عليه أهل الجنة ، ويقولون : السلامة لك ، وعلى هذا فقوله : ﴿ من أصحاب اليمين ﴾ أى : هذه التحية حاصلة لك من إخوانك أصحاب اليمين ، ثم ذكر — سبحانه — الطبقة الثالثة ، وهى طبقة الضال فى نفسه ، المكذب لأهل الحق ، وأن له عند الموافاة نزل الحميم وسكنى الجحيم . ﴿ وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم . وتصلية جحيم ﴾ ثم أكد هذا الجزاء بما جعله كأنه رأى العين لمن آمن بالله ورسوله فقال : (إن هذا هو حق اليقين) فرفع شأنه عن درجة الظن والعلم إلى اليقين ، وعن درجة اليقين إلى حقه .

ثم أمره أن ينزه اسمه — تبارك وتعالى — عما لا يليق به ، وتنزيه الاسم متضمن لتنزيه لمسمى عما يقوله الكاذبون والجاحدون فقال تعالى : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ . سبحانه الله وبحمده ، سبحانه الله العظيم ، سبحانهك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جَدك ، وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ، لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد .

تفسير سورة الحديد

مقدمة

قال صاحب البصائر

السورة مدنية ، وقيل مكية

عدد آياتها : تسع وعشرون

وكلماتها : خمسمائة وأربع وأربعون .

وحروفها : ألفان وأربعمائة وست وسبعون .

ومجموع فواصل آياتها (من بزرد) على الزاء (ان الله قوى عزيز) وعلى الدال (هو الغنى الحميد) .

سميت سورة الحديد لقوله — تعالى — فيها : ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ .

معظم مقصود السورة

الإشارة إلى تسييح جملة المخلوقين والمخلوقات في الأرض والسموات وتنزيه الحق — تعالى — في الذات والصفات ، وأمر المؤمنين بإنفاق النفقات والصدقات ، وذكر حيرة المنافقين في صحراء القرصات وبيان خسية الدنيا وعز الجنات ، وتسليية الخلق عند هجوم النكبات والمصيبات ، في قوله ﴿ وَأَنْ الْفُضْلُ بِيَدِ اللَّهِ ﴾ بهذه الآيات .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ وكذلك في الحشر ، والصف ، ثم ﴿ يَسْبَحُ ﴾ في الجمعة والتغابن ، هذه كلمة استأثر الله بها ، فبدأ بالمصدر في بنى اسرائيل ، لأنه الأصل ، ثم بالماضي ، لأنه أسبق الزمانين ، ثم بالمستقبل ، ثم بالأمر في سورة الأعلى ، استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها . وهى أربع : المصدر ، والماضي ، والمستقبل ، والأمر للمخاطب .

قوله : ﴿ لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وبعده ﴿ لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ليس بتكرار ، لأن الأولى في الدنيا ، لقونه ﴿ يَحْيَى وَيَمِيتُ ﴾ والثانية في العقبى ، لقوله ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴾ .

قوله ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ بزيادة ﴿ هُوَ ﴾ لأن ﴿ بشراكم ﴾ مبتدأ ، ﴿ وجنات ﴾ خبره ، ﴿ تجري من تحتها ﴾ صفة لها ، ﴿ خالدين فيها ﴾ حال ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما قبله ﴿ وهو ﴾ تنبيه على عظيم شأن المذكور ﴿ الفوز العظيم ﴾ خبرة .

قوله : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ ابتداء كلام ﴿ ولقد أرسلنا ﴾ عطف عليه .

قوله : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ ، وفي سورة التغابن ، ﴿ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ فصل في هذه السورة ، وأجمل هناك ، موافقة لما قبلها في هذه السورة ، فإنه فصل أهوال الدنيا والآخرة فيها ، بقوله : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّهَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ الآية .

وجه مناسبتها لما قبلها .

(١) إن هذه بدئت بالتسييح ، وتلك ختمت به .

(٢) إن أول هذه واقع موقع العلة لآخر ما قبلها من الأمر بالتسييح . فكأنه قيل : سبح باسم ربك العظيم ، لأنه سبح له ما في السموات والأرض .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ بِحْيٍ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ
يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ
مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾
يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾

معاني المفردات

- ﴿ سبَّحَ لِلَّهِ ﴾ نزه الله ومجده . ﴿ العزيز ﴾ القادر الغالب على كل شيء .
- ﴿ الأول ﴾ السابق على جميع الموجودات ليس قبله شيء .
- ﴿ الآخر ﴾ الباقي بعد فنائها . ليس بعده شيء .
- ﴿ الظاهر ﴾ فليس فوقه شيء .
- ﴿ الباطن ﴾ فليس دونه شيء كذلك فسرهُ البشير النذير .
- ﴿ استوى على العرش ﴾ استواء يليق بكَماله تعالى .
- ﴿ ما يَلِج ﴾ ما يدخل من مطر وغيره .
- ﴿ ما يَعْرُج ﴾ ما يصعد إليها من الملائكة والأعمال .
- ﴿ وهو معكم ﴾ بعلمه المحيط بكل شيء .
- ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ ﴾ يدخله .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ سبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : إن ما دونه من خلقه ينزهه عن كل نقص ، تعظيماً له ، وإقراراً بربوبيته ، وإذعاناً لطاعته . كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ .. الْآيَةُ ﴾^(١) ، وكما قال جل شأنه : ﴿ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .. مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ .. تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ .. الْآيَةُ ﴾^(٢) ، وقال رب العزة : ﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾^(٣) وقال جل وعلا : ﴿ وَيَسْبِيحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ .. الْآيَةُ ﴾^(٤) .

والتسبيح تنزيه المولى عن كل ما لا يليق به قولاً ، وفِعْلاً واعتقاداً . فإن قيل : قد جاء في بعض فواتح السور ﴿ سبِّحْ لِلَّهِ ﴾ بلفظ الماضي ، وفي بعضها ﴿ يَسْبِيحُ لِلَّهِ ﴾ بلفظ المضارع فما المراد ؟ قال الخازن في تفسيره : فيه إشارة إلى كون جميع الأشياء مسبحاً لله أبداً ، غير مختص بوقت دون وقت ، بل هي كانت مسبحة أبداً في الماضي ، وستكون مسبحة أبداً في المستقبل .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : وهو القادر الغالب الذى لا ينازعه شيء ، الحكيم فى تدبير أمور خلقه وتصريفها فيما شاء وأحب .

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَحْيَى وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى : هو سبحانه المالك المتصرف فى خلقه فيحْيى ويميت ويعطى من يشاء ما يشاء ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى : ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . كما قال عز وجل : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءَ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءَ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذَلِّلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .. تَوَلَّجَ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَتَوَلَّجَ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَتَخْرُجُ الْحَيُّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتَخْرُجُ الْمَيِّتُ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ

(١) سورة غافر من الآية ٧

(٢) سورة الشورى من الآيات ٣ — ٥

(٣) سورة الاسراء من الآية ٤٤

(٤) سورة الرعد من الآية ١٣

من تشاء بغير حساب ﴿١﴾ . وكما قال سبحانه : ﴿لله ملك السموات والأرض وما فيهن ، وهو على كل شيء قدير﴾ ﴿٢﴾ ، فهو — سبحانه — الملك الحق الذى بيده ملكوت كل شيء ولا شريك له فى ملكه ولا معين ، المتصرف فى خلقه بما يشاء من الأمر والنهى والإعزاز والإذلال والإحياء والإماتة والهداية والإضلال ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين لاراد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا غالب لأمره . ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ، له ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير .

قوله تعالى : ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾ .

عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — « اللهم رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، أقضى عني الدين واغنني من الفقر » ﴿٣﴾ رواه مسلم .

قال الامام ابن القيم — رحمه الله — أثناء كلامه على هذه الأسماء الحسنى الأربعة وهى : الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن : هى أركان العلم والمعرفة ، فحقيق بالبعد أن يبلغ فى معرفتها إلى حيث ينتهى به قواه وفهمه . وأعلم أن لك أنت أولاً وآخرأ وظاهراً وباطناً بل كل شيء فله أول وآخر وظاهر وباطن ، حتى الخطرة واللحظة والنفس وأدنى من ذلك وأكثر ، فأولية الله — سبحانه — سابقة على أولية كل ما سواه ، وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه ، فأوليته سبقه لكل شيء وآخريته بقاءه بعد كل شيء ، ومعنى الظهور يقتضى العلو ، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه ، وبطونه — سبحانه — إحاطته بكل شيء بحيث يكون أقرب إليه من نفسه ، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه ، هذا لون وهذا لون ، فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة وهى إحاطتان زمانية ومكانية ، فأحاطته أوليته وآخريته بالقبل والبعد ، فكل سابق انتهى إلى أوليته وكل آخر انتهى إلى آخريته ، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر ، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن ، فما من ظاهر إلا والله

(١) سورة آل عمران الآيتان ٢٦ — ٢٧

(٢) سورة المائدة الآية ١٢٠

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الذكر والرجاء والتوبة والاستغفار » باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ج ٤ ص ٢٠٨٤

حديث رقم ٦٣ / ٢٧١٣ من رواية لأبى هريرة .

فوقه وما من باطن إلا والله دونه ، وما من أول إلا والله قبله وما من آخر إلا والله بعده .. فسبق كل شيء بأوليته وبقي بعد كل شيء ببطونه ، فلا توارى منه سماء سماء ، ولا أرض أرضاً ، ولا يحجب عنه ظاهر باطناً بل الباطن له ظاهر والغيب عنده شهادة ، والبعيد منه قريب والسر عنده علانية ، فهذه الأسماء الأربعة تشمل على أركان التوحيد فهو الأول في آخريته ، والآخر في أوليته ، والظاهر في بطوته ، والباطن في ظهوره ؛ لم يزل أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً . ثم سباق الكلام على التعبد بهذه الأسماء فشفي وكفى — رحمه الله تعالى — ، ولكن قد أحاط بذلك المعنى تفسير رسول الله — ﷺ — في حديث أبي هريرة المتقدم قريباً بأوجز عبارة وأحضرها فسبحان من خصه بجوامع الكلم — ﷺ — (من كتاب مصارح القبول للشيخ حافظ بن أحمد حلمي) .

قوله تعالى : ﴿ هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ .

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم أخبر تعالى باستوائه على العرش بعد خلقهن استواء يليق بجلاله من غير تمثيل ولا تكييف ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ يعلم ما يلج في الأرض ﴾ أي : يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر وغيره ، ﴿ وما يخرج منها ﴾ من نبات وزرع وثمار ومعادن فلا تخفى عليه خافية . كما قال سبحانه : ﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾^(٢) ، وكما قال جل شأنه : ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾^(٣) ، ما من جيل إلا ويعلم ما في وعره ، ولا بحر إلا ويدري ما في قعره ، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ، وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ان ذلك على الله يسير .

وقوله تعالى : ﴿ وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ﴾ أي : انه سبحانه يعلم ما ينزل من الأمطار والثلوج والبرد والأقذار والأحكام مع الملائكة الكرام وفي الأثر « ما ينزل من قطرة من السماء إلا ومعها ملك يقررها في المكان الذي يأمر الله به حيث يشاء الله — تعالى — .

(١) سورة الشورى من الآية ١١

(٢) سورة آل عمران الآية ٥

(٣) سورة الأنعام الآية ٥٩

وقوله : ﴿ وما يعرج فيها ﴾ أى : من الملائكة والأعمال كما قال تعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾^(١) ، وكما جاء فى الحديث الصحيح « يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل »^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ أى : رقيب عليكم شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم من بر أو بحر فى ليل أو نهار فى البيوت أو فى القفار الجميع فى علمه على السواء وتحت بصره وسمعه فيسمع كلامهم ويرى مكانهم ويعلم سرهم ونجواهم ، كما قال تعالى : ﴿ وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً اذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾^(٣) ، وكقوله تعالى : ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾^(٤) ، وكقوله — جل وعلا — : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شئ عليم ﴾^(٥) .

وفى الصحيح أن رسول الله — ﷺ — قال لجبريل لما سأله عن الإحسان : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »^(٦) .
وكان الامام أحمد كثيراً ما ينشد هذين البيتين :
إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل على رقيب

(١) سورة فاطر من الآية ١٠

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الايمان » باب فى قوله عليه السلام « ان الله لا ينام » ج ١ ص ١٦١ — ١٦٢ فقد ورد الحديث ٢٩٣ / ١٧٩ من رواية لأبى موسى ولفظه : « قام فينا رسول الله — ﷺ — بخمس كلمات فقال : « إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجا به النور (وفى رواية أبى بكر : النار) لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » .

(٣) سورة يونس الآية ٦١

(٤) سورة الرعد الآيتان ١٠ — ١١

(٥) سورة المجادلة الآية ٧

(٦) انظر صحيح مسلم « كتاب الايمان » باب بيان الايمان والاسلام والاحسان .. الخ ج ١ ص ٣٦ ، ٣٧ حديث ٨ / ١ وهو حديث طويل من رواية لعبد الله بن عمر عن أبيه وهو حديث طويل ، يعتبر هذا الحديث الذى معنا جزء منه .
وانظر صحيح البخارى « كتاب الايمان » باب سؤال جبريل النبى — ﷺ — عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة .. الخ فقد ورد حديث لأبى هريرة هذا الحديث الذى معنا جزء منه .

ولا تحسبن الله يغفل ساعة . ولا أن ما تخفى عليه يغيب
يا من يرى مد البعوض جناحه في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى نياط عروقها في نحرها والمخ في تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما دونها في قاع بحر ذاخر متجندل

قوله تعالى : ﴿ له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أى : هو المالك لما فيهما ،
والمدير لأمرهما ، والتأفد حكمه فيهما ، وإليه مصير جميع خلقه ، فيقضى بينهم بحكمه كما قال تعالى :
﴿ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجعون ﴾ (١) . وكما قال سبحانه ﴿ وهو الله لا إله
إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ﴾ أى : يقلب الليل والنهار ويقدرهما
بحكمته كما يشاء ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار ، وتارة بالعكس ، وتارة يتركهما معتدلين ، وكل
ذلك بحكمته وتقديره لما يريد به بخلق وقوله : ﴿ وهو عليم بذات الصدور ﴾ أى : يعلم السرائر وإن
دقت وإن خفيت . فهو يعلم نوايا خلقه كما يعلم ظواهر أعمالهم من خير أو شر . كيف لا وهو الذى
خلق وقدر ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ (٣) .

وهذى الصحارى والجبال الرواسيا
سل الليل والأصباح والطير شاديا
وسل كل شئ تسمع الحمد ساريا
فمن غير رى يرجع الصبح ثانيا
سوى الله يجريه كما شاء راويا
أفى كونكم من يمسك الريح ناهيا

سل الواحة الخضراء والماء جاريا
سل الروض مزدانا سل الزهر والندى
وسل هذه الأنسام والأرض والسما
فلو جن هذا الليل وامتد سرمدا
ولو غاض هذا الماء فى القاع هل لكم
ولو أن هذى الريح ثارت واعصرت

(١) سورة يس الآية ٨٣

(٢) سورة القصص الآية ٧٠

(٣) سورة الملك الآية ١٤

توجيه وإرشاد

﴿ ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ءَ وَانْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُّسْتَخْلَفِينَ فِيْهِ ۚ فَالَّذِيْنَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَانْفَقُوا لَهُمْ اَجْرٌ كَبِيْرٌ ۝۷ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُوْنَ بِاللّٰهِ وَالرَّسُوْلِ يَدْعُوْكُمْ لِتُؤْمِنُوْا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ اَخَذَ مِيثَاقَكُمْ اِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِيْنَ ۝۸ هُوَ الَّذِيْ يُنَزِّلُ عَلٰى عَبْدِهِ ءَاٰتِيْٓنَ بَيِّنٰتٍ لِّيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظُّلُمٰتِ اِلَى النُّوْرِ ۚ اِنَّ اللّٰهَ بِكُمْ لَرَءُوْفٌ رَّحِيْمٌ ۝۹ وَمَا لَكُمْ اَلَّا تُنْفِقُوْا فِيْ سَبِيْلِ اللّٰهِ وَلِلّٰهِ مِيرٰثُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِيْ مِنْكُمْ مَّنْ اَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ اُولٰٓئِكَ اَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِيْنَ اَنْفَقُوْا مِنْۢ بَعْدُ وَقَتْلُوْا وَكُلَّا وَعَدَ اللّٰهُ الْحُسْنٰى ۚ وَاللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِيْرٌ ۝۱۰ مَّنْ ذَا الَّذِيْ يُقْرِضُ اللّٰهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفْهُ لَهٗ وَلَهٗ وَاَجْرٌ كَرِيْمٌ ۝۱۱ ﴾

معانى المفردات

﴿ مستخلفين فيه ﴾ أى : جعلكم — سبحانه — خلفاء عنه فى التصرف من غير أن تملكوه ،
 ﴿ آيات بينات ﴾ الآيات البينات هى القرآن الكريم ، ﴿ الفتح ﴾ هو فتح مكة ، و ﴿ الحسنى ﴾ أى المثوبة الحسنى ، وهى النصر والغنيمة فى الدنيا ، والجنة فى الآخرة ، ﴿ يقرض الله ﴾ أى : ينفق ماله فى سبيله رجاء ثوابه .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر — سبحانه — أنواعاً من الأدلة تثبت وحدانيته وقدرته وعلمه بين أن كل ما فى السموات وما فى الأرض فهو فى قبضته يصرفه كما يشاء ، ثم ذكر أنواعاً من الظواهر فى الأنفس ترشد إلى هذا وأوماً إلى النظر والتأمل فيها ، أعقب هذا بذكر التكاليف الدينية فأمر بالإيمان والإخلاص والانقياد لرسوله — ﷺ — ، ثم طلب انفاق المال فى سبيله ، وأبان أن المال عارية مستردة فهو ملك له وأنتم

خلفاؤه ، ثم حث على ذلك بأن جعل هذا صفوة دعوة الرسول وقد أخذ عليكم العهد به ، وآيات كتابه هادية لكم والله رءوف بكم إذ أنقذكم من ظلمات الشرك إلى نور الطاعة ، ثم ذكر — سبحانه — فضل السابقين الأولين الذين أسلموا قبل فتح مكة ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في إعلاء كلمة الله حين عز النصير وقل المعين ، فهؤلاء لا يستوون مع من فعل ذلك بعد الفتح ، وهؤلاء وأولئك لهم المثوبة الحسنی ، ثم حث على الإنفاق مرة أخرى وسماه قرضاً له ، وأنه سيرد هذا القرض ويجازى به أجمل الأجر يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ .

أمر — تبارك وتعالى — بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل والدوام والنبات على ذلك والاستمرار كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ أى : وأنفقوا مما هو معكم من المال على سبيل العارية ، فإنه قد كان فى أيدي من قبلكم ثم صار إليكم ، واستعملوه فى طاعته وإلا حاسبكم على ذلك حساباً عسيراً ، وفى هذا ترغيب أياً ترغيب فى الإنفاق ، لأنه من علم أن المال لم يبق لمن قبله وانتقل إليه — علم أنه لا يدوم له بل ينتقل إلى غيره وبذا يسهل عليه إنفاقه .

قال الشاعر :

إذا المرء لم يُعتق من المال نفسه	تملكه المال الذى هو مالكة
ألا إنما مالى الذى أنا منفق	وليس لى المال الذى أنا تاركة
إذا كنت ذا مالٍ فبادر به الذى	يحق ، وإلا استهلكته مهالكه

وقال آخر :

كل نفس عند ميستها حظها من مالها الكفن
إن مال المرء ليس له منه إلا ذكره الحسن

قال شعبة : سمعت عن قتادة يحدث عن مطرف بن عبد الله عن أبيه قال : « انتهيت إلى رسول الله ﷺ — وهو يقول : « ألهاكم التكاثر » يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت وما سوى ذلك فذهب وتاركه للناس »^(١) رواه مسلم .

ثم حث — سبحانه — على ما تقدم من الإيمان والإنفاق في سبيل الله فقال تعالى : ﴿ فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ﴾ أي : فالذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله منكم ، وأنفقوا مما خولهم الله عمن قبلهم — في سبيل الله لهم الثواب العظيم عند ربهم وهناك يرون من الكرامة والمثوبة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

قوله تعالى : ﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ﴾ .

أي : وأي شيء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به .

قال ابن كثير قد روي في الحديث من طرق في أوائل شرح كتاب الإيمان من صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ — قال يوماً لأصحابه : أي المؤمنین أعجب إليكم إيماناً ؟ — قالوا الملائكة — قال وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟ — قالوا فالأنبياء ، قال : وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم — قالوا فنحن قال ومالككم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنین إيماناً قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها ..^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ﴾ هذا نظير قوله تعالى : ﴿ واذكروا نعمة

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الزهد والرقائق » ج ٤ ص ٢٢٧٣ فقد ورد الحديث ٣ / ٢٩٥٨ من رواية لقتادة عن مطرق عن أبيه وهو بلفظه .

(٢) انظر تفسير ابن كثير « تفسير سورة الحديد » ج ٨ ص ٢٦ ، ٢٧ .

الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور ﴿١﴾ ، ويعنى بذلك بيعة الرسول — ﷺ — .

قوله تعالى : ﴿ هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرءوف رحيم ﴾ أى : هو تعالى الذى ينزل على محمد القرآن العظيم ، المعجز فى بيانه ، الواضح فى أحكامه ﴿ ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ أى : ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ﴿ وإن الله بكم لرءوف رحيم ﴾ أى : مبالغ فى الرأفة والرحمة بكم ، حيث أنزل الكتب وأرسل الرسل لهدايتكم . كما قال سبحانه : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾ (٢) ، وكما قال جل وعلا : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ (٣) . وكما قال سبحانه : ﴿ الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد . الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد ﴾ (٤) . وكما قال سبحانه : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ (٥) .

قوله تعالى : ﴿ وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله والله ميراث السموات والأرض لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير ﴾ .

أى : وما لكم أيها الناس لا تنفقوا مما رزقكم الله فى سبيله ؟ وأموالكم صائرة إليه إن لم تنفقوها فى حياتكم ، لأن له ما فى السموات والأرض ميراثاً . فأنفقوا ولا تحشوا فقراً وإقلاقاً ، فإن الذى أنفقتم فى سبيله هو مالك السموات والأرض ويده مقاليدهما وعنده خزائنها وهو مالك العرش بما حوى وهو القائل سبحانه : ﴿ وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾ (٦) ، وقال : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ (٧) ، فمن توكل على الله أنفق ولم يخش من ذى العرش إقلاقاً وعلم أن الله سيخلفه عليه .

(٥) سورة يونس الآيتان ٥٧ ، ٥٨

(٦) سورة سبأ من الآية ٣٩

(٧) سورة النحل من الآية ٩٦

(١) سورة المائدة الآية ٧

(٢) سورة النساء الآية ١٧٤

(٣) سورة المائدة الآيتان ١٥ ، ١٦

(٤) سورة إبراهيم الآيتان ١ ، ٢

وقوله تعالى : ﴿ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ﴾ أى : لا يستوى هذا ومن لم يفعل كفعله ، وذلك أن قبل فتح مكة كان الحال شديداً ، فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون ، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى ﴾ .

قال قتادة : كان قتالان : أحدهما أفضل من الآخر ، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى ، كان القتال والنفقة من قبل فتح مكة أفضل من النفقة والقتال بعد ذلك .

﴿ وكلا وعد الله الحسنى ﴾ أى : وكل من المنفقين قبل الفتح وبعده لهم ثواب على ما عملوا ، وإن كان بينهم تفاوت في مقدار الجزاء كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾^(١) .

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله — ﷺ — : « لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى محمد بيده لو أن أحداكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه »^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أى : عالم بأعمالكم ، مطلع على خفاياكم ونواياكم ، ومجازيكم عليه ، وفي الآية وعد ووعد .

قال ابن كثير : أى : فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن فعل ذلك بعد ذلك ، وماذا لك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام وأنفاقه في حال الجهد والقلّة والضيق ، وفي الحديث « سبق درهم ألف »^(٣) ولاشك عند أهل الإيمان أن الصديق أبا بكر — رضى الله عنه — له الحظ الأوفر من هذه الآية فإنه سيد من عمل بها من سائر أئم الأنبياء ، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله — عز وجل — ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها .

(١) سورة النساء الآية ٩٥

(٢) انظر صحيح البخارى « باب فضائل أصحاب النبى » ج ٥ ص ١٠ فقد ورد الحديث بلفظه حدث به ذكر ان عن أبى

سعيد الخدرى .

(٣) انظر سنن النسائى « كتاب الزكاة » باب « جهد المقل » ج ٥ ص ٥٩ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة بلفظ « سبق درهم

مائة ألف درهم .. » حديث طويل .

وقوله تعالى : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم ﴾ أى : من هذا الذى ينفق أمواله فى سبيل الله محتسباً أجره عند ربه ، فيضاعف له ذلك القرض ، فيجعل له بالحسنة الواحدة سبعمائة ، وله بعد ذلك جزاء كريم بمثوبته بالجنة ؟ .

كما قال تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾^(١) ، وكما قال سبحانه : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾^(٢) ، قال ابن أبى حاتم بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له — الآية ﴾ قال أبو الدحداح الأنصارى : يا رسول الله ، إن الله ليريد منا القرض ؟ قال : « نعم يا أبا الدحداح » قال : أرنى يدك يا رسول الله ، قال : فناوله يده قال : فإنى قد أقرضت ربي حائط ، وله حائط فيه ستائة نخلة ، وأم الدحداح فيه وعيالها ، قال : فجاء أبو الدحداح فنادها : يا أم الدحداح ، قالت : لبيك ، قال : اخرجى فقد أقرضته ربي — عز وجل — ، وفى رواية انها قالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح ، ونقلت منه متاعها وصبيانها وإن رسول الله — ﷺ — قال : « كم من عذق رداح فى الجنة لأبى الدحداح »^(٣) ، وفى لفظ « رب نخلة مدلاة عروقها در وياقوت لأبى الدحداح فى الجنة » .

وعد ووعد

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرُكُ الْيَوْمِ جَنَّتُ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ

(١) سورة البقرة الآية ٢٦١

(٢) سورة البقرة الآية ٢٤٥

(٣) انظر مسند الامام أحمد ج ٣ ص ١٤٦ فقد ورد الحديث من رواية لثابت مع اختلاف فى بعض ألفاظ القصة ، ولفظ الحديث « كم من عذق راح لأبى الدحداح فى الجنة » .

وانظر مسند الامام احمد — أيضا — ج ٥ ص ٩٥ فقد وردت عدة روايات فى هذا الحديث .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الجنائز » باب « ركوب المصلى » ج ٢ ص ٦٦ فقد ورد الحديث بلفظ .. كم من عذق معلق أو مدلل لأبى الدحداح فى الجنة .. برقم ٩٦٥ / ٨٩ .

وانظر كثر العمال ج ١١ ص ٦٥٨ — ٦٥٩ فقد ورد الحديث بعده روايات برقم ٣٣١٨٠ ، ٣٣١٨١ ، ٣٣١٨٢ .

وَالْمُنَافِقَتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا
فَضْرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ رَبَابٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٤﴾ ينادونهم ألم
نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرركم الأمانى حتى جاء أمر
الله وغررتم بالله الغرور ﴿١٥﴾ فالיום لا يُوْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ هِيَ
مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

معانى المفردات

﴿ بشراكم ﴾ أى : ما تبشرون به ، ﴿ انظرونا ﴾ أى : انتظرونا ، ﴿ نقتبس ﴾ أصل الاقتباس طلب القبس : أى الجذوة من النار ، ﴿ بسور ﴾ السور : الحاجز ، ﴿ من قبله ﴾ أى : من جهته ، ﴿ بلى ﴾ أى : كنتم معنا ، ﴿ فتنتم أنفسكم ﴾ أى : أهلكتموها بالمعاص والشهوات ، ﴿ وتربصتم ﴾ أى : انتظرتهم بالمؤمنين مصايب الزمان ، ﴿ وارتبتم ﴾ أى : شككتهم فى أمر البعث ، ﴿ الأمانى ﴾ الأباطيل من طول الآمال والطمع فى انتكاس الإسلام ، ﴿ الغرور ﴾ بالفتح الشيطان ، ﴿ فدية ﴾ والفدية والفداء : ما يبذل لحفظ النفس أو المال من الهلاك ، ﴿ مأواكم ﴾ أى : منزلكم الذى تأوون إليه ﴿ مولاكم ﴾ أى : أولى بكم ، ﴿ والمصير ﴾ المآل والعاقبة .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أمر سبحانه بالإيمان والإنفاق فى سبيله ثم ذكر أن المنافقين أول الاسلام لهم من الأجر أكثر ممن أنفقوا من بعد حين كثر النصير والمعين — ذكر هنا حال المؤمنين المنافقين يوم القيامة ، فبين أن نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ليرشدهم إلى الجنة ، ثم أردفه ذكر حال المنافقين إذ ذاك يتخبطون فى الظلمات ، كما كانوا فى الدنيا يعيشون كالبهائم فى ظلمات الجهل والغى والضلال ، ثم بين أنه يضرب بين الفريقين حاجز باطنه مما يلى المؤمنين فيه الرحمة ، ومما يلى المنافقين فيه العذاب ، لأنه فى النار ، ثم ذكر السبب فيما صاروا إليه وهو أنهم أهلكوا أنفسهم بالنفاق والمعاصى .. ثم أعقبه أنه لا أمل فى النجاة لهم إذ ذاك ، فلا تجدى الفدية كما كانت تنفع فى الدنيا فلا مأوى لهم إلا النار وبئس القرار .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

يقول تعالى — مخبراً عن المؤمنين المتصدقين — : أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة بحسب أعمالهم كما قال عبد الله بن مسعود في قوله تعالى ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم ﴾ قال : على قدر أعمالهم يمشون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ومنهم من نوره مثل النخلة ومنهم من نوره مثل الرجل القائم وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفأ مرة .

ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وقال قتادة : ذكر لنا أن نبي الله — ﷺ — كان يقول : « من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن أبين وصنعاء فدون ذلك حتى أن من المؤمنين من يضيء نوره موضع قدميه »^(١) ، وقال الحسن : ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم ﴾ يعنى : على الصراط . « وهذا النور الذى أودعه في قلب عبده من معرفته ومحبه والإيمان به وذكره ، وهو نوره الذى أنزله إليهم فأحياهم به وجعلهم يمشون به بين الناس ، وأصله في قلوبهم ثم تقوى مادته فتزايد حتى يظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم ، بل وثيابهم ودورهم ، يبصره من هو من جنسهم وسائر الخلق له منكر ، فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور وصار بأيمانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه وهم فيه على حسب قوته : وصفته في قلوبهم في الدنيا ، فمنهم من نوره كالشمس ، وآخر كالقمر ، وآخر كالنجوم ، وآخر كالسراج ، وآخر يعطى نوراً على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ مرة ، إذ كانت هذه حال نوره في الدنيا فأعطى على الجسر بمقدار ذلك ، بل هو نفس نوره ظهر له عياناً » . (قاله ابن القيم في الوابل الصيب) .

وقوله تعالى : ﴿ بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

أى : يقال لهم بشراكم اليوم جنات ، أى : لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار ﴿ خالدين

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبرى « تفسير سورة الحديد » ج ٢٧ ص ١٢٨ القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم .. ﴾ الخ . فقد ورد الحديثان سعيد عن قتادة ، وعن ابن مسعود .

(٢) سورة الرعد الآيتان ٢٣ — ٢٤

فيها ﴿ أى : ما كثر فيها أبداً ﴾ ذلك هو الفوز العظيم ﴿ كما قال سبحانه : ﴿ جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ (١) . وكما قال جل شأنه : ﴿ وسبق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ (٢) .

وبعد أن ذكر حال المؤمنين في موقف القيامة أتبعه ببيان حال المنافقين ، فقال تعالى : ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فاتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور . فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير ﴾ .

قال العلامة ابن كثير :

هذا إخبار من الله سبحانه عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأحوال المزعجة ، والزلازل العظيمة ، والأمور الفظيعة ، وأنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله ، وعمل بما أمر الله به ، وترك ما عنه زجر .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن سليم بن عامر قال : خرجنا على جنازة في باب دمشق ومعنا أبو أمانة الباهلي فلما صلى على الجنازة وأخذوا في دفنها ، قال أبو أمانة : أيها الناس إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات ، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر وهو هذا — يشير إلى القبر — بيت الوحدة ، وبيت الظلمة ، وبيت الدود ، وبيت الضيق إلا ما وسع الله ، ثم تنتقلون منه إلى موطن يوم القيامة فإنكم في بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله فتبيض وجوه وتسود وجوه ، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فيغشى الناس ظلمة شديدة ، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نوراً ، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً وهو المثل الذى ضرب به الله — تعالى — في كتابه فقال : ﴿ أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ (٣) ، فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن ، كما لا يتسضىء الأعمى ببصر البصير ، ويقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ ، ﴿ قيل ارجعوا وراءكم فاتمسوا نوراً ﴾ وهى خدعة الله التى خدع بها المنافقين حيث قال : ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ (٤) فيرجعون إلى المكان الذى قسم فيه النور

(١) سورة الرعد الآيتان : ٢٣ ، ٢٤

(٢) سورة الزمر الآية ٧٣

(٣) سورة النور الآية ٤٠

(٤) سورة النساء الآية ١٤٢

فلا يجدون شيئاً فيصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب ﴿باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾ ، وقال العوفي والضحاك وغيرهما عن ابن عباس : بينا الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه وكان النور دليلاً من الله إلى الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم فأظلم الله على المنافقين فقالوا حينئذ : ﴿انظرونا نقتبس من نوركم﴾ فإننا كنا معكم في الدنيا قال المؤمنون : ﴿ارجعوا وراءكم﴾ من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور .

وقال أبو القاسم الطبراني بسنده عن ابن عباس قال : قال رسول الله — ﷺ — « إن الله تعالى يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم سترًا منه على عباده ، وأما عند الصراط فإن الله — تعالى — يعطي كل مؤمن نوراً وكل منافق نوراً فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات فقال المنافقون : انظرونا نقتبس من نوركم ، وقال المؤمنون : ربنا أتم لنا نورنا فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً » (١) .

ويقول ابن القيم : ولما لم يكن للمنافقين نور ثابت بل كان نوره ظاهراً لا باطناً ، أعطى نوراً ظاهراً مآله إلى الظلمة والذهاب .

وقوله تعالى : ﴿فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾ . قال الحسن وقتادة : هو حائط بين الجنة والنار . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو الذي قال الله تعالى : ﴿وبينهما حجاب﴾ (٢) وهكذا روى عن مجاهد رحمه الله وغير واحد ، قال ابن كثير وهو الصحيح . وقوله ﴿باطنه فيه الرحمة﴾ أي : الجنة وما فيها ، ﴿وظاهره من قبله العذاب﴾ أي : النار ، قاله قتادة وابن زيد وغيرهما . وقوله : ﴿ينادونهم ألم نكن معكم﴾ أي : ينادى المنافقون المؤمنين أما كنا معكم في الدار الدنيا نشهد معكم الجمعات ، ونصلي معكم الجماعات ، ونقف بعرفات ، ونحضر معكم الغزوات ، ونؤدى معكم سائر الواجبات ؟ ﴿قالوا بلى﴾ أي : فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين : بلى قد كنتم معنا . ﴿ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني﴾ قال بعض السلف : أي : فتنتم أنفسكم بالذات والمعاصي والشهوات وتربصتم أي : أخرتم التوبة من وقت إلى وقت .

(١) انظر مجمع الزوائد « كتاب البعث » باب ما جاء في الميزان والصراط والورود ج ١٠ ص ٣٥٩ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عباس . رواه الطبراني وفيه اسحق بن بشر أبو حذيفة وهو متروك .
(٢) سورة الأعراف الآية ٤٦

وقال قتادة : ﴿ تربصتم ﴾ بالحق وأهله ﴿ وارتبتم ﴾ أى : بالبعث بعد الموت ﴿ وغرتكم الأمانى ﴾ أى : قلتم سيغفر لنا ، وقيل : غرتكم الدنيا ، ﴿ حتى جاء أمر الله ﴾ أى : ما زلتُم فى هذا حتى جاءكم الموت . ﴿ وغركم بالله الغرور ﴾ أى : الشيطان ، قال قتادة كانوا على خدعة من الشيطان والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله فى النار .

ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين أنكم كنتم معنا : أى : بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها ، وإنما كنتم فى حيرة وشك فكنتم تراءون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً .

وقوله تعالى : ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ (١) ، ولو جاء أحدهم يوم القيامة بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدى به من عذاب الله ما قبل منه .

وقوله تعالى : ﴿ وماؤاكم النار ﴾ أى : هى مصيركم وإليها متقلبكم وقوله : ﴿ هى مولاكم وبئس المصير ﴾ أى : هى أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم وبئس المصير .

« اللهم إنا نعوذ بك من الرياء والنفاق وسوء الأخلاق ، اللهم اجعل أعمالنا كلها صالحة ولوجهك الكريم خالصة ، ولا تجعل لأحد فيها شيئاً » .

رقائق ومواعظ

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (١٦)

أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ

وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْحَرِيمِ ﴿١٩﴾

معانى المفردات

﴿ أَلَمْ يَأْنِ ﴾ ألم يحىء وقت ذلك ، ﴿ أَنْ تَخْشَعَ ﴾ الخشوع : الخشية والخوف ، ﴿ لَذِكْرِ اللَّهِ ﴾ لمواعظه ، ﴿ الْحَقِّ ﴾ هو القرآن ، ﴿ كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ هم اليهود والنصارى ، ﴿ الْأَمَدِ ﴾ الزمان ، ﴿ وَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ﴾ أى : طال العهد دينهم دين أنبيائهم ، ﴿ فَفَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى : صلبت وصارت كالحجارة أو أشد قسوة ، ﴿ فَاسْقُونَ ﴾ أى : خارجون عن حدود دينهم ، ﴿ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ ﴾ هى التى لا تنبت شيئاً ، و ﴿ الْآيَاتِ ﴾ هى البينات والحجج . ﴿ تَعْقِلُونَ ﴾ تدبرون ، ﴿ الْمُصَدِّقِينَ ﴾ أى : المتصدقين ، ﴿ قَرْضٍ حَسَنًا ﴾ القرض الحسن : هو الدفع بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله ، ﴿ يَضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ أى : يضاعف لهم ثواب أعمالهم ، ﴿ الصَّادِقُونَ وَالصَّادِقِ ﴾ : من كثر منه الصدق وصار سجية له ، ﴿ وَالشَّهَدَاءُ ﴾ من قتلوا فى سبيل الله .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن وازن بين المؤمنين والمنافقين فيما مضى ، وأبان ما يكون بينهما من فارق يوم القيامة — ذكر هنا التفاوت بين حال المؤمنين وحال الكافرين .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لَذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَفَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسْقُونَ ﴾ .

يقول تعالى : أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله ، أى : تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن ، فتفهمه وتنقاد له ، وتسمع له وتطيعه ، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً

مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد ﴿١﴾ .

روى الامام مسلم بسنده عن ابن مسعود — رضى الله عنه — قال : ما كان بين اسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ الآية إلا أربع سنين (٢) . وقال قتادة : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ ذكر لنا أن شداد بن أوس كان يروى عن رسول الله — ﷺ — قال : « إن أول ما يرفع من الناس الخشوع » .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ﴾ نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذى بأيديهم ، واشتروا به ثمناً قليلاً ، ونبذوه وراءهم ظهرياً ، وأقبلوا على الآراء المختلفة ، والأقوال المؤتفكة ، وقلدوا الرجال فى دين الله ، واتخذوا أحوارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تلين بوعد ولا وعيد ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ أى : فى الأعمال فقلوبهم فاسدة وأعمالهم باطلة .

وقوله تعالى : ﴿ اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ .

قال ابن كثير : فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها ، ويهdy الحيارى بعد ضلتها ، ويفرج الكروب بعد شدتها ، فكما يحيى الأرض الميتة المجذبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل ، كذلك يهdy القلوب القاسية ببراhein القرآن والدلائل ، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل ، فسبحان الهادى لمن يشاء بعد الضلال ، والمضل لمن أراد بعد الكمال ، الذى هو لما يشاء فعال ، وهو الحكيم العدل فى جميع الفعال ، اللطيف الخبير الكبير المتعال .

(١) سورة الزمر الآية ٢٣

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب التفسير » باب فى قوله تعالى « ألم بأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » ج ٤ ص ٢٣١٩

حديث رقم ٢٤ / ٣٠٢٧ فقد ورد الحديث من رواية لابن مسعود .

كلمة في الخشوع

قال الحافظ زين الدين بن رجب الحنبلي : ما ملخصه :

أصل الخشوع هو لين القلب ورقته ، أو سكونه وخضوعه وانكساره وحرقة ، فإذا خشع القلب ، تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء ، لأنها تابعة له ، كما قال — ﷺ — : « ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب »^(١) (رواه البخارى) فإذا خشع القلب ، خشع السمع والبصر والرأس ، والوجه ، وسائر الأعضاء وما ينشأ منها حتى الكلام ، ولهذا كان النبى — ﷺ — يقول فى ركوعه فى الصلاة « خشع لك سمعى وبصرى ونخى وعظمى وعصبى » (رواه مسلم) ، ورأى بعض السلف رجلاً يعبث بيده فى الصلاة فقال : لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه »^(٢) .

قال المسعودى عن على بن أبى طالب — رضى الله عنه — فى قوله تعالى : ﴿ الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ قال : « هو الخشوع فى القلب ، وأن تلين كتفك للمرء المسلم ، وأن لا تلتفت فى صلاتك » . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس — رضى الله عنهما — فى قوله تعالى : ﴿ الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ قال : « خائفون ساكنون » . وقال الحسن — رحمه الله — « كان الخشوع فى قلوبهم فغضوا له البصر فى الصلاة » .

وقد وصف الله — تعالى — فى كتابه الأرض بالخشوع فقال : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾^(٣) ، فاهتزأها وربوها — وهو ارتفاعها — مزيل لخشوعها ، فدل على أن الخشوع الذى كانت عليه هو سكونها وانخفاضها .

فكذلك القلب إذا خشع ، فإنه تسكن خواطره ، وإرادته الرديئة التى تنشأ من اتباع الهوى ، وينكسر وينخضع لله ، فيزول بذلك ما كان فيه من التعاطف والترفع والتكبر ، ومتى سكن ذلك فى القلب خشعت الأعضاء والجوارح والحركات كلها ، حتى الصوت وقد وصف الله — تعالى — الأصوات بالخشوع فى قوله : ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن ﴾^(٤) فخشوع الأصوات هو سكونها وانخفاضها بعد ارتفاعها .

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الإيمان » باب « فضل من استبرأ لدينه » ج ١ ص ٢١ فقد ورد هذا الحديث ضمن حديث طويل « الحلال بين .. الخ » .

(٢) انظر سنن النسائى « كتاب الافتتاح » باب الذكر فى الركوع ج ٢ ص ١٩٢ فقد ورد الحديث من رواية لعل بن أبى طالب ولفظه : « اللهم لك ركعت ، ولك أسلمت ربك آمنت خشع لك سمعى وبصرى وعظمى ونخى وعصبى » .

(٣) سورة فصلت من الآية ٣٩

(٤) سورة طه من الآية ١٠٨

الفرق بين خشوع النفاق وخشوع الإيمان

ومتى تكلف الإنسان تعاطى الخشوع في جوارحه أو أطرافه مع فراغ قلبه من الخشوع وخلوه منه ، كان ذلك خشوع نفاق ، وهو الذى كان السلف يستعيذون منه كما قال بعضهم : « استيعذوا بالله من خشوع النفاق ، قالوا : وما خشوع النفاق ؟ قال : أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع » .

ونظر عمر — رضى الله عنه — إلى شاب قد نكس رأسه فقال له : « يا هذا ارفع رأسك ، فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب » .
فمن أظهر خشوعاً غير ما في قلبه ، فإنما هو نفاق على نفاق .

الخشوع حاصل من معرفة الله

وأصل الخشوع الحاصل في القلب ، إنما هو من معرفة الله ، ومعرفة عظمته وجلاله وكماه ، فمن كان بالله أعرف ، فهو له أخشع .

ويتفاوت الخشوع في القلوب بحسب تفاوت معرفتها لمن خشعت له ، وبحسب تفاوت مشاهدة القلوب للصفات المقتضية للخشوع . فمن خاشع لقوة مطالعته لقرب الله من عبده ، واطلاعه على سره وضميره ، المقتضى للاستحياء من الله — تعالى — ، ومراقبته في الحركات والسكنات .
ومن خاشع لمطالعة كماله وجماله المقتضى للاستغراق في محبته والشوق إلى لقائه ورؤيته .

ومن خاشع لمطالعة شدة بطشه وانتقامه وعقابه المقتضى للخوف منه .

وهو — سبحانه وتعالى — يتقرب ممن ينجيه في الصلاة ويعفر وجهه في التراب بالسجود ، كما يتقرب من عباده الداعين له ، السائلين له ، المستغفرين من ذنوبهم بالأسحار ، ويحيب دعاءهم ، ويعطيهم سؤلهم ، ولا جير لانكسار العبد أعظم من القرب والاجابة .

الخشوع هو العلم النافع وهو أول ما يرفع من العلم

فخرج النسائي بسنده عن عوف بن مالك — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ نظر إلى السماء يوماً ، فقال : « هذا اوان يرفع فيه العلم ، فقال رجل من الأنصار يقال له زياد بن لبيد : يا رسول الله ، أو يرفع العلم وقد أثبت ووعدته القلوب ؟ فقال له رسول الله ﷺ — : « أن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة ، وذكر ضلال اليهود والنصارى على ما في أيديهم من كتاب الله — عز وجل — » ، قال : « فقلت شداد بن أوس فحدثته بحديث عوف بن مالك فقال : صدق عوف ،

الا اخبرك بأول ذلك يرفع ؟ قلت : بلى ، قال : الخشوع ، حتى لا ترى خاشعاً » (وخرجه الحاكم بنحوه وصححه وقره الذهبي)^(١) .

فالعلم النافع : هو ما باشر القلوب فأوجب لها السكينة والخشية والإخبات لله والتواضع والانكسار ، وإذا لم يباشر القلب ذلك العلم وإنما كان على اللسان ، فهو حجة الله على ابن آدم يقوم على صاحبه وغيره كما قال ابن مسعود — رضى الله عنه — « إن أقواماً يقرأون القرآن ، لا يجاوز تراقيهم ، ولكن إذا وقع في القلب ، فرسخ فيه ، نفع صاحبه » .

وقال الحسن — رحمه الله — « العلم علمان : علم باللسان ، وعلم بالقلب : فعلم القلب هو العلم النافع ، وعلم اللسان حجة الله على ابن آدم » .

فأخبر النبي — ﷺ — أن العلم الذي عند أهل الكتاب من قبلنا موجود بأيديهم ولا ينتفعون بشيء منه ، لما فقدوا المقصود منه ، وهو وصوله إلى قلوبهم حتى يجدوا حلاوة الإيمان به ومنفعته بحصول الخشية والإنابة لقلوبهم وإنما هو على ألسنتهم تقام به الحجة عليهم .

ولهذا المعنى وصف الله — سبحانه — في كتابه العلماء بالخشية كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾^(٢) ، وقال : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آثَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(٣) ، وقوله تعالى — في وصف هؤلاء الذين أوتوا العلم من قبلنا — : ﴿ وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ وِزِيدَهُمْ خَشُوعًا ﴾^(٤) مدح لمن أوجب له سماع كتاب الله الخشوع في قلبه .

وقال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾^(٥) ، ولين القلوب هو زوال غشاوتها لحدوث الخشوع فيها والرقعة ، وقد قبح الله من لا يخشع قلبه لسماع كتاب الله وتدبره ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾^(٦) الآية . قال ابن مسعود رضى الله عنه « ما كان بين اسلامنا وبين أن عوقبنا بهذه الآية إلا أربع سنين »^(٧) اخرجه مسلم .

(١) انظر المستدرک علی الصحیحین للحاکم « کتاب العلم » باب « هذا اوان يختلس العلم من الناس .. » الخ ج ١ ص ٩٨ — ٩٩ فقد ورد الحديث بلفظه عن جبير بن نظير ، ثم قال هذا صحيح وقد احتج الشيخان بجميع رواته ، والشاهد لذلك فيه شدد بن أوس فقد سمع جبير بن نظير الحديث منهما جميعاً ومن ثالث من الصحابة وهو أبو الدرداء .

(٢) سورة فاطر من الآية ٢٨

(٣) سورة الزمر من الآية ٩

(٤) سورة الاسراء من الآية ١٠٩

(٥) سورة الزمر من الآيتان ٢٢ — ٢٣

(٦) سورة الحديد من الآية ١٦

(٧) انظر صحيح مسلم « كتاب التفسير » باب في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا .. ﴾ الخ ج ٤ ص ٢٣١٩ حديث رقم

وكان مالك بن دينار — رحمه الله تعالى — يقرأ هذه الآية ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله .. ﴾^(١) الآية .

ثم يقول : « أقسم لكم لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا صدع قلبه » وروى عن الحسن — رحمه الله تعالى — قال : « يا ابن آدم إذا وسوس لك الشيطان بخطيئة ، أو حدثت بها نفسك فاذكر عند ذلك ما حملك الله من كتابه مما لو حملته الجبال الرواسي لخشعت وتصدعت » أما سمعته يقول : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله — الآية . فإنما ضرب لك الأمثال لتفكر فيها وتنزجر بها عن معاصي الله — عز وجل — ، وأنت يا ابن آدم أحق أن تخشع لذكر الله وما حملك من كتابه وآتاك من حكمه لأن عليك الحساب ولك الجنة أو النار .

وقد كان النبي — ﷺ — يستعيز من قلب لا يخشع كما في صحيح مسلم عن زيد بن أرقم : أن النبي — ﷺ — كان يقول : « اللهم اني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها »^(٢) .

الخشوع في الصلاة

وقد شرع الله — تعالى — لعباده من أنواع العبادات ما يظهر فيه خشوع الأبدان الناشئ عن خشوع القلب وذله وانكساره ، ومن أعظم ما يظهر فيه ذلك من العبادات الصلاة ، وقد مدح الله الخاشعين فيها لقوله : ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾^(٣) ، قال سعيد بن جبير : يعنى متواضعين لا يعرف من عن يمينه ، ولا من عن شماله ، ولا يلتفت من الخشوع لله — عز وجل — وقال منصور عن مجاهد — رحمه الله — في قوله — تعالى — : ﴿ سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾^(٤) ، قال « الخشوع في الصلاة » .

ومما يظهر فيه الخشوع والذل والانكسار من أفعال الصلاة :

— وضع اليدين إحداهما على الأخرى لله حال القيام . وقد روى عن الإمام أحمد — رضى الله تعالى — أنه سئل عن المراد بذلك فقال : « هو ذل بين يدي عزيز » قال على بن محمد المصرى الواعظ — رحمه الله — : « ما سمعت في العلم بأحسن من هذا » .

وملاحظة هذا المعنى في الصلاة ، يوجب للمصلى أن يتذكر وقوفه بين يدي الله — تعالى — للحساب .

كان ذو النون — رحمه الله — تعالى — يقول في وصف العباد : « لو رأيت أحدهم وقد قام

(١) سورة الحشر من الآية ٢١

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار » باب « التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل » ج ٤ ص ٢٠٨٨ فقد ورد الحديث رقم ٧٣ / ٢٧٢٢ من رواية لزيد بن أرقم وهو حديث طويل . هذا الحديد جزء منه .

(٣) سورة المؤمنون الآيتان ١ — ٢

(٤) سورة الفتح الآية ٢٩

إلى صلاته ، فلما وقف في محرابه واستفتح كلام سيده ، خطر على قلبه أن ذلك المقام هو الذى يقوم الناس فيه لرب العالمين ، فانخلع قلبه وذهل عقله « اخرجه أبو نعيم — رحمه الله — .

ومن ذلك إقباله على الله — عز وجل — وعدم التفاته إلى غيره وهو نوعان : أحدهما : عدم التفات قلبه إلى غير ما هو مباح له ، وتفرغ القلب للرب — عز وجل — وفى صحيح مسلم عن عمرو بن عبسة — رضى الله عنه — عن النبي — ﷺ — أنه قال — فى فضل الوضوء وثوابه — : « ... فإن هو قام وصلى فحمد الله وأثنى عليه ومجده بالذى هو له أهل وفرغ قلبه لله إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه » (١) .

الثانى : عدم الالتفات بالنظر يمناً وشمالاً وقصر النظر على موضع السجود وهو من لوازم الخشوع للقلب وعدم التفاته .

وفى البخارى عن عائشة — رضى الله عنها — سألت النبي — ﷺ — عن الالتفات فى الصلاة ، فقال : « هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد » (٢) .

وخرج الإمام أحمد — رحمه الله — وأبو داود — رحمه الله — والنسائى — رحمه الله — من حديث أبى ذر — رضى الله عنه — عن النبي — ﷺ — قال : « لا يزال الله مقبلاً على العبد فى صلاته ما لم يلتفت فإذا التفت انصرف عنه » (٣) .

وقال عطاء — رحمه الله — : وبلغنا أن الرب — عز وجل — يقول « يا ابن آدم إلى من تلتفت ، أنا خير لك ممن تلتفت إليه » .

ومن ذلك الركوع : وهو ذل بظاهر الجسد وتماثل الخضوع فى الركوع : أن يخضع القلب لله ، ويذل له فيتم بذلك خضوع العبد بباطنه وظاهره لله — عز وجل — ، ولهذا كان النبي — ﷺ — يقول فى ركوعه : « خشع لك سمعى ، وبصرى ، ومخى وعظمى ، وما استقلت به قدمى » إشارة إلى أن خشوعه فى ركوعه قد حصل بجميع جوارحه .

ومن ذلك السجود : وهو أعظم ما يظهر فيه ذل العبد لربه حيث جعل العبد أشرف أعضائه وأعزها عليه ، وأعلاها حقيقة أوضع ما يمكنه فيضعه فى التراب متعفراً ، ويتبع ذلك انكسار القلب وتواضعه ، وخشوعه لله — عز وجل — ، ولهذا كان جزاء المؤمن إذا فعل ذلك أن يقربه الله — عز وجل — .

(١) انظر صحيح مسلم

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصلاة » باب « الالتفات فى الصلاة » ج ١ ص ١٩١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعائشة .

وانظر سنن النسائى « كتاب السهو » باب التشديد فى الالتفات فى الصلاة فقد ورد الحديث عن عائشة مع اختلاف فى بعض الألفاظ .
(٣) انظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ١٧٢ فقد ورد الحديث من رواية لأبى ذر ولفظه : « لا يزال الله — عز وجل — مقبلاً على العبد فى صلاته ما لم يلتفت فإذا صرف وجهه عنه انصرف عنه » ..
وانظر سنن النسائى « كتاب السهو » باب التشديد فى الالتفات فى الصلاة فقد ورد الحديث من رواية لأبى ذر بلفظ رواية البخارى .

وجل — إليه ، فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، كما صح عن النبي — ﷺ — وقال الله — تعالى — : ﴿ واسجد واقترب ﴾^(١) .

ومن تمام خشوع العبد لله عز وجل وتواضعه له في ركوعه وسجوده أنه إذا ذل لربه بالركوع والسجود وصف ربه حينئذ بصفات العز والكبرياء والعظمة والعلو فكأنه يقول الذل والتواضع وصفى ، والعلو والعظمة والكبرياء وصفك .

ولهذا شرع للعبد في ركوعه أن يقول : « سبحان ربى العظيم » وفي سجوده « سبحان ربى الأعلى » . وكان النبي — ﷺ — يقول في سجوده : « سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة »^(٢) (رواه أبو داود) .

وكان ﷺ يقول — أيضا — : « اللهم لك سجدت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، سجد وجهى للذى خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين »^(٣) (رواه مسلم — كان يقول — أيضا — : « أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »^(٤)) ... أ . هـ .

فضل الصدقة

قوله تعالى : ﴿ إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم ﴾ .

يخبر تعالى عما يثيب به المصدقين والمصدقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ أى : دفعوه بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله لا يريدون جزاء ممن أعطوه ولا شكوراً . وإنما عطف بالفعل على الإسم ، لأن ذلك الإسم فى تقدير الفعل ، أى : إن الذين صدقوا وأقرضوا ﴿ يضاعف لهم ﴾ أى : يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها ويزاد على ذلك إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك ﴿ ولهم أجر كريم ﴾ وهو الجنة .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبي — ﷺ — قال : « من تصدَّق بعدل تمره من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربِّيها لصاحبها كما يربِّي أحدكم فُلُوَّةً حتى تكون مثل الجبل »^(٥) أخرجه الشيخان . ومعنى عدل تمر : ما يساوى تمره . ومعنى فلوله : بفتح الفاء وضمها وضم اللام . المهر من الخيل إذا بلغ سنة .

(١) سورة العلق من الآية ١٩

(٢) انظر سنن النسائى « كتاب الافتتاح فى الصلاة » باب الدعاء فى السجود ج ٢ ص ٢٢٣ فقد ورد هذا الحديث من حديث طويل من رواية لعوف بن مالك .

(٣) انظر سنن النسائى « كتاب الافتتاح فى الصلاة » باب الدعاء فى السجود ج ٢ ص ٢٢٢ فقد ورد الحديث من رواية من محمد بن قسبلة .

(٤) انظر سنن النسائى « كتاب الافتتاح فى الصلاة » باب الدعاء فى السجود ج ٢ ص ٢٢٢ فقد ورد الحديث من رواية عن محمد بن ابراهيم عن عائشة .

وفي حديث معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ — : « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : « الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار » . أخرجه الترمذى مطولاً وقال : حسن صحيح^(١) .

ومن بين السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »^(٢) رواه البخارى ومسلم مطولاً .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ أى : والذين أقرؤا بوحداية الله وصدقوا رسوله ، وآمنوا بما جاء وهم به من عند ربهم أولئك هم في حكم الله بمنزلة الصديقين . قال الامام مالك بن أنس بسنده عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ — : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدرى الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل بينهم » قالوا : « يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ، قال بلى ، والذي نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » . أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك واللفظ لمسلم^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ أى : والذين استشهدوا في سبيل الله لهم أجر جزيل ، ونور عظيم يسعى بين أيديهم ، وهم يتفاوتون في ذلك بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من الأعمال .

والخلاصة — أن العاملين أقسام : فمنهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهَادَةِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا . ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾^(٤) .

قال ابن القيم : وعمال الآخرة على قسمين : منهم من يعمل على الأجر والثواب ، ومنهم من يعمل على المنزلة والدرجة ، فهو ينافس غيره في الوسيلة والمنزلة عند الله — تعالى — ويسابق إلى القرب

(١) انظر صحيح البخارى من كتاب التوحيد باب « وكالة عرشه على الماء .. » الخ ج ٩ ص ١٥٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

(٢) انظر سنن الترمذى — كتاب الايمان « باب ما جاء في حرمة الصلاة » ج ٤ ص ١٢٤ حديث ٢٧٤٩ فقد ورد الحديث مطولاً من معاذ بن جبل . وقال هذا حديث حسن صحيح .

(٣) وانظر صحيح البخارى « باب وجوب الزكاة » باب « الصدقة باليمين » ج ٢ ص ١٣٨ فقد ورد الحديث من رواية لائى هريرة وفيه « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الزكاة » باب فضل « اخفاء الصدقة » ج ٢ ص ٧١٥ حديث ٩١ / ١٠٣١ فقد ورد الحديث مطولاً من رواية لأبى هريرة وفيه « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله » .

(٤) وانظر صحيح مسلم « كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها » باب « ترائى أهل الجنة .. » الخ ج ٤ ص ٢١٧٧ حديث رقم ١١ / ٢٨٣١ من رواية لأبى سعيد الخدرى بلفظه .

(٥) سورة النساء الآيتان ٦٩ — ٧٠ .

منه ، وقد ذكر الله — تعالى — النوعين في سورة الحديد في قول الله تعالى : ﴿ إِن الْمُسْدَقِينَ وَالْمُسْدَقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعَفْ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ فهؤلاء أصحاب المنزلة والقرب ثم قال : ﴿ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ فقل : هذا عطف على الخبر من ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أخبر عنهم أن لهم أجراً وهو قوله : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ فيكون قد أخبر عنهم بأربعة أمور : أنهم صديقون ، وشهداء . فهذه هي المرتبة والمنزلة قيل : ثم الكلام عند قوله تعالى ﴿ الصَّدِيقُونَ ﴾ ثم ذكر بعد ذلك حال الشهداء فقال : ﴿ الشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ فيكون قد ذكر المتصدقين أهل البر والإحسان ، ثم المؤمنين الذين قد رسخ الإيمان في قلوبهم وامتثلوا منه فهم الصديقون وهم أهل العلم والعمل ، والأولون أهل البر والاحسان ، ولكن هؤلاء أكمل صديقية منهم . ثم ذكر الشهداء وأنه — تعالى — يجرى عليهم رزقهم ونورهم لأنهم لما بذلوا أنفسهم لله — تعالى — أثابهم الله — تعالى — عليها أن جعلهم أحياء عنده يرزقون فيجرى عليهم رزقهم ونورهم فهؤلاء السعداء ..

ولما ذكر السعداء ومآلهم أردف ذلك ذكر حال الأشقياء فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ أي : والذين كفروا بالله وكذبوا بحججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وصدق رسله أولئك هم أصحاب النار خالدين فيها أبداً لا يفارقونها .

حقيقة الدنيا والعمل للباقية

﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَهُ مُضْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ ﴿٢١﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٢﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٣﴾ لَّيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٤﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٥﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا

مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ
وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ
وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى
ءَاثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً
وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا
بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ
﴿٢٨﴾ لَيْسَ لَكَ يَٰعَلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

معانى المفردات

﴿وتفاخر بينكم﴾ أى : بالأنساب والعظام البالية ، ﴿وتكاثر فى الأموال والأولاد﴾
أى : مباهاة بكثرة العدد والعُدَد ، ﴿غيث﴾ الغيث : المطر ، ﴿الكفار﴾ هنا الزراع ، ﴿بيح﴾
أى : يتدىء فى اليبس والجفاف بعد أن كان أخضر ناضراً ، ﴿حطاماً﴾ أى : هشيمًا متكسراً من
يبسه ، و ﴿الغرور﴾ الخديعة ، ﴿فى كتاب﴾ هو اللوح المحفوظ ، ﴿نبرأها﴾ أى : نخلقها
ونوجدتها ، ﴿تأسوا﴾ أى : تحزنوا ، ﴿ما فاتكم﴾ أى : من نعيم الدنيا ، ﴿ما آتاكم﴾ أى :
ما أعطاكم ، ﴿مختال﴾ المختال : المتكبر بسبب فضيلة تراءت له من نفسه ، ﴿فخور﴾ الفخور :
هو المباهى بالأشياء العارضة كالمال والجاه ، ﴿الميزان﴾ العدل ، ﴿بالقسط﴾ بالحق ، ﴿وأنزلنا
الحديد﴾ أى : خلقناه ، ﴿بأس﴾ البأس : القوة ، ﴿وليعلم الله﴾ أى : ليعلمه علم مشاهدة
ووجود فى الخارج ، ﴿قفينا﴾ قفاه : اتبعه بعد أن مضى ، و ﴿الانجيل﴾ الكتاب الذى أنزل على
عيسى وفيه شريعته ، ﴿ابتدعوها﴾ أى : استحدثوها ولم تكن فى دينهم ، ﴿ابتغاء رضوان الله﴾
أى : طلباً لرضاه ومحبه ، ﴿فما رعوها﴾ أى : ما حافظوا عليها ، ﴿كفلين﴾ الكفل : النصيب ،
﴿لئلا يعلم﴾ أى : لئلا يعلم .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن بشر المؤمنين بالنور المقام يوم القيامة ، وحثهم على بذل الجهد وترك الغفلة ، وذكر ثواب المتصدقين والمتصدقات — أردف ذلك وصف حال الدنيا وسرعة زوالها وتقضيها ، ثم حث على عمل ما يوصل إلى مغفرة الله ورضوانه ، ويمهد إلى الدخول في جنات عرضها السموات والأرض ، أعدها لمن آمن به وبرسله فضلاً منه ورحمة ، وبعد أن أبان أن متاع الدنيا زائل ، وأن ما فيها من خير أو شر لا يدوم — أردف ذلك تهوين المصايب على المؤمنين ، لكي لا يحزنوا على فائت ، ولا يفرحوا بما يصل إليهم من لذاتها الفانية . ثم بين أن المختالين الذين ييخلون بأموالهم على ذوى الحاجة والبائسين ويأمرون الناس بالبخل لا يجنن الا على أنفسهم ، والله غنى عنهم وهو المحمود على نعمه التي لا تدخل تحت حد . ثم ذكر سبحانه أنه أرسل الرسل بالبينات والمعجزات ، وأنه أنزل الميزان والحديد ، وأمر الخلق بأن يقوموا بنصرة رسله ثم ذكر أنه شرف نوحاً وإبراهيم — عليهما السلام — بالرسالة ، ثم جعل في ذريتهما النبوة والكتاب ثم ذكر النبي عيسى — عليه السلام — وشريعته وذكر غلو أهل الكتاب وأن أكثرهم فاسقون ، ثم ختم السورة بالحديث عن رحمته التي كتبها للذين يتقون ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ .

يقول تعالى — موهناً أمر الحياة الدنيا ومحقرها لها — : ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ﴾ أى : إنما حاصل أمرها عند أهلها ، هذا كما قال تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل

المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴿١﴾ ثم ضرب — تعالى — مثل الحياة في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال : ﴿ كمثل غيث ﴾ وهو المطر الذى يأتى بعد قنوط الناس وقوله تعالى : ﴿ أعجب الكفار نباته ﴾ أى : يعجب الزارع نبات ذلك الزرع الذى نبت بالغيث ، وكما يعجب الزارع كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار فإنهم أحرص شئ عليها وأميل الناس إليها وقوله : ﴿ ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً ﴾ أى : يهيج ذلك الزرع فتراه مصفراً بعد ما كان خضراً نضراً ، ثم يكون بعد ذلك كله حطاماً بأن يصير ييساً متحطماً هكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة ، ثم تكتهل ، ثم تكون عجوزاً شوهاء وهكذا الانسان يكون كذلك فى أول عمره ، وعنفوان شبابه غضاً طرياً لين الأعطاف ، بهى المنظر ، ثم انه يشرع فى الكهولة ، فتتغير طباعه ويفقد بعض قواه ، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ، ضعيف القوى ، قليل الحركة ، يعجزه الشئ اليسير كما قال تعالى : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ (٢) ، ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة ، وأن الآخرة كائنة لا محالة حذر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير ، فقال تعالى : ﴿ وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ أى : هى متاع فان غار لمن ركن إليه ، فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أن لا دار سواها ، ولا معاد وراءها ، وهى حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة . قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ (٣) وقال جل وعلا : ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ (٤) .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الدنيا حلوة خضرة فإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء » (٥) رواه مسلم .

وعن أنس — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ — : « يتبع الميت ثلاثة : فيرجع اثنان ويبقى معه واحد يتبعه أهله وماله وعمله : فيرجع أهله وماله ويبقى عمله » (٦) متفق عليه .

(١) سورة آل عمران الآية ١٤

(٢) سورة الروم الآية ٥٤

(٣) سورة لقمان الآية ٣٣

(٤) سورة العنكبوت الآية ٦٤

(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار » (كتاب الرقاق) باب أكثر أهل الحية الفقراء .. الخ ج

٤ ص ٢٠٩٨ حديث رقم ٩٩ / ٢٧٤٢ من رواية لأبى سعيد الخدرى وزاد « فإن أول فتنه بنى اسرائيل كانت فى النساء » وفى حديث ابن باشر « لينظر كيف تعملون » .

(٦) انظر صحيح البخارى « كتاب الرقاق » باب « سكرات الموت » ج ٨ ص ١٣٤ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأنس .

وعن أبي هريرة — رضى الله عنه — عن النبي — ﷺ — قال : « أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد ، « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » ^(١) ، متفق عليه .

إن الله عبداً فطناً	طلقوا الدنيا وخافوا الفتناً
نظروا فيها فلما علموا	أنها ليست لحي وطنناً
جعلوها لجة واتخذوا	صالح الأعمال فيها سفناً

قوله تعالى : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

لما أبان — سبحانه — أن الآخرة قريبة ، وفيها العذاب الأليم ، والنعيم المقيم — حث على المبادرة إلى فعل الخيرات — فقال : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ﴾ أى : سابقوا إلى سبب المغفرة وهو الإيمان وعمل الطاعات وسارعوا إلى جنة واسعة فسيحة ، عرضها كعرض السموات السبع مع الأرض مجتمعة . قال السدى : إن الله — تعالى — شبه عرض الجنة بعرض السموات السبع والأرضين السبع ، ولا شك أن طولها أزيد من عرضها ، فذكر العرض تنويهاً على أن طولها أضعاف ذلك ، وقوله : ﴿ أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ﴾ أى : هيأها الله وأعدّها للمؤمنين المصدقين بالله ورسوله ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴾ أى : ذلك الموعود به من المغفرة والجنة هو عطاء الله الواسع ، يتفضل به على من يشاء من عباده من غير إيجاب ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ أى : ذو العطاء الواسع والإحسان الجليل ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾ ^(٢) .

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الرقاق » باب الجنة إلى أحدكم من شرك فعله والنار مثل ذلك ج ٨ ص ١٢٧ فقد ورد الحديث من رواية لأبي هريرة .

(٢) سورة آل عمران الآيات ٣٣ — ١٣٦

وكقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۖ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۖ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۖ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ۖ خَتَامُهُ مِسْكٌ ۖ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾^(١) .

قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۚ لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۚ الَّذِينَ يَخْلُونِ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ .

أى : ما يحدث فى الأرض من مصيبة من المصائب كقحط ، وزلزلة ، وغيره ﴿ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ أى : من الأمراض ، والأوصاب ، والفقر ، وذهاب الأولاد ، ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ أى : إلا وهى مكتوبة فى اللوح المحفوظ من قبل أن نخلقها ونوجدتها ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أى : إن إثبات ذلك على كثرته سهل هين على الله — عز وجل — وإن كان عسيراً على العباد ثم بين تعالى لنا الحكمة فى إعلامنا عن كون هذه الأشياء واقعة بالقضاء والقدر ، فقال تعالى : ﴿ لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أى : أعلمناكم بتقديم علمنا وسبق كتابنا للأشياء قبل كونها وتقديرنا الكائنات قبل وجودها لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم ، وما أخطاكم لم يكن ليصيبكم فلا تأسوا على ما فاتكم لأنه لو قدر شيء لكان ، ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أى : جاءكم ، وتفسير آتاكم أى : أعطاكم وكلاهما متلازم أى : لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم ، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم فلا تتخذوا نعم الله أشراً وبطراً تفخرون بها على الناس ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أى : مختال فى نفسه متكبر فخور أى : على غيره . قال عكرمة ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا الفرح شكراً ، والحزن صبراً . ثم قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَخْلُونِ النَّاسَ بِالْبَخْلِ ﴾ أى : يفعلون المنكر ويحضون الناس عليه (ومن يتول) أى : عن أمر الله وطاعته ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ كما قال موسى — عليه السلام — لقوله ﴿ إِنَّ تَكْفَرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾^(٢) ، وكما قال رب العزة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾^(٣) ، فإنه سبحانه لم يخلقنا ليستكثر بنا من قلة أو ليستأنس بنا من وحشة ولكنه سبحانه خلقنا بمحض جوده وكرمه وفضله ومنتته ، ولو أن البشر جميعاً مذ خلقوا إلى أن تمهد لهم على ظهر الأرض حركة كفروا بالله ونسوه ما خدش ذلك شيئاً من جلاله ولا نقص ذرة من سلطانه ، ولا كف شعاعاً من ضيائه ، ولا غص بريقاً من

(١) سورة المطففين الآيات ٢٢ — ٢٦

(٢) سورة ابراهيم الآية ٨

(٣) سورة فاطر الآية ١٥

كبريائه ، فإنه — سبحانه وتعالى — أغنى بحوله وطوله وأعظم بذاته وصفاته من أن ينال منه وهم وأهم أو جهل جاهل ﴿ فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين . وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾^(١) .

قوله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾

يقول تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ أى : بالمعجزات ، والحجج الباهرات ، والدلائل القاطعات ، ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب ﴾ وهى كتب الشرائع التى فيها هداية البشر وصلاحهم فى دينهم ودنياهم ﴿ والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ وأمرناهم بالعدل ليعملوا به فيما بينهم ، ولا يظلم بعضهم بعضا .

وقوله تعالى : ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ﴾ أى : وخلقنا الحديد لتكون منه السيوف والرماح والدروع والسفن البحري وما أشبه ذلك وفيها القوة التى ترغم أنف الظالم ، وتحمى المظلوم ، وفيه كذلك منافع للناس فى حاجاتهم فى معاشهم كأدوات الصناعات وحاجات البيوت وقطر السكك الحديدية ونحوها .

وقوله : ﴿ وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ﴾ أى : وإنما فعل ذلك ليراكم ناصرى دينه باستعمال السلاح والكراع لمجاهدة أعدائه وناصرى رسله وهم غائبون عنكم لا يبصرونكم . وقوله ﴿ إن الله قوى عزيز ﴾ أى : إن الله يدفع بقوته بأس من يعرض عن ملته ، وهو غالب على أمره ، لا يقدر أحد على دفع العقوبة متى أحلها بأحد من خلقه .

قال ابن كثير : فى قوله ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ أى : وجعلنا الحديد رادعا لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه ، ولهذا أقام رسول الله — ﷺ — بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية وكلها جدال مع المشركين وبيان وإيضاح للتوحيد وبينات ودلالات ، فلما قامت الحجة على من خالف شرع الله الهجرة وأمرهم بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب والهام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده . وقد روى الامام أحمد بسنده عن ابن عمر — رضى الله عنهما —

قال : قال رسول الله ﷺ — : « بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم »^(١) .

أهمية الحديد ودخوله في كل اختراع

قال الاستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوي رحمه الله في كتابه الاسلام في عصر العلم ما نصه : وقد صرح به القرآن وخصه بالذكر لأهميته البالغة في حياة الإنسان في سورة سميت باسمه ، وذلك في قوله من سورة الحديد ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ ﴾ الآية ، وفي قوله : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ معجزة قرآنية علمية ، لأن التحليل الطيفي قد أثبت أن الحديد عنصر من عناصر النجوم والشمس التي انفصلت عنها الأرض انفصالاً أشار إليه القرآن في سورة الأنبياء بقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا .. ﴾^(٢) الآية ، فكأن الله — سبحانه وتعالى — أنزل الحديد من الشمس مع الأرض لينتفع به الإنسان في اختراعاته كما ينتفع به في دمه . وهاتان الآيتان الكريمتان كل منهما مثل عجيب من أمثلة الإعجاز العلمي للقرآن .

والحديد وغيره من العناصر يستخرج من خاماته بواسطة النار ، أو ما تتحول حرارتها إليه من طاقة كهربائية مثلاً . وإلى هذا الجانب أشار القرآن إشارة عجيبة في مغزاها ووضوحها ، وذلك في قوله من سورة الرعد ﴿ وَمَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلِيٍّ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ .. ﴾^(٣) الآية .. وفي هذه الآية الكريمة إشارة أحاطت بفن التعدين الذي هو أساس كل اختراع ..

وليست هذه هي الإشارة الواحدة التي تشمل استعمال الإنسان النار في اختراعاته ، فهناك على الأقل اشارتان أخريان ، إحداها صريحة ، والأخرى ضمنية . أما الصريحة : ففي قصة السد وابتناء ذي القرنين إياه ﴿ آتَوْنِي زَبْرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٥٠ وقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عمر .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٣٠

(٣) سورة الرعد الآية ١٧

آتوني أفرغ عليه قطراً . فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا ﴿١﴾ الكهف ، وفي هاتين الآيتين إشارة إلى جانب آخر من أهم جوانب التعدين من ناحية ، والاختراعات من ناحية أخرى ، فإن الحديد النقي ليس في قوة بعض سبائككه ، فأنواع الفولاذ كلها هي من سبيك الحديد مع قليل من الكربون أو غيره كالمجنيز . وفي الآية إشارة إلى باب السبائك كلها بذكر مثل منها مثل سبك الحديد والنحاس معاً ، إذا القطر هو النحاس .

اما الإشارة الأخرى الضمنية ففي قوله — تعالى — تذكيراً بنعمه على سيدنا داود : ﴿ وألنا له الحديد . أن يعمل سبغات وقدر في السرد ﴾ ﴿٢﴾ الآية وإذا كان الله — سبحانه — آلان الحديد لنبيه داود معجزة بغير نار ، ففي الآية الكريمة تعليم ضمنى لغير داود أن يلين الحديد بالنار ، حتى يستطيع أن ينتفع به في اختراعاته المضروب لها هنا المثل بعمل الدروع السابقة ، والمضروب للتقدير الضروري فيها المثل بالتقدير في السرد الذى أمر الله به نبيه داود ، وذكره في القرآن تعليماً وتنبيهاً للإنسان إلى ما ينبغى عليه في كل اختراع . أ . هـ .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾ .

يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً — عليه السلام — لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته وكذلك إبراهيم — عليه السلام — خليل الرحمن ، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿ وجعلنا في ذريتهم النبوة والكتاب ﴾ ﴿٣﴾ ، ثم بين سبحانه أن هذه الذرية افرقت فرقتين فقال : ﴿ فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾ أى : فمن ذريتهما مهتد إلى الحق مستبصر ، وكثير منهم ضلال خارجون عن طاعة الله ذاهبون إلى طاعة الشيطان . كما حكى سبحانه عن إبراهيم : ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ ﴿٤﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الانجيل ﴾ . أى : ثم بعثنا بعدهم رسولاً بعد رسول على توالى العصور والأيام . ثم خص من أولئك الرسل عيسى لشهرة

(١) سورة الكهف الآيتان ٩٧

(٢) سورة سبأ الآيتان ١٠ — ١١

(٣) سورة الحديد الآية ٢٦

(٤) سورة الصافات الآية ١١٣

شريعته في عصر التنزيل ولوجود أتباعه في جزيرة العرب وغيرها فقال ﴿ وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الانجيل ﴾ أى : وأعطيناه الانجيل الذى أوحيناه إليه ، وفيه شريعته ووصاياه ، وقد جاء مكملًا لما في التوراة ومخففًا بعض أحكامها التى شرعت تغليظًا على بنى اسرائيل ، لنقضهم العهد والميثاق .

وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه ﴾ وهم الحواريون ﴿ رافة ﴾ أى : رقة وهى الخشية ﴿ ورحمة ﴾ بالخلق .

وقوله تعالى : ﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾ أى : ابتدعها أمة النصارى ﴿ ما كتبناها عليهم ﴾ أى : ما شرعناها لهم ، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم . وقوله تعالى : ﴿ إلا ابتغاء رضوان الله ﴾ قال ابن كثير : فيه قولان : (احدهما) انهم قصدوا بذلك رضوان الله ، قاله سعيد بن جبير وقتادة . (والآخر) ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله . وقوله تعالى : ﴿ فما رعوها حق رعايتها ﴾ أى : فما قاموا بما التزموه حق القيام ، وهذا ذم لهم من وجهين :

(احدهما) الابتداء في دين الله ما لم يأمر به الله .

(الثانى) في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قرينة يقربهم إلى الله — عز وجل — .

وقوله تعالى : ﴿ فآتيناهم الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون ﴾ أى : فآتيناهم الذين آمنوا منهم إيماناً صحيحاً أجورهم التى استحقوها كفاء أعمالهم ، ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ وكثير منهم فسقوا عن أمر الله واجترحوا الشرور والآثام وظهر فسادهم في البر والبحر بما كسبت أيديهم ، فككبوا في النار ، وباعوا بغضب من الله ، ولهم عذاب عظيم .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم . لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله ﴾ أى : يا من صدقتم بالله اتقوا الله بامثال أوامره واجتناب نواهيه ، وداوموا واثبتوا على الإيمان بالله ورسوله ﴿ يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ أى : يعطيكم

ضعفين من رحمته ﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ أى : ويجعل لكم نوراً تمشون به فى الدنيا ، والآخرة على الصراط ، ﴿ ويغفر لكم ﴾ أى : ويغفر لكم ما أسلفتم من المعاصى ، ﴿ والله غفور رحيم ﴾ أى : عظيم المغفرة واسع الرحمة . كما قال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ﴾ (١) .

وكقوله تعالى : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ (٢) .

قال ابن القيم فى هذه الآية الكريمة : وفيه أن أهل النور هم أهل المشى فى الناس ، ومن سواهم أهل الزمالة والانقطاع . فلا مشى لقلوبهم ، ولا لأحوالهم ، ولا لأقوالهم ، ولا لأقدامهم إلى الطاعات . وكذلك لا تمشى على الصراط إذا مشت بأهل الأنوار أقدامهم .

وفى قوله : « تمشون به » نكتة بديعة ، وهى : « أنهم يمشون على الصراط بأنوارهم ، كما يمشون بها بين الناس فى الدنيا ، ومن لا نور له فإنه لا يستطيع أن ينقل قدماً عن قدم على الصراط ، فلا يستطيع المشى أحوج ما يكون إليه » أ هـ .

وفى الصحيح عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن النبى — ﷺ — خرج إلى الصلاة بعد سماع الأذان وهو يقول : « اللهم اجعل فى قلبى نوراً وفى لسانى نوراً واجعل فى سمعى نوراً واجعل فى بصرى نوراً ، واجعل من خلفى نوراً ، ومن أمامى نوراً ، اللهم أعطنى نوراً » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ لتلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

(١) سورة الأنفال من الآية ٢٩

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٢

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين وقرعها » باب « الدعاء فى صلاة الليل وقيامه » ج ١ ص ٥٢٥ حديث رقم ١٨١ / ٧٦٣ عن رواية لابن عباس فقد ورد الحديث مطولاً وهذا جزء منه . ولفظه « اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وعن يمينى نوراً ، وعن يسارى نوراً ، وفوق نوراً ، وتحتى نوراً ، وأمامى نوراً ، وخلفى نوراً ، وعظمى نوراً » . وانظر صحيح البخارى « كتاب الدعوات » باب « الدعاء إذا انتبه من الليل » ج ٨ ص ٨٦ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس مطولاً وفيه .. « اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وعن يمينى نوراً ، وعن يسارى نوراً ، وفوق نوراً ، وتحتى نوراً ، وأمامى نوراً ، وخلفى نوراً ، واجعل لى نوراً » .

روى الإمام أحمد في مسنده عن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله ﷺ — « مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثّل رجل استعمل عمالاً فقال من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ ألا فعلت اليهود ، ثم قال من يعمل لى من صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟ ألا فعلت النصارى ، ثم قال من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ ألا فأنتم الذين عملتم ، فغضبت النصارى واليهود وقالوا نحن أكثر عمالاً وأقل عطاء قال هل ظلمتكم من أجركم شيئاً ؟ قالوا لا ، قال فإنما هو فضلى أوتيته من أشياء »^(١) .

قال قتادة : حسد أهل الكتاب المسلمين فنزلت ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ أى : لأن يعلم أهل الكتاب أنهم ﴿ لا يقدرّون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله ﴾ ليس بأيديهم فيصرفون النبوة عن محمد — ﷺ — إلى من يحبون . ﴿ يؤتية من يشاء ﴾ ، وفى البخارى أن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول — وهو قائم على المنبر — : « إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس أعطى أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ، ثم أعطى أهل الانجيل الانجيل فعملوا إلى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ، ثم أعطيت القرآن فعملتم به حتى غربت الشمس فأعطيت قيراطين قيراطين . قال أهل التوراة : ربنا ، هؤلاء أقل عمالاً وأكثر أجراً قال : هل ظلمتكم من أجركم من شيء قالوا : لا . فقال فذلك فضلى أوتيته من أشياء »^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ أى : والله واسع الفضل كثير العطاء . كما قال سبحانه : ﴿ قل إن الفضل بيد الله يؤتية من يشاء والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾^(٣) .

لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه له النعمة ، وله الفضل ، وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله ، مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون . (من أدعية الرسول الكريم ﷺ صحيح مسلم)

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عمر .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصلاة » باب « مواقيت الصلاة وفضلها » باب من أدرك ركعة من العصر ج ١ ص ١٤٦

فقد ورد الحديث من رواية لسالم بن عبد الله عن أبيه مع اختلاف فى بعض جملة وإن اتفقت معانيه .

(٣) سورة آل عمران الآيتان : ٧٣ — ٧٤

الجزء الثامن والعشرون

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦٠٩٧	٢٢	ام ي	ام هي
،،	٢٤	ولا ينفعك	ولا ينفعه
٦١١٧	١١	والواقعه	الواقعه
٦١٣٥	١٣	الهميم	البهيم
٦١٣٧	٩	مكرر	يحذف
٦١٥٠	٢٢	أنا الاله	أنت الاله
٦١٦٠	٢١	مدنييين	مديلين
٦٢٢٧	الهامش	انه اللبي	أنه ابلى
٦٣٣٥	١٣	سبحانه	سبحان
٦٣٣٨	١٦	فيحسيرون	فيحبسون
٦٣٧٨	١٦	(ماعملت من..)	شطب الأقواس
٦٣٨٠	١٥	أرويتك	رويتك
٦٣٨٣	١	علم أنك	علمت أنك
٦٣٨٦		جهم	جهلم
٦٣٨٧	٥،١	شطب الهمزه	من كلمة أبيض
٦٣٨٩	٩	بالايمان	بالأيمان
٦٣٩١	١١	عبدى أنك	عبدى إنك
،،	١٤	وزاب	وذأب
٦٣٩٣	١٣	كلا انهم عند	كلا إنهم عن
٦٤٢١	١	ستحوذ	استحوذ
٦٤٣٨	١	نسعى ونحفر	نسعى ونحفد
٦٤٤٨	١٠	إلهتنا	آلهتنا
٦٥٦٧	١٠	فاحتسبتها	فاحتبسها
٦٥٧١	٨	فأنت	فأنت
٦٦٠٢	١٩	بيدنه	بيدنه
٦٦١٣	٣	بالرحمن كل	بالرحمن قل
٦٧٢٣	٨	عاهدتمعد	عاهدتم عند
٦٧٢٩	١٦	للرحمان	للرحمن

محتويات المجلد السابع

الجزء السابع والعشرون

من آخر سورة الذاريات (٣١ - ٦٠) حتى آخر سورة الحديد

الصفحة		* سورة الذاريات
٥٨٩٤ من آيات القدرة الباهرة ورسالة الجن والإنس	الآيات ٤٧ - ٦٠
٥٨٩٧ حاجة العبد إلى أن يعبد الله أعظم من حاجة الجسد إلى الروح	
٥٨٩٩ بحث في العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية	
		* سورة الطور
٥٩١٦ مقدمة السورة	
٥٩١٧ أول سورة الطور	الآيات ١ - ٢٨
٥٩٢٤ إرشاد وتوجيه ومناقشة	الآيات ٢٩ - ٣٥
٥٩٢٧ بحث في الإعجاز القرآني: «فليأتوا بحديثٍ مثله إن كانوا صادقين»	
٥٩٧٩ مناقشة	الآيات ٣٥ - ٤٩
		* سورة النجم
٥٩٨٥ مقدمة السورة	
٥٩٨٦ أول السورة	الآيات ١ - ١٨
٥٩٩٥ عبادة غير الله باطلة	الآيات ١٩ - ٢٣
٥٩٩٧ قصة الغرائيق (موضوعة)	
٦٠٠٤ الأمر لله وحده	الآيات ٢٤ - ٣٠
٦٠٠٦ العدالة الإلهية	الآيات ٣١ - ٦٢
٦٠٢٢ تحقيق علمي في تحريم الغناء	
		* سورة القمر
٦٠٤٤ مقدمة السورة	
٦٠٤٥ من أول سورة القمر	الآيات ١ - ١٨
٦٠٤٩ بحث في معجزات الرسول ﷺ	
٦٠٥٠ انشقاق القمر	
٦٠٥١ نبع الماء بين أصابعه الشريفة	
٦٠٥٥ كلام الشجرة	
٦٠٥٧ حنين الجذع	
٦٠٥٩ آيات في ضروب الحيوانات	
٦٠٦١ إحياء الموتى وكلامهم	
٦٠٦٢ إبراء المرضى وذوى العاهات	

٦٠٦٧	إبراء المرضى وذوى العاهات	..	الآيات ٦ - ٨
٦٠٦٩	الرسل وأقوامهم	..	الآيات ٩ - ٤٢
٦٠٧٩	وعد ووعيد	..	الآيات ٤٣ - ٥٥

* سورة الرحمن

٦٠٨٤	مقدمة السورة	..	
٦٠٨٥	أول السورة	..	الآيات ١ - ٢٨
٦٠٩٥	البقاء لله وحده	..	
٦٠٩٩	من مشاهد القيامة	..	الآيات ٢٩ - ٤٥
٦١٠٤	السابقون وأصحاب اليمين	..	الآيات ٤٦ - ٧٨
٦١٠٦	الخوف وحقيقته وبيان درجاته	..	

* سورة الواقعة

٦١١٥	مقدمة السورة	..	
٦١١٧	أول سورة الواقعة	..	الآيات ١ - ٢٦
٦١٢٣	أصحاب اليمين	..	الآيات ٢٧ - ٤٠
٦١٢٨	أصحاب الشمال	..	الآيات ٤١ - ٥٦
٦١٣٢	من دلائل التوحيد	..	الآيات ٥٧ - ٧٤
٦١٣٤	فليُنظر الإنسان مم خلق	..	
٦١٣٨	نظرة في حياة النبات	..	
٦١٤٥	آية الله في إيجاد الماء العذب	..	
٦١٤٨	الحكمة في خلق النار وما فيها من أسرار	..	
٦١٥١	قَسَمٌ ومشاهد	..	الآيات ٧٥ - ٩٦
٦١٥٧	لا يفهم القرآن إلا القلوب الطاهرة	..	

* سورة الحديد

٦١٦٣	مقدمة السورة	..	
٦١٦٥	أول سورة الحديد	..	الآيات ١ - ٦
٦١٧١	توحيد وإرشاد	..	الآيات ٧ - ١١
٦١٧٧	وعد ووعيد	..	الآيات ١٢ - ١٥
٦١٨١	رقائق ومواظ	..	الآيات ١٦ - ١٩
٦١٨٤	كلمة في الخشوع	..	
٦١٨٩	فضل الصدقة	..	
٦١٩١	حقيقة الدنيا والعمل للباقية	..	الآيات ٢٠ - ٢٩
٦١٩٨	أهمية الحديد ودخوله في كل اختراع	..	

من الجزء الثامن والعشرون

سورة المجادلة وسورة الحشر وسورة الممتحنة حتى الآية (١٣)

* سورة المجادلة

- ٦٢٠٣ مقدمة السورة -
- ٦٢٠٤ أول سورة المجادلة - الآيات ١ - ٤
- ٦٢٠٨ الإسلام محرر العبيد -
- ٦٢١٩ المساواة في الإسلام -
- ٦٢٢١ العدالة في الإسلام -
- ٦٢٢٣ محمد جعل من العبيد سادة: -
- ٦٢٢٥ زيد بن حارثة -
- ٦٢٢٩ بلال بن رباح -
- ٦٢٣١ سليمان الفارسي -
- ٦٢٣٤ الصيام -
- ٦٢٨٠ ليلة القدر -
- ٦٢٨٢ كتاب الظهار -
- ٦٣٠٥ وعد وتهديد - الآيات ٥ - ٤٧
- ٦٣٠٧ سورة الزلزلة وما تشير إليه -
- ٦٣١٠ متى ينفخ في الصور -
- ٦٣١٤ ملازمة الأعمال للأجساد -
- ٦٣١٤ العمل السوء وهيلته -
- ٦٣١٥ إخراج الأرض مافيهها -
- ٦٣١٧ كيف يقف الناس في المحشر -
- ٦٣١٧ بكاء النبي من أهوال القيامة -
- ٦٣١٨ معنى ذلك الأرض وانشقاقها -
- ٦٣٢٠ أهوال يوم القيامة -
- ٦٣٢٦ من أسباب غفران الذنوب -
- ٦٣٣٠ افتخار الوحوش على بنى آدم -
- ٦٣٣٣ كلمة التوحيد -
- ٦٣٣٧ فضل الصلاة على النبي -
- ٦٣٤٩ أقسام الناجين على الصراط -
- ٦٣٥١ باب الجنة ومنازلها -
- ٦٣٥٥ فضل المؤذنين -
- ٦٣٥٦ فضل العلماء -
- ٦٣٥٧ فضل حملة القرآن -

٦٣٦١	ظلمات الكفر والمعصية	-
٦٣٦٤	حياء الأنبياء: آدم ، نوح ، موسى وعيسى	-
٦٣٦٦	شفاعة محمد	-
٦٣٧٠	السائق والشهيد	-
٦٣٧١	الروح المحفوظ	-
٦٣٧٨	حكاية عن أحد الصالحين	-
٦٣٧٩	توبيخ الله تعالى للعباد	-
٦٣٨٤	حكاية عن ذى النون المصرى	-
٦٣٩٢	لباس المكرمين	-
٦٣٩٤	صفة عذاب الكافر	-
٦٤٠٦	أحكام تتعلق بالدجوى	- الآيات ٨ - ١٠
٦٤١٢	من آداب الإسلام	- الآيات ١١ - ١٣
٦٤٢١	حزب الشيطان	- الآيات ١٤ - ٢٠
٦٤٣٢	حزب الله	- الآيات ٢١ - ٢٢
٦٤٤٣	كلمة التوحيد لا إله إلا الله	-
٦٤٧٢	نواقض الإسلام	-
٦٤٧٦	مفهوم الولاء والبراء تعريفه وأهميته فى الكتاب والسنة	-
٦٤٩١	أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وطبيعة العداوة بينهما	-

* سورة الحشر

٦٥٠٧	مقدمة السورة	-
٦٥٠٨	أول سورة الحشر	- الآيات ١ - ٥
٦٥١١	غزوة بلى النصير	-
٦٥١٨	ما هو الفىء وما حكمه	- الآيات ٦ - ١٠
٦٥٢٨	هكذا المنافقون واليهود	- الآيات ١١ - ١٧
٦٥٣٣	موجبات التقوى	- الآيات ١٨ - ٢٤
٦٥٣٦	المراقبة والمحاسبة	-
٦٥٧٨	عظمة القرآن وأسماء الله الحسنى	-
٦٥٨١	أسماء الله الحسنى دستور الأخلاق فى الإسلام	-
٦٥٨٥	الأسماء الحسنى كما جاءت فى القرآن العظيم	-
٦٥٩٤	الله	-
٦٥٩٥	لا إله إلا الله	-
٦٦٠٠	القلب السليم وطرق الوقاية والعلاج	-
٦٦٠١	درجات القلوب التى فى الصدور	-

* سورة الممتحنة

٦٦٨٦	- مقدمة السورة	
٦٦٨٧	- أول سورة الممتحنة	الآيات ١ - ٣
٦٦٩٤	- الملتقى الأول وأولى خطوات الطريق	
٦٦٩٥	- ردود الفعل	
٦٦٩٧	- سمات العلاقة بين المسلمين وأعدائهم في العهد المكي	
٦٧٠٠	- بر الأقارب المشركين	
٦٧٠١	- صورة البراء في العهد المكي	
٦٧٠٣	- لكم دينكم ولي دين	
٦٧٠٦	- فرج من الله قريب	
٦٧٠٧	- صيغة البيعة	
٦٧٠٨	- نبذة تاريخية	
٦٧٠٩	- وقفة عند المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار	
٦٧١١	- سمات الولاء والبراء في العهد المدني	
٦٧١٥	- النفاق والمنافقون	
٦٧٢٤	- البراء من أهل الكتاب	
٦٧٢٦	- أسوة إبراهيم	الآيات ٤ - ٦
٦٧٣١	- أمثلة أخرى على طريق الحق والهدى	
٦٧٣٥	- توجيهات إلهية	الآيات ٧ - ٩
٦٧٣٨	- الممتحنة وبيعة النساء	الآيات ١٠ - ١٣
٦٧٤٤	- الأحكام الشرعية	

تصويب أخطاء المجلد السابع

الجزء السابع والعشرون

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٨٩١	٧	اسرائيل	إسرافيل
٥٨٩٦	١٦	فأفعل	فأفعل
٥٩٠٨	٤	ومن قدر هذا	ومن قدر على هذا
٥٩١٢	٤	بثى	بثى
٥٩٢٩	٢	لقطيفه	عبد القطيفة
٥٩٣٣	٢٣	فلئن اجتمعت	فلئن اجتمعت
٥٩٨٧	٦	فلهم	فلهم
٦٠٠٣	٣	وسعد	وصعد
٦٠٠٧	١٦	يلتظر	يلتصر
٦٠١٤	٩	فاسجدوا واعبدوا	فاسجدوا لله واعبدوا
٦٠٢٦	١١	مثل الذى	مثل الذين
٦٠٥٠	١٨	ما اقتدينا	ما اهتدينا
	٦	لرسول	لرسول